

obeikandi.com

مأساة شارع الزهور

هذه الترجمة الكاملة لرواية

أكادى كيرز

مأساة شارع الزهور

ترجمة / شادي مجدي

الغلاف / هانيبال - هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من أستونيا

الطبعة الأولى/ القاهرة 2012

رقم الايداع : 2012/11754

ISBN: 978-977-6299-56-8



وكالة سفنكس

7 شارع معروف الدور السابع

وسط البلد - القاهرة

ت/ف: 002 02 25792865

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناسر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناسر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2012

مأساة شارع الزهور



خوسيه ماريّا دي ايسا كويروز

نبذه عن المؤلف

يعد خوسيه ماريّا دي ايسا كويروز أعظم كاتب البرتغالي في الأسلوب الواقعي يعتبره زولا في منزلة أكبر بكثير من فلوبيير. نقاد جريدة الأوبزيرفر اللندنية يصنفونه في الترتيب نفسه مع ديكنز وبلزاك. وتولستوي. لم يرفض خوسية المذهب الكاثوليكي رسمياً، وفي كثير من رسائله الخاصة يستشهد حتى بيسوع، ويستخدم عبارات نموذجية من تلك التي يستخدمها عادة الكاثوليك، ولكن كان يوجه نقداً حاسماً جداً للكنيسة الكاثوليكية في وقته، والمسيحية بشكل عام (أيضاً الكنائس البروتستانتية) كما هو واضح في بعض رواياته.

زار مصر وشهد افتتاح قناة السويس في الفترة ما بين أعوام ١٨٦٩-١٨٧٠ مما ألهمه بعد هذا، كان قارئاً جيداً وملماً بالأدب الإنجليزي إلا أنه لم يكن مولعاً بإنجلترا بشكل خاص "كل شيء عن هذا البلد بدءاً من طريقته المحدودة في التفكير وحتى طريقة طهو الطعام، يضايقتني" ورغم هذا أمضى ١٥ عاماً هناك.

الفصل الأول

الأمر تم في المسرح الترنداد في عرض اللحية الزرقاء تحديداً، الفصل الثاني قد بدأ وجوقة المومسات المنحنيات والمتقهقرات في قوس لما وراء المسرح وحينها في مقصورة إلي يسار الدائرة، خفت صرير الباب الخشن الصداً وصوت كحت الكرسي لافتاً إنتباه النظرات التي بدت شاردة، وكانت هناك سيدة طويلة نوعاً ما تقف في المقصورة وهي تفك الكلابات الفضية اللون الموجودة على قبعة حريرية وطويلة سوداء اللون مبطنة بالفرو.

وكان أعلاها مازال ثابتاً ولكنه مع هذا أعطي انطباعاً بعيون واسعة وحالكة في وجه بيضاوي ومعقوف سواء بشكل طبيعي أو مصطنعاً وأضفت الظلال الضعيفة الموجودة أسفل عيونها سمت من الجد وعمقاً للنظرات ومهما كانت تلك السيدة رفيعة فإنها وضعت سلسلة ساعة ذهبية عبر صدر فوق حريري سوقي الطابع وأخذت السيدة ذات القوام الرفيع قبعة مراقبتها وقفت بهدوء بالغ وهي تدرس المسرح.

دبت الحياة في الجمهور المتبلد فجأة وعلقت بها الأنظار إنه حقاً انفجار يتبعه دوماً المؤلف القدير لأناشيد الرعوية والأحلام وكان هناك شخص سمين يقف أسفل مقصورتها متلهفاً جداً على أن ينظر إليها، لدرجة أنه تلفت بسرعة وبشكل مفاجئ جداً، وتعثرت خطواته وانخرط في قهقهات مفاجئة بينما الرجل السمين بدا غاضباً جداً، وأحمر اللون وأخذ يحك مؤخرته وأنحنت السيدة للأمام وتحدثت مع مرافقتها الرفيعة التي بقت متشبثة بحافة كرسيها، بإحترام يليق بخادمة، وهي خشنا الظهر مثل شخص متدين

ومتحمس وكانت تملك أنفاً كبيراً أحمر اللون وشعرها مصفف بحيث يبدو سطحياً على رأسها وابتساماتها المذعنة كشفت عن أسنان طويلة وشرهة، وكى تستطيع أن ترى ما يدور في المسرح فقد وضعت النظارات وبدأت مربية إنجليزية، الحديث الدائر أن السيدة الجميلة المجهولة كانت أميرة بريو، وهي قريبة فقيرة وبعيدة من بيت سافوي والكونتيس المسن والد دي ترياس وهي تضع زهرة كاميليا بيضاء في شعرها الرمادي، وحتى تتعجب لو لاحظ الملك الأمر، ولكن الملك جلس دونما حراك وهو يتكى على حافة الصندوق مرتدياً نظارة عيون من تلك التي تثبت على الأنف لونها أزرق وزى أدميرال ذا كتفية ذهبية اللون والملكة التي تبدو جميلة في اللون الأرجواني وأصابعها المزدانة بالحلي ارتكزت على وجنتيها، وكانت ماتزال تبتسم لمرأى التحف المسرحية الغريبة للكونت أوسكار ولم يلحظوا حتى الأمير، البعض قال أنه من المتوقع لها أن تتوقف عند لشبونة في طريقها للبرازيل حيث كانت تتجه من أجل أن تفر من الدائنين الملحنيين أو متابعة إهتمام الزهور من الأمريكتين أو تحريك الإيقاع الممل الذي تمتاز به أوروبا.

في تلك الليلة بدا العرض مفيداً، والمسرح مزدحماً وفي مقصورة أخرى ظهر ثوب ليلكي وشعر السيدة بدا مثل القبعة الخشنة وقفت الفيكونتة البيضاء دي روزاريم والتي بدت طبيعتها العفيفة مثار أحاديث لشبونة وتسببت في أن يغغم الناس بغضب وبدم صبر "لابد أن السيدة حمقاء!"

وإلى جانبها اختفت الأنسة جيناما من باهيا وراء المروحة الكبيرة السوداء وبدأت لمحة من جواربها

الحريرية كافية كي تثير جلبه لا تتوقف من الناس وأمامها وفي وسط أسرتها المحترمة التقية رأينا ميرسيس بيدراو التي بدا من عاداتها مثلما أشيع عنها أنها تنحني لأي رجل تحت سن الخامسة والخمسين يأتي قريبا منها وأسبغ عليها اللمسات الخبيرة ولكن الحذرة للفرد الشره، وفي أبعد مقصورة ممكنة حبس اثنين من الزوج التعساء ولديهم بنس من ألامار شبكت في قمصانهم.

جلس الأب أجنالدو الرفيع في الدائرة وهو يضع منظار ذهبي الحافة وشعره مصفف بعناية فوق قمة رأسه الصلعاء وبدا منهما في قهوة مارتينهو حيث استطاع وهو يمضي الليالي ساخرا من دوجما الكنيسة ويشرب الشارتيوز ونبيذ كارفلهوسا وهو الآن نائب ولكنه مازال يحمل ملامح جلده الأصفر بفعل الآثام التي أحبها جدا وهو في الجامعة وكان أيضا الشاعر روما حاضرا ووجب أن يخترع الكلمات الفكاهية وعندما يكون في حالة مزاجية جيدة فإنه ينشد عن ضوء القمر في الوديان وعن حبه لدوقة بعينها، والذي سواء كان حزينا أم سعيدا فقد كان يضع دوما أصابعه المنفره في شعره.

عزيزي بالدونسينو الكريم، الحليق والأصلع الذي مر من مقصورة إلى أخرى أردافه تتحرك وصوته يصفر مثل صرار الليل ولاحظ أن كل الأيام المسرعة وشعر أنه محبوب جدا من الأرستقراطيين المخلصين وابتسمت السيدان عندما شاهدن العازف الماهر فونسكا الذي ظل يلهو بنظارته والذي نشر قبلها بيوم فالس يدعي فالس العرش والذي أهده لأحد النبلاء باديهما والإجتماعي مثلما من قبل، وعلى ما يبدو كان

مطلوباً بسبب قدرته على محاكاة الممثلين والحيوانات وصفير القطار وصوت آلة الأبوا الحزين، اتضح أنه موجود أيضاً وإحدى المقصورات الصاخبة كانت تعج بالنساء الأسبانيات بينما في الأسواق التي توجد في الأسفل وسط أودية الجيش بلون البني المخضر، تلتقط العين لمعة خافته وعابرة لأحد الموظفين والسخونة والتنفس المختنق للعديد من الناس جعل المناخ خانقاً وتنفس الناس الأكثر وزناً وكانوا يحركون مراوحهم جلباً للهواء الأيدي ترتدي قفازات مصنوعة من خامة بنية اللون مائلة للحمرة، واللون الأخضر أو الجلد الأصفر صفار المستردة، واللحي التي تشبه فراء الخراف، وكان هناك طفل يبكي في الشرفة بعناد والجموع المجهولة والناس الذين يتناولون الطعام، ويتناسلون ويموتون وهم غير معلومين، ينظرون ببلادة من حولهم وبعيون حالكة.

المرأة المجهولة أخذت نظارات الأوبرا ووجهها للحظة صوب الملكة ونحو التسريحات الخشنة والوردية للسيدات ونحو الجسد الرفيع والشهم لدوم خواودا مايا، ونحو الفتيات الأسبانيات ومن وقت لآخر كانت تبتسم وتتحدث للمربية النحيلة وبدأت شقراء ليس بشكل طبيعي ولا بشعر مصبوغ، كانت ترتدي زياً من الحرير بلون لؤلؤي وخط رقبة متواضع ومربع ومجموعة سوداء من الميناء وسلاسل موشاة بأحجار الألماس الدقيق، ومجدولة في فيونكة شاحبة على صدرها الذي كان بلون اللبن الدافئ، هناك رجلين على وجه الخصوص في المقصورة بدا وكأنهما مأخوذتين بها، أحدهم كان يبتسم إبتسامة عريضة، يحدق ويتململ في مقعده، ويلمع عدسات

(عوينات) الأوبرا أو يحدق فيها واضعاً المرفقين إلى وسطه وبدا رجلاً قصير القامة ممتلئ في الثلاثينات من عمره ولحيته سوداء وعلى وجهه ممتلئ ويدعي داماسومافياو، ومعروف لدى الجميع باسم دامسيو. كان رجلاً ثرياً ومحترماً من الكل، والده كان يقرض المال، ولكن داماسو كان يرتدي خاتماً يحمل شعار النبالة

وبدا تقريباً دون أي تعديل شعار نبالة الكونت دي مالجوירו وهو مقامر متهالك، وسكير قديم، والذي اعتاد داماسو وحتى أعتقد أنه من دواعي اللياقة أن يعطيه عملة فضية من وقت لآخر. كان يرتدي بنطالاً لونه بيج، وأسفل معطفه لمع قميص بأزرار مرجانية على شكل أيدي صغيرة كل واحدة تحمل قلماً ذهبياً. الرجل الثاني وهو رجل صغير السن يناهز نحو الثالثة والعشرين وقف دونما حراك وذراعيه غير متشابكتين ودون شك كان يعتقد إنه لم يرى من قبل مثل هذا الجمال الجذاب والمرغوب به ومثل تلك البشرة الرائعة، والداقة والبيضاء اللون ومثل تلك الرموش الطوال والمخفضة بشكل كريم ومرفوع وهكذا فإن زورها وصدرها كانا أروع من أي شيء سبق وأن رآه في التماثيل أو المنحوتات، وشعرها الذهبي يبدو وأنه حريري وثقيل جداً عندما يمس، وبه دفء تتميز به كل الكائنات الحية، وانبعثت منها رائحة عميقة جداً وحساسة، وناعمة لدرجة أنها تجعل أي رجل يرتعش، تخيل أن الزي الحريري الذي كانت ترتديه يتسم بحيوية تميزه كما لو أنه كان

طبقة أخرى من الجلد. وتعجب من الطريقة البالغة النعومة التي انتصب لها رأسها وعندما خلعت

قفازها الطويل ذا الـ ١٨ زرا، حلق في عجب نحو سوارها، الذي كان على شكل ثعبان يلف خمس مرات حول ذراعها، وبدا يريح رأسه، المسطح ذا حجرتي ياقوت كبيرتين بدل العيون، ولونهما مثل لون الدم، على بشرته البيضاء.

أصر داماسو على أنها لابد أن تكون "أميرة" تلك الفكرة جعلتها بمنأى عن أي لرجل في عز الشباب، كما لو أنها أتت من فترة طويلة من المجد بكل الكبرياء الذي تتسم به القصص التاريخية، وصعوبة الإقتراب من الملكات، كيف كانت حياتها الماضية؟، كيف بدا صوتها؟ ما هي المشاعر التي انتابتها؟ هل وقعت من قبل في الحب؟ مع من؟ تخيلها ترتدي ملابس رائعة، وهي تقف منتصبة، ولم يسعه أن يخالها في حجرة النوم، وهي ترتدي قميص نوم أبيض بسيط ينتمي إلى الصالونات الدمشقية العالية الأسقف التي تعلوها أشياء وحيث تنحي مجموعات من الحجاب أينما تمر.

ما الذي كانت تقم به هنا إذن؟ في مقصورة في مسرح ترداد مع رفيقة غير جميلة ومأجورة؟ هل تمتلك صدق روح شاعر؟ هل يسعها أن تغرم بأحد؟ كيف هو شكل حبها؟ ما هي الإيماءات اللطيفة التي تسبغها عندما تحب أحداً؟ ما هي الكلمات الرائعة التي تتلفظ بها؟ يقيناً من الممكن أن تلهم بعضاً من الحس الديني التقى، من عساه يمتلك لب تلك المخلوقة؟

هذه الأفكار الغامضة، راودت رجلاً عاطفي يميل للكآبة بشكل طبيعي اسمه كان فينتور، ذا سيلفا وهو خريج حقوق وكان يحي مع عمه تيموتيو ويعمل في مكاتب الدكتور كامنها شديد التجهم والكآبة.

جلب معه من الجامعة ومن معارفه من رجال

الأدب نوعاً من الرومانسية الغائمة، وحنناً مرضياً، وكراهية لكل نوع من النشاط أو المهن.

فقد قرأ قسطاً كبيراً من أعمال موسيه، وببيرون وتينيسون، وحتى ألف هو نفسه شعراً ونشرت بعض قصائده في الصحف والمجلات "حلم دون خوا"، زهور الثلج، وبعض السونيتات الشعرية، ومؤخراً كان يؤلف قصيدة عن الملك آرثر والمائدة المستديرة والكأس المقدسة ولانسيلوت.

أتعبه النقصان الشديد لتفاصيل الحياة اليومية التي ملأت روحه بالكآبة وكان مايزال يحيي على أمل أن يعثر على حبيبة مثل جوليت و رغم أن التماس مع الواقعية التي تميز الحياة اليومية الفظة ملأت روحه بالكآبة، وجعلته يفقد بعضاً من أفكاره الرومانسية تلك، فإن افتقاره التام لأي حس بالسخرية سمح له أن يستمر في تبجيل كل ما هو مثالي، استيقظ متأخراً، وكره مهنة القانون التي عمل بها، كان جمهوري الانتماء، ومتأنقاً.

"انظر أنها تفهم البرتغالية"، صاح داماسو فجأة، وهو يومئ لفيتور.
"كيف تعرف؟"

ألا ترى؟ أنها تضحك عندما ترى ايزيدورا.
كان الفصل الثاني على وشك الإنتهاء والقائد كان يقفز للأعلى وللأسفل وهو يلوح بالعصا وقوس الكمان ارتفع وهبط مع ابتعاد عازفي الكمان، والفلوت صدح بصوت عال بينما الرجال المرتدين النظارات كانوا يدقون على طبول الصوت الجهير.

ويضعون وشاحاً على أحد الأكتاف ويدقون على الطبلية بدقات ناعمة وحالمة وعلى المسرح كانت

كارلوتا في حالة رهيبة وتجر ثوبها، القذر ونفسها عبر المسرح، وتنتحب قائلة:

”أعتقد أن بائعة السمك تلك السمينه والمسنه“.

كانت يوماً ما من سممت حياته.

ادعت سيدات الجوقة ذوات الشعور المتشعبة الصدمة، ورفعن الآن ذراعاً واحدة وبعدها الثانية بشكل خشبي مثل الدمى الملكة السمينه الحمراء كانت تنقص عرقاً، ومالك باشيو كان لعبة يسيل، والجمهور أنفجر في ضحكات وتصفيق، عندما كان هو والكونت أوسكار يلعبون دور الأحمق، على الكراسي الملكية ذات المساند التي توجد بالمسرح، وفجأة لف، ووضع نعال قدميه سوياً مشكلاً شكل أرجل ديبلو.

سقطت الستارة، وكانت هناك غممة مرتفعه من الأصوات وسعى الناس إلى تبريد وجوههم وتحركت المراوح، والناس في المقصورات والدوائر صمتوا فجأة، وحملقوا بالفراغ، شاعرين بالسخونة والتعب. وتشاءب الناس، أو حدقوا بشكل غامض حول المسرح، من خلال العوينات الخاصة بالأوبرا وهناك جماعة من الرجال كانت تقف عند الباب الذي يؤدي إلى الدائرة، حيث كانوا يفحصون سيدة مجهولة وأطلقت التعليقات التأملية: هل كانت أميرة حقاً؟ ولكن أحدهم قال أن الأميرة التي نبحث عنها هي السيدة المسنة الرفيعة القوام التي عقصت شعرها في شينيون ربما كانت السيدة الجديدة الرائدة التي تعمل في مسرح دي ساو كارلوس، وبعدها وأتى رجل رمادي الشعر ويتلثم بشكل طفيف، وانضم إلى الجماعة وقال عن علم:

إنها حادة الطباع!

وبما أنه كان شخصاً زار كل من مدريد وباريس في شيء من الحكومة، فإن آراءه سواء حول الفسق، أو فن الطبخ، كانت دوماً محل إحترام بالغ وغادر إثنين من الرجال البرازيليين الجمع وهما يملكان الأكتاف العريضة، وكانا يغمغان:

أنها إحدى تلك السيدات الفرنسيات، ريو مليئة بهن.

ولكن الكل أجمع على أنها كانت حقاً تتمتع بذوق رفيع، وبدأت تقويرة الفستان محل مدح بالغ وهناك شباب هزيل شاحب اللون وجاكيت مزرر بإحكام وقبعة ضيقة الحافة، على رأسه مثل طبق، ويمسك بيده عصاً سير شكلها موحش، وجعل الكل يومضون عندما صاح بخشونة:

”لوودت أن أظفر بها وحدي!“

تناقشوا بصوت عال ما أن كان لون شعرها طبيعي أم مصبوغ، وكلهم كانوا أصدقاء حميمين لذا خاطبوا بعضهم البعض بعبارات مثل: ”يا أحمر يا مسن!، ويا غبي“ وأحد المحامين شعر بضيق بالغ وتراهن بجنيهين على أن شعرها كان مصبوغاً.

بينما هي قد اتجهت في تلك الأثناء كي تجلس في مقعد أسفل الصندوق، وكانت تتحدث الآن وبعد هذا الوقت إلى السيدة الإنجليزية وتبدو متعبة نوعاً ما، وهي تقاوم التثاؤب بيد زادة صغيرة والخواتم في أصابعها تومض في الظلام الغير مكتمل.

فيتور دي سيلفا الذي لم يستطع الآن أن يراها من مقعده كان على وشك أن يقف ويجلس للأمام في داخل الدائرة وعندما شاهد رجلاً، عرفه، جوتكيم مادييهو واتجه إلى المقصورة.

مارينهو أتى من تراس-أوس- مونتوس في أقصى الشمال من البرتغال ولكنه كان يحيي في باريس لسنوات ويبدو أنه ورث قطعة من الأرض الفقيرة قرب براكنتسا ولكنه وفقاً إلى أحد الأصدقاء الذين تحدثوا عنه بإحترام، ومع رفع الحاجب قيل أنه رجل ماهر، مارنهو هذا! لقد أثرى في باريس وتحدث الناس مطولاً عن ثروة مارنهو.

كان الرجل قصيراً وبنيته جيدة، وأصلع تقريباً، ولديه لحية تتجه للأعلى وقدميه صغيرتين، وتحرك تقريباً بلا أي ضوضاء وإبتسم ببسر، وعندما كان يتحدث، فقد أعتاد على حك يديه سوياً وأطلق على كل فرد "صديقي العزيز" ودوماً كان معه بضع قطع من الحلوى الشوكولاته في جيوبه للسيدات. وكان متلهفاً جداً على أن يرضي الجميع.

لدرجة أنه من المرح أن يرسل رسالة إلى شخص ما أو يسلم حزمة إلى مكتب الضرائب وفي حال تحدث معه أو مدير عام عن الطقس أو عن صراعات الثيران فإنه ينصت وعيناه واسعتان ويعض على شفثيه السفلى كما لو كان شاعراً بالدهشة، ومن تلك العبارات النادرة التي تقطر بالحكمة.

وكان يشتري البيرة للرأسماليين وفي محال المخبوزات والحلوى لبالثريشي ويتلفظ ببعض الكلمات الأبوية للرجال الأصغر سناً ويضع يده حول وسطهم ويهمس بتعليقات خادعة حول الراقصين. ودوماً كان يرتدي معطف رائعة، ولو أن أحداً جامله على هذا فقد كان يخلع دوماً معطفه ويظهر الرداء في ضوء مفضل وهو يظهر البطانة والحياسة الممتازة ويقول بهدوء:

إنها صفقة حقيقة! وهي المرة الأولى التي أرتديه فيها، وإنه ملك لك مقابل خمسة جنيهات. كان دوماً ما يعقد الصفقات الناس يقولون عنه: مارنهو، لديه عين حاذقة للعمل! كان دوماً ما يتمشى في الخارج زاعماً أنه يعاني من وجع الأعصاب.

وإندهش فيتور من ألفته مع الرجل الغريب مارينهو أمسك كلا يديه، وهو يبتسم إبتسامة عريضة، وقد التقط عينات الزجاج الخاص بالأوبرا والتي يملكها وتمتم كلمة ما لها مما جعلها تضحك وبقينا لم تكن أميرة، والفكرة جعلت فيتور يشعر فجأة بالسعادة. وافق داماسو وهو يقف عند الباب الدائرة مع آخرين ويحك لحيته وقال:

”لو أنها ودودة هكذا مع مارنهو إذن من الواضح أنها ليست أميرة“.

وكلهم أقرروا أنها لابد أنها الفتاة الجديدة التي تأخذ دور البطولة في مسرح ساو كارلوس.

لقد حصلنا لأنفسنا على امرأة إذن صاح داماسو ”لو أنها حاولت أن تدعي دور السيدة المحترمة، فإنها سوف تطرد خارج المسرح.“

اتجه إلي الرجل الصغير النحيف ذا عصا السير المنفرة قائلاً:

”هل تتعشي بعد قليل يا فيكونت؟“

هم قال لفيكونت بنغمات تصدر من الأنف، ما تفيد بنعم ولكن عازف البيانو القوي البنية والشاحب فونيسكا أن سيدة الدائرة الجديدة رفيعة وقصيرة وذات شعر حالك السواد.

مارنهو كان ليمتعهم وبما أنه كان في تلك اللحظة

يخرج من مقصورة السيدة المجهولة فقد تجمعوا حوله في الردهة.

”من هي؟ من هي؟“

”ألا تحب أن تعلم؟ هيا مارنهو!“

حك لحيته وهو يضحك وبعدها مال برأسه إلى أحد الجوانب وقال بثقة:

”إنها سيدة من أفضل المجتمعات أفضلهن!“

”هل هي فرنسية؟“

”آه- حقاً....“

ابتسم وأشاح بأسئلتهم بعيداً عنه، وقف الناس على أطراف أصابعهم حوله واحد حجاب الملك وهو رجل فطن وممتع وضع يديه على إذنه: ”هو هالك ورجل مسن أصم ويرتدي قبعة عليه هائلة طلب من الرجل العظيم ذا اللحية التي تشبه فراء الماعز والمديبة أن يخبره بما قاله مارنهو للتو، إنحنى الرجل بإحترام وتوجه له بإسم الكونت.

وفي النهاية فإن مارنهو ترنم وضغط على جدار أسفل مصباح الغاز، وحك الغطاء بنعل أحد أحذيته وأخبرهم بكل شيء فقد التقى سيدتها المحترمة في بيت بارونة فيك كرويس وهي سيدة محترمة جداً، وانفصلت عن زوجها الذي يحيي في الشانزليزيه قرب مدام ساجان واتجه نحو رجل سمين ومكتنز ذا لحية رمادية اللون وقال:

”أنت تعلم هذا المكان، أليس كذلك

فاسكوكونسيلوس؟“

رد الرجل بنبرات عالية تشبه صرار الليل:

”أنا أعشقه.“

حسناً إنه المكان الذي التقيتها فيه فقد دعنتي على

العشاء، في بيتها عدة مرات اسمه مدام دي مولينو، وهي برتغالية من مادييرا، مولينو الشيطان المسن لقد كان سناتور في الإمبراطورية.

يا الله أنت تأكل طعاماً طيباً في هذا البيت، دارت عيناه في استمتاع، أسرة مولينيه أسرة قديمة جداً من النورماندي وبعد الصفقات الكارثية في سيدان، فإن الرجل المسن إتجه إلى بلجيكا حيث توفي وهذا هو كل ما أعرفه عنها إنها تدعى جونوفيفا. وبعدها سأل أحدهم:

”من تلك السيدة الأخرى؟“

إنها رفقة، نوع من الخادמות، سيدة إنجليزية، أنا آتيه، أنا آتيه! رد على داماسو، الذي كان يشير إليه. كان الناقوس يصدح والجمع تشتت، ومارنهو وضع ذراعه حول خصر داماسو قائلاً: ”ما هذا؟“

”تلك السيدة، هل معها أحد؟“

فتح مارنهو ذراعيه بإتساع مخفضاً نبرات صوته وقال:

”من يعلم؟“

وداماسو بصوت مازال هادئاً وأمسك مارنهو من عنق معطفه وقال:

”ألم تستطع أن تقدمني لها، ألم تستطع؟“

لما لا، طبعاً، لقد طلبت مني حقاً أن أجلب أحدهم في الفترة الثانية! ليس من قبيل اللياقة أن أقدم أحدهم لأحد في المسرح... ولكن هنا... وإلى جانب هذا فإنها طلبت مني هذا.

كانت الأوركسترا تصحب المقطوعة الغنائية المنفردة التي تصحبها الموسيقى:

”يا للعشاق صغار السن النضرين“.

قطفتهم مثلما تقطف الزهور... .

سأراك لاحقاً إذن قال داماسو.

ولكن مارنهو احتجزه للوراء وسار بطول الردهة ذراعاً بذراع وهو ينحني نحوه ويتحدث بعجلة.

”ولكن متى تحتاجها؟“ سأل داماسو.

إن أمكن غداً رد مارنهو ”سأتي إلى بيتك. أنا أعتذر منك لكنني أحتاج للمال حقاً... والأمر كله جلبة حول لا شيء. أمر لا يمكن أن يتم هنا أبداً. الفندق في فرنسا لن يلاحق أبداً رجل نبيل، شخص معلوم لديهم، لمجرد ٦٢٠٠٠ من العملات البرتغالية، يا للسخف! إذن غداً أليس كذلك؟ إيه؟ وسوف نذهب ونرى تلك السيدة في نهاية الفصل التالي، وتذكر لا تبقى للوراء! حك يديه بنشاط وهو يضحك بصمت، وبعدها إنحني ورجع للوراء للمقصورة التي تخص الفيكونته دي روزيررام ”يا لجميلتنا الفاضلة“ مثلما اعتاد أن يسميها.

رجع داماسو إلى الدائرة منتصراً، ونظر لمداك دي مولينو كما لو كان يمتلكها، وبدأ في إرتداء قفازاته وإنحني نحو فيتور قائلاً:

مورينو سيقدمني!

وأخبر فيتور أنها كانت كونتيسة من باريس وتتحلّى بأناقة بالغة! وإلى جانب هذا برتغالية أيضاً! من أعتقد في مثل هذا الأمر؟ يا لها من سيدة برغم هذا لوددت أن أمناها كل ما أملك وكل ما ترغبه.

كان واثقاً جداً من نفسه وبشكل عام اعتبره الناس متأنقاً وقالوا عنه: دامسو الشيطان المحظوظ لا يفتقر أبداً للنساء! ممثلة بدينة من مسرح برنسيب رويال

ومعاونة ساحر حاولت الإنتحار بأكل رؤوس الثقاب كل هذا بسببه. كان مفضلاً جداً لدى الفتيات الأسبانيات وسيرته العاطفية تضمنت مرحلة ارستقراطية في سنتر، حيث أُلقي القبض عليه وهو متلبساً مع كونتيسة دي أجوير في دير كابوشين؟ الكونيتسه كانت وماتزال مثل طبق يقدم على طاولة تتلقاه من الفرد الموجود إلى يمينك وتمرره إلى الآخر الموجود إلى يسارك، داماسو حينها نظر إلى السيدات مباشرة في العين، وهو يشد لحيته وحينها في الساعة الثالثة عصراً كل يوم، قفز عبر لارجودوس مارتيريس على جواده، شاعراً أن لشبونة تحت إمرته.

فيتور، الذي لم يتلفظ بكلمة، وجدها الآن أكثر جاذبية، كانت تحيي في باريس حسبما أعتقد حياة كريمة. ولأنها متفردة، فقد زار التولييري والنظرة المتعبة الملوثة للإمبراطور المسن الصامت دون شك سقطت على أكتافها الجميلة.

التقطت بعضاً من المؤلفين المشهورين، زارت ستوديوهات الفنانين الشهيرة وكل شيء قرأه أو سمعه حول باريس تناثر حولها مثل زينة طبيعية، وصارت ذات صلة غامضة في عقله مع روح أبناء دوماً ومع منحوتات دوريه وموسيقى جينود ومع اللواءات القدامى لنادي الخيالة وأناقة القهاوي الإنجليزية، الإطار الرائع كله لحضارة أرفع مكانة.

وفي تلك الأثناء وعلى المسرح، خمسة سيدات سمينات، وشعورهن مموجات بشكل جميل، وخط الرقبة يسفر عن عظام ترقوة وكن واقفات في خط وتغنين بصوت عال وبنغمات متقطعة:

”تركوا للموتى في القبور“

”عدت للحياة مرة أخرى“

”للحياة مباشرة، للحياة مرة أخرى...”

ومن باب الدائرة مارنهو على أطراف أصابعه كان يشير لداماسو وبدا في عجلة من أمره وتعثر داماسو في طفل، بدأ الطفل بالبكاء، واصطدم بنظارات الأبرامملوكة لأحدى السيدات الكبيرات جداً بالحجم وبدا شديد الشحوب.

سيدة كبير بالسن، تعثرت في مقعدها وراء فيتور، ولاحظت برضا:

”لابد أن المغص عاوده.“

إنها تلك العصائر التي يتناولها همهمت جارتها بمرارة والسيدات الخمس النحيفات جدا الواقفات في صف مرة أخرى غنين:

”تركوا للموتى في القبور“

”عدت للحياة مرة أخرى“

”للحياة مباشرة، للحياة مرة أخرى...”

قاد مارنهو داماسو إلى مدام دي مورنو في مقصورتها وقدمه وتركهم بهدوء واحنت رأسها برشاقة وأشارت للسيدة الإنجليزية قائلة:

”الآنسة سارة سوان“.

انحنى داماسو مرة أخرى ووجهه الآن كان لامعاً من الاحمرار.

”هل تتحدث الإنجليزية؟“ سألت الآنسة سارة.

لقد تعلمتها في المدرسة ولكنني نسيتها. ابتسمت الآنسة سارة وظهرت أسنانها وسعلت، وعدلت من وضع نظارتها، ونظرت للوراء نحو المسرح.

مدام دي كولينو اتجهت بشكل خفيف نحو داماسو،

الذي سألها متعجلاً:

”هل تستمتعي بالوقت؟“

”آه، نعم، جداً.“

وظهر في صوتها لكنة أجنبية طفيفة مصطنعه.

”هل شاهدتي الأوبريتة من قبل؟“

”نعم، أعتقد أنني شاهدتها في مسرح الفارتييه

بباريس على ما أظن.“

إنها تجربة جداً مختلفة، على ما أتخيل. لاحظ

داماسو

اتفقت بأدب وابتسمت.

كان هناك صمت. داماسو الذي كان مايزال لونه

أميل للأحمر، بدأ يحك لحيته ببطء، العرق ينزل على

ظهره وبعدها أسدل الستار والجلبة بدأت مرة أخرى.

انسحبت مدام دي مولينو لخلف المقصورة وعندما

اقتربت من داماسو فإن نبل جمالها وحفيف حرير

ثوبها وعطرها الفواح، كل هذا جعله ينحني إنحناءه

خفيفة.

ولقد أدرك أن هناك عدة أزواج من النظارات

المتبنة نحوه، وأراد أن يظهر حيويًا وأنيقًا وبصوت

عال وأصدر إيماءة ساحقة وتساءل:

”هل كنت في لشبونة لفترة طويلة؟“

كانت تتحدث إلى الأنسة سارة وتقول:

”لخمسة أيام فقط.“

ولاحقاً دامسو بالأسئلة بلباقة لفظية مفاجئة وقال:

”هل كانت تلك هي المرة الأولى التي قدمت فيها

إلى لشبونة؟“

كانت كذلك فعلاً. لقد عادت للتو من ماديرا إلى

لندن ومن هناك إلى باريس...

هل أحببت لشبونة؟ جداً! هل ذهبت إلى حدائق باسيو العامة، وإلى مسرح دي ساوكارولس؟ نعم هل زارت سنترال؟ لا.

كانت جالسة وهي غافية قليلاً في مقعدها ويدها رفيفتين وفي حجرها، وهي تمسك بمروحتها المغلقة، ويدها رفيفتين وبيضاء لكنها بدت قوية، كما لو كانت معتادة على أن تمسك بلجام فرس وعلى الحياة النشطة.

داماسو بعدها عرض عليها بيته في كولاريس، في حال أرادت زيارة سنترال. كان بيتاً للطلبة... ولكنه حينما لمح نظرتها المندهشة قليلاً، أحمر وأضاف: "أنا نفسي أحيي في لشبونة في الوقت الحالي، وأنا دوماً ما أمضي الشتاء في لشبونة".

"أنا أسفة"، قالت هي وهي تقاطعه، ولكن من تلك السيدة التي ترتدي اللون الأزرق الحالك أمامنا؟

كانت كونتييسة دي فال مورال، داماسو أدعى إنه كان صديق حميم لها. أمكنني أن أخبرك عن كل فرد في لشبونة. أعلنه، أه نعم، أنا أعلم كل فرد هناك.

بدا متحمساً، وذكر عدداً من السيدات، وأعتقد أنه من اللباقة أن يذكر الفضائح، وأشار إلى القليل من الرجال من ذوي الأصل لرفيع، وتحدث عن مصارعة الثيران، وحتى ذكر الممثل ايسيدورو.

فتحت مروحتها بإيماءة متعبة وتمتت:

"هم، يا له من أمر مثير..."

بدا داماسو مقتنعاً أنه كان قد أحدث إنطباع ممتازاً، وشعر بإثارة بالغة، وخلع قفازاته، وطلب أن يلقي نظرة على مروحتها، وانحنى عند حافة الصندوق، واتجه نصف إنحناء للوراء على الدائرة.

من كل السيدات هنا، كانت تقول هي، "السيدة الوحيدة بحق هي الملكة" وضعت إحدى الأصابع على حاجبها وقطبت تقطبية خفيفة وسألت: "الآن من أي الأسر أنت؟"

ذكرها داماسو بسرعة أن الملكة ابنة فيكتور ايمانويل من بيت سافوي.

بالطبع يا لحماقتي! إنها شقيقة همبرتو، يا له من رجل صغير رائع، ألا تعتقد هذا؟

هكذا يقول الناس... نعم، إذن كل فرد يقول... منذ عامين في باريس مضوا غالباً ما كنت أذهب لركوب الفرس معه، في الصباح، أليس عادة في لشبونة أن يركب الناس الجياد في الصباح؟ أن الأمر كذلك حقاً.

وبعدها ذكر أفراسه، كان لديه ثلاث، واحد للركوب والآخر للمركبة والثالث للعدو ليلاً.

ناقشوا سباق الجياد، كانت قد ذهبت للديربي في أبسوم، مدح داماسو السباق في بيليم فقد إستمع للأجانب وهم يقولون هناك أنه لا يوجد مشهد أفضل من المرتفعات في العالم، كان جيداً مثل أي شيء في أي مكان آخر.

إنهم حتى يتحدثون اللغة الانجليزية في سباق الخيل.

اتكأ للوراء وسوى شاربيه.

وبعدها مدام دي مولينييه أرادت أن تعرف من هن السيدات في المقصورة... مقصورة رقم ٢٠ في الصف الثاني. كن فتيات أسبانيات ارتدين زهر الكامليا في تسريحات شعورهن الكبيرة ووضعن طبقات من المساحيق على وجوههن الدائرية الصغيرة. وكان

هناك رقع مستمر على باب المقصورة، مما جعل الفتيات يشعرن بالتوتر ويهمسن، ويحركن المراوح بغضب ويتتحنن للأمام ويفحصن الدائرة والجدران بعيون شرهة وبعدها فجأة، ولأجل المظاهر يتجمدن في وقفات حذرة وصارمة وبشكل ساخر.

نظر داماسو وإبتسم، وأدعى أنه شعر بالإحراج وبعدها أملاً في أن يبدو لبقاً قال بلغة فرنسية مختلطة: إنهن في حالة انفلات.

آه! التقطت مدام مولينو بهدوء نظارات الأبرأ الخاصة بها كي تنظر عن قرب إلى الحشد الأسباني "واحدة منهم تبدو جميلة" قالت: هي.

آه لا بد أنها لولا! صاح داماسو بدون إرادة منه، وبعدها عض شفتيه واحمر لونه. سألت مدام دومولينو بشكل عابر.

هل توجد مطاعم حيث يستطيع المرء أن يتناول العشاء بعد المسرح، شيء مثل القهوة الانجليزية في منزل دور؟

وأسفاه، لا نحن بلد متخلف جداً هناك سيلفا طبعاً ومالتا

وما نوع القداس الذي يحضره الناس؟ أوصى داماسو بقداس الساعة الواحدة في كنيسة لوريتو، العديد من الناس ذهبوا إليه.

بقت السيدة الانجليزية صامتة طوال تلك المدة. وأحياناً وليس لأي سبب كان، اتجهن نحو مدام دي مولينو وابتسمت إبتسامة تشي بالتواضع، أو نظرت عبر النظارات المخصصة للأوبرا على رجل معين، قبل أن تعود إلى هدوءها وتثبت عينيها البليديتين على

نقطة في الفراغ، تتأبّت مدام دومولينو.
أنا أخشى من أن أكون متعبة بعض الشيء، لقد
صحوت مبكرة جداً كي أودع أحد أصدقائي المسافرين
إلى البرازيل على متن سفينة.

آه بالطبع لقد غادر اليوم.
وبعدها وبما أن الأوركسترا كانت تستعد، استعد
داماسو للرحيل.

خادمك المخلص سيدتي.
أنا أستقبل الزوار في فندق سنترال ما بين الساعة
الثانية والرابعة قالت هي بإيماءة مقتضبة.
عاد داماسو للدائرة وهو مشع وهبط لكرسيه إلى
جانب فيتور وتمتم:

لقد حصلت لنفسي على سيدة.
وبعدها رجع للخلف وبدأ في "الحملقة فيها".
ولكن مدام دومولينو كانت تقف، وفي لحظة غطت
نفسها بالرداء الفرو الحريري، والغطاء مرة أخرى
كان يغطي وجهها تقريباً.

انحنى داماسو لقدميه وشاعر بالتوتر البالغ.
هيا، قال لفيتور هيا يا رجل.

جروا لأسفل الدرج ووقفا قرب الباب، والمصابيح
في العربة التي كانت تنتظر أضاءت الشارع المظلم،
والفتيان الصغار، سنا كل واحد ومعه سيجارة، في
فمه، كانوا ينتظرون أيضاً، الشارع بدا مهجوراً،
وجدرانه مغطاة بورق الدعاية الرخيص ويعرض
خدمات ترجمة، وفي القهوة، كان النادل ينتظر متكئاً
على عمود ويقرأ صحيفة مكرمشة على ضوء مصباح
غاز ونادل آخر كان يمدد قدميه على إحدى الطاولات
المرمرية، ويغفو، ومن وراء أتت الطكطكات المملة

لكرات البلياردو.

وبعدها هناك حفيف الحرير، إنها مدام دومولينو، كانت طويلة إلى حد ما، والرداء الذي ارتده بدا ممتلئاً جداً، وهي تلتقط بقاياها، وأظهرت دنتلا الرداء الصغير، والحرير الأسود الخاص بجواربها.

تقدم داماسو للأمام، ووقفا يثرثران قرب الباب بينما أسرع صبي بيأس أسفل الشارع وهو يطلب رجل العربة ليتجه إلى فندق سنترال.

فيتور وقف خارج الرياح، وقلبه كان يدق، ويبحث بعصبية عن سيجارة، وبياض المعطف وأيضاً شكل المرأة الذي ينم عن نبل، والتطريز المفرط لرداءها كل هذا أزعجه كما لو كان في وجود فرد ذي مكانة عالية. داماسو كان يترنح للأمام وللخلف، ويضرب بعصاه ضد البنطال، وبدا أنه يتحدث عن الطقس، وكانت ليلة مظلمة من تلك الليالي التي تظهر فيها النجوم المرتعشة.

ولكن عندما عادت مدام دي مولونو وظهرت لاحظت فيتور للمرة الأولى، واللحظة وجهت عيونها اللامعة والكبرى عليه، والتي بدت أكبر حجماً تحت الغطاء المخصص للرأس ولكن الصبي عاد وهو متقطع الأنفاس في أعقاب سيارة الفندق، انحنى داماسو وهي بعذر الرغبة في الإمساك بقطارها، عادت مرة أخرى ونظرت مباشرة نحو فيتور.

وقف هناك شاعراً بالدهشة والتوتر، باب العربة أغلق، والعربة ابتعدت بها بعيداً.

داماسو قال لفيتور: "دعونا نذهب ونتناول العشاء في مالتا، ألا نفعل؟ وعندما سارا في الشارع، كان يصفر نشيد السير من مسرحية فاوست.

لم يقل فيتور شيئاً، أحس بالدماء تتصاعد بشكل غير معتاد في أوردته، السيارات كانت تغادر مسرح دوساوكالورس، وجماعات من الناس مرت عبرهم، وأردية السيدات لمعت من البياض في الليل، ومرة أخرى، اكتشف أن لشبونة مثيرة، أراد أن ينشر أحد القصائد أو يصفق له أحدهم في المسرح وعامة أن يعد رجلاً بارزاً.

وعندما دخلوا مالتا، اقترب منهم النادل، وتثاءب واتجه لمصباح الغاز، وبدأ ضوء خشن ومتراقصاً مصطدماً بالجدران والسطح المنخفض وفي صوت به شيء من الملل، سأل: ما الذي أقدمه لكما أيها السادة؟

داماسو كان يدرس نفسه في المرأة التي توجد أمامه، وهو يعبت بلحيته، وشعر إنه بوهيمي، وحي وملء بالطاقة.

الفصل الثاني

عندما نزل فيتور لتناول الفطور في اليوم التالي في الساعة الحادية عشر، عمه تيموتيو كان في حجرة المعيشة، في كرسيه الوثير ذا المسند قرب النافذة التي انفتحت على صباح مضاء، وكان قرأ الصحف، وإحدى ساقيه مكومة تحته، على نمط شرقي، والأخرى المصنوعة من الخشب ترتكز على عتبة شباك.

كانوا يقطنون في شقة بالطابق لثالث في روا دوسا وفرانيسيسكو، وهو الطريق الصغير أسفل رابطة الكتاب، وكنا في أوائل شهر ديسمبر والشتاء كان إلى الآن جاف جداً، الهواء تنظيف وصحو، والسموات زرقاء زرقة بالغة والشمس تسطع للرجال المسنين. العم تيموتيو بلغ الستين من العمر، وبدا صغيراً ورفيعاً وثرثاراً ومتحمساً، وكانت سماته غامقة ومتحركة وعظام وجنتيه صاعدة وهو قاض متقاعد وأمضى كل حياة العمل في الخارج، وعاش بالهند أطول مدة، حيث فقد ذراعه بينما كان يصطاد الطيور، التي طالما ضايقته، بسبب-أنه وفقا له- وجب عليه على الأقل أن يترك رجله في فك نمر. كان دوماً جندي أكثر منه قاض، وكطالب في جامعة كومبيريا، كان مشاغباً ومصارعاً، لاحقاً في حجرة الباحة اصطدم بشدة بالغة على الطاولة والمحاميين الحالكي الجلد غالباً ما شحبوا. وأينما اتجه كان في صراع دائم مع السلطات، وحتى ضرب سكرتير عام الهند، وهو رجل سلمى كتب القصائد وعانى من آلام الهضم. ولكن الناس إحترموا أمانته الفظة بسبب أنه وراء هذا المظهر الصارم كان عطوفاً وودوداً وحتى معرضاً للمشاعر الجيدة.

كان داعماً كبيراً للناس الفقراء، واتجه للإنقاذ بجرأة، والمرضعة (الخادمة) التي كانت تهز الطفل في الشارع، الرداء المخصص للطفل الذي يسيطر على ثور، الصبي الذي يتسبب بالأذى للقطط سوف يجد على الفور العم تيموتيو وراءه، بصوته الجهور وعصاه ذات الطرف الفضي.

زوجته وهي سيدة ممتازة من مأكو تركت له ثمانين كانتوس والتي مثلما قال هو تعني أنه يسعه أن يبقى على عربة وعلى ابن أخ له، وفر كل حبه إلى فيتور وكل إعجابه إلى إنجلترا، وأشترك في جريدة التايمز وقرأها من الغلاف للغلاف، وكان رفيقه الأساسي هو الكلب، وهو انجليزي يدعى ديك، وتيموتيو كان يصحو مبكراً، ويؤمن بالحمام البارد وأيضاً تدخين الغليون ويشرب الرم. كان يكره رجال الدين وقال أن أي رجل شاب بلغ عمره الخامسة والعشرين ولم يكن لديه لا زوجة ولا عشيقة لا يعد أهلاً للثقة.

من أميرة بريو إذن؟ سأل بضيق عندما أتى فيتور إلى الغرفة، وكان ينظر بحدة في الصحيفة المحلية من خلال النظارة التي توضع على الأنف والتي لها حافة. ما السبب؟ ما الذي يقولونه عنها؟

قرأ تيموتيو:

لقد عدنا للتو من مسرح دا ترنداد، حيث العرض. إلخ، إلخ... هنا كنا... وفي أحد المقصورات المحددة كانت هناك سيدة أجنبية بالغة الجمال، التي قيل أنها أميرة بريو.

لا، هذه أحاديث الناس، ولكنه ليس صحيحاً، إنها سيدة فرنسية مدام دومولينو.

هذه الصحف لا تنشر سوى النميمة اشتكى تيموتيو.

اتجه فيتور نحو النافذة وهو يتثائب، كان نوماً متقطعاً، ترك مالتا في الساعة الثانية، عقلة مشغول ومعدته مليئة بالطعام، وكان يحلم طوال الليل بمدام مولينو ولكن يخلط بينها وبين شخص من تاريخ الثورة الفرنسية، والتي أتت من كتاب كان يقرأ فيه في هذا الوقت، وقطع من قصائد تينيسون، كان في الشارع في باييرو ألتو، وأحدهم كان يحول أن يقدمه إلى مدام دومولينو، ولكن الآن وهو بدا على وشك التصافح بالأيدي، شيئاً ما إندفع للوراء، وفصلهم. أولاً كان السيد جالاهاد من المائدة المستديرة في درعه الفضي، وتوجد ريشة بيضاء في قبعته وزهرة زنبق في درعه ومر وهو يقول: "أنا قوي بسبب أنني نقي، أنا أبحث عن الكأس المقدس وسأدمر كل الحب المخزي."

سرب الخراف البيض اندفع بكل لفراء، واصطدم سويماً محدثاً جلبه بحزن ورائحته رائحة المرج. وقد مدا أيديهما نحو الخراف ولكن لم تلتقيا. وبعدها مرة أخرى كانا على وشك العناق عندما أتت سيارة مسرعة (مركبة) مسرعة نحوهما بصوت عال أسفل الشارع الضيق، الناس ازدحموا حولها، يصيحون ويندفعون نحو السيارة حيث وجدنا ثلاث رجال، ورؤوسهم عالية، واحد كاميل ديسمولان، والذي بقى يصيح: لوسيل! لوسيل! والآخر دانتون وهو يبتسم بفخر، والثالث والده الذي عرفة فقط من اللوحة الموجودة في حجرة الطعام وهو رجل يرتدي لبس مريح وعليه نظره كئيبة في عينيه وخصلة من شعر إمرأه لونها غامق مربوطة في صدره. امتد فيتور واستولت عليه أحلامه، وبدأ عصفور

الكناريا المحبوس بالقفص المعلق في النافذة يغرد
بنبرات ملحة.

صمتاً! صاح تيموتيو.

صمت عصفور الكناريا وتيموتيو نهض وجر
رجليه الخشبية على الأرض.

للأمانة المخلوق الضعيف ليس لديه أي حبوب ولا

ماء

كلورندا! صاح الرجل.

ظهرت امرأة سريعة وممتلئة.

إنها الساعة الحادية عشرة وتلك الطيور لم يعد
لديها أي ماء نظيف ولا طعام. هيا أهتمي بالأمر
فورا، كلورندا، وأجلبي لنا بعض الطعام.

واتجه نحو الطاولة وهو يتكأ على عصاه ومازالت

الصحيفة في يده، قال:

لذا لم تكن أميرة إيه؟ كما لو كانت كذلك ما الذي
يعرفونه هم! ونظر في الصحيفة مرة أخرى، وهزها،
من المفترض أنها صحيفة، بها مقالات، وتقارير
ومراجعات، رقم تعريف ١ متفق عليه، صبي مدرسة
داخلية، السيد كذا وكذا، رقد من المدرسة.

يبدو لي أن السيد كذا وكذا يود أن يقف في ميراندلا
كمحافظ. أي فرد آخر يعرض عمله بمزاد ويرهنه.

الاقتراح قدم من تاجر الماشية فيرناندس خوا
وقبلته جمعية فيلا نوفيدي فاميليكو، إلخ. إلخ. إنه أمر
غير عادي، كل شيء هناك. ومن ضمنه عمودين،
”القدوم والرحيل“ لقد مات عشقا.. يا للأغبياء، وأنا
لم أكن معي نسخة من التايمز لثلاث أيام بحالها،
ويطلقون على تلك بلدة! كلوريندا من المؤكد أن تلك
البيضات قد غلت الآن!

وضع عصاه بين ركبتيه، وربط منديله حول عنقه
وكان يطعم ديك الشطيرة، وديك جالس قربيه، وذيله
يرقص قرب الأرض، وبعدها فإن العم تيموتيو كان
ينظر نحو فيتور ويقول:

ما الذي حدث لك بحق الشيطان، يا رجل؟ أن
تتظر بإيجابية وتبدو أصفر اللون! في أي وقت أتيت
ليلة أمس؟ في أي وقت أدركت أنه قد أتى كلوريندا؟
السيدة الممتازة إبتسمت وقالت:

أتي في الساعة الثانية سيدي، وبعدها جلس يقرأ.
سيدمر صحته! صاح العم تيموتيو وضرب سكينه
في حافة طبقة. ستكون رجلاً مسناً محدوب الظهر قبل
أوانك! ستضيع صحتك يا رجل بحلول عمر الخامسة
والثلاثين، ستكون لديك رجل غراب، وظهر محدوب
ومشكلات بالكلية وتحملق في النساء من بعيد، مع
فقدان كل إهتمام.

ضحك فيتور، لقد كنت أقرأ عن ما أعتاد أصدقائك
من اللوردات الإقطاعيين والقساوسة والأساقفة أن
يقوموا به مع القنانة

قبل الثورة، ضرب وتعذيب، وشنق أمر فظيع.
هذا كان أمر خاطئ تماماً زمجر تيموتيو القن أو
العامل يعد رجلاً مثلنا ويستحق الإحترام. والآن لو
أنهم كانوا سوداً أو هنوداً.... إعترض فيتور وهو
شاعر بالفضيحة، الهنود عرق نبيل! يا لتفاهة أي
إنسان يطلق على الرجل الهندي رجلاً، لم ير في
حياته لا رجل ولا هندي! لقد كنت هناك عند تمرد
جوا، وأقود الكتائب... إنه أمر غريب أتعلم هذا، لكان
بإمكاني الاستيلاء على الهند كلها برجلين فقط كل
واحد مسلح بعصا! انظر للانجليز حفنة شرطة مقابل

ملايين من الرجال. إنه أمر يعود للتغذية أيها الصبي العزيز ما الذي يستطيع أن يقوم به رجال يحيون على أرز مملوء بالماء مقابل حفنة من الجنود الذين يتناولون لحم بقر مشوي؟ ما السبب إحني ركبتيك!

فيتور لم يكن فقط تراوده معتقدات سياسية غامضة جداً، بل كره الأسبان في سحقهم لكوبا والمتمردين من ماناجوا والقصر الذي عينه بولندا بالسياط وأخضعها والانجليز الذين كانوا يعاقبون إيرلندا وأرض السلتيين مهد الشعراء، هز كتفيه وقال: طغاة!

طغاة! صاح تيموتيو وعيناه تومضان هل تعلم سيدي، أينما استعر النقاش حول سياسات الاستعمارية مع فيتور، فإنه دوماً ما كان يخاطبه بلقب سيدي! هل تعلم ما حققوه في الهند؟ لقد اخترعوا كل شيء! مدن وسكك حديد، وموانئ وأنهار يسهل الإبحار فيها ومزارع ومن قبل كانت المجاعة تنتشر في الهند وكانوا يموتون بالملايين! والآن لا ينقصهم أبداً الأرز بسبب أن الرجل الانجليزي هناك لا يتيحه لهم.

ولكن فيتور اعتبر الهند أكثر شاعرية من الانجليز فقد تحدث عن مثاليته، وعن طرزهم المعمارية وشاعريتهم.

الشعر!؟ يا للتفاهة! يجب أن تذهب إلى حقول القطن في كالكتا وبومباي! الآن نجد الشعر الحقيقي! عندما كان كل ما كانوا يملكوه هو أشعارهم، كانوا يجوبون في الميادين ويسيرون عراة ، والآن لديهم بيوت جيدة ويتناولوا طعاماً طيباً وعندما ذهب الانجليزي إلى هناك في أول الأمر فقد وجدوا صبيان يملأ القمل شعورهم، القمل الهندي حجمه كبير أشار إلى طرف إصبعه.

عمي فضلاً صاح فيتور وهو يدفع طبقه بعيداً
بايماءة من نفور.

ماذا بك يا رجل؟ لا شيء في الطبيعة منفر. يجب
أن يكون المرء قادراً على الحديث حول كل شيء
وتناول أي طعام. سأخبرك شيء ما وما بين أعمار
١٤ و ٢٥ كنت أتناول الفطور كل صباح على مرقعة
الثعبان وهو طعام ممتاز ولعام كامل عندما أصبت
بداء الجنبه.

نظراً ليه فيتور وهو مبهور وقال: أنت كنت
تعاني من داء الجنبه؟

غمغم تيموتيو، وهو ينظر في طبقه: نعم لقد
خضعت له... من إحدى المرات، عندما وقعت
بالحب... ضحك فيتور ضحكة عالية.

حقاً أن هذا الأمر يبدو أفضل! ولكن مع من عمي؟
احضري القهوة كلوريندا، والتبغ الخاص بي،
وبعدها أزال ببطء منديله واستمر بالحديث قائلاً،
عندما أقع في الحب فأنا أعني مفتون. لم يكن حباً، فقد
تغلبت على الأمر خلال شهرين ولكنها إحدى أفضل
قصص حياتي الرومانسية، لم يكن له أي علاقة مع
الرومانسية حتى في الكتب.

ولكن بمن كنت مغرماً يا عمي؟ تساءل فيتور وهو
شاعر بالاهتمام ويداه على الطاولة، وابتسامة غامضة
تعلو شفثيه.

غرمت بأمك!

فيتور شعر بالدهشة، وخفض قطعة اللحم الخاصة
به إلى فم يديك المتلهف كانت أمك في الرابعة عشر
حينها، ولكنها كانت طويلة وقوية، وشعرها طويل
جداً، وبدت مثل فتاة في الحادية والعشرين، وجميلة

إلى حد بالغ! أنت لا تعلم هذا، بما أنه لا توجد لوحة لها. ولكن يا الله! فقد كانت جميلة جداً. وهي تحيي فير الباب المجاور، ابتسم الآن الوقت يمر! وقد أبقت عصفورين من الشحارير في قفص قرب نافذتها وكانت هناك أغنية تتردد حينها: "فتاة شقراء جميلة بعكس قرب نافذتها وهي تهتم بعصفورتها.

وفي تلك اللحظة كنت أراها قرب النافذة، وأتمنى تلك الأغنية، واعتقد أن هذا هو السبب الذي جعلها لا تعجب بي، أنت كلوريندا ومعها قهوة. أمضى العم تيموتيو وقتاً طويلاً وهو يقلب السكر ويشعل الغليون. وفي النهاية إنحنى للوراء وقال:

سأشعر بالضيق، وهي أيضاً، وبدأت في الوقوع في حبها، وهي لم تكن تتحملني، وهنا بدأ مشاعر الحب وقد قامت بكل شيء كي تبعدني عنها، صفت النافذة في وجهي، أشاحت نظرها واختفت من وراء ظلال الشمس، وكانت شيطانة صغيرة وقحة وقاسية القلب.

وفي إحدى الليالي وانتني فكرة المشيءومة أن أغني لها بالأسبانية أغنية كانت شائعة في تلك الفترة. سيدتي منك أخذنا الزهر.

الأصفر اللون....

ووقفت تحت شباكها ومعني جيتاري كنت أعزف على الجيتار حينها، وأنا أبدو بصحة جيدة فعلاً، بسبب أنني لم افتقر أبداً بفضل الله للثقة وبدأت فوراً وغنيت...

سيدتي منك أخذنا الزهر.

الأصفر اللون....

فتحت النافذة، وسمعت صوت ضعيف يقول، هل

هو هذا السيد تيموتيو؟ يمكنك أن تتخيل شعوري حينها. بدأت فوراً بالعمل محاولاً صعود الشرفة. كان الوقت ليلاً. في وسط فصل الشتاء والجو شديد البرودة. هل هذا أنت سيدي؟ ”نعم حبي هذا أنا! ها أنت هنا إذن! وأفرغت هي دلو المياه القذرة عليّ، هل تصدق هذا؟

هذا الماء سوف يبردك! صاح الصوت من أعلى. صوت تلك السيدة المخزية أمك جواكيننا. وهل هدأتك المياه إذن عمي؟ سأل فيتور، وهو شاعر بالدهشة، والانهماك وعيونه مثبتتين على الرجل المسن.

نعم لدرجة أنني أصبت بداء الجنبه! وبقيت شهرين في السرير محاولاً التعافي منه. وهنا أتى دور مرقة الثعبان. وكانت تعد علاجاً ملكياً لداء السل في وقتي، واعتقد أنها ما زالت كذلك في تراس-أوس-موننيس. وبمجرد أن شفيت قررت الذهاب للخارج وشرعت على متن سانتا كويتريا، والقبطان (الربان) كان من تنديلا وهو رجل قصير القامة، أحمر الشعر ولكنه شجاع جداً. وبمجرد أن عبر البار صدمتنا عاصفة! وأعتقد أنا ضعنا. الأمواج! يمكنني رؤيته الآن في قبعته المزيته وحذاءه أعلى ركبتيه وهو انزلق من حوله على سطح السفينة وهو يصيح والأمواج تلهو بالسفينة وكنت أعلق بأحد الصواري وقد رأيته وصاح: ”أخرج من هنا“ أنت أيها الشيطان المثير للشفقة. وبعدها صرنا أفضل أصدقاء، وخلال شهر شفيت واتجهت إلى قارب مع أفضل واحد منهم ونسيت كل شيء عن افتتاني ولكن تلك هي الطريقة التي كنا عليها حينها. ليست مثل الرجال في تلك الأيام. ولكن

ما الذي حدث إذن؟ سأل فيتور.

حينها لا شيء، وبعد هذا فإن أباك إتجه إلى كومبيريا، وراها مثلما رأيتها أنا قرب النافذة، وهي تطعم عصافيرها وغنى لها نفس الأغنية ولم أعرف إنه كان يغني لها ليلاً أيضاً أم لا، ولكنه لم يتلقى دلو ماء فوق رأسه، بل حصل على بركة من والدها آنذاك وتزوجوا... وحينها ظهرت أنت في وسط نهر من الدموع، نهر حقيقي من الدمع مثلما أتضح فيما بعد، أضاف بجد وهو يميل للصمت، وأمي ماتت بعدها بعام.

درس تيموتيو الغليون الخاص به للحظة، وبعدها قال ببطء، نعم بعدها بعام ولدت أنت، وهي مرضت، وبعدها رحلت إلي البيرنيس مع والدك.. لم تعد مرة أخرى

وبعد تنظيف زوره بصوت عال، نهض واتكأ علي عصاه وغمغم، هذه هي الطريقة التي توجد في حفرة العالم ودقت الساعة في غرفة المعيشة معلنة انتصاف اليوم

لا، لا، وعدت أن أبقى بالمكتب بحلول الحادية عشرة! قال فيتور، ونهض ومد نفسه: " حسنا لقد تعلمت يقينا اشياءا قلة في هذا الصباح. هناك كثير لا أعلمه حيال أسرتنا".

وبعد إشعال سيجارة أخرى رحل، وهو إتجه للخارج وعدل الإبريم الموجود في وراء معطف الخصر بينما تيموتيو رقد في كرسي ذا مسند وكان يغغم:

نعم، هناك الكثير مما لا تعلمه.

بقي تيموتيو يدخن الغليون وهو ينظر بين الفينة والأخرى في اللوحة الزيتية لوالد فيتور، اللوحة المعلقة فوق الجدار، وكان وجهه شاحبا وطويلاً وعالياً في الجبهة والبيضاء وشعره طويل، وشاربه طويل وأسود اللون من الستان ورسمت ما بين الأعوام ١٨٤٦-١٨٤٧ أو سنوات عدم راحة الحرب الأهلية في البرتغال ووقف زواجه التعس.

يا لها من صدمة إنتابت تيموتيو عندما تناهت إليه الأخبار في أنجولا، أن أخيه بيدرو قد اقترن بجواكينا. "الأحمق!" لقد صاح وهو يشد الرسالة ويده على الورقة تيموتيو كان يحس بإحترام بالغ نحو أخيه كان بالغ الذكاء والشجاعة ورجلاً نبيلًا جداً وهو كان على وشك أن يقترن بجواكينا ابنة ماريا سيلفيريا والتي وجه لها تيموتيو الحديث قائلاً: لو أتيت معي إلي أبورتو سوف أخصص لك بيتاً وأعطيك مبلغاً من المال بمقدار إثنين عملة شهرياً.

صحيح أنها ألفت دلو ماء فوق رأسه ولكن هناك ناس في جواردا تيلمو سانتيرو من ضمنهم الذي كان ملازماً ثانياً في كتيبة فرسان سعد لشباكه في إحدى الليالي الثلجية. وأخيه هذا كان يقترن بها! يا للغيبي الأحمق! ورجل وسيم أيضاً: ألف تلك القصيدة الرائعة القصيرة ليلة في المقبرة وبعدها في أحد الأيام صباحاً، بعد هذا بعام ونصف حينما كان تيموتيو يتناول فطوره المكون من قطعة لحم البقر اليخني، أعلن الخادم الأسود: "هناك رجل نبيل يود رؤيتك، سيدي".

"هذا الرجل النبيل" كان أخيه بيدرو وكلهم يرتدون الزي الأسود. هل ماتت جواكينا؟ صاح تيموتيو لا لقد

جرت بعيداً، صاح بيدرو بدون أي اختلاف والرجلين الأفارقة أتوا وهم يحملون جزعين بيدرو احتسى كوباً كبيراً من القهوة، وأخبر تيموتيو قصته وبعد أن تزوج هو وجواكينا (خواكينا) ذهبوا إلى لشبونة وفي جواداوا فقد كانت دوماً ابنة ماريّا سيلفيرا في لشبونة ولم يكن أحداً يعرفها.

وهم قد عاشوا في روادى مرسينسكو وأمامهم عاش رجل صغير السن، مهاجر أسباني وفي أحد الأيام في الصباح وبعد شهرين من مولد الطفل، حتى قبل تعميده رحل بيدرو وهو يصطاد وحده وعند عودته وجد ملحوظة بخط يد جواكينا (خواكينا) الكبير الحجم.

”وداعاً، اغفر لي، مصيري يحملني بعيداً، وهذا هو كل شيء“ الخادمة والمربية قالتا أن سيدتهن انصرفت في منتصف اليوم مع حزمة من الملابس وخلال تلك اللحظات المريعة الأولى استمر هو بالحديث، قمت بكل الأمور الواجبة وأخذت الطفل الرضيع إلى بيت العمّة دورتويا يا له من طفل ضعيف لكم بكت عندما أخبرتها بما تم. والآن هي تشبّثت ”بالملاك الصغير“ الذي منحها فترة أمومة غير متوقعة في عمرها الكبير. عمد الطفل أرادت أمه أن تسميه كاتانو ولكنني أسميته فيتور.

اسم والدنا. وأعطيت الخادمة وهي فتاة فارغة العقل بعض المال الذي وضعته في منديل وأخذته لزوجها في آهاو. لم تعلم أبداً بما حدث فعلاً وبقت المربية مع الرضيع وبعدها ببعض أيام لاحقه، اتجهت إلى مدريد. لم يكن هذا نوعاً من الصيد، بالطبع. فقد أمضيت أياماً كئيبة وساعات في مدريد. في غرفة

كئيبة وفي لا فوندا دي لا نبليزا. وكل قبعة أسبانية احتكت بكتفي وكل فرقة موسيقية سمعتها جعلت نبضي يتسارع أكثر. زمن مدريد حررت إلى القليل من الأصدقاء في جواردا الماجاليس وأسرة فاز كي أخبرهم أنني كنت أتجه إلى البرانس مع زوجتي، التي كانت مريضة، المسكينة.. واتجهت للبرانس، حيث أمضيت ثمانى أشهر اصطاد السمك التونة في نهر جاف، غريب! إيه؟ وأخيراً كتبت مرة أخرى رسالة إلى أسرة فاز واي الماجاليس، إلخ كي أخبرهم أن زوجتي قد ماتت. وفي الواقع بالنسبة إليّ كانت ميتة. وأنا أشك أنهم فكروا بالأمر بالعناية الواجبة ومع ما كان موجوداً من صراعات سياسية في هذا الوقت وقوية مثل شجرة وقد ماتت.

ولكنني بدأت في الشعور بالملل في المدينة وذهبت على متن سفينة متجهة إلى أفريقيا وهنا أنا هنا، للقيام بأي شيء؟ "سأل تيموتيو السؤال التالي: "أي شيء؟" ربما أصيبت بالحمى فإنه مازال يحبها تيموتيو فكر بالأمر، جلب بيدرو بعض المال معه، ولكن علق بصفقات عمل غير مريحة وقد أمضى الوقت وهو يدرس النباتات وقد علم كيفية تحنيط الطيور وبدأ في شرب المشروبات الكحولية، الطبيب الذي كان يحيي في لواندا، غير مرتاح مثل قط محبوس في قفص، حذره صديقي ما أن تبدأ في إحتساء المشروبات الكحولية، هذا هو الأمر، أنت ستدفن في هذا المكان الذي أهمله الله، وفي أحد الليالي فان بيدرو وتيموتيو اتجها إلى السير بالخارج المدينة. تيموتيو لم ينسى أبداً تلك الليلة، حيث أن النجوم الإفريقية الكبرى والتي لا تحصى مثل حبات الرمال والبحر الصامت

اللامع بلون فسفوري في الظلام الحالك. وهبات من الدخان الخشبي في الهواء ورائحة الأراضي الساخنة الرطبة... استمع قال بيدرو فجأة أنا لا أرغب أبداً لن يعلم ابني ما قامت به أمه.

يكفي تماماً أن تتحمل مثل هذا الخزي. وطالما أن كل واحد معنى بالأمر، فإنها قد دفنت في مقبرة، في بارجيرس العمة دوروتيريا وهي سيدة عزيزة، وبقينا لم نخبره، والممرضة ماتت وهكذا فإن هناك خادمة أخرى غيبية جداً، وإلى جانب هذا وإلى جانب هذا فإنها تحيي في مكان ما في الورا، فيما يتعدى الأجارف أعطني كلمة شرف أنك لن تخبره بالأمر.

تيموتيو أعطي كلمة شرف "إنه أمر آخر" صاح بيدرو. أنا لم أرد أن أحمل نفس الاسم مثل أمه. وهو تعرف باسم جواكينا دا ايجا وهي يمكنها أن تحتفظ بالاسم إنه اسم سهل، للأجانب أن يعلنوه وهو اسمها واسم جيد. ولكن بالنسبة إليّ وإلى ابني فإن اسم ايجا غير موجود. إنه اسم قذر. جواكينا لم تعلم أبداً بهذا. ولكنني عمدته مع اسم الأسر الأخرى. وهو اسم لم نستخدمه أبداً، دا سيلفا فيتور دا سيلفا ابن بيدرو دا سيلفا. توقف عن السير واضعاً يده على كتف تيموتيو وقال بصوت منخفض ومتردد "أنت يمكنك أن تطلق على نفسك اسم تيموتيو دا سيلفا؟!"

نظف تيموتيو زوره ايجا هو اسم والدي! غمغم انظر تيموتيو لقد قال بيدرو "أنا سوف أحيي أغلب الوقت ولو قد أطول قم بالأمر من أجلي".

هز تيموتيو جذع نخيل جوز الهند مع عصا السيد الخاصة به، بصلابة بالغة جعلت الشجرة كلها تتمايل. "يا للعة التي تنصب على تلك السيدة جواكينا" قال

هو حسماً جداً تيموتيو دا سيلفا هو الاسم شكراً لك قال بيدرو. والآن من الأفضل أن تعود مرة أخرى. أنا بدأت أشعر بالبرودة.

وفي خلال بضعة أيام مات من الحمى. ونقل جسده إلى مقبرة سان خانيستو القديمة. وهناك صخرة ناعمة وعلم صليب مقبرته. كان عمره يناهز الثالثة والثلاثين. وتلك الليلة، ليلة عاصفة، واتجه تيموتيو لزيارة قبره. وسار حوله، وهو يبصق، ويصفق مفاصلاً اليد والقدم وحينها نظر للأسفل، نحو شاهد قبر وصاح بصوت عالٍ وبعدها صمت "لعنة على السيدة!"

اتجه مرة أخرى إلى لشبونة، فيتور كان في الرابعة حينها، وصار رجلاً، حسناً، وعمته دوتوريا كانت تراقبه وهو يعدو وكانت تنتحب، وهذا الشتاء كان فصلاً صعباً والعمة دوروتيا ماتت من البرد يا لله! أنهم كلهم تركونني! صاح تيموتيو غاضباً! يا لها من حياة!

وبما أنه وجب عليه أن يتجه إلى الهند بوصفه قاضياً، فقد ترك الصبي مع صديقه، جوفيا تيليس وهو أرمل كبير في السن، عاش في ألمادا حيث قام بأعمال جيدة وقرأ هوراس.

وفي تلك الفترة عندما كانوا يبيعون أثاث العمة دوروتيا فقد تلقى رسالة من أسبانيا موجهة إلى السنيور بيدرو ايجا، دون دورتيا دي اتيا شارع دا أوليفيرا، ٥٠ أو ٦٠ وفتحها ووجد خطين مدونين على الورقة الزرقاء.

زوجتك ميتة، ودفنت هذا الصباح في المقبرة في اوفاديو وتلك مهنة جيدة، أيضاً، ولذا فإن هناك حلقة

واحدة انتهت، وحن الوقت كي نبدأ من جديد.

واتجه نحو الهند في ترافلجر.

وبحلول وقت عودته، فإن فيتور أنهى المدرسة وقد تزوج تيموثو في الهند، وترمل وفقد ساقه في رحلة صيد نمر تمر، أنا كنت اصطاد الطيور في الواقع أخبر تيليس ولكنني قلت "صيد النمر" بسبب أنني أردت أن اترك انطباع لدى الصبي. الصبي كان سيعيش معه ولحزن جوفيا تليس التي تمتت: بإمانة تيموتيو أنت أعطيتني الصبي دقيقة ثم بعدها أخذته مني.. الدقيقة التالية. ولكن تيليس المسن كان كبيراً جداً في السن ومات بعدها بعام. وفجأة كان يجلس قرب النافذة وهو يقرأ: "قصيدة إلى سيليا"

بحلول هذا الوقت وعندما كان فيتور في الجامعة في كوامبرا شاهد تيموتيو إعلاناً غير عادي في الصحف: أي فرد يعلم أي شيء عن يبدرو دا ايجا مطلوب منه أن يترك أسماء وعنوان عند فندق دا أوربا وأيضاً في وقت عندما كنا نتصل بهم فيه. إسأل عن السيد أ. فرونين.

وقد شعر بالدهشة وارسل تيموتيو كارت معايدة إلى فندق دا أوربا واليوم التالي، في الساعة المحددة، حيث أن تورنين أتى إلى غرفة معيشته، وكان رجلاً كبيراً الحجم، وسميناً، ذا جلد مزدهر، ووردي اللون، وقصة من الشعر الأشقر وحليق الشعر فوق إذنيه.

وكان يرتدي الطماقات المصنوعة من النسيج الأصفر ويسير على قدم صغيرة ويرتدي حذاء لامع بشكل مثالي من الميناء لدرجة يسعك معها أن ترى أثاث المنزل منعكساً على سطحه وارتي قبعته البيضاء الطويلة ذات الحافة المنحنية جداً وعلى

كرسي وينحني بشكل طفيف عند الأرذاف وقال بلغة برتغالية غريبة مغمماً.

”هل استمتعت بمتعة لقاء سنهور دا سيلفا؟“

شعر تيموتيو بكراهية بالغة لهذا الشخص، ونظف حلقة وهدر: ”نعم أنا تيموتيو دا سيلفا“ ابتسم الرجال المكتنزين النبلاء وحك ببطيء يديه، ”أنه أمر مثالي هل يستطيع هذا الرجل أن يخبرني... أخذ يبحث في جيوبه، وجذب مدونة، ووضع نظارات على أنفه، وقرأ: بشأن بيدرو دا ايجا، من جوارو، متزوج، وأرمل منذ هذا الوقت“.

نظر تيموتيو إليه بعين لامعة من يرغب في معرفة هذا الأمر؟، ولماذا؟ انحني الرجل السمين وقال واضعاً يده على صدره، ”أنا لست مرخص لي...“

حينها من الأفضل أن تغادر في تلك الدقيقة صديقي. تقوس حاجبيه وشفتيه السفلى زمتا وحملق الرجل تحت أقدامه اللامعة وغمغم ”حقاً، حقاً“، واتجه كي يلتقط قبعته، استمع يا صديقي الفرنسي. قال تيموتيو، سنهور بيدرو دا ايجا مات في لواندا، لو أنك تحتاج إلى شهادة وفاة اكتب إلى ابراشية ساوجانستو.

كان الرجل يخط بسرعة ومرح في مدونته، مثالي، مثالي! هل يسعك سيدي أن تتلقى أيضاً عن طفل صغير...

تيموتيو الذي كان ينظر نحوه وذراعيه مفتوحتان، وصاح: الطفل الصغير مات أيضاً الأسرة الدموية كلها، ضربت الدلو! يا أيها الفرد المنحوس! يا أيها الفرد المنحوس!

ولكن بما أنني أرد على أسئلتك، قال تيموتيو، أنا أعتقد أن أقل شيء تقوم به هو أن تخبرني من أرسلك،

من أراد منك أن تعلم...

وضع الرجل منهجياً نظاراته بعيداً وقال أن تيموتيو كان كريماً، وكان يشتري قطع الصيني القديم والأثاث على الطراز القوطي وعندما علم صديقه الجيد جداً اللورد لوفايين إنه قدم للبرتغال فقد اتهمه إنه كان يعثر على الكثير من بيدرو دا ايجا.

ومثلما استطاع الحديث، فإن اللورد لوفايين قد ألتقى به، من المحتمل بينما كان يسافر-نعم- لابد أنهم كانوا موجودين في البرانس مثلما غمغ تيموتيو وبعدها صاح بصوت عال أنا اعتقدت أن الجماعة المهمة، ربما كانت جواكينا دوس ميلورو.

الرجل النبيل الجيد الصحة فتح عيونه المندهشة والواسعة، لا سيد لوفايين، لورد لوفايين! قال هو مبتسماً. حسناً! إذن لو أنت لم تطلب أي شيء... قال تيموتيو.

وفر الرجل اثنين من الأدوات المستخدمة للجبر في لافتات الزي الأزرق الخاص به وكرر بنفس واحد وبلغة برتغالية أكثر احترافية "لو أن لديك فازات من الهند، وخزف الصيني أو اليابان ومقاعد جلدية، وأصقف من الأدراج العربية، وأثاث منحوت وعاج ومهد يعود لعصور النهضة وأدراج وشراشف ستان وبسط وأياً منها تهتم بتحويلها إلى مال؟"...

قاطع تيموتيو: "كل ما لدي هو عصا السير... الآن وداعاً. الرجل النبيل المكتنز توقف ومات وحك لحيته في مواضع متنوعة بإصبع واحد، وبعدها إلتقط قبعته، وغادر المكان وغمغ. حقاً! حقاً!... وتلك هي اللحظة الأخيرة التي استمع فيها تيموتيو بيدرو دا ايجا، ولكن ما الذي يسعه هو إلى أن يستمع إليه في

كل هذا اليوم؟

ما تم قد تم، غمغم هو مائلاً الباب الخاص به مرة
أخرى وربت على أنف الكلب.

الفصل الثالث

وبعدها ببضعة أيام تالية، ١٨ شارع ساوبنتو العم تيموتيو كان يغادر الشقة في الطابق الثاني من كولونيل ستفسن وهو صديق إنجليزي له، ودون مع الجيش البرتغالي بعد حرب ١٩٣٢ وكان الكولونيل رجلاً مسناً ومزدهراً وهو يشرب البراندي ويسمع النكات والذي كان مايزال يتحدث اللغة البرتغالية وببنبرة إنجليزية قوية وزارهم تيموثينو غالباً، وبما أن النقرس منعه من أن يبقى بعيداً عن كرسيه ذا المسند وحيث أن القوقعة الخاصة به، مثلما أطلق هو عليه الاسم وفي حال جلسوا ودخنوا حفنة كبرى من التبغ سوياً وتناقشوا في السياسة والعادات الإجتماعية والمطبخ الإنجليزي واحتسوا زجاجة من البراندي وفيما بينهم وتذكروا الماضي وتلفظا بالقليل من الوعود (القسم) المفضل لهم.

وعندما كان العم تيموثينو يتجه في طريقه بطيئاً أسفل درجات السلم، فإن رجله الخشبية كانت تصدر صوتاً عند كل خطوة، وهناك فتاة صغيرة عمرها بلغ الثماني عشرة شهراً، وتبدو سمينية جداً، وشقراء ومتوازنة على أرجل حمراء وأتت وهي تعدو، عبر الباحة بمفردها وهي تضحك وتلوح بذراعيها في الهواء وقبضاتها الصغيرة مغلقة وعبر باب جانبي خارج الباحة وجدنا متجر للخردوات وأم الطفل وهي سيدة عطوف، وبصحة جيدة ومرحة وصغيرة السن وتملك متجراً، وتعرف لدي تيموتيو ودون شك شعرت بالتشتت لدقيقة، وسمحت للصغير أن يتجول داخل الباحة وحده، وعندما صحا تيموتيو وكان يسمح وقع حوافر الخيل وهي تبتعد وشاهد سيدة شقراء وطويلة مدام دومولينو، والتي أتت مسرعة للباحة،

معها بقايا رداءها الأسود، تحت ذراعها، وهناك خمار أبيض على قبعتها، يغطي وجهها، وكانت تضع باقة من زهر البنفسج في عروة زر رداءها وبينما كانت تعبر الباحة وتتجه مباشر نحو السلالم فقد مشي الطفل بثبات نحو مسارها، مدام دومولينو كانت تصدمها بلا صبر من أحد الجوانب، والطفل وقع على وجهه أولاً ويدها ممتلئتين ورقدت على معدتها تصرخ وتحركت مدام دومولينو وأسرعت السيدة من المتجر الكبير والطفل في ذراعها، ورجعت للوراء وأخذتها معها وهي تمطره بالقبلات.

كانت مدام دومولونو في طريقها نحو السلالم وعندما أتى تيموتيو الذي كان على بعد درجتين منها وقال وهو يقطب:

”لا بد أن لك قلباً من حجر كي تضربي طفلاً“.

توقفت مدام دومولونو وخرت ميتة، وأسفل خمارها صار وجهها أحمر اللون ورجعت للوراء وقالت بنبرات باردة وجادة.

هل تتوجهي إليّ أنا بالحديث؟

تيموتيو كان واقفاً منتصباً جداً، وعاد عائداً، لمن غيرك عساي أن يتحدث، تلك طريقة يعامل بها طفل؟ لو أنني كنت أم الطفل، لسرني أن أصفعك صفة جيدة!

دفعت مدام دومولينو بشكل غريزي سوطها، وعيون تيموتيو بدت الآن مثبتتين على عيونها وبإلحاح غريب، وبشكل متزايد رأينا نظرة غاضبة معها.

”انت أيها الرجل الوقح!“

وفي هذا الوقت، فإن تيموتيو تغير لونه، وقال ببطء، وعصاه قريبة منه مستعدة.

استدعى رجل المنزل، كما لو أن هناك واحداً،
وأخبره أن يسلح نفسه، حثيها أسنانه، ويخرج الآن
حالا.

مدام دو مولونه نظرت نحوه، وهزت كتفيها،
وغمغمت، أنت مجنون.

ولكن تيموثيو صرخ فيها.

أنا لا أعلم من أنت سيدتي، ولكن هناك أمر واحد
أكيد، أنت ليست بسيدة!

ومع تلفظ تلك الكلمات، انفجر بالحديث واهتز،
وقفز في مركبته وهز الأرض بشكل متكرر، بعصاه،
ومع هذا وبرغم عاصفة الغضب التي كانت تستعر
بداخله، فقد كان يفكر: "الآن أين باسم الشيطان رأيت
هذا الوجه من قبل؟"

وبمجرد أن فتحت الخادمة الباب، فإن مدام
دومولينو عبرت عبر ردهة المدخل، وهي تظهر
داء أسود اللون وبطول ذراعها، والسوط الذي
يتحرك غاضباً في يدها، فقد أسرع نحو نافذة غرفة
المعيشة، وأرادت أن ترى الرجل الذي أهانها، ولكن
المركبة قد ابتعدت بعيداً وشدتها، ولم ترى سوى ظهر
السائق وقبعة على إذنيه.

وقد ألقت بسوطها على كرسي، وفكت رباط قبعتها،
وفي يديها وفي القفازات الجلدية، التي كانت ماتزال
ترتعث بشكل طفيف سارت عدة خطوات غاضبة،
في الغرفة، وطريقة السير التي تميزها، وانحناء
جسمها، وخصرها المليء وشكلها عامة والغضب
جعل لقوامها الطويل يبدو أطول وكانت هناك لمعة
باردة في عيونها الغامقة اللون، وأسفل بودة الوجه
فإن وجنتها كانت تستعر وتوقفت عن السير وأسرع

بقفازها واتجهت إلى غرفة نومها، وصاحت:

ميلاني!

وأجرت الشقة المؤثثة بالكامل، وغرفة نومها، التي كانت تبدو مملّة مثل فندق، والبساط الموجود قريب من الطاولة والتي بلت من فرط الاستعمال والستائر التي توجد حول السرير وكان مصنوعاً من القطن الرفيع الرخيص، والستائر الأخرى في الغرفة والتي بدت زرقاء اللون، ومشغولة، وخافقة، ومغسولة، بفعل أشعة الشمس وكان هناك شقا في بلاستر السقف ومع هذا، بما أنه فنان، ومع ظل ماهر قليلاً، يمكنه أن يضفي سحراً وتفرداً على الشكل المنحوت الحجري لذا فإن جنوفاً نجحت في أن تجعل غرفتها تبدو ثرية ومثيرة، بمجرد إضافة لمسات قليلة ناعمة، والصوف الرائع الخاص به، غطاء عبراً لسرير، وشراشف من الكتان عليها وهناك صورتها الجريئة، وتاج الكونتيسة، ومزدان بالحريير الأحمر والدانتيل الرائعة لليل الذي كان منتنياً بعيداً في صندوق من الستان الأزرق. والجزء الذهبي العلوي المصنوع من مختلف زجاجات على رف الأدراج وعلى الطاولة الدائرية المغطاة بقطعة قبيحة من القماش الناعم والمصبوغ بصبغة رخيصة. حيث رقد جلد الثعبان المخطط ويحمل درجاً فضي اللون، وأيضاً ورقة جميلة، وورقة كتابة ذات علامة مائية باهظة الثمن، على الطاولة، في عناوين مبطنة بالقطيفة الحمراء مثل الكرز، ووجدنا صليب لامع من مقصها، ولمعان الملقاط، واللون البني الذهبي لأمشاط تشبه أصوات السلحفاة، وزوج من القفازات شاحبة اللون، والطويلة، وبعض الدانتيل التي تدلت من

الدرج المزدهم بالجوارب الحريرية التي بدت رقيقة جداً، لدرجة يسهل أن تتطاير معها، ورجعت للوراء في الهواء، ووقعت لفرد، وكان هناك عبق رائع أتى منها وفخامة، والمر والتتجل (عشب بحري).

ميلاني! صاحت بدون صبر أين أنت الآن؟ تعال وساعدني على إبدال ملابس!

وسرعان ما بدأت في فك الأزرار، وأصابعها ماتزال ترتعش من الغضب.

كانت ميلاني في الخامسة والعشرين وأنت من بلانكوس في البروفانس، ولكن كل ما احتفظت به من تلك الأرض الساخنة حيث تسيل الدماء وكانت عيونها الحالكة والشرهة والشهية وحركات من جسدها الجميل والطويل والرفيع، حيث تدرجت مثل حصى على نهر ونعمت، وحسنت وحفلات وازداد طول تلك الفتاة الجميلة والتي قمت لها منذ بضع سنوات من قبل، وكانت تتحب بمرارة، وقد تركت أسرتها وفرت مع كتالوني وبعدها مع رجل منتمي إلى الكارلية.

وبعده برازيلي، ولعدة سنوات كانت تعمل في فندق بورنجوس دوميويا دوبيرنا موبكو الكئيب كخادمة، في شارع لافاييت، وبعدها تاهت في أعماق باريس، حيث كانت تحيي في أحد أكثر الغرف العالية تعاسة واحدة بعد أخرى. وترقص بشكل محموم في ردهات الرقص، وكانت تتلقى مالا نظير تعبها من بعض الناس، وتتلقى ضربات من آخرين.

وقد انتقلت إلى جينوفيا من ام مدام دوبي وهي برتغالية متزوجة من ألماني كان حاكم ميتر في عام ١٨٧٠. ميلاني دربت من مدام بي وهي خادمة غرفة ممتازة، وفطنة، ونظيفة ومتحفة وتتحدث اللغة

البرتغالية كما لو أنها كانت من أهل البلد من لشبونة وبعيداً عن اللكنة البرازيلية الطفيفة نوعاً ما والتي التقطتها من أيامها في فندق بيرنامبوكو.

جينوفوفا اعتادت دوماً أن تتحدث معها بالبرتغالية، ومن الأفضل أن تسر لها بأسرارها، لأنها لم تكن تخفي أسراراً عن ميلاني، وحقاً، فإنها حكّت لها كل شيء، كما لو كانت إلى داخل دلو ماء قدر وأياً كان ما مر عبر رأسها، وأياً كان الشر غير عادي أو غير أخلاقي. ميلاني عشقتها، وهي حتى شعرت بالإنجذاب إلى جينوفيفا وبشكلها الجميل، لأن ميلاني كانت أكثر من أكثر فرد حسي في كل ليلة مرت، بدلاً من السكر الذي صار أكثر سكرًا، مع كل كوب نظيف من الخمر، سرت نوع من الهستيريا الجشعة وعتمت عينيها، وليس لأن تلك الأفكار الكابتة التي منعها من التنفيذ المتحمس لواجباتها.

وكانت خادمة ممتازة، لأنها ملكت روح التميز، وتعاملت مع ثياب جينوفيفا بإخلاص مثل الشيء مع ملابس قس، وكانت تتمتع بموهبة الخديعة والإيماء ولم يكن هناك أحد يضاهيها، في إبعاد مغرض ملحاح أو عشيق غير محظوظ، حيث أن لسانها الصغير الوردي اللون كان سائداً. في الكلمات التي تنتمي للبروفانس، واستطاع أن يخترع كذبة سهلة كاللعب وهي أيضاً كانت حريصة جداً في استخدام المال، وهي سمة قيمة في بيت فوضوي، لأنها تستطيع أن تفحص حسابات الطاهي ويسألها عن أسعارها وتهتم بكل قرش.

ومزجت طبيعتها الشكاكة التي تناسب شرطي ومع الحدة التي تميز الشخص الذي يعقد الصفقات من

المرتبة الثانية، وبقدميها الصغيرة، ومشيتها التي تشبه مشية القطط، خاصة تلك التي تسير فوق سطح ساخن أمكنها أن تجول وتلهو بقبعتها وتلقي بنظرات وقحة، وتغدو وتروح وتقول أكاذيب وتنظم الأشياء وتناول المياه، وتأكل أي شيء وتستخدم الرجال مثل أكثر الكائنات شراهة، واحداً تلو الآخر وأحياناً العديد منهم في نفس الوقت، ورغم أنهم لم يختلطوا بهم أبداً إلا أنها كانت تفضل في كل واحد متعة خاصة، هذا سبب نظرته اللامعة، والآخر بسبب عضلاته المشحودة، والآخرين لموهبة الفسق فقط، وعن الحب تقول، يا له من مزحة! كان الأمر تافهاً بالنسبة لها.

جينوفيفا صدمت عندما علمت أن ميلاني كانت قد اصطحبت ١١ رجلاً في هذا العام الفائت في وحده في باريس وأطلقت عليها اسم ميلاني آكلة الرجال وتولت الإشراف عليها وكانت تجلس على سريرها وعنقها الأبيض وذراعها عارية وجلدها المدلل، المعرض إلى نظام غذائي مكون من اللبن والمياه الثلجية، بدأ يمتص الضوء مثل بتلات زهر الكاميليا وساقبها تلمعان مثل العاج اللامع وذراعيها رفيفتين ونشطين ويشبهان النحت، ورقتها اللبنية وعضلاتها الثابتة تفحصان عن نشاط حتى عنقها أيضاً بدا فخوراً، وقوياً ونبيلاً وصدرها يمكن رؤيته من تحت اللباس الداخلي وتبدو عليها صرامة عذرية.

مدت قدمها نحو ميلاني التي خلعت عنها الحذاء، واللباس الداخلي الذي كانت ترتديه، وعندما ارتدت جينوفيفا الرداء الطويل من القماش الحريري الغامق اللون وضعت قدميها التي لبست عليها جورب حريري في زوج من الحذاء القطني الأزرق.

ها أنا وحدي، بدون زوج، بلا زوج، ولا ابن، ولا أخ، ولا أحد!

ما الخطأ، سيدتي؟ طرحت ميلاني السؤال وهي حائرة، وتثني ذراعيها الرفيعتين.

”يجب أن آخذ سوطي نحو وجهه!“

أخبر ميلاني المندھشة عن إهانة تيموثينو لها، رجل عجوز، ذا رجل خشبية مركبة، وقائد سيارة مسرعة بدا عجوزاً، إلى حد بعيد، وعمد على نفسه أن تخبرها أن تذهب بسبب طفل صغير دفعت عبر الطريق بسبب أنها علقت في تنورتها كان الوحش قد أتى فجأة من أسفل السلالم بينما كانت قادمة.

ربما نذهب في يد الكولونيل الإنجليزي لقد اصطدمت من قبل في اليوم الآخر في الواقع سنهور داماسو، كانت ينزل أسفل البرج معه. نعم الرجل الخشبية السيارة.

”أقول أنه هو.. نعم.“

سنهور داماسو هو أحق، قالت جنوفيفا وهي تنهض وتربط بتوتر الأزرار الحريريّة على رداءها، احضري لي زجاجة الجن، ميلاني بعض المزاء، أين السيدة الإنجليزية؟ إنها في غرفتها سيدتي. جالت ميلاني في الغرفة وحذاءها كان يصير عندما كانت تتمشى على السجادة.

جينوفوفا، كانت تتكى على كرسي عنده، وتشرب الجن ببطء وتسعل ودخان وترتاح رجلها معقودتان، ورفعته الحاجب الرفيع نوعاً ما، صار ناعماً ومخلصاً، مدت أنفها وقالت: لقد ذهب في ركوب سريع اليوم، وسار عبر شارع كله جدران وحدائق! رفعت عيونها للسماء زهي شاعرة بالضيق. وهذا

الرجل الممل داماسو يبدو متخلف عقلي، يا له من أحمق!

وضعت الزجاج للأسفل على الطاولة، ونهضت وعيونها فجأة صارت حالكة وقاسية.

انظر كالو أنت اسلت بالقارب التالي في عودتي إلى باريس! يا لها من بلدة غبية وناس أغبياء وحية غبية! أصدرت ميلاني تعليقاً عن المناخ والمدينة.

أه! أغلقوا دار النها أكرهكم، وأكره كل فرد آخر السيدة الإنجليزية أن تعود إلى غرفة المعيشة وتعزف البيانو وبعد كل شيء هذا هو ما أدفع لها نظير القيام به، وحبى له مزيد من الجد.

ترددت ميلاني، أنت تعلمين مؤخراً سيدتي أنت كنت تشربين كثيراً، أنه أمر سيء بالنسبة إلى الجلد. لا تبدئي في إساءة الوعظ لي أيضاً! صاحت جنوفيفا، لدي ما يكفي من اليوم، وحيد استمري ميلاني، أسرعى وأنه أمر سيء للجلد.

لا تبدأ في وعظي الآن أيضاً! صاحت جينيففا لقد كان لدي ما يكفي من يوم واحد. استمري ميلاني أسرعى أستدعي المرأة الإنجليزية.

تحدثت بحيوية غير صبورة، وبشكل فظ، ويتناقض بشكل بالغ مع وجهها المائل وشكلها المنحوت والأشبه بالتمثال، المعبر عن مزاج بارد هادئ وهي استمرت في احتساء الجن، الخاص بها وهي بدت معتادة على تلك العادة، التي اكتسبتها في لندن حيث كانت تحيي هناك مع اللورد بيلتن وسط الظلام والضباب الشرس حيث كل شيء يختفي، ويمتزج مع الحبر الممل والرث، والغير نفاذ وحيث وجدنا مصابيح الغاز غائمة، ونقاط بها طمي من الضوء وطبيعتها الجنونية

إذن، كان يستحوذ عليها حس فظيع من الملل، لدرجة أنها اتجهت إلى عادة شرب الجن لإبعاد البرودة عن روحها.

وحينها أقنعت نفسها أن الجن دفأ درجة حرارتها، وأعارها عنف طفيف ولكن جنون سار، للإثارة الحسية، وهي قد استمرت في استخدامها، ولكنها لم تشعر أبداً بل شربت منه الكثير من المياه، ولكن ما يكفي منه كي يشعر بالدفء والحيوية الأكثر كثافة والتي تدور بلمعان عبر كل عضلة.

ولكن ملحوظة ميلاني قد اصطدمت بالمنزل بسبب أن جنوفاً قد أتت، وهي غطت وجهها بفوطة رطبة والتقطت مرآة مدعمة بالعاج ونظرت فيها هي نفسها لا ليس جلد لها الذي بدا ناعماً أو أبيض اللون وخشناً نوعاً ما في الجوانب ربما ولكن لا توجد تجعيده وهناك شيء واحد أوضح عن عمرها وهناك حبوب أو خشونة في أنفها، ومثل التي توجد بفعل بودة الوجه الرخيصة الثمن. وحينها بدت ناعمة، وبلا خطوط ورغم سنواتها التسع والثلاثين حيث أن جمالها الرائع كان ما يزال في ذروته، كانت تحتاج إلى القليل من الألوان على شفتيها أحياناً لئلا تبدو مشقوقتين.

من الممكن أن تبقي جميلة حتى سن الخامسة والأربعين وبمساعدة من الحياة الباردة، والقليل من سلام الذهن مثلما تفكر وهي تبتسم، وفي تلك اللحظة مع هذا، فإن ميلاني أتت ومعها قطعة من الورق في يديها، أتت من رجل أراد المال لتأجير المركبة.

جينوفا كانت غاضبة لما جلالته؟، ما هي الدانتيل التي يأتوا ليضايقوها، مثلما فعلوا هكذا؟ وعندما رأوا

ميلاني مازالت تمسك بقطعة الورق في يديها، فإنها قالت:

خذها بعيداً! ما الذي يسعني أن أقوم بدمعة؟ ما سبب دفع المال له؟ من الأفضل لو أنني مت! لقد اعتقدت أنه عند مشاهدة كيفية الحصول على بعض المال أمس.. جينوفوفا ضربت بقدميها. وقد تلقى بعض المال أمس، ولكن هذا لم يعني أنها أرادت أن تنفقه، وهي شعرت بالدهشة من ميلاني وحقاً كانت هي، هل للمرء أن يفترض له أن يبطيء جيوب اللصوص؟ مرأتها كانت ما توال في يديها وأضاف:

أنت تعلمين ميلاني، أنك سيدة مختلفة منذ أننا غادرنا فرنسا لقد صرت أكثر نبلاً لابد أن الأمر له علاقة بهواء لشبونة.

وذهبت للوراء واتكأت في مقعدها كما لو كانت شاردة، وسحرتها رؤى داخلية راودتها مرة أخرى من الماضي وجالت أمامها، مثل مشاهد في مسرحية وكانت ضحية مثل تلك اللحظات من الذكريات والتأمل منذ أن عادت مرة أخرى للبرتغال، وفي تلك العادة الوليدة من النظر للوراء ومن الحلقة في الفراغ خبرت للمرة الأولى نذير شؤم غامض بالعمر المسن وحياتها حتى الآن كانت حافلة، وصعبة جداً ومعقدة، ومزدحمة بالأحداث والقلق والمشاعر التي دوماً ما عاشتها في إثارة اللحظة.

وقد أقلقت نفسها فقط بالعيش، لكن طوال الهدوء القسري لحياتها في "لشبونة" الريفية كانت تفحص ماضيها بين الحين والآخر، بالأحرى كرجل يمكن أن يتسلق برجاً شاهقاً لكي يتجسس الأرض.

إنها كانت تتخيل نفسها هاذية بحمى في بلدة قديمة كئيبة في شمال "أسبانيا"، بحجرة في حانة تقع مباشرة بجانب كنيسة، والتي أجراسها ترن في كل ساعة من اليوم، والتي أصبحت تمثل لها الصوت الكئيب للأبدية. وكانت تُخدم بواسطة امرأة عجوز ذات بشرة لون ورق الكتابة، ترتدى في شعرها مشطاً كبيراً لظهر سلحفاة، وتجتاز الوقت في وضع أوراق لعب على المائدة التي بجوار السرير، في ظل ضوء المصباح الزيتي النحاسي الطويل لكي تتنبأ بالمصير الذي ينتظر ابنها، والذي قد صعد مؤخراً إلى "مانيلا". ثم عندما تكون في حالة أفضل، وقادرة على الجلوس بجوار الشباك بمفردها، فإنها تحقق النظر إلى الشارع الكئيب ذا أحجار الرصف العريضة، وإلى المصاريع الضيقة للشبابيك المقابلة، وإلى البغل سائق العربة، وهو ذو غطاء حريري مربوط حول رأسه، والذي يتوقف خارج الحانة، محملاً بزقاق من الخمر. والفتيات تجتزن بخفة، ويشيرن أو يستدرن بفتور، ووشاح ملفوف بإحكام حول كتفيهن. ورجال متشحون بعباءات مزينة بأشرطة من المخمل القرمزي يدخلون إلى الحانة، وسيجارة في فمهم. وكهنة يرتدون وشاحاً مدفوعاً إلى الوراء، وغطاءاً مقوساً للرأس، يمرون بالحانة في طريقهم إلى الكاتدرائية.

ثم أصبحت في قرية بشمال "فرنسا" بالقرب من "روين" بالبيت المنخفض، حيث قد كانت تعيش مع رجل تكرهه بشدة، لكنها معه كانت تتجاوز حدود الفقر، والجهل باللغة، وفقدان العائلة. وكان ذلك في فصل الشتاء، ففي كل صباح تكون الشبابيك مغطاة بصقيع متجمد، فتجلس بجانب الموقد تشاهد الثلج

المستمر أو الرذاذ، والشماسي المفتوحة التي تمر بها مصحوبة بالضحك الريفى لبعض القرويين. وفي الليل يعود حبيبها، ويقع على الأرض بحكم قدره، متهاكاً بزيارة المرضى في قرى وبيوت. ويتناول شوربته ورأسه منحنيًا، ويلقى عليها نظرة سريعة حاقدة بين الحين والآخر.

وعندما يكون الجو حسنًا، فإنها تفتح الشباك. وفي المقابل حلاق يرتدي سترة محاطة بفرو لحمل صغير، ويلقي نظرة في اتجاه الجنوب من حوله، ويتمشى لأعلى ولأسفل، ينتظر زبائن، محدقاً نظره إلى السماء الشاحبة. وينظران إلى بعضهما البعض، كاثنين منفيين، ووجهاهما ممتلئان بنفس الشوق للشمس والدول الحارة. ثم عندما يحل الظلام، فإنها تجلس على البيانو، وتعزف أغاني من "البرتغال" أو "أسبانيا". ومعلم المدرسة بالقرية، وهو في طريقه من المدرسة إلى البيت، يسمع تلك الأنغام الجميلة، حيث يتوقف ويصغي، وكتبه المدرسية بيده.

ثم تخيلت نفسها مغادرة في عربة بأربعة أحصنة، متجهة إلى "البيرينيه"، وحية أخرى في "لوز": السير على طول الطريق إلى القديس "سوفور" عبر الجسر بالقرب من "جافي"، وعلى طول طريق أشجار الدردار. وهناك تقف، وتشاهد سيلاً من الرغاوي يتدفق من الصخرة الداكنة، والتي تزال دكنتها فقط بلصوق تجميلية فجائية لنبات أخضر داكن، والذي ينمو بشكل غير مرتب وجاف على طول المصارف شديدة الانحدار. وتشاهد الأجانب يضحكون، وهم يمرون على حمير تسرع مكتئبة. ووجدت في المقاطع اللفظية المفتوحة العريضة للهجة العامية الجبلية شيئاً

ما من العذوبة للغتها الخاصة. هل تلك الحياة الحقيرة الكئيبة لن تنتهي أبداً؟ فبياض الجليد، والجمال الأبى للنبات الداكن جعلها تشناق للمدن، وللشوارع الضيقة المحاطة بأبنية شاهقة. فتلك الطبيعة أشعرتها بالملل، واشتاقت إلى المسرح، وإلى الصخب لحياة المقهى.

ثم قد التقت بالسيد "بيلتون"، وتخيلت نفسها مرة أخرى في البيت الرائع في غابة القديس "يوحنا وود"، بـ"لندن"، حيث قد عاشت لعدة سنوات. وفي كل صباح كان ينبغي على الخادمة ذات الذراعين الحمرأوين الممتلئين والعاريين تماماً أن تبيض الثلاث درجات الأمامية. وكان هذا في فصل الصيف، وكانت الأشجار في الحديقة خضراء عذبة جميلة. وسيارات الأجرة تُقاد في صمت على الطرقات السطحية البيضاء. وغير ذلك كانت تستطيع أن تسمع الدندنة المملة المستمرة الضخمة في "لندن".

وكانت تخرج هناك لنزهة مبكرة رقيقة بالخيال في حديقة "هايد بارك"، تسرع فوق الأرض السوداء المخضضة، وتسمع صرير الجلد الجديد لصهوة الفرس، وتشاهد العشب يزداد اخضراره وسط الجذوع المهيبة لأشجار الكستناء، أو أيضاً تنتزه أسفل الشمس الفضية الشاحبة في شارع "ريجنت" بواجهاته العريضة المدهونة بالكريم، والتي عليها الذهب بحروف سوداء يلمع مثل الجديد. وحشد حاد الطبع نافذ الصبر يملأ الأرصفة. وقوارب تبحر هناك على النهر الواسع. وصفوف من العربات تسير عبر الشارع في هدوء: العربة ذات الأربع عجلات يحتلها رجال كبار السن ذي شعر أبيض، وتُقاد بواسطة سائقين سمناء صامتين. وعربات سريعة خفيفة الوزن

أحياناً ما تعطي لمحة لصورة جانبية بيضاء كزهرة الكاملية.

سيارات الأجرة المزعجة، وسيارات عمومية ضخمة مزدحمة تُدار بواسطة قائدين يرتدون الزي الرسمي الأحمر، تتسكع في الشوارع المزدهمة، حاملة الحروف السوداء الطويلة لإعلانات عن السلع. والسيارات السياحية تمر بسرعة لا مبالية. والمركبات الخفيفة ذات العجلتين تُقاد بسرعة ساحقة بواسطة رجال ذي ملامح قاسية، عقولهم في المال، يكشفون بينما يتحدثون، غير صبورين، كرباج على أهبة الاستعداد. ثم يتوقف كل شيء، ويجري الناس، وتحمل السيدات طية من الحزم في تنانيرهن، ويفتحن شمسياتهن، ويعبرن جميعهن الطريق. والشرطي يخفض ذراعه مرة أخرى، وصفوف العربات تجتاز بهدوء، والشمس تلمع على طقم الخيول ومحاور العجلة الفضية. وعلى كلا الجانبين، خلف واجهات المحل جواهر تلمع في مخمل أسود يعرض مجموعات، وأطوال لامعة لحريير يدخل في طيات فخمة، وملونة باللون الأسود أو بشكل رائع. فالشالات الكشمير التي من "الهند" تتدلى من مناجل من العاج. والصفوف الملونة لقبعات ذات ريش مرفرف، والتي تلوح كطيور نادرة. والمخامل داكنة وناعمة الملمس. وفي أعماق المتجر كراسي ضخمة ذات ذراعين تعرض مقاعد من ساتان مطرز. ومرايا فينيسية تعيد انعكاسات لامعة متباينة. وخارجاً الأصوات المزعجة لفتيان يبيعون جرائد، حيث ينادون على أخبار العالم: سعر الأسهم المالية، وصدى حرب ما منذ زمن بعيد.

ثم بدا لها أنها ترى "لندن" في ليلة ممطرة. وقعة
 لعربات تجعل المدينة تضج. وفاترينا المحل تصبح
 فارغة فجأة. وآلاف من سيارات الأجرة تخترق عتمة
 الشوارع بفوانيسها ككثير من عيون محتقنة بالدم.
 وبريق الحانات، وسكاري يترنحون خارجها. ورجال
 الشرطة يمارسون صولجان سلطتهم ليسيطروا
 على الجموع. وصوت لبوق يعلن عن وصول لقائد
 يصرف الضوضاء. وهناك أسفل رواق دار الأوبرا
 طقطقة لخطوات عربية تنزل إلى أسفل. وفي الداخل
 الحفيف الحذر لثياب حريرية على طول ممرات ذات
 أرضية ناعمة. والحراسة الخاصة للغرنا، يرتدون
 شاكو، ويقفون بلا حركة في زاوية واحدة. وفي
 المدرج يحل صمت مفاجئ، وأكتاف عارية تلمع
 في الضوء. وهناك همس هادئ، ونسمة من عطر،
 والريش الأبيض الذي يرتديه شاغلوا منصة المدرج
 من السيدات في المربعات يهتز قليلاً. والسادة دائماً
 ما يصمدون في صمت وأدب بالغ لبرامج رفاقهم،
 والمطبوعة على ورقة لامعة ذات رائحة غالية الثمن.
 ثم يحين وقت الذهاب إلى البيت. ونحو الساعة
 الحادية عشر تصبح المدينة حجرة واسعة مظلمة.
 فنوافذ محلات بيع السجائر تكون مضاءة بأنوار
 لامعة تنير السجائر المعتمدة داخلها. والبارات المحارة
 تكون مفتوحة، وتبيع جراد البحر وجمبري على أسرة
 لإذابة الثلج برقة....

نعم، قد ازداد تعلقها بـ "لندن"..... وهناك قد وجدت
 الحب. فتذكرت هروبها مع "جورج استرووليس"
 القاسي، وعبورها القناة في ليلة عاصفة. ونزلت
 على درج السلم إلى داخل مقصورة المركبة، ملفوفة

بشال، قادرة بالكاد على التحدث، في ألم من القيء. واستطاعت أن تسمع الموجات وهي ترتطم بسطح المركب، وصفارة الإنذار، وهدوء القبطان، وصوتاً قوياً يدوي. وبدا كما لو أن الضباب لن ينقشع أبداً. وظل جرس كئيب يرن في مقدمة المركب. واستطاعت أن تسمع صفارة الإنذار حتى وهي لم تنزل مريضة، وشبه نائمة في أحضان "جورج"، حتى وصلت أخيراً إلى "باريس".

آه، تلك الأيام الأولى في فندق "ميرابو"، في شارع "باو"، يا لها من سعادة!، وبدا الهواء نقياً بالنسبة لها، والأبنية تبتسم، والوجوه تشع بإبتهاج، والأصوات مهدولة. وقد اختفي العنف الوحش لـ "لندن" الوحشية. حيث كانت هناك مدينة صغيرة ساحرة، مليئة بالورود، والشمس والعطر، وملفوفة بسماء زرقاء كجوهر في قطن طبي.

ثم أتى اليوم الذي تركها فيه، آه، الدموع، الغيرة. وكبيلة في رواية قد بدت "هي" أيضاً مشتاقة للنزول في نهر السين. وتخيلت كيف أن جثتها ستظهر موضوعة في المشرحة، على ترابيزة التشريح الملساء الباردة، بنزيف يقطر على جسمها الأخضر الغارق.

والمدينة التي حتى ذلك الوقت قد كانت تبدو ودية ومرحة وبهيجة ومرحبة وسلسلة، الآن أرهبتها بأنانيتها الصريحة. والوجوه التي قد كانت تبدو قبلاً أنها تعكس صفاءً لامعاً، الآن بدت أكثر برودة من واجهات البيوت. إنها احتقرت النظر إلى العربات المنجدة بالساتان، في حين أنها اضطرت إلى أن تسير في الطين، وبآخر زوج لها من الأحذية. واشمئزت من

كل تلك المأكولات الغنية المعروضة للبيع في محلات البقالة، وكل تلك الأطباق الفضية في المطاعم، عندما كان بإمكانها فقط أن تحمل كسرة من الخبز وسجق. لكن كفتاة برتغالية حسنة كانت تتضرع كل ليلة لسيدة الفرع أن ترسل إليها رجلاً غنياً.

ثم أتت الليالي الطويلة في شارع "بوليفارد"، والبحث عن المال، عن "ليبرا"، حتى عشرين من "مل رايس". إنها لن تنسى تلك الليالي مطلقاً: ففي البداية كانت تبدو مفعمة بالأمل: فعلى كلا جانبيها كان "البوليفارد" متقدماً بالأضواء المزعجة من مطاعم ومقاهي، ولمعان وبريق لجواهر وحرير في القтарين. إن "السمراء الصغيرة" كانت ممتلئة بإثارة حماسية لتري ترابيزات المقهى تملأ الأرصفة، وألف نقطة من الضوء تصدر من فوانيس العربية، وتوهج أكشاك بيع الصحف، ولتسمع الصوت المكتوم لخطوات الأقدام وهي تجتاز بسرعة، وأوتار الآلة المتباعدة الغير واضحة الصادرة من أوركسترا المسرح. وكان يبدو على الجميع أنهم سعيون ومسرون. وفي وسط كل ذلك المال، وكل ذلك الفرع، كيف يمكن لعملة ذهبية واحدة، واحدة فقط، أن تفشل لتقع في يدها الممدودة؟

ولم تكن متعجلة. فبدا لها أن لابد لكل أولئك الرجال أن يأتوا ويتحدثوا إليها. لكن لأنها كانت خجولة وجبانة وعديمة الخبرة لم تفعل شيئاً لتتغلب على ذلك الخجل. بل أنها تراجعت إلى الداخل، وجلست على كرسي أسفل أغصان شجرة فارعة الطول، وانتظرت.

أما الشوارع التي كانت مليئة بمقاهي خلعت تدريجياً، وبدأت امتدادات الرصيف خالية وواسعة،

حيث كانت ممثلة فقط ببرك من الضوء الصادر من نوافذ المقهى. وعندئذ وقفت، ونزلت إلى "بوليفارد"، لكن لو نظر رجل إليها كثيراً، فسيعود إليها الشعور بالخجل، وستنظر بعيداً، مستاءة وبوجه كالح. وأخيراً انطفأت أيضاً الأضواء التي في المحلات التجارية، وساد الظلام. وبدأ سفرجية المقاهي السمناء في إغلاق أبواب المقاهي. فشعرت حينئذ بنفاذ الصبر، وبحاجة إلى التصرف والتحرك وفعل شيء ما. وفي هذه اللحظة كان هناك عربات أقل، وقد مرت السيارة العمومية الأخيرة. وانطفأت كل الأضواء. وكل ما كان يمكن سماعه في الشوارع الخالية هي الخطوة البطيئة لشاويش المدينة.

ثم ذهبت للبحث عن صديقتها الوحيدة، وهي سيدة إنجليزية تُدعى الأنسة "ماجواير"، طويلة ونحيلة كعمود، وذات شحوب مشمع للسّل. ففي صباح كل يوم تكح دماً. وتسكر يومياً، وحينئذ يدخلها نوع من الغيظ، وحاجة إلى الاضطراب والضوضاء والفجور. فتذهب إلى السرير مع رجال مجاناً، للخروج من حالة اليأس، ووجهها أخضر تقريباً، وكفي يديها لزجين من العرق.

وكثيراً ما لم تأكل طوال اليوم. فإنها تجلس على مقعد في مقهى "روش"، أو تسير على طول "بوليفارد" كابوسينيز، ويديها ترتعش، ومعدتها خاوية، وابتسامة غامضة على شفيتها، آملة أن يدعوها شخص ما على العشاء، لكنها تجد بدلاً من ذلك أجنبياً ما ذو ولع بسيدات فرنسية بثمن رخيص، حيث يقدم إلى الفتاة الفقيرة الجائعة جمبري وبيرة فقط!

وعلى الرغم من ذلك أشفقت سيدة الفرع على

”جينوفيفا“ أخيراً. فالرجل الغني الذي قد صليت لأجله ظهر فجأة، كما لو كان سحراً. إنه يمكنها أن تتذكر بصعوبة كيف قد إلتقيا. فمخها العاجز، المخدر الناشيء على معاناة وفسق ونبذ، نادراً ما يحتفظ بأية مشاعر على الإطلاق. فكانت هناك أفكار تتدفق عبر عقلها كالمياه. لكنها قابلته، وتولى مسئولية حياتها. إنه الكونت ”مولينو“، زوجها.

إنها عاشت معه إثني عشر عاماً. إنه عجز جداً وكرهه تماماً!، فكان يصدر ضجة مثيرة للإشمئزاز عندما يتناول الطعام. وكانت بشرة وجهه مترهلة ومجعدة. وليس لديه أسنان، ورأسه الأصلع مشوب باللون الأصفر. لكن بالإضافة إلى كونه متشائماً وفاجراً حقيراً، كان ثرياً للغاية. فقد خدم السلطة، وكان لديه مائة من السادة: ”لويس الثامن عشر“، و”شارل العاشر“، و”لويس فيليب“، والجمهورية، والإمبراطورية. فإنه يحب السلطة جداً، لدرجة أنه يسجد أمام أي أحد يصل إلى السلطة، ولسانه متدلياً خارج فمه، على إستعداد ليلحس حذاء الوافد الجديد مهما يكن ما على ذلك الحذاء، طيناً أم دماً.

إنه كان يشعر بحب لا حدود له للإمبراطورية، لأنها قد أتقت إثنين من الفنون الحاسمة لحياة الفسق الطبخ والفجور. فكان يحبها جداً للمزايا التي جلبتها له: فإنه يحب الدستور، والإمبراطور، وابن الإمبراطور، حتى كلب الإمبراطور. وكانت النقطة الحاسمة ليومه هي العشاء، والذي كان يُقدم له في حجرة نومه. إنه يتباطأ في تناوله، قابعاً بينما يمضغ ويلحس أصابعه، ورأسه متدلياً، ويداه راسختان على المائدة، وجفناه متدليان، وشفته مدهنتان. واضطرت هي التعيسة إلى

أن تكون واقفة بجانبه، وهي نصف عارية، ناضرة تماماً ومعطرة بشكل شاذ، فقط حتى يستطيع أن يعبر بيديه، والتي لم تزلأ لزوجتين بالصلصة، لأعلى ولأسفل رجليها.

آه، لكن، من ناحية أخرى، كانت الحياة جميلة!، فأكثر ما كانت تحبه هي الأمسيات التي قضتها في "بوا" في فصل الربيع. فكانت تجلس مبتسمة أسفل شمسيتها الحريرية، مغمورة بإحساس من الرفاهية الشديدة، شاعرة بسعادة غامضة تنبثق من كل شيء حولها: من الليلة الناعمة، من أشجار الكستناء في "الشانزليزيه"، من الرائحة الشهية لمسحوق الوجه، من سطح البحيرة اللامع الناعم سعادة مستمرة، متواصلة وجميلة، تملأ قلبها كما يملأ الماء الإسفنج. وكانت تقيم في شارع "بلزاك". وقد استثمرت المال. فكانت أحصنتها معروفة ومعترفاً بها. وتبنت الطريقة المتحفظة لسيدة متزوجة، لكنها رحبت بحذر شديد، وبموجة من التواضع، بموظف حكومي من وزارة الشيءون الخارجية، فيكونت "ريشانتي" فقط لتضفي بعضاً من الرومانسية على حياتها. وكانت ترتدي زياً أسوداً بالكامل، حاملة كتاب الصلاة الخاص بها، كفاجرة خاشعة، وكانت تزوره بعربة مؤجرة. وتحضر إلى كنيسة القديس "توما الأكويني". إنها كانت مؤيدة للإمبراطورية، ولم تهمل أبداً في أن ترتدي الباقة اللازمة من زهور البنفسج. إنها كانت ذات مظهر لحمامة متغذية جيداً. وكانت تحتفظ بمائدة ممتازة. وكانت فخورة بسائسها، فتى في السادسة عشر من عمره، جميلاً كملاك، وفاسداً جداً، حيث كان يعيش سابقاً مع سيدة في الخمسين من العمر، وقد

أصابه مرض فاحش مخيف جداً، حتى أن الدكتور "ريتشارد" قد أصبح شاحباً، خوفاً من أن يكون هذا نوعاً ما من الطاعون الموروث من القرن السادس عشر، من عصر "جوبيلي". إنها كانت تحكي هذه الحقيقة إلى صديقاتها ضاحكة، مسرورة وفخورة لتكون مالكة لمسح كهذا.

وكانت جميع السيدات الأخريات تحسدها. ثم أتت سنة الحرب المرعبة. لحظة من السعادة السامية. ففي اليوم الذي أعلن فيه مجلس الشيوخ الذهاب إلى الحرب، خصص الكونت "مولينو" عشاءاً. فإنه كان ذلك أيضاً من أسعد أيام حياته. وارتدت فستانها الكريمي والمزين تماماً بزهور البنفسج. فحبيبها، فيكونت "ريشانتاي"، كان لا بد له أن يرافق الوزير والذي كان يحمل إعلان الحرب على "برلين". وعندما فكرت في بداياتها في بلدة صغيرة مهملة مجهولة في "البرتغال"، امتلأت بالفخر في أن تجد نفسها هنا في ذلك اليوم التاريخي، وأن يكون لديها حول مائنتها دبلوماسيون، وإثنان من القادة المتحمسين للمشاجرة، وإثنان من أعضاء مجلس الشيوخ، واللذان في صباح ذلك اليوم بالذات، بتهليل قد صوتوا لصالح الحرب. كيف قد تحدثت بلهجتها الفرنسية السيئة لدرجة أنها لم تفقدها تماماً!، وكان الجميع متأكدين من الانتصار، وبإبتسامة متكبرة ظلوا يكررون كلمات الإمبراطور: "إنها حربي الصغيرة".

نعم، إنها حرب صغيرة بالنسبة لجلالة الإمبراطور. وإبتسموا جميعاً بإبتهاج غامر. وليس بعد ذلك بوقت طويل، اضطرتا "هي" و"الكونت" أن يحزما حقائبهما، ويهربا إلى "بروكسل".

وهناك قد قضيا شتاءً كئيباً بفندق. فعلمت بمصرع "الفيكونت" في معركة "بريفات". وعندما عادا إلى "باريس" بعد اللجنة الثورية الباريسية، في نفس اليوم الذي كان عليهما أن يخرا على قدميهما للدولة الجمهورية، عانى "الكونت" من نوبة سكتية، وسقط ميتاً على السجادة، وفمه ثابت في شكل خبيث، الفاسق العجوز!

ولم يضع أية وصية. فذهبت كل ممتلكاته إلى بعض أبناء أشقائه البعيدين في "تورماندي". وتركت "جينوفيفا" مع أثاثها، ومجوهراتها، وإيراد يُقدر بثلاثة آلاف من الفرنكات. تعيسة!

ولمدة عام تراجعت إلى حالة النسيان، حيث كانت تعيش على لا شيء تقريباً. لكن بمجرد ما كان يبدو الفقر على وشك أن يلوح في الأفق، أرسلت "سيدة الفرع" إليها البرازيلي "جوميس". وكان غنياً للغاية، لكنه نحيف بشكل هيكلي، ذو عينيْن داكنتين صغيرتين، ولحية سوداء، وبشرة بلون الجلد المغربي. وأعاد "جينوفيفا" إلى حياة الرفاهية، وطافا كلاهما جميع أنحاء "أوربا"، إلى أقصى "القديس بطرسبرج". وعرض عليها أن يأخذها معه إلى "البرازيل". وقبلت ذلك في لحظة ملل. وشعرت فجأة بأنها متعبة جداً حتى يمكنها أن تنطلق في جميع الأنحاء مرة أخرى، وكانت آملة في أن تتزوج. لكنها كانت تكرهه، فكانت مشمئزة من لحمه، حيث أن المرض الجلدي الذي كان يعاني منه تركه مكسواً ببقع حمراء. وعندما وصلا إلى "لشبونة"، وواجهت "جينوفيفا" ذلك المحيط لتعبه، وباحتمال للإصابة بدوار البحر، و"البرازيل" والاتصال المستمر بذلك الرجل القبيح، أعيقت كسيدة

ما تلمس قطعة من اللحم، وتشعر بإرتفاع المرارية في حلقها. و"البرازيلي"، الذي ربما كان يندم أنه قد عرض عليها مثل ذلك العرض سابقاً، قبل تقليبها بقلب شبه شاكر، وأعطاه ثلاث مائة من "الليبرا"، ثم غادر.

ولذلك كانت هناك في "لشبونة". لكن إلى أي مدى؟، فهزت كتفيها، وسكبت لنفسها بقية زجاجة النبيذ.

فانفتح الباب ببطء، وبصوت صاحب تساءلت الأنسة "سارة" قائلة:

"هل أنت لائقة يا عزيزتي؟"

فأخبرتها "جينوفيفا" بفضاضة أنها ليست كذلك. وأرادت فقط أن تعزف لها بعضاً من الموسيقى. وإنها ستتضم إليها في الصالون حالاً.

فنزلت الأنسة "سارة" إلى الصالون، وجلست على مقعد البيانو. ومسحت نظارتها بمنديلها، وارتدتها. ثم ثبتت كوعياها الحادين، وشدت عضلات رقبتها. وبدأت تغني بصوتٍ حامض، مؤدية بنفسها دوراً غنائياً مصاحباً مملاً على البيانو:

"الوردة الأخيرة من فصل الصيف....."

لكن عندما لم تخرج "جينوفيفا" من حجرتها بعد، توقفت الأنسة "سارة" عن الغناء، ونظرت حولها، وخلعت نظارتها، وعلقت يديها المسترجلتين الهزيلتين على حضنها، ثم أخرجت تنهيدة عميقة.

وفي ضوء النهار بدت بشرتها أخشن وأكثر جفافاً، مع بقع حمراء على خديها وعلى أنفها العظمية الطويلة. وكان جبينها البارز المحدب شاحباً ولامعاً. وكان شعرها ممشطاً مرة أخرى من منبت شعرها

المتساقط بعض الشيء، وملفوفاً حول رأسها. وبدا فستانها الحريري الأسود أنه يكسو هيكلًا من الخشب، مجرداً من المعالم الناعمة. وكان هناك شيء ما متجمداً ومتهماً حول عينيها الزرقاوين الباردتين القاسيتين. فإنها كانت تسكب كل الهوان المفروض عليها بحكم الضرورة في ابتسامات باردة، لدرجة أنها تكشف عن أسنان لاحمة كبيرة.

إنها كانت حزينة. وكانت تتحدث قليلاً، حيث تنطق فقط بجمل قصيرة، بل بجمل جامعة مانعة. فكانت تعطي إشارات مبهمة غامضة إلى ماضيها الغامض المجهول. وأحياناً ما كانت تشير إلى أسماء إنجليزية من عالم المال أو من الطبقة الأرستقراطية، وكانت كل لفظة ونظرة مشبعة بالشوق إلى أولئك المعارف اللامعين. وعندما كانت "جينوفيفا" تظهر بزي ما فخم بشكل غير عادي، فكانت تعتبرها الأنسة "سارة" بهزة خفيفة للرأس، وشفيتها مبرومتين، كما لو كانت تتذكر الرفاهيات التي فقدتها منذ فترة طويلة. وكثيراً ما كان يزداد حديثها ضبابية بشوق كئيب للأيام التي لم تكن فيها تعتمد على أحد، وعندما كان لديها بيت ملك لها، بيت. ومن ناحية أخرى كان لديها كل التحفظ الممل للجزر البريطانية العظيمة، كما تدعوها. وجعلت نفسها شيئاً يتعذر الوصول إليه تماماً كجزيرة منعزلة شديدة الانحدار. وكانت تقف منتصبه جداً، وتتقلد مظهر الضحية بشكل دائم. وكرهها للبلدان الكاثوليكية التي قد عاشت بها فقط زاد من بروتستانتيتها المتزمتة. فإن أكثر طبعة حجرية طاهرة لقديسين أو للمسيح يجعلها تنشف شفيتها المبرومتين في إحتقار مطلق لوثنية كهذه. وكانت تشعر في كل مكان، باستثناء

”إنجلترا“، بعدم الإرتياح إلى أبعد حد. فالشبابيك لا تُغلق أبداً كما ينبغي، وكل وجبة طعام تقلب معدتها. والفرنسيون والبرتغاليون في ”فرنسا“ و”البرتغال“ هم الأجانب. فإنها ليست أجنبية مطلقاً لأنها إنجليزية. ولديها نقطة ضعف سرية للكحول وشهية كبيرة للروايات الإنجليزية العاطفية الطفولية. وعندما كانت تتحدث عن رجال أو عن الحب، بالتحفظ المحتقر لعذراء زاهدة، كانت تواجه بعض لحظات غامضة لشهوة باردة.

إنها كانت تكره ”جينوفيفا“ بشدة بسبب ملابسها، وعلاقاتها الغرامية، وشحوبها بعد الجماع، وعرباتها..... وفوق كل ذلك لأنها تتلقى راتباً منها. وبكونها خادمة لسيدة أجنبية أضفي مرارة من الخزي على كآبة الفقر. ومع ذلك لم تتمرد، لكنها رضيت بقدرها. وفي الوقت نفسه ازدادت نحافتها، وكانت تتحدث بشكل أكثر تكراراً عن ”الواجب“.

وقد كانت ”جينوفيفا“ عشيقة ”جوميس“ عندما التقت لأول مرة بالآنسة ”سارة“، وقد تبنتها في محاولة منها لتضع لها حياتها الخاصة على قدم أكثر صلابة، وإيماناً منها أنه عندما يكون لديها رفيقة رزينة وقورة مستحقة الدفع ربما يعطي لحياتها مظهراً من الطبيعية. وقد كانت الآنسة ”سارة“ موصى بها إلى ”جينوفيفا“ على أنها إنسانة قد عانت من سوء الحظ في حياتها. وهي هادئة، واقتصادية جداً، ومتدينة، وعازفة جيدة للبيانو.

وسرعان ما أدركت ”جينوفيفا“ أن الآنسة ”سارة“ تعرف قليلاً عن الدين، وكذلك عن الموسيقى. فأسفل أصابعها العظمية ذبلت أكثر الأنغام غموضاً وبطناً،

وأصبحت مسيرات حادة مزعجة، والتي بها العلامات الموسيقية التي تقع كضربات لفأس. فكانت تعزف بينما تسير بدقة، وبطريقة آلية، وبلا حياة.

وبقيت "جينوفيفا" على الأنسة "سارة" لأن ملابسها المتزمتة، ونظارتها ذات الزجاج المعتم، وأطراف أكمامها النظيفة، وأنفها الحادة، كانت جميعها موحية بأسرة ذات عادات جلييلة، وأوقات منتظمة، وفواتير مدفوعة على وجه السرعة، وأشياء جميعها تعمل على مصلحتها في تسوقاتها. وبرؤية المظهر النحيف المتشح بالسواد في صالون "جينوفيفا" يمنح الرجال ثقة. فإنها كانت تشبه صورة قديسة موضوعة عند مدخل لبیت دعارة. وقد قالت "جينوفيفا" ذات يوم: "إنها بديلة عن والدتي"، "فقط أرخص بكثير".

واللحظة التي دخلت فيها "جينوفيفا" إلى الحجرة، ارتدت الأنسة "سارة" نظارتها مرة أخرى، وبدأت تدق على لوحة مفاتيح البيانو بأصابعها الحمراء الطويلة، والتي تشبه أرجل السلطعون، واستغرقت مرة أخرى في اللحن الأيرلندي الكئيب.

"الوردة الأخيرة من فصل الصيف....."

"أوه، لا، من فضلك، ليس أكثر من الوردة الأخيرة من فصل الصيف!، فقد كان لدى ما يكفي من ذلك" فتوقفت الأنسة "سارة" عن الغناء، وتصفحت ورق الموسيقى الذي على البيانو، وعلى الفور بدأت تغني بنبرات متلاطمة:

"أوراق شجر ميتة! أوراق شجر ميتة!"

"لا، ليس ذلك أيضاً!"

وبدأت تخطو حول الحجرة، وفستانها الحريري يحدث حفيفاً. ودائماً ما كانت "جينوفيفا" توبخها على

اختيارها لأغان كثيفة حزينة. فقد كان لديها ما يكفي من عاطفية. فكانت تريد شيئاً ما سعيداً، شيئاً ما مرحاً.....

فخلعت الآنسة "سارة" نظارتها، وبدأت تدور بشكل دائري على مقعد البيانو. وأكدت أنها سعيدة لتقول أنه لم يكن من عاداتها أبداً أن تغني أو أن تتعلم مثل تلك الأنغام المزعجة.

فقالت "جينوفيفا" بالبرتغالية: "أوه، انصرفي. إنكِ منافقة قديمة!"

أما الآنسة "سارة"، والتي استشعرت بالغضب في صوت "جينوفيفا"، وقفت على قدميها بكرامة عظيمة، واجتازت إلى الباب، ثم استدارت وعلقت على أن "جينوفيفا" متعكرة المزاج بشكل واضح.

فقالت "جينوفيفا": "نعم، إنني كذلك"

فشعرت السيدة الإنجليزية أنه من واجبها المسيحي أن تجلس وتعزيها. فإنها أيضاً كانت حزينة. فنحن جميعاً لدينا أحزان. فهي نفسها قد استلمت للتو بعض الرسائل من "إنجلترا".

فقاطعتها "جينوفيفا" مرة أخرى. فهي لم ترد أن تصغى إلى أحزانها. فهي لديها ما يكفي تماماً من أحزان خاصة بها دون أن تصغى إلى أحزان أشخاص آخرين.

فجلست "جينوفيفا" على البيانو. فقد درست في "باريس"، لكنها لم تتجاوز مطلقاً العزف على السلالم الموسيقية، والتي قد ألحقتها على جميع من كانت تعرفهم بهدوء وثبات. لكنها كانت تعرف الدور المصاحب لبعض من أغان صعبة قليلاً. وكانت هناك أغنية واحدة على وجه الخصوص مغرمة بها بصورة

خاصة: "عاشق" أماندا"، والتي ذات صيف قد كانت "فرنسا" بأكملها تغنيها. وبصوت حماسي دافئ غنت بالفرنسية قائلة:

"كل امرأة لها عشقها،"

"نقطة ضعفها وصورة فرسها".

"أماندا" تدعوني

"ذات يوم بين اثنين من النظرات....."

فوقفت الآنسة "سارة"، وغادرت الحجرة في صمت. و"جينوفيا" برأسها المرفوع عالياً، وإبتسامة عابثة على شفثيها، كانت تغنى بالفرنسية العامية الخشنة لقاعة الموسيقى. واستبدلت الكلمات التي لم تعرفها بالكثير من أ - أ - أ، ثم تدغم الكلمات بصوت خشن شديد التحدر، منتهياً ب:

"انظروا هذا الولد الجميل،"

"إنه عاشق أ....."

"إنه عاشق أ....."

"انظروا هذا الولد الجميل،"

"إنه عاشق أ....."

".....ماندا!"

وبمجرد ما تمرنت على موازينها الموسيقية، بسرعة وبغير خبرة، حينئذ وقفت، وهزت يديها، غاضبة وحزينة.

فتلك النعمة أعادت إليها ذكرياتها في "باريس"، وذكريات الصيف، حيث تكون الحقائق ممثلة بالزهور، وتزداد خضرة الأشجار، وتغني النوافير في أحواضها الرخامية. والحياة بأكملها تلمع، وفساتين شاحبة لسيدات تتضح بروائح منعشة. وكذلك هناك أفراح الريف، والأكواخ المكسوة بالخضرة،

وصيد الأسماك على نهر السين، وارتداء قبعة قشبية، والنادي الإجتماعي حيث يغني الناس، مع الشبابيك المفتوحة على مصراعيها، والنسيم النابع من النهر في صباحات حارة، وعندما تلمع الرمال، وتبرق اليخوت وهي تخترق المياه الراكدة.

فكل شيء حولها جعلها تشعر بالحزن والملل: الحجرة ذات السجادة الرخيصة، وباب الشرفة ذو الألواح الزجاجية الصغيرة، والذي ينفذ منه ضوء النهار بصعوبة. وزاوية الرف المبتذلة للمائدة، والتي بها إثنان من عرائس خزفية من "فيستا أليغري". والسرير المنخفض ذو المفروش الذي من النسيج القطني الأبيض، والشمعدانات المزينة بشاش أحمر يطير مع الريح قليلاً. كل هذا أحزنها.

وكانت هناك كآبة حدادية تخيم على الشارع، كما لو كان متشحاً برداء ثقيل. إنها كانت تقيم بالقرب من "أركوبانديرا"، حيث أن هناك مجيئاً وذهاباً بشكل مستمر لفتيان يقضون حاجة، وصلصلة لأكواب على حافة النافورة. وكان الماء يترك بعضاً من جداول طينية على الأرض. وعند باب محل الأقمشة المقابل هناك برميل ضخم لزبدة تبدو نتنة. وكان معلقاً هناك لحم خنزير، أبيض ذا عناقيد من شحوم حيوانية. وفوق تلك البيوت كان يمكنها أن ترى جزءاً من واجهة "ساوبينتو" الشعبية الفارغة.

فتنأبت "جينوفيفا". وبدأت الأيام بالنسبة لها شنيعة وفارغة، والشمس متقدمة بسطوع ممل في جميع أنحاء السماء. لكنها فضلت العزلة على الشركة مع "داماسو". فوجهه المتكبر الممتلئ، وجسمه المهتر السمين، وشعره اللامع المدهون بدهن الشعر،

وقفازاته الملونة المبهرجة، وعاداته الثرية المغرورة. كل هذا أثار غضبها. وأحياناً ما كانت تشعر بالميل إلى أن تقذفه من الحجرة بكرباج. أما "داماسو" الذي اعتاد على فتوحات سلسلة فتيات أسبانيات وسيدات وقورات، أو زوجة ما برجوازية تنبهر بسيارته السياحية قد كان في البداية واثقاً من نفسه بشكل مفرط. فكان يعتبر نفسه أنه لا يُقاوم، وقد تحدث إلى "جينوفيفا" من حيث أنها جديرة بـ "دون جوان".

وقد التهمته "جينوفيفا" بنظرة ساخرة منذرة، وبعض من التعليقات اللاذعة. إن الأسد الذي قد دخل إلى الحجرة بعرف يغادر مسرعاً بذيله بين رجليه. فعندما عاد، أخبرته "جينوفيفا" بهدوء شديد أنه لو كان عليها أن تمكث في "لشبونة"، فهي في حاجة إلى سداد بعض الديون، وأن هذا سيتطلب مبلغاً يقدر بـ "كونتو" ومائتين من "مل رايس". فلم يرجع "داماسو" إليها لمدة يومين، لكن العاطفة والغرور أعاداه بقوة. فبعد ثمان وأربعين ساعة من التفكير، وكثير من السجائر التي استنفدها بفعل العصبية، عاد ذليلاً ومعه المال في يده.

وشعرت "جينوفيفا" أن هناك طائراً جاهزاً لنتف ريشه. ففي الليلة الأولى التي استقبلته فيها بجلالة بداخل حجرة نومها، تركته مذهولاً ومخدراً بالتطبيق العلمي لمهاراتها الحسية. فسمعها "داماسو" تنطق بكلمات حماسية تركته متورماً بفخر شبه مؤلم. وتلقى قبلات جعلته يرتعش ويغمض عينيه بمتعة. ورأى فساتين، وأشرطة من الدانتيل، وحرير رائع، حتى جعله يفكر بإهتياج: "إنني سأعطيها آخر قرش لي". لكن كانت هناك واقعة مؤسفة في الصباح. حيث

قادته "ميلاني" إلى حجرة صغيرة، حيث رأى بقشعريرة حماماً ضحلاً طويلاً مليئاً بالماء، وإثنان من الكتل الضخمة من الثلج تطفيان به. أما "ميلاني" فبكل وقار لكاھنة، صبت نصف زجاجة من "ماء اللوبين" بداخل الماء، ووضعت فوطة تركية مجاورة بجانب فرشاة لتنظيف قدميه، وكوزاً به رغوة بصابون كهرماني اللون، ثم تركته وحده قائلة:

"ناديني عندما تكون جاهزاً لتدليكك"

أما "داماسو" فكان واقفاً هناك مندهشاً، يكرش رأسه، ويحدق النظر إلى الحمام. ثم جرب بخوف المياه الثلجية بأطراف أصابعه، والتي سحبها على الفور، وتمتم قائلاً:

"لا بد أنها تمزح!"

فشعر حقاً أنه محرج. حيث اعتقد أن هذا بالتأكيد طقساً ما باريسياً أنيقاً، وهو لم يرد أن يبدو عاقلاً. لكن فكرة أن يغمر نفسه في تلك المياه المثلجة أبداً، فبلل أحد أطراف الفوطة، ووضعها برفق على وجهه، فارتعش. وجلس بجانب الحمام بكل الكآبة الحمقاء لطائر اللقلق. ودخن سيجارتين، ثم غادر، وصاح أسفل الممر:

"شكراً على الحمام، فإنه كان رائعاً!"

وعندما أبلغت "ميلاني"، بعدما قد غادر "داماسو"، أن ذلك السيد لم يمس الماء أبداً، بعيداً عن عقبين من السجائر يطفيان به، صاحت "جينوفيفا" بغضب: "الحيوان!، إن ذلك سيكلفه مائة أخرى أو كثيراً من "مل رايس".

وكان كذلك. فبعد أسبوعين قد "دفع" "داماسو"، حسبما وضعت "جينوفيفا"، إثنين من "الكونتو"

وخمسمائة من "مل رايس". وبدأ أن يجد هذا كله كثيراً بعض الشيء. لكنه كان عاشقاً بشكل أحمق، وكان هذا كما لو كانت كل غرائزه البرجوازية احتباس، وارتياح، وغرور، ومصلحة شخصية قد خُدرت بالكلوروفورم. فقد اضطر فقط إلى أن يئن أو أن يعود، وتزلق "جينوفيفا" ذراعيها الناعمين حول عنقه، وتنطق بكلمات جميلة، والتي تعطي له سحراً منوماً:

"قطي الصغير، حبيبي، قرة عيني!"
إن الكلمات البليغة كلاسيكياً لتلك الفاجرة كانت كافية لتهدأ من كل همومه، وكافية لحب يدوي بداخله بشوق "لوسيتانيان".

وفي خلال ذلك كان "داماسو" يخفي تبذيره عن أصدقائه بحذر. فكان يعتبر نفسه عاشقاً رومانسياً. فأخبر الجميع أنها غنية، وسخية، وغير مهتمة بالمال. حتى أنه اشترى سراً بعضاً من أزرار مرجانية، وارتداها، مدعياً أنها هدية منها:

"إنها فقط لا تستطيع أن تمتنع عن تقديم هدايا لي!، فتلك المرأة مجنونة بي للغاية!"

فقال هذا في المقاهي، ومسرح "ساو كارلوس"، وبيوت الدعارة، حتى أنه كان يبحث عن طريقة لنشر هذا في أعمدة المجتمع بجريدة "إيلاسترايو".

إن "الهدية" الأخيرة التي قد قدمتها له، في الليلة الماضية، كانت فاتورة قديمة من "لافارزين" تُقدر بثلاثة آلاف من الفرنكات، حيث وضعتها في محفظته. وفي اليوم التالي تحصل "داماسو" بهدوء على كمبيالة من المصرفيين "مارسينارد" و"أندريه"، والسيدة "لافايت"، في خلال مهلة تبلغ ستين يوماً، حاصلًا

على خصم يُقدر بمائة من الفرنك. وقد كان مندهشاً عندما زلقت "جينوفيفا" الفرنكات بشكل عفوي في داخل مظروف، وقالت إلى "ميلاني" بتثاؤب: "ضعي هذا في البريد إن كان ممكناً يا "ميلاني". إنه ثمن أجرة واحدة للخزي".

لكن قد بدأ "داماسو" أن يطالب بأن تكون علاقتهما الغرامية أكثر علنية. فتلك السعادة التي كانت مخبأة بعيداً في قلب "ساو بينتو"، والتي كانت تقدره بثمن غال جداً، ربما قد أشبعت لحمه، لكنها لم تشبع غروره. فأراد أن يُنظر إليه خارجاً وفيما حوله معها، وأن يُحسد عليها في "شيدو"، وفي "كازا هافانيزا"، ويحقد النظر بداخل مسرح "ساو كارلوس"، وليسمع الناس تقول: "إن "داماسو" شيطان محظوظ. فإنه يعرف بالتأكيد كيف يعيش!".

ولم تقدم "جينوفيفا" مزيداً من المعارضة، على الرغم من أنها مازالت تتحدث عن سحر العلاقة الخاصة السرية. وفي الحقيقة لم تكن حريصة على الإطلاق أن ترى خارجاً علانية مع ذلك المعتوه. لكنها قبلت مربعاً درجة أولى في المسرح، وحتى يوم الأحد في "كامبو غراندي". ومثل تلك النزعات أصبحت أذاراً للصداع، لأن "جينوفيفا" بدأت أن تعاني من صداع نصفي. وأسوأ شيء هو أنه دائماً ما تعاني منه في المساء، حيث موعد زيارة "داماسو" لها.

"أنا آسفة جداً يا حبيبي. إنني أشعر بشيء لا يُحتمل. وحقاً أنا متأسفة على أنك لا تستطيع أن تمكث معي هذه الليلة. فإنني سأضطر إلى طردك إلى الشارع. فإنه مثل إزعاج. لو أنك تعرف فقط.... ساتي معك

إلى الباب

وعندما سمعته يغلق الباب الذي يطل على الشارع خلفه بكآبة، شعرت بإرتياح إلى درجة عالية حتى أنها نادته على "ميلاني"، وطلبت منها أن تصب لها بعضاً من النبيذ. ثم انتصبت في سريرها حتى الساعة الثانية من الصباح، تشرب وتدرش أو تكتب إلى صديقاتها السيدات في "باريس"، تقول أنها في "لشبونة"، والتي تقع بالضبط قبالة ساحل أفريقيا، تحدث ضجة في الشوارع، وتمدن شخصاً غير متمدن. وهو غني كئائب، وساذج كخروف.

وفي ذلك الصباح قد صمت بالفعل على أنها مصابة بصداع نصفي. وفي البداية لم يرد "داماسو" أن يتركها وحدها وهي مريضة.

فأقترح عليها أن تضع كمادات. وأراد أن يستدعي الدكتور "باربوسا"، لكن "جينوفيفا" لم تثق بالأطباء البرتغاليين. فإنها ترتعب منهم. فربما يسمموها أو يشوهوها. إنها كانت تشناق إلى الدكتور "شارموه". وفي إحدى المرات رأى "داماسو" كيف أن ذلك الرجوع العنيد لذلك الصداع يقف في طريق رغباته المتقدة، فأقترح "داماسو" القلق بخجل أن تأخذ مليناً. فصوبت "جينوفيفا" إليه نظرة توبيخ باردة إلى درجة عالية، واشتمزاز أنيق إلى حد ما على ذلك الاقتراح الحقيق، حتى أن "داماسو" لم يجروأ أبداً على أن يشير إلى أي مزيد من العلاجات. وذات يوم كان "داماسو" على وشك أن يشير إلى الماغنسيوم، لكنه أحمر خجلاً، وكح، وغير الموضوع.

وفي النهاية بدأ "داماسو" أن يجد أن ذلك الصداع، والذي يحدث ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً، شيئاً

مبالغاً فيه إلى حد ما. فكانت شكوكه البرجوازية متيقظة، لكن بدت "جينوفيفا" مملولة جداً، وطريحة جداً، ومتدمرة بمرارة بالغة من مناخ "لشبونة"، حتى تركها "داماسو"، شاعراً بالحزن لكن متعاطفاً. فأراد "داماسو" أن يجعل "ميلاني" إلى جانبه. فالمرّة الأولى التي أحضرت فيها رسالة إلى بيته في شارع "كوميندا"، أعطاه "داماسو"، والذي كان في الواقع يعتقد نفسه ذكياً جداً، اثنين من "الليبرا". فعلى الفور انفتحت "ميلاني" بالأسرار كحنفية قائلة: "لو أنك تعلم فقط يا سيدي. إنها مجنونة بك. فعندما تصبح مملولة جداً بين الحين والآخر، فدائماً ما تتحدث عنك، وهي تبكي، وتقول أنها لا تريد العودة إلى "باريس" لأنها غيرة جداً. إنه من الأفضل لك أن تكون حذراً لأنك لو نظرت كثيراً إلى امرأة أخرى، فإنها ستقتلك. إنها قادرة تماماً على فعل ذلك. فإنها متهورة جداً".

فأراد "داماسو" مسروراً أن يعرف أكثر عن ماضي "جينوفيفا". وكانت "ميلاني" متحمسة لذلك الاضطراب. فسيدتها قد تزوجت بالكونت "مولينو"، رجل عجوز مثير للاشمئزاز، لكن لم يكن لديها حقاً من اختيار، امرأة مسكينة. فزوجها الأول، رجل إنجليزي، قد تركها بدون أي قرش. لكن قد كانت سيدتها مخلصه كعبدة لذلك الرجل العجوز. ولم يكن لديها عجز في عدد الخطاب! دوقات، أمراء، حتى الإمبراطور نفسه. لكنها لم تكن مهتمة تماماً، على الرغم من أنها قد كانت مغرمة جداً بشاب ذو وجه لملاك، واسمه "باول الريشانتراي"، ولم يكن هناك أبداً أي شيء بينهما، أوه لا. ثم أن "باول" مات في الحرب، وهذا ما كان. لكنه كان شخصاً جميلاً، شاباً

مسكيناً. وعندما مات زوجها الوغد العجوز، لم يترك لها أي شيء. حتى أنها كانت مضطرة إلى رهن مجوهراتها، وبعد ذلك كانت هناك الديون. إن الفقر هو الذي دفعها إلى أحضان البرازيلي، لكنها لم تستطع تحمله، وهو لم يعن شيئاً بالنسبة لها. ولذلك في أحد الأيام الجميلة تركته. إنها قد خدمت سيدتها لمدة عشر سنوات. وهذه هي المرة الأولى، المرة الوحيدة، التي تعرف فيها أنها في حالة حب.

فتساءل "داماسو" قائلاً: "لكن لماذا، لماذا؟"

ف نظرت "ميلاني" إليه برقة قائلة:

"لماذا؟ لأنك شاب وسيم هكذا يا سيد "داماسو"

فأعطاه "داماسو" ثانية أثنتين من "الليبرا". واستطاع بصعوبة أن يكبح نفسه. فوضع ذراعيه حول وسطها من الفرحة التامة، وقرصها، مما جعل "ميلاني" تصرخ.

ومنذ ذلك الوقت أصبح "داماسو" في حاجة إلى "ميلاني" لتمده بإثباتات دائمة لسعادته. ولم تكن "ميلاني" أبداً مفتقدة لكلمات. فإنها كانت على حالة جيدة. إنها كانت متألفة، معتادة على خسة الباريسيين، حيث وجدت أن البرتغالي جذاباً.

وفكرت: "لو أنهم جميعاً مثله"، "فهذه هي الجنة" لكن ازدادت مطالب "جينوفيفا" للمال، والصداع النصفي لم يتقلص بعد. فبدأ "داماسو" أن يضيق ذرعاً. فعلاوة على ذلك كثيراً ما كان يجدها غريبة الأطوار وصامتة وسيئة المزاج، أو أيضاً معبأة بتعليقات ساخرة. وأحياناً ما كان يلمحها وهي تنظر إليه بحدة وغضب. وفي نهاية المطاف كشف السر إلى أفضل صديق له، "مانويل بالما". وهو شاب قصير القامة،

وسمين، وذو صوت عال وأظافر مقضومة. ويعيش على كرم "داماسو" إلى حد ما. وأخبره عن النوبات العصبية لـ "جينوفيفا"، وحالاتها المزاجية السيئة. وكان قلقاً. هل من الممكن أن تكون هناك غيرة من جانبها؟

فقال "بالما": "إنها تحتاج إلى صفقة جيدة" فهذه هي الطريقة التي كان يتعامل بها مع العاهرات (فهو يسمي كل النساء "عاهرات"). وكان يرتدي نفس السترة شتاءً وصيفاً. ودائماً ما تكون هناك بقعة عرق حول حافة ياقته. وكان ذا شهية شرهة للطعام. ودائماً ما كانت تبدو رجلاه السمينتان القصيرتان على وشك أن تنفجرا من بنطلونه الضيق. وكان معجباً بـ "داماسو"، حيث يقضي طوال اليوم مشيداً بـ "داماسو"، وحصانه، وكلبه.

فقال "داماسو": "يا إلهي، أيها الرجل!"، "إنها ليست امرأة برتغالية تعمل في المطحنة!، فإنه لا يمكنك أن تصفع امرأة اعتادت على عادات باريسية". "لتذهب "باريس" إلى الجحيم!، اصفعها صفقة جيدة. هذا ما تفهمه كل العاهرات، صفقة جيدة!".

وأحياناً ما كان يدخل "داماسو" إلى بيت "جينوفيفا" بكل عزم على أن يكون متسلطاً وصارماً: فهو حبيبها، ولديه الحق في أن يأتي ويذهب كما يسره، وأن يبقى حتى وقت متأخر كما يحلو له. ولو لم تستطع "جينوفيفا" أن توافق على ذلك، فحينئذ لا بد لهما أن يقولوا وداعاً. لكنه لم يملك إلا أن يرى مظهر جسدها، وملابسها، وسلوكها، وأن يتلقى ألطف مداعبة. وكان مذهولاً. وكان هناك أيضاً أكثر من ذلك، حيث أن قدراً عالياً من الاستزراع بشكل رائع روعه وملاه

بالإحترام.

إنها أحببت أن تذهب لركوب الخيل في الصباح. وكانت تبدو رائعة في ثياب الفرسان. ودائماً ما كان يرافقها "داماسو" في كل الشوارع التي من الممكن أن يكون معروفاً فيها. فاجتاز "شيادو"، ودار نصف دورة عبر "روسيو"، ينظر حوله، ووجهه مضطرباً، على استعداد لتلقي نظرات حاسدة معجبة. ولسوء الحظ كانت الشوارع خالية تماماً من أي أحد يعرفه، والشبابيك خالية من وجوه مألوفة. وفي نهاية المطاف بدأ يستعرض شموخه، ماراً ببعض الفتيان الذين يقضون حاجة، وبعض أصحاب المحلات التجارية بشباشبهم، يستمتعون بالشمس. ووضعته التجربة في حالة مزاجية سيئة.

فقد قال في مناسبات عديدة أنه أرادها أن تخرج معه علانية.

"إنك لا تأمل لي حقاً أن أخرج في عربة مؤجرة، أليس كذلك؟"، اعطى عربة، وزوجاً من الخيول الإنجليزية، وسائساً لائقاً، وحينئذ نتحركاً.

فشعر "داماسو" بإنجذابه إلى أن يأتي لها بعربة. حيث استطاع أن يتصورها وهي نازلة إلى "شيادو" بإحدى ملابسها الرائعة، واثنين من الخيول الأصيلة، والتي تسرع إلى الأمام. واستطاع أن يسمع في ذلك الوقت التعليقات الحاسدة في "كازا هافانيزا"، وفي متجر "بالتريشي" للحلويات: إنه "داماسو"، الرجل المحظوظ. يا لها من مكانة!

ونحو الساعة الثانية ذهب "داماسو" إلى بيت "جينوفيفا". فمشيت "ميلاني" على أطراف أصابعها إلى سيدتها لتخبرها أن "ذلك الرجل ههنا". فأشارت

”جينوفيفا“ بعنف لتقول: ”لا“، ثم همست في أذن ”ميلاني“ قائلة:

”أخبريه أنني نائمة، وأنه لا يمكنني استقباله. لكنني سأنتظره حتماً على العشاء في تمام الساعة السابعة.“
وعندما عادت ”ميلاني“ من توصيلها الرسالة:
”ماذا قال؟“

”إنه كشر“

”حسناً، ليذهب ذلك الرجل إلى الجحيم!، الحيوان!“
ودخلت إلى حجرتها، ثم قالت:

”ميلاني“، أحضري لي أوراق اللعب“

فأعدت ”ميلاني“ المائدة، وأوراق اللعب في حجرة النوم. و”جينوفيفا“، بمظهر من التدين الشديد، بدأت أن تنتشر أوراق اللعب، ثم خلطتها بشكل خطير، وببطء، وبحذر بالغ. وفصلت ظهر المائدة بيدها اليسرى، وقسمت أوراق اللعب إلى مجموعات. ثم بدأت بإصبعها الخنصر أن ترتبهم في أنصاف دوائر رمزية. وكانت خواتمها تلمع بيديها البيضاء الصغيريتين بينما كانت تقوم بذلك. و”ميلاني“ الواقعة وراء كرسيها، كانت تتابع باهتمام الكشف عن المصير، كما لو كانت تقرأ صفحات لكتاب. وفي خلال ذلك كانت ”جينوفيفا“ تتمم قائلة:

”تشوش، رجل عجوز، شاب مع امرأة شقراء، دموع، لقاء في مكان عام بسبب رسالة.“

وخلطت أوراق اللعب مرة أخرى، وفكرت طويلاً، ثم قالت فجأة:

”إنه سيأتي إليّ!، إنه لا بد أن يأتي إليّ!، ثلاث مرات، هل ترين؟“

وأظهرت كيف أن مقبس الألباس ظل يظهر مجدداً

بجانب ملكة القلوب.

”إنه لا بد أن يأتي إليّ“

أما عيناها الداكنتان الجميلتان، والتي تضيئاً وجهها النسري الشاحب، كانت ممتلئتان بدهشة نحو فكرة ذلك المصير المحتوم.

فقالت ”ميلاني“: ”لو كنت في مكانك يا سيدتي، فإنني لن أفكر في الأمر أكثر من ذلك“

فخلطت ”جينوفيفا“ أوراق اللعب مرة أخرى، محدقة النظر إلى الفراغ، وعيناها مفتوحتان على مدهما. وعضت شفتها السفلى، وهزت كتفيها.

وواصلت ”ميلاني“ حديثها قائلة: ”من ناحية أخرى“، ثم تحركت بأرجاء الحجرة، وقالت: ”اطلبي فقط من السيد ”داماسو“ أن يحضره. إنك تثيرين مشاعرك تماماً على لا شيء“.

”لا. لا أريد ”داماسو“ أن يحضره“.

ووقفت على قدميها، واجتازت إلى المראה لتمشط شعرها، ثم قالت:

”إنني أعلم أنه أمر سخي، لكن..... لم يعط أحد أبداً انطباعاً كهذا في نفسي من قبل. فمنذ أن رأيته في المسرح..... حسناً، حقا إنني رأيته بالكاد. فكنت واقفة عند الباب، واستدرت لأرفع بطانة فستاني، وكان ”هو“ هناك يدخل سيارته بهدوء. ولا يمكنني أن أخرج من هنا!“. ثم ضغطت على رأسها. ”إنه في أفكاري نهاراً وليلاً. وعلى ما يبدو أن اسمه ”فيتور“، وهو محامي“. ثم بشفقة مغرمة قالت: ”محامي، تعيش. فليس من المفترض لأولئك الأشخاص أن يجلسوا في مكتب طوال اليوم يخلطون أوراقاً، حب مسكين. وتلك العينين.....“.

وتنهدت، وجلست عند أسفل السرير تتمطط،
وعيناها مائعتان بشهوة، ثم قالت:
”أوه يا ”ميلاني“!“

ووقفت مرة أخرى، ثم قالت بصوت متغير، جاف
وبارد:

”أقسم أنني لم أشعر أبداً بمثل هذا نحو أي رجل.
إنني لا أعرف حتى ما أريده منه..... إنني أريد أن
أهرب معه، ونذهب إلى مكان ما حيث لن يرانا أحد.
إنني أريد أن ألتهمه، أقتله، أعضه. إنه وسيم جداً،
جميل للغاية. إنه كمحبوب. وحتى الآن ليس هناك
شخص آخر..... فإنه يشبهني في الحقيقة!“
واجتازت إلى المرأة لتؤكد التشابه الغير واضح
بينها وبينه في ملامحها.

فقالت وهي تشير علي جبينها: ”هنا“، ”والعينين.
لو لم أصبغ شعري أشقراً..... لا بد أنه يبلغ من العمر
نحو خمسة وعشرين عاماً“.

”هل سترتدين فستاناً على العشاء يا سيدتي؟“
”امم؟“

فكررت ”ميلاني“ سؤالها.
”إنني سأرتدي فستاناً أسوداً. إنه يمكنني بالكاد
تحمل ذلك الأحمق مرة أخرى. فإنني أريده أن يعرف
من هو ذلك الرجل العجوز. إنني أريده أن يطلب
ترضية منه.....“

فتساءلت الأنسة ”سارة“، وهي عند الباب، قائلة:
”هل أنتِ لائقة يا عزيزتي؟“

”نعم، بالطبع. إنه يمكنك أن تدخلني الآن. أترغبين
في جرعة من النبيذ يا أنسة ”سارة“؟“
فأضئ وجه السيدة الإنجليزية: ”فقط أقل جرعة،

فهذا يكفي. وقليل من الماء. فقط جرعة أكثر قليلاً.
شكراً لكِ“

وجلست لتكتف من شرب النبيذ الخاص بها،
وكررت بورع تلك الحكمة الإنجليزية الحقيقية:
”إن قليلاً من الشراب جيد للروح“

الفصل الرابع

وفي حوالي الساعة الحادية عشر من اليوم التالي كان "فيتور" في عمله بمكتب الدكتور "كامينها"، والذي كان في المحكمة في صباح ذلك اليوم. وكانت الملفات مفتوحة أمام "فيتور"، ورجلاه ممدودتان. وكان جالسا على مكتبه يدخل، محدقا نظره إلى السقف. وكان ممتلاً بإحساس ضعيف من الملل والفراغ. فمما لا شك فيه أن "جينوفيفا" تحب "داماسو"، مما جعل "فيتور" يكرهها تقريبا، بل ويحتقرها، حيث وجدها تافهة ومغفلة وغبية. يا له من تخيل الوقوع في الحب مع ذلك المغفل!، ولكن مواساته لنفسه بفكرة أن امرأة يمثل ذلك العقل الدوني ربما لا يمكنها أن تستحق شخصاً ما بجمال روحه، لم يمنعه من رغبته بها بشدة متزايدة بشكل دائم. فكان يحتقر عقلها، ولكنه يعشق جسمها. ونظراً لأنه ليس مسموحاً له أن يعشق جسمها، فكان يبذل قصارى جهده حتى يكرهها.

وقد فقد "فيتور" أيضاً الإتصال بعشيقته "أنينهاز"، ولذلك تخلى عن كل أمل في السعادة بالحب. وقد حاول أن يغوص في مباحج الأدبيات. فقد حاول أن يسكب كل إحتقاره للمجتمع والحياة، وذلك بكتابة القصائد. ولكن بعد مضي ليال في إرهاب عقله وتدخينه سيجارة تلو الأخرى، يائساً من إيجاد قوافي أو أفكار، قرر أنه لكي يصبح فنانا فإنه عليه أولاً أن يكون سعيداً. ونظراً لأن السعادة لم تأت، والفن لم يلهمه، رأى بشكل غامض أن يكون مجرى حياته كفاجر ومدمن للخمر، غامراً إحساسه بالملل في طقوس العريضة. ولكن كي يفعل هذا فإنه في حاجة إلى المال، وبالتالي خاب أمله في الحب، وأصبح عقيماً من الناحية الفنية، وليس لديه شيء سوى الكومة المنفوشة بجيوبه. ف شعر أنه كتائه

يعثر على كل الأبواب التي أغلقت عليه.
 وفجأة خارج حجرة الإنتظار، سمع "فيتور" صوت
 "داماسو" يقول بشكل عاجل:
 "هل السيد "فيتور" بالداخل هنا؟ إنني في حاجة
 إلى التحدث معه".
 فرفع "الموظف" ستار الباب، حاشراً النصف
 العلوي من جسمه الضخم، وقال بصوت خشن:
 "هناك رجل أنيق يطلبك يا سيدي".
 فقال "داماسو" وهو يرتدي قبعته مرة أخرى: "آه،
 إنك لوحديك"، ثم وبدون توقف، بادياً عليه القلق، قال:
 "حقاً إن عمك قد فعل ذلك هذه المرة!"
 فنظر "فيتور" إليه مندهشاً، وعيناه مفتوحتان على
 مداها.

"إنه قابل مدام "مولينو"، وأهانها!"
 وجلس "داماسو" على الكرسي الخاص بالدكتور
 "كامينها" ممتلاً به، ولكنه قفز عن الكرسي بصرخة
 مرعبة مرة أخرى. حيث قد جلس على رأس مسمار
 أصفر قصير. فكان الدكتور "كامينها" يكره أي شخص
 آخر يجلس على مسنده الناعم الأخضر اللون عندما
 يكون خارجاً. وحتى يتجنب حدوث جريمة كهذه،
 فإنه دائماً ما يترك المقعد معداً للانتقام. فعندما يكون
 ذلك الخطيب القانوني القوي، كما يصفه البعض،
 خارج المكتب، فإنه يترك مسماراً صغيراً على مقعد
 الكرسي، حيث أنها مزحته المفضلة.
 وبناءً على نصيحة "فيتور"، أسرع "داماسو"
 إلى المطبخ، حيث أن هناك شظية لمرأة بالقرب من
 الحوض. ثم عاد شاعراً بأنه في حالة أكثر هدوءاً،
 فإنه مجرد خدش. وعلى الرغم من ذلك كان وجهه

مصفراً جداً. ووصف "داماسو" الدكتور "كامينها" على أنه "رجل حقير"، واعتقد أن هذه المزحة "جديرة بشخص مرح تماماً".

أما "الموظف" الذي عند الباب رفع الستار مرة أخرى بكف يده، وبدأ يحدق النظر إليهما بنظارته وريشته خلف إحدى أذنيه، ثم قال بخبت:

"إذن أنك وجدت المسمار"

فكان "الموظف" سعيداً برؤيته لرجل نبيل مرتبكاً. وقد تبدد الهياج الأول بـ "داماسو". وبدأ يحكي عن "واقعة" اليوم السابق بهدوء شديد.

"لك أن تتخيل أنه يقف هناك على درج السلم يناديها بأسماء وكل ذلك بسبب طفل.... عندما أخبرتني مدام "مولينو" أنه رجل بساق خشبية، وذو كتلة من شعر أبيض، ولديه عربة نقل من الطراز القديم، وعصا مشي ضخمة، ومعطف طويل، فعرفت بالتأكيد أنه عمك. ألم يقل إليك أي شيء بخصوص هذا؟"

"إنه لم يذكر شيئاً عند تناول العشاء، ولكن حتى أكون أamina لم أعطي إنتباهاً أكثر. فلا يمر يوم دون أن يخوض العم "تيموتيو" منازعة مع شخص ما بخصوص شيء ما".

أما "داماسو" فبدأ يتجول حول المكتب، وبين الحين والآخر يدعك المكان المجروح بخجل.

"أنا أعرف، لكن المشكلة هي أن السيدة "مولينو" تريدني أن أطالب بترضية منه، لك أن تتخيل؟"

فضحك "فيتور" بصوت عال.

"ترضية؟"

"نعم أيها الرجل، ترضية. هذا ما قلته. فهي تقول أنها أهينت، وأنه ليس لديها زوج ولا أخ ولا ابن

ولا أحد هنا سواي.....“، وأضاف بغرور إلى حد ما قائلاً: ”فلا بد لي أن أنتقم لها“.

فأصبح ”فيتور“ جدياً.

”حسناً، فإنه بالتأكيد موقف شاذ“

”ولو لم أقدم لها إعتذارات العم ”تيموتيو“، فإنها سترفض أن تراني مرة أخرى بشكل دائم. فإنها غاضبة بكل ما في الكلمة من معنى، حيث أنها كسرت اثنين من الزهريات، وألتقطت كرباجها، وكادت أن تقتل المرأة الإنجليزية. فكانت في حالة مرعبة، حتى أرادت أن تتحدى العم ”تيموتيو“ بنفسها، وأن تقتله. فحتى أهدأها، أقسمت أنني سأحدث معه. وحتى ذلك الوقت كانت تسميني معتوهاً. هكذا وصلت إلى هذا الوضع. فقد صرت في حالة تحدي مع العم ”تيموتيو“. ليس لأنني خائف. وأضاف قائلاً: ”إنني لست كذلك، ولكن تحدي رجل عجوز، رجل نبيل محترم. أوه، هذا لا يمكن أن يحدث فقط إلا معي“.

وكان ”فيتور“ يستمع إلى ”داماسو“ بعناية، ويشاهده وهو يخطو إلى أعلى وإلى أسفل بجسمه المرتعش السمين، وخديه الممتلئين، ورأسه الضيق، وشعره اللامع. واستطاع ”فيتور“ أن يسمع صوت الضربة المملة لعصا العم ”تيموتيو“ كما لو كانت تضرب على هذا اللحم، كطباخ يجرش لحم الخنزير ليسويه.

ولكن كان ”داماسو“ قلقاً بحق. واستطاع ”فيتور“ أن يرى أن هذه القضية قد تقربه إلى مدام ”مولينو“ بطريقة ملتوية. وهذا الأمل جعل كل غيظه يتلاشى كضباب أمام الشمس.

فتحدث عن التدخل، وعن وضع القضية الموجهة

إلى العم "تيموتيو". فضغط "داماسو" على كلتي يديه بقوة، وتتهته ببعض كلمات شبه متدفقة بخصوص الصداقة، حيث أن "فيتور" منقذه!، ويمكن أن يخلصه من تلك الورطة الأكثر رعباً!

فقال: "ولكن لابد لك أن تتحدث معه اليوم"، فكل ما على العم "تيموتيو" فعله هو أن يكتب لها رسالة موجزة. هذا هو كل المطلوب. فليس كثيراً أن تطلب منه ذلك".

فقررا أن يذهبا ويتحدثا معه على الفور. وفي هذا الوقت من اليوم يقرأ العم "تيموتيو" صحيفة "نيويورك تايمز". وكان لدى "داماسو" عربته الخاصة به في الدور الأسفل. فترك "داماسو" الحجرة و"الموظف"، والذي كان إحدى كوعيه على المكتب، وريشته بيده، وقال "داماسو" بينما كان يمر من أمامه:

"هل أنت بخير؟، إنها مجرد مزحة تافهة من الدكتور "كامينها".

فابتسم "داماسو"، وشعر بشكل غامض بالخوف من الصوت الخشن لـ"الموظف" وكذلك جسمه الضخم. فقد حلم طوال الليل بأخطار وأعمال شغب ومبارزات. وأستمر "الموظف" في كتابته البطيئة، متمتماً قائلاً:

"يا لك من حثالة غنية!"

كان العم "تيموتيو" بالفعل يقرأ صحيفة "نيويورك تايمز". فترك "فيتور" "داماسو" في الصالون، يتفحص ألبوم عروضات "كلكتا". في حين أن "فيتور" اتجه إلى عمه ليوضح له وضع "داماسو"، وليسترضيه، ويقنعه.

"لكن ماذا لدى الشيطان ليفعله معها بذلك المغفل؟،

هل هو زوجها، أخوها، أحد معارفها، عشيقها؟
 “أعتقد أنه عشيقها يا عمي”
 فجال العم “تيموتيو” ببصره.
 وصنع فخذه بقوة قائلاً: “الكلب الخبيث!”، “حسناً،
 إن هذا لديه شيء جيد هناك، حيث أنها امرأة للغاية”.
 وقال وهو يملس على صدره: “أوه نعم، امرأة بكل ما
 في الكلمة من معنى!”
 ثم وقف قائلاً:

”حسناً، من الواضح أن هذه القضية التي بخصوص
 “طلب ترضية” قضية سخيفة، وسيكون أمراً قاسياً أن
 أجعله يفقد تلك المرأة، لذلك أعتقد أنه من الأفضل
 لي أن أنتازل”. وأكد مصطنعاً لفئة نبيلة قائلاً: “إنني
 سأفعل هذا لأجل إلهة الحب والجمال!”، ثم ضحك
 وقال: “قل للمغفل أن يدخل إلى هنا”

وعلى الرغم من أن مظهر “داماسو” بوجهه
 المتكبر المنفوخ، وقفازاته الصفراء اللون، ورجليه
 السمينتين، وشاربه الصغير الأنيق أثار غضب العم
 “تيموتيو” جداً، سألته فجأة دون أن يقف على رجله
 قائلاً:

”أنت من تفكر في المطالبة بترضية مني، أليس
 كذلك؟“

فاصفر وجه “داماسو”، وأحنى رأسه.
 “إنني هو يا سيد، كيف يمكنك أن تعتقد مثل.....
 أرجوك.....“

إن الخضوع الكامل لحوض شحم الخنزير هذا أثار
 أشمئزاز العم “تيموتيو”. فطلب منه أن يجلس، وقدم
 له كونيأك وماء، وأسقط كأسه الخاص على المائدة.
 “لقد أخبرت “فيتور” قبل الآن أنني على استعداد

تام للاعتذار. فإنني لا أريد إفساد ترتيبك البسيط".
ثم التفت إلى "فيتور": "أذهب غداً إلى هناك، واترك
بطاقتك وبطاقتي، واكتب أسفلها "مع تحياتنا". لكن
كما قلت لك إنني لا أفعل هذا لأجلها لأنني لا أحب
مظهرها، ولا أفعل هذا لأجلك يا سيد لأنني لا أقوم
بخدمات لأصدقاء. إنني أفعل هذا لأجل إلهة الحب
والجمال، لإلهة الحب والجمال فقط. وعلى أية حال
إنك محظوظ جداً، فإنك قد فزت لنفسك بلا شك بامرأة
للغاية!"

فجلس "داماسو" عالياً على حافة كرسيه منحنيًا،
وبدأ يسوي شاربه، بادياً عليه الثراء والفخر. وتناول
العم "تيموتيو" شقطة أخرى من الكونياك، واتكأ
بكوعه على ركبته، ثم قال:
"ألديك مال لتدفعه؟"

فأصبح وجه "داماسو" قرمزي اللون، وقال: "من
فضلك!، إنها سيدة، أرملة للسيناتور....."

"أوه، إنهما النوع الأسوأ. ففي "الهند" عليك
أن تشاهد أرملة الكولونيل. ليس هناك شيء أكثر
خطراً من أرملة كولونيل. إن الكمبيالة الوحيدة التي
وقعت عليها في حياتي كانت بفائدة شهرية تبلغ
ثلاثة أو أربعة في المائة تقريباً. وكان ذلك بسبب
أرملة كولونيل. وعلى الرغم من أنها كانت اللعنة
الوحيدة، حيث أنه في زمني كان هناك شيء ما
يسمى اللامبالاة، إلا أنه كان هناك أشخاص يتغزلون
ويقضون وقتاً ممتعاً ويقعون في الحب. أما الشابات
في هذه الأيام فهن ككائنات كسيحة ضعيفة باردة،
بالإضافة إلى أمراضهن الخفية. وتضطر إلى أن
تفك سلاسل محفظتك مقابل قبلة صغيرة فقط. يا له

من مصّ للدماء!، وبين الحين والآخر كنت أسمع أشخاصاً يقولون أن السيدات قد تغيرن، حتى أنهن يخرجن فقط ما يستطيعن الحصول عليه من مال مما يعطيهن الرب. لكن لم تتغير السيدات، بل الرجال. ففي زماني كان الرجال شجعان ومتشددين، ودائماً ما يكونون على استعداد للمبارزة أو إلى عزف الجيتار أو إلى الذهاب لمصارعة الثيران. فإن هذا نعمة لشابة حين تفتح بابها في المساء على شاب قوي كهذا. لكن في هذه الأيام.... ما السعادة التي يمكن للمرأة أن تجدها في أحد أولئك الشاحبين، الضعفاء، المخنثين، الذين بلا عمود فقري، بلا خفة دم، بلا عضلات. إن السيدات على حق تماماً، فما ينبغي عليهن دفعه هو تحمل أولئك الحقراء.....، وعلى الحقراء أن يدفعون!، فإنني أنحاز إلى جانب السيدات، المخلوقات المسكينة!“

ثم ضحك، ووجهه الممتلئ بالحيوية يلمع بذكريات. “وبأية حال، رجوعاً إلى الموضوع من جهتي. هل هذه السيدة فرنسية؟“

“لا، إنها برتغالية يا سيدي، لكنها دائماً ما كانت تعيش في “فرنسا“. فإنها أقامت هناك لأكثر من خمسة وعشرين عاماً“

فأخرج “تيموتيو“ سيجاره من فمه ببطء، وكشر، ثم نظر بقسوة إلى “داماسو“. “ما اسمها؟“

“جينوفيفا“

وبعد فترة صمت، تساءل “تيموتيو“ مرة أخرى قائلاً:

“وأيّن ولدت؟“

”ماديرا“

فتجاهل ”تيموتيو“ الرد، وقال: ”حسناً، استمتع بوقتك. هذا دائماً ما أقوله هنا“. ثم أشار إلى ”فيتور“، والذي كان جالساً على المكتب يشد شاربته بحزن شديد، قائلاً: ”إن بعض الآباء والأعمام ينصحون بالأخلاق. إنهم أغبياء. فإنني أنصح بالفجور. فينبغي على الشاب أن يكون ممثلاً بالحيوية ومغامراً، ولديه طفلان أو ثلاثة غير شرعيين، وزوج من فتيات يهربن إلى أديرة، نظراً لأنه كسر بقلبهن. فهذا ما كان بزماني. إنه لا يهم من تكون، خادمة، خياطة، مركيزة، فجميعهن حبوب من الحنطة تُطحن في الطاحونة. فالرجل رجل. ولكن بعد ذلك بالطبع فإنه ليس هناك أية أديرة للتحدث عنها الآن. اسكب مزيداً من الكونياك، وإنسى أمر هذا“.

ثم قال وهو يلتقط صحيفة ”نيويورك تايمز“ مرة أخرى:

”ما يحدث يحدث. فغداً ستكون هناك بطاقات الزيارة“.

فوقف ”داماسو“، وشكره.

”إنك لست بحاجة إلى أن تشكرني. إنني أفعل هذا لتذكر إلهة الحب والجمال“.

وضحك، ثم دحك رجله بقوة.

وفي يوم السبت التالي انتقل ”داماسو“ سريعاً إلى داخل مكتب ”فيتور“، وجلس بجواره، ثم همس إليه تقريباً قائلاً:

”مجرد كلمة سريعة. إن مدام ”مولينو“ حصلت على بطاقات الزيارة، وطلبت مني أن أدعوك للذهاب إلى هناك مساء غد..... ليس هناك شيء رسمي جداً“.

فشعر "فيتور" بأن قلبه يدق بقوة، ولكي يخفي
إثارته قال:

"من سيذهب أيضاً؟"

فبدا على وجه "داماسو" الحزن.

"لك أن تتخيل أن كل فكرتها أنها تقول أنها تريد
أشخاصاً من كل الطبقات لتلك السهرة الأولى، حيث
أعطتني قائمة: رجال عسكريين، صحفيين، شعراء،
هيئة التدريس بالجامعة، دبلوماسيين، مطربين....،
إنني كنت أقوم بمهمة الخادم في محاولة جمع أولئك
الأشخاص. وهي تقول أنها لا تريد أشخاص مجتمع،
حيث أنها تريد أشخاصاً ظرفاء. فإنها تريد ممثلاً،
ولكنني لم أجد أحداً حتى الآن. وعلى أية حال قد بذلت
قصارى جهدي..... ولكن أية فكرة، إيه؟، وبأية حال
هذا كل ما كان ينبغي عليّ قوله. إنني سأقوم بزيارة
غير متوقعة إلى "كارفالوزا"، وأرى لو كان يمكنه
أن يأتي، حيث أنها تريد سياسيين أيضاً هناك".

وكان "داماسو" على وشك أن يخرج مسرعاً
عندما خرج الدكتور "كامينها" عن تأمله بشاربه
الخاص ليقول:

"هل هذا هو الرجل النبيل الذي جلس على
المسمار؟"

فدار "داماسو" حوله غاضباً.

فقال الدكتور "كامينها" وهو يرفع جسمه النحيل
الطويل قليلاً، ثم يغوص مرة أخرى بمسندته الناعم
الأخضر اللون. "حقاً أنا آسف بشدة. إنها مزحة
بسيطة لرئيس في العمل. وعلى الرغم من ذلك آسف
بشدة. فلا بد من تجنب المتطفلين. فزوجتي طرزت
المسند، والمسمار هنا. آسف بشدة".

ثم انحنى، واعتدل بجلسته على مسنده مرة أخرى، بارزا شفته السفلى، مواصلاً فحصه لشاربه شعرة شعرة.

فكر "فيتور" طويلاً ما إذا كان يذهب إلى سهرة مدام "مولينو" بسترة سوداء تصل إلى الركبتين أم بمعطف ذو ذيل. ولكنه تذكر كم من المرات التي قد أشاد فيها العم "تيموتيو" بالعادة الإنجليزية من ارتداء معاطف ذات ذيول في المساء، حتى لو كنت تقيم بالبيت فقط. وكان يدخن، مقررأً أخيراً أن هذا ما سيرتيده.

فإنها عادة أجنبية، حتى كان "فيتور" على ثقة أنها ستسعد مدام "مولينو". أينبغي أن تكون كرافتته بيضاء أم سوداء؟ إنه اختار الكرافتة البيضاء، وزهرة الكاملية في عروة سترته. وواجه "فيتور" بالعربة المؤجرة شعوراً أشبه لما يصفه الطلاب على أنه "آلام المعدة"، شاعراً بالعصبية البالغة، حيث كان هناك خوف غامض يقبض المعدة ويخفف الأمعاء.

فماذا سيقول لها؟، ما الأشياء الروحية الشهية التي يمكنهما أن يتحدثا بخصوصها؟، هل سيكون هناك كثير من الناس؟، هل سيكون هناك رقص؟، إنه كان يرتعش كثيراً، حتى يمكنه بالكاد تزيير قفازيه. فبدأ يتخيل محادثات، ويتمرن على مقولات ومجاملات. وبينما كانت العربة تلف نحو البيت، شعر "فيتور" بالقلق، حيث خاف من احتمالية أن تسقط البتلات من زهرة الكاملية التي بعروة سترته.

فتوقفت العربة. ورأى "فيتور" جميع الشبابيك التي بالدور الثالث مضاءة بشكل براق في هذه الليلة المعتمة والرطوبة بعض الشيء: السهرة.

وسرعان ما تسللت "فيتور" رعشة بينما كان يرن جرس الباب. وإذ بخادم ذو سواف سوداء، مرتدياً سترة ذات ذيول، وقفازات قطنية بيضاء، ينحني إلى أسفل بدرجة كافية لاحتكاكه بالأرضية. وبدأ يسأله عن اسمه بحذر. ثم رفع الستار، وأعلن بصوت عال قائلاً:

"السيد "فيتور سيلفا""

ثم اصطحب "فيتور" إلى حجرة لإيداع القبعات والمعاطف، حيث كان هناك أكوام من معاطف وقبعات على كراسي، وشال صوفي لسيدة، وعلى مائدة بجانبهم كان هناك شموع مضاءة. وسمع "فيتور" همس لأصوات بحجرة الإستقبال.

وعلى الفور رصد "فيتور" مدام "مولينو" في الطرف البعيد من الحجرة، مرتدية فستاناً من حرير أبيض، ونصف مستلقية على أريكة. أما عيناها الداكنتان الواسعتان، وشعرها الأشقر، وتقويرة فستانها، ويدها الشاحبتان الجميلتان التي تلمعا بجواهر، كل هذا أكسب "فيتور" انطباعاً قوياً حتى شعر أن كتفيه تقوسا في ظل ذلك التأثير.

لم ينتبه "فيتور" إلى أي شيء من حوله، حتى لم يكن هناك فقط إلا شموع مضاءة، وانعكاسات أضوائها على المرايات.

ثم أخذه "داماسو" سريعاً ليقدمه إلى مدام "مولينو"، وقال منحنياً:

"صديقي "فيتور سيلفا"، ابن أخو....."

وأكمل الجملة بتحريك رأسه وغمزة. فجلست مدام "مولينو" برفق، ثم ابتسمت، وأحنت رأسها بشكل أنيق. ثم واصلت التحدث إلى رجل أصلع ذو لحية

سوداء أنيقة، ونظارة أنفية ذات إطارات ذهبية. وكان هناك بجانبها مائدة عليها زجاجة ذهبية تشرب منها بين الحين والآخر، جالسة تفعل ذلك بحركة متموجة رقيقة، وبصوت حفيف للفستان الحريري الذي ترتديه. وظل "فيتور" واقفاً على قدميه على نحو غير مناسب، ينظر حوله. إنه يعرف كل من هنا. فكان جالساً على كرسي ذو ذراعين رجل عجوز أصلع الرأس، مع بعض من الشعر المتناثر الممشط بعناية إلى الأمام فوق الصدغين. وكان يبدو شبه مدفون في الياقات الناعمة المرتفعة لمعطفه الداكن الواسع ذو الذيل. وكان خداه ذا التجاعيد، والمحلوقين بعناية، يتخذا شكل ثنيات عميقة. وكانت ذقنه شبه غارقة بربطة عنقه الحريريّة السوداء الكبيرة.

ماذا يفعل هنا؟، شعر "فيتور" بشبه إنزعاج من حضور ذلك الرجل. فهو رجل نبيل عجوز يبلغ ما يقرب من سبعين عاماً، والذي نشر ذات يوم ترجمة خرافات "إيسوب"، وكتاب "مدريغلس"، وبعض من أعمال أصلية. ويعيش خارج الدولة. وينتمي إلى الأكاديمية الملكية للعلوم. وليس لديه أسنان. فهو بقايا رجل.

"إنني سعيد برؤيتك هنا يا سيد "كوتو""
 فرفع الرجل العجوز بصره عالياً، موجهاً يده نحو وجهه، وتشم قليلاً، ثم قال:
 "مرحباً بك، كيف حالك؟"
 إنه كان يتحدث بصوت متجاهل أنفي بعض الشيء، ثم صمت.

فقال "فيتور"، متحدثاً بصوت عال لأن الرجل العجوز كان أصم قليلاً: "إنني لم أسعد بلقائك منذ

فترة طويلة“.

فالتفت الرجل إليه، وقال بهدوء:

”ما موعد الشاي؟“

إنه لدى ذلك الرجل العجوز سنة جميلة جداً. فكان يأمل أن يكون هناك بعض من الكعك ليتناوله بذلك البيت. أما ”فيتور“ فلم يعرف بما كان يأمله ذلك الرجل العجوز. وكان شاعراً بالملل حتى كان على وشك التحرك عندما أتى ”داماسو“ إليه. فبدأ ”فيتور“ يتأمل ”داماسو“. ولاحظ بالكاد على وجهه بصيصاً من الحسد الخفي.

وفجأة ”داماسو“ قال: ”إنني أرى أنك قررت ارتداء سترة ذيلية“، ثم بعد توقف، وقف بالقرب جداً من ”فيتور“. ”إنني فعلت ما يقرب من ذلك أيضاً، لكنني كنت خائفاً من اعتقاد الناس أنني أظاهر. إنها مشكلة، أليس كذلك؟“

فضغط على إحدى فتحتي أنفه بقلق.

وكان ”فيتور“ ينظر في أرجاء الحجرة.

كان هناك مجموعة من الناس واقفين بجانب طاولة ورق اللعب، والتي عليها شموع مضاءة: سيدتان ورجلان. وكانت إحدى السيدتين معروفة بـ”بيا تولومي“. وعلى الرغم من أنه لم يكن لدى ”فيتور“ فكرة من أين أتى اللقب، إلا أنه كان يعرفها بالعيان. وهي مغرورة، طويلة جداً، وتسريحتها المعتدلة المجددة تجعلها تبدو أطول. وكانت ملابسها تبدو مجددة وقذرة بعض الشيء. وكانت البشرة خلف رقبتها بنية متسخة داكنة من البنيات المهملة. إنها منفصلة عن زوجها، والذي رتبته ملازم ثان. وتحت عينيها هالة سوداء. وكان جسدها بالكامل يشير إلى

حياة الثكنات والخضوع لنظام صارم. ولم يعرف "فيتور" السيدة الأخرى. فإنها في الأربعينيات من العمر. ويبدو حولها مظهر من مظاهر العنوسة، فهي ضخمة وعريضة وداكنة البشرة، مع وجود شارب، وذقنها مكسوا بالشعر. وكانت ترتدي نوعاً غريباً لعمامة مصنوعة من المخمل الأحمر اللون على رأسها. ونادراً ما كانت تتحدث. وعيناها التي كانت تنضج بالحسد والمرارة والشهوانية الساحقة، لم تقلعاً عن "جينوفيا"، باستثناء إلقاء نظرة سريعة حاقدة على أحد المدعوين الآخرين، كبصيص من الذهب.

إنه يمكن النظر إلى الشكل المخنث والأحجب للسيد "رينالدو" جالساً بالقرب من "بيا تولومي"، وكان يبرم شاربه بأصابعه الشاحبة بينما كان يتحدث.

وكان "فيتور" يتجول بداخل حجرة التدخين، والتي ينبعث منها ضجة أصوات المدعوين. والثلاثة رجال الذين كانوا يتحدثون ويدخنون في تلك الحجرة كانوا يحدقون النظر إلى كرافته البيضاء اللون بشكل مثير للفضول. إنها حجرة صغيرة بها ستائر، وأريكة مفروشة بقماش الكريتون، وهناك فانوس موضوع على مائدة مستديرة مغطاة بغطاء ناعم قرمزي اللون. وفجأة أمسك أحد الرجال بيد "فيتور". إنه "كارفالهوزا"، والذي كان يعاصره "فيتور" في الجامعة. وقد كان "كارفالهوزا" معروفاً بعدم النظافة الشخصية، ومشهوراً برذائله. واعتاد على أن يقضي أيامه بأكملها في الفراش، وكان ينبعث من حجرته رائحة كريهة. والآن هو نائب، والجرائد تشيد ببلاغته وتنقل خطبه. إنه ذو مظهر من التشامخ، ويتحدث

بنبرات متكبرة معسولة.

فقال، وهو يخرج سيجاره من شفتيه: "آه"، "هنا شخص ما يمكنه أن يعرفنا، من هذه السيدة الشيطانة يا "سيلفا"؟ نوعاً من آلهة الحب والجمال؟"
إن نبرة صوته أصابت "فيتور" بالصدمة.
"إنني أعتقد أنك تعرف بشكل أفضل مني. فإنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى بيتها".
"وأنا أيضاً"

وصاح الرجلان الآخران قائلين: "وأنا".
كان أحد الرجلين نحيلاً ومتحدباً جداً، وذو شعر بني باهت اللون. ووجهه مشوهاً ببقع غاضبة. وكان يكرش ذقنه بأظافره. وهو صحفي. وكان الرجل الآخر شاباً وسيقماً معجباً بنفسه، يرتدي الزي الرسمي للرماحين.
فقال "كارفالهورا": "إنني هنا لأن "داماسو" دعاني".

"ونحن أيضاً"
"منذ ثلاثة أيام أخبرني "داماسو" أنني مدعو للحضور إلى بيت سيدة من أفضل المجتمعات الباريسية".

فقال "كارفالهورا" بإنفعالية متزايدة: "إنه يقول أنها أرملة السيناتور"، "ولكن بعد ذلك أثناء الأمبراطورية الثانية، ليس أولئك الأعضاء شيئاً سوى مجموعة من فاسقين عواجيز عدوانيين".

فإنفجر الصحفي قائلاً: "بكل إحترام"، "فإنه هناك بعض الاستثناءات الشهيرة: "القديس بوف" و"ميريمية"....."

فصاح "كارفالهورا" قائلاً: "الذان قادا "فرنسا"

إلى الهاوية، “من فضلك، دعنا لا نتحدث عن
الأمبراطورية يا صديقي العزيز. فالأمبراطورية
تعني فساداً، والقانون مسحوقاً تحت الأقدام، والحرية
مقيدة، وطقوس العريضة في “التويلري”
فقطاعهما صوت عال قائلاً:

”ولكن الوحش المفزع يمشى أمامنا، ويتنبأ بكل
مصائرنا.....“

فاستدار “كارفالهورا” غاضباً. ولكن عندما رأى
رجلاً قصيراً ذو ذقن مخلوقة بطريقة سيئة، ونظارة
ذات زجاج معتم يدخل إلى الحجرة، ابتسم ومد يده
قائلاً:

”أوووه، شاعرنا هنا“

فقال وهو ينحني: “مرحباً بكم أيها السادة”، ثم
خاطب “كارفالهورا” قائلاً: “سامحني، إنه لم يمكنني
مقاومة اقتباس هذه الأسطر من عزيزنا “كاموس”
عندما دخلت، لكن”، وبصوت قوى مصحوب بعاطفة،
”إنك تعلم أنه لا أحد يقدر قيمة موهبتك الهائلة أكثر
مني.....“

ثم لاحظ الصحفي، والذي كان صامتاً، ويهز
رأسه قليلاً، ويخرج علبة سجائره مرتبكاً. وواصل
”كارفالهورا“ حديثه بنفس المزاج الحزين قائلاً:
”لا يا صديقي. إن كوارث الأمبراطورية كانت من
قبل العناية الألهمية بكل معنى الكلمة.“

فقال الصحفي بصوت ساخر منخفض: “أوه، أنت
تؤمن بالعناية الألهمية، أليس كذلك؟”، ومازال ذقنه
مخدوشاً بشدة.

فمط “كافالهورا” نفسه، ثم قال:
”لا تبدأ الآن بالتحدث في الدين!“

فإنه وفقاً له، فالرب في كل شيء، في أعظم الشخصيات التاريخية، وفي أصغر حبات الذرة، مستشهداً بـ"فيكتور هوجو"، والنملة إلخ إلخ.....
لكن أكد الصحفي قائلاً:

"إن "فيكتور هو جو" ذاك غبي!"
وأضاف بإحتقار أن "فيكتور هوجو" رجل عجوز لم يعد يعرف ماذا يقول. ففقد "كارفالهورا" السيطرة على نفسه. وبدأ يدافع عن "فيكتور هوجو" بإشارات جامحة وكلمات مدوية. وكان يلقيه بنبي القرن التاسع عشر، والملمهم الأساسي لبيت "هوتفيل".
فقال الشاعر، وهو يقف على قدميه مترجعاً إلى الوراء: "فعلاً، فعلاً".

فقال الصحفي ببرود، وهو يصل صدريته ببنتلونه ليكرش ظهره: "إن أكثر الكتب جدية لـ"فيكتور هوجو"، "بكل صراحة تجعلني أضحك"، ثم ابتسم.
فصاح "كارفالهورا" قائلاً: "يا سيد"، "إنك تهزأ بالصحافة. إنك تهزأ بالشعر. إنك تهزأ بالعظمة".
فقال شخص ما عند كوعه: "أخفض صوتك".

إنه "داماسو"، والذي كان منزعاً بشكل واضح. فحل صمت. فأوضح "داماسو" أن جميع من بالحجرة الأخرى كانوا خائفين من أن تنتشب مشادة. وقد سألتها مدام "مولينو" ما إذا كان هناك منازعة على القمار، علاوة على أنه كان يمكن سماعهم بالدور الأسفل.
"حسناً، لو لم يستطع أحد إجراء مناقشة....."
فقال الصحفي، والذي مازال يكرش: "إنك ذو صوت عال جداً".

فقال "كارفالهورا" بتكبر، مُستفزاً بالكلام:
"عال جداً حتى تسمعه البلد بأكملها!"

فقال الصحفي مرة أخرى: "كما قلت أنك ذو صوت عال جداً".

فحدق "كارفالهورا" النظر إليه غاضباً، ثم قال: "وماذا تقصد بهذا؟"

فرد الصحفي، وهو يكرش ذقنه بشدة:

"في الواقع إنه ليس مكاناً....."

فتدخل "داماسو" قائلاً:

"أيها السادة، من فضلكم....."، وحاول سحب

"كارفالهورا" بعيداً. وكان "كارفالهورا" شاحباً بشكل مميت.

فقال الرماح، وهو يبرم شاربه: "يكفي ذلك الكلام

الفارغ". "إن الشجار حول الأدب أمر لا يستحق.....

وإنكما الآن لستما بالبيت.....".

ثم تركهما "فيتور"، ولم يزل على حديثهم، وقدم

اعتذاراً، ثم انسحب إلى حجرة الاستقبال. وكانت

مدام "مولينو" واقفة تتحدث إلى "بيا تولومي". ولكنها

عندما رآته، استدارت متجهة إليه، وكانت لفة بطانة

الفستان الحريرية حول قدميها.

فقالت: "إنني أريد مقابلتك جداً".

فانحنى "فيتور"، وتمتم ببعض كلمات غير

واضحة. إنه استطاع أن يشعر بقربها منه جداً، فكان

ينبعث من عينيها وجسمها وشعرها شيء ما قوي جداً

حتى أنه تراجع بصورة غريزية، كما لو كان من نار

محرقة. ووقف هناك في وضع مغلوب منحنى قليلاً.

فقالت مبتسمة، وهي تنظر أسفلها على مروحتها،

والتي كانت تفتحها وتغلقها ببطء: "إن عمك بالتأكيد

سريع الغضب إلى حد بعيد".

إنها مروحة كبيرة سوداء اللون، بها شخصان

أبيضان مصوران بغابة زرقاء ضبابية. وأخيراً تغلب
 "فيتور" على الخجل، والذي منعه من التحدث.
 "إنه يمكن أن يكون متهوراً بعض الشيء،
 لكن....."

فقالت: "أوه، إنني سامحته على الفور"، "علاوة
 على أنني في الواقع أحب ذلك النوع من الأشخاص،
 فإن طبعه أشبه بطبع "دون كيشوت"، والذي يركب
 الخيل لإنقاذ أرامل وأيتام"، ثم ضحكت بنعومة. "إنه
 أيضاً رجل ذو مظهر جميل، ما اسمه؟"
 "تيموتيو"

"إنه يشبه "كريمير" قليلاً، ليس الذي كتب الأوبرات
 الكوميدية، لكن الذي أنشأ الدولة الجمهورية".
 وضحكت مرة أخرى.

حقق "فيتور" النظر إليها مفتوناً بها. فالقرب من
 لحمها يجتذبه كالمغناطيس الذي يجذب إلى الحديد.
 فاشتتهى أن يلمس اللحم الرائع لثديها، وأن يخط
 منحنيه بطرف إصبعه، فقط ليعرف كيف سيكون
 شعوره.

وكانت مدام "مولينو" منورة بأثنين من الفوانيس
 موضوعين بشكل لامع على مائدة مجاورة، واللذان
 كشفا عن الخطوط الناعمة الناصعة لذقنها وأنفها، مما
 جعل الضوء ذا رقة جذابة.

وكان "فيتور" شاعراً جداً بالآثار البسيطة لمسحوق
 التجميل على بشرتها بالكامل. وشفاتها الحمراء شهية
 وناعمة كبثلة وردية. إنها تتمتع بإبتسامة بطيئة دافئة،
 حيث تبتسم ببطء كما لو كانت رداً على ارتفاع الحرارة
 بدماها. وصرها يرتفع وينخفض بإيقاع ناعم.
 "كم يبلغ عمك من العمر؟"

”ستون عاماً يا مدام“.

”انظر، إننا لا نستطيع الوقوف هنا كزوج من طيور اللقلق.....“

فتحركت مدام ”مولينو“ ببطء وبهدوء، وذراعاها بجانبها، حاملة مروحتها النصف مفتوحة بكتلى يديها كشخص ما يلتقط لوحة أو صورة فوتوغرافية.

فجلست مدام ”مولينو“ على الأريكة شبه مستلقية، وأشارت إلى كرسي مجاور ذو ذراعين. وفي هذا الوضع كشف فستانها الملتصق عليها عن الخطوط الكلية لجسمها، وكان من السهل للغاية تخيلها عارية. فقالت: ”إنني أعرف أنك صديق مقرب لـ“داماسو“.“

”حسناً، إلى حد ما“.

كان ”فيتور“ يعتبر ”داماسو“ مغفلاً، وأراد توضيح أنه أفضل بكثير، وكان يعرف فقط إجتماعية ”داماسو“.

”حسناً، لقد عرفنا بعضنا البعض لفترة من الوقت.....“

ثم بصوت متشدق قليلاً، معطية بعض كلمات لأغنية باريسية، تتحدث بها في مدح ”داماسو“. فإنه رفيق ممتع. وقد كان معيناً جداً. فهما كان يركبان الخيل معاً. وإنه الشخص الذي قد أعطاها هذه الشقة، والذي قد أحضر كل أولئك الأشخاص، وأخفضت صوتها قائلة بشكل خطير:

”إنني سعيدة جداً أن تكون عضواً بالمجمع هنا“.

ثم نظرت بإحترام إلى ”كوتو“ العجوز، والذي كان مغلوباً بالنعاس بكرسيه ذو الذراعين.

”بالطبع، قد تمنيت أن..... لكنني سأقضي أيضاً فصل الشتاء بأكمله في ”لشبونة“.“

إنها كانت تتحدث ببطء، متأملة بمروحتها. وبين
الحين والآخر كانت تنظر إلى "فيتور" لوقت طويل،
ثم سألته قائلة:
"أكتب شعراً؟"

فإندهش "فيتور"، وكان شبه خجول، ولم يرد.
فقالت: "أوه، إنني ظننت....."، "حسناً، فإن
"داماسو" هو الذي أخبرني".

ونطقت الاسم "داماسو" بحميمية إلى درجة عالية.
ثم أخبرته بآرائها: فإنها تعشق الشعراء والأدباء
الآخرين. ف دائماً ما كان لدى السيد "مولينو" شخصاً أو
أثنين منهم على العشاء. وكان يمكن لأولئك الأشخاص
الترحيب بذلك بالطبع لأنه لا يمكنك الحصول على
عرض كهذا بكل بساطة، حيث أنهم كانوا مجرد
أشخاص..... فتلعثمت في نطق الكلمة المناسبة.
وقالت أخيراً: "قذرة جداً"، ثم ضحكت قائلة: "إنني
لا أعرف ما الطريقة الأكثر أناقة لصياغة هذا، فإنني
قد نسيت كثيراً من برتغاليتي".

على العكس من "فيتور"، والذي اندهش من أنها
قد نسيت القليل جداً من برتغاليته.
"آه، أنت الآن تجاملني".

أما عيناها فغلقتا "فيتور" بنظرة كسولة بطيئة.
فأكد "فيتور" أنه لو كان يعيش بالخارج، لكان
اهتمامه الرئيسي هو أن ينسى كل شيء حول
"البرتغال"، واللغة البرتغالية، وكذلك الأشخاص
الذين يعيشون بها، حتى أنه أحمر خجلاً قليلاً عندما
قال "برتغالي".

فقالت مدام "مولينو": "بالتأكيد ليس كلهم".
وابتسمت، ثم أضافت قائلة: "ماذا لو سمعتك "هي"

تقول هكذا؟“

”من ”هي“؟“

”عجبا، إنني متأكدة أنه هناك ”هي“، وربما أكثر من واحدة“.

وعند هذه النقطة أتى ”داماسو“، والذي كان يدعك يديه. ثم انحنى ليهمس في أذن مدام ”مولينو“، لكنها تراجعَت قليلا، ثم قالت:

”خير، إن الناس سيعتقدون أنك تهمس لي بأشياء غير لائقة. ما هذا يا عزيزي؟“

”إنه جاهز. هذا برتقال وفراولة. إنه شهى. فهو أفضل مشروب قد ذقته طوال السنة“.

فقالَت مدام ”مولينو“ إلى ”فيتور“، مشيرة إلى ”داماسو“ بمروحتها: ”إنه يعتبر كبير خدم جيد جدا، أليس كذلك؟“

فأكد ”داماسو“ أنه يخدمها بسعادة كخادم مطيع لها. وبدأ يهيا ملامحه ليلقي نكتة ما أكثر رقة قائلا:

”عندما سيد حجرة النوم.....“

ثم اصطنع شكلا خطيرا، وبدأ يتحدث بصوت منخفض قائلا:

”إنني خجول جدا. فكنت سأرتدي سترة ذيلية هنا مثل ”فيتور“، ولكنني كنت أخشى من اعتقاد الناس إنني أظاھر..... موقفاً صعباً، أليس كذلك؟“

”حسنا، إنك مخطئ تماما. فدائماً ما ينبغي على الرجال أن يرتدون سترة ذيلية في المساء. وشيء آخر يا صديقي، إن حذاءك يحتاج إلى التلميع“.

فألقي ”داماسو“ نظرة سريعة على حذائه، وعلى الحذاء الجلدي اللامع لـ”فيتور“. فأحمر خجلاً، ثم قال بغضب:

”إنك تعلم أنه لديّ حذاء جلدي أيضاً كهذا. إنه لدينا هذا هنا“.

وكان يشدد إحمرار وجهه مع كل دقيقة تمر. لكن ضغطت مدام ”مولينو“ على ذراعه بمروحتها. ثم قالت بنظرة هدأته: ”تصرف“، ”قدم لهم المشروب، فإن الساعة الآن حوالي الحادية عشر“. فأسرع ”داماسو“ بعيداً قائلاً: ”صحيح، صحيح“. ثم استدارت إلى ”فيتور“، وابتسمت ثم قالت: ”كما كنت أقول، ”هي“.....“

فصاح ”فيتور“، والذي ضاع خجله، ولم يكن لديه الآن أية صعوبة في إيجاد الكلمات: ”لكن يا مدام“، ”أقسم أنه ليس هناك ”هي“، فإنني أتمنى فقط أن يكون هناك ”هي“، لكن أكثر عظمة من.....“.

وتردد ”فيتور“، حيث قد كان على وشك أن يدلي بتعليق أدبي جداً عن الحب، وكان خائفاً من إبداء التحذلق.

”استمر، فإنني مهتمة جداً بما تجده عظيماً“. وقد أصبح صوتها أكثر نعومة. وهي الآن تجلس بشكل منتصب على الأريكة، وتميل نحوه. وكان ”فيتور“ مدركاً حرارتها، ورائحة بشرتها.

فقال: ”حسناً، فإنه هناك الكثير من الأشياء التي أجدها عظيمة“، وأضاف بشجاعة قائلاً: ”الجمال على سبيل المثال“.

”إن الجمال أمر نسبي. فإنه من الممكن على سبيل المثال أنه قد يعتبر الكثير من الناس أن سيدة بعمامة قرمزية اللون..... إنني لا أستطيع تذكر اسمها مباشرة..... لتكون أجمل مني بكثير“. فصاح ”فيتور“ قائلاً: ”مستحيل“.

”حسناً، إنك ربما لا تعتقد ذلك، لكن.....“.

”إنني بالتأكيد لا أعتقد ذلك!“

والتقيا عيونهما معاً. ولكن في هذه اللحظة كان
”كارفالهورا“ يعبر الحجرة، وإحدى يديه في جيب
معطفه، موجهها بصره إلى مدام ”مولينو“، وخاطبها
قائلاً:

”إنه بلا شك أنك متعبة بعد رحلتك“.

فردت ضاحكة: ”إنني وصلت منذ شهر ونصف“.
فقال وهو يمر بأصابعه عبر شعره: ”آه، إذن لا
بد أنك اتخذتي وقتاً كافياً لاستعادة عافيتك“، ثم سحب
كرسيه، وجلس، جاعلاً رجليه في وضع تقاطع، كاشفاً
عن المطاط المهترئ بحذاه.

وتساءل قائلاً: ”وكيف إذن حال السياسات في
”باريس“؟“

فقالت مدام ”مولينو“، شاعرة بالحرَج والتكلف:
”في أحسن حال“.

”لقد كان الجمهوريون عظماء. فكانت الخطبة
الأخيرة لـ”جامبيتا“ جيدة جداً..... على الرغم من
أنها ليست على ذوقي. فإنه ينقصه الصور، التآلق،
الفصاحة، النجاحات. ولكن قد طلع أخيراً فجر جديد“.
فقالت مدام ”مولينو“ بإبتسامة: ”لوسمحتلي“.
ووقفت، مع صوت لحفيف بطانة فستانها. ومشيت
بخفة، متجهة لتجلس بجانب زوجة الملازم الثاني،
والتي كانت محمرة خجلاً، مدفوعة إلى الخلف
بكرسيها، ماطة نفسها ببطء شديد، بارمة شفيتها
بإحتقار.

وكان ”كارفالهورا“ يتابعها بعينيه، ثم تمتم إلى
”فيتور“ قائلاً:

”إمرأة غبية. إنها لم تتحدث ولو محادثة قصيرة“.
ورفع حاجبيه، ثم مر بأصابعه عبر شعره مرة
أخرى. واجتاز الحجرة، ثم انضم إلى عازف البيانو.
فقال ”فونسيكا“ الشهير: ”لقد تأخر الرجل“.
فتساءل ”كارفالهوزا“ قائلاً: ”أي رجل؟“
”يا للدهشة!“

وبمظهر كئيب جال ببصره، وهز كتفيه قائلاً:
”إنه سر، أوامر عليا“.
ثم أتى ”داماسو“، وأوصل ذراعه بذراع
”كارفالهوزا“.
”كارفالهوزا“، كن رجلاً حسناً. اذهب وتحدث مع
”باسكوال بيمنتا“.
فقال ”كارفالهوزا“ بافتخار: ”أنا أتحدث إلى ذلك
الخنزير؟“

”إنه رجل طيب ومسكين بما يكفي“.
”إنه حيوان“.
أما السيد ”رينالدو“ والذي منذ ذهبت مدام ”مولينو“
وجلست بجوار ”بيا تولومي“ قد كان يتجول حول
الحجرة بكآبة، باحثاً عن شخص ما يتحدث إليه، غير
قادر على كونه وحده، ودائماً ما يكون عالة على
آخرين حيث تساءل مباشرة قائلاً:
”من هو ذلك الحيوان، من؟“

فحدق ”كارفالهوزا“ النظر إليه. وأدرك ”داماسو“
أنهما لا يعرفا بعضهما البعض، فعلى الفور قدمهما
إلى بعض بتشريف عظيم.

فقال ”رينالدو“ منحنياً: ”تشرفت جداً“، ”إنه يسرني
سماعك وأنت تتحدث في مجلس النواب. فكثيراً ما
أذهب. وفي الحقيقة كنت هناك بالأمس“.

فبدأ "كارفالهورا" يلعب بالخدروات التي بسلسلة ساعة يده قائلاً: "آه، إذن فأنت مهمم ب.....".
"لا، فإنني رافقت فتاة أسبانية. وكانت تريد أن ترى ماذا يدور هناك. ربما تعرفها. فإنها من....."،
وهمس بشيء ما في أذنه. ثم قال بصوت عالٍ: "لولا"،
"ماجريتا".

فقال "كارفالهورا": "طبعاً"، ثم انطلقاً معاً، ذراعه بذراعه، ويتجاذبان أطراف الحديث.
وقد عاد "فيتور" إلى حجرة الكريتون الأزرق.
وكان "باسكوال بيمنتا" وحده على الأريكة، يقضم أظافره، وينطط رجليه إلى أعلى وإلى أسفل.
ولم يعرفه "فيتور"، لكنه كان جالساً بجانبه،
ويخرج سحابة من الدخان، ثم قال:
"إن الأمور تسير بشكل أقل إثارة عن ذي قبل".
وقال "بيمنتا" بعنف: "رجل غبي".

ولكن بعد ذلك دخل الشاعر الغنائي، مشعلاً سيجارة،
ثم جلس في زاوية أخرى من الحجرة، ورجلاه في وضع تقاطع، وذراعه مطويين. وظل يلقي نظرات خبيثة على الصحفي. وكان الثلاثة جميعهم جالسين هناك كثلاثة يدخلون مداخل، صامتين وبلا حركة كأصنام. ثم ظهرت مدام "مولينو" عند الباب.
"كنت أخشى أن تهرب!"، وعيناها مصوبة نحو "فيتور"، ولكنها التفتت بعد ذلك إلى الشاعر، ثم قالت: "لقد حان دورك. والسيدات تشتاق لأن تسمعك وأنت تقرأ عليهن الشعر".

فإنحنى الشاعر إلى أسفل، وبإشارة من مدام "مولينو" أطفاً سيجارته، واقترب منها ومد لها ذراعه.
فتمتم الصحفي قائلاً: "غبي آخر".

وبدا البيانو يصدر معزوفاً. فعاد "فيتور" إلى حجرة الإستقبال.

إن "فونسيكا" الشهير، والذي كان رأسه مرفوعاً إلى أعلى، محدقاً نظره بالفضاء، ونظارته تلمع، كان يلمس لوحة مفاتيح البيانو بأصابعه الممتلئة بخفة. ثم خرج نغم غامض بطيء. وكان هناك إثنان من الشموع المشعة بوهج أحمر على البيانو. وبجانبهما كان الشاعر الغنائي يلمس على لحيته مرتعشاً. وكان ينظر حوله، مسوياً نظارته الأنفية، ثم سعل.

إنه كان واقفاً بجانب البيانو. وبدأ شعره الطويل والذي يصل طوله إلى ياقة معطفه شبه بني اللون في ظل ضوء الشموع. وبالمقابلة مع الضوء بدت لحيته قدرة وخفيفة كالقطن. وكانت العدسات المدخنة لنظارته الأنفية تبرق بريقاً أسوداً على وجهه الشاحب. ثم أعلن قائلاً:

"عنوان القصيدة هو" رؤية تأملية"".

ثم مسح على حلقه وبدأ يقول:

الكل هادئ وساكن.

الأفق مكسواً بالسواد.

المياه تتدفق أسفل التل.

الأنين في أعماق الوادي.

الآن تغادر الطيور

إلى الحرارة المعتدلة جنوباً.

تسكر بالضوء وزرقة السماء

تهرب من العاصفة القادمة.

لماذا تهربين بعيداً جداً

يا طيور السماء الجميلة؟.....

فكان الشاعر يخاطب الطيور، سائلاً إياها عن

سبب هروبها. فما الذي يجعلها تهرب؟ هل أرتكب معها مظالم بواسطة أولئك الأقوياء؟ هل كانت لمحة ولع بالموهبة؟ كانت القصيدة تتخذ تحولاً اشتراكياً مريراً. وكان صوت الشاعر يزداد في كهفيته. وكان "فونسيكا" الشهير يشعر بقلق من الضغط على الدواسة، حيث كان يعزف على أعماق الأوتار الذي في مقدور لوحة مفاتيح البيانو. وكانت الأشياء تبدو كنيبة. ولكن بعد ذلك، ابتسم الشاعر فجأة، كما هو الحال عندما تصفو السماء في فصل الشتاء. وكان صوته الأنفي يترنم بدلاً من قصيدة مبهجة. فقد تغير الموسم، وذاب الجليد، وتفتحت الأزهار. وجاء الربيع وكل شيء أصبح أخضرًا. كل الأشياء تبتسم، الأرض والسماء، متعبة من حرب جهنمية. الغابات الكثيفة تغنى كما تفعل أزهار الربيع في الحقل، وفتيات عذارى تتحدث عن الحب والأزهار تتحنن لتهمس سرًا إلى البحيرة.

فعلق شتى المدعوين قائلين: "رائع".

ولكن بعد ذلك، ازدادت كآبة الشاعر مرة أخرى، وأظلم صوته. ولجأ "فونسيكا" الشهير إلى الدواسة مجددًا. مصاحبة لما يشبه إلى حد ما قرعة أجراس الموت، ويرجع صداها بأرجاء الحجرة. واتسعتا عينا زوجة الملازم الثاني، ولمعتا بتعاطف. فكان الشاعر يتحدث عن أحزانه. ففي وسط الطبيعة الاحتفالية هذه، كان هو وحده حزينًا، حيث كان يحتقر العالم، ولا يرى فيه إلا مرارة. وكان يحتقر الملوك والجيوش والمدفع

البرونزي. وكان يفضل اللون البنفسجي البسيط.
وامتلأت القصيدة بالبهجة مرة أخرى. وكانت
السعادة في كل كلمة، وتتدفق من كل سطر، كما لو
من فنان ممتلئ. ماذا كان يعزيه؟ ماذا؟

لماذا أشعر بهذا في صدري
أية مرة أكون عطشاناً وذابلاً
أتحول إلى حديقة مزهرة.....

وكان الجميع ينتظروا، حاسبين أنفاسهم حتى
يكتشفوا سبب هذه السعادة. ثم انفتح الباب، ودخلا
رجلان. وقال "داماسو" بعصبية: "شش"، وإصبعه
على شفتيه، فتجمدا الرجلان. وكان أحدهما مرتدياً
سترة للسهرة، مع وسام مثبت في طية صدر سترته.
وهو اسمه "مارينهو"، وكان يستند على الحائط.
والآخر رجل طويل قوي البنية، ذو بشرة شاحبة
كالرخام، وذو شعر لامع مدفوعاً للخلف. وكان مرتدياً
قبعة مرصعة بالحرير، وذو شارب شمعي. وكل ما
حوله يوحي بأنه مطرب واستعراضى.

فكان الجميع ينظر إليه. وكان هناك همس كثير.
وكان الشاعر يدرك هذا، فمع كل سطر كان الشاعر
يفقد سيطرته على انتباههم كميّاه تتسلل من بين
أصابعه. فحاول أن يستعيد انتباههم. ماذا كان يعزيه؟
"هي" من كانت تعزيه!

إنني رأيته ذات ليلة جميلة،
عندما كانت البلابل تغنى،
والسماء مليئة بالنجوم،
وخيمة مضاءة بلمعان:

آه، سينترا! إنني ما زلت أستطيع سماع الخريف
العذب لينابيعك،

أشعر بإلقاء الظلال على وجوهنا
بواسطة أشجار "رامالهاو".
وأصبح الشعر طائشاً. فكان "روما" يصف مناحي
المساومة، حيث كان يناشد النجوم، فوق الشرفات:
لا تفضي سرنا.

يا حشائش المرج الجميلة!
ولكن أصبحت الأشياء حامضة. وشعر "فونسيكا"
بالقلق من جديد بشأن الدواسة. وعاد "روما" إلى
أسطر الاحتقار قائلاً:

وانتهى الجميع. فوق الأرض
إنني أهيم على وجهي، ظل هارب.
إنني أكره كل الأشياء، الزهرة الأجل
بالنسبة لي زهرة "أفيرناس".
دع الينابيع تخر.

دع الأرض تصبح خضراء.
دع النسيم يعزف على الهواء.
بالنسبة لي، كل هذا يعد شتاءاً!

فصاح الرجل القوي البنية قائلاً بالإيطالية: "الشاعر
"برافيسيمو"!". وعلى الفور تقدم "جواومارينهو" إلى
الأمام، وانحنى على مدام "مولينو"، وقدم صديقه
"ساروتيني" الباريتون بمسرح "ساو كارلوس". فاجتمع
الناس حوله، يتجاذبون أطراف الحديث. ودخل كبير
الخدم حاملاً وعاء الشرابات.

وأذاع "روما" قصيدته، حاشداً مديح الناس.
وطلبت منه "بيا تولومي" نسخة من القصيدة. وكان
السيد "رينالدو" يعتقد أنها رائعة بحيث يمكن أن تغني
كـ"المصير". واتفقوا جميعاً على أنه أفضل من السيد
"فيدال". وفي حين لم يزل "روما" متذوقاً لانتصاره

عندما دخل إلى حجرة التدخين، وإذ بـ"بيمنتا" يقول إلى "الرماح":

"إنها مجرد سلسلة من الأفكار الشائعة ككل ما يفعله "روما" أيضاً".

فكان "روما" على وشك أن يقفز عليه، ولكنه ضبط نفسه.

ووجده "داماسو" بالمر، منتزعا رداءه بتهور.

"إنك لا تغادر، أليس كذلك؟، ماذا حدث؟"

"لا، إنني لا أريد أن أفقد السيطرة على نفسي.

ولوبقيت، فسأضرب ذلك المغفل الوقح بشدة!"

فحاول "داماسو" تهدئته:

فقال: "تعال الآن"، ثم رفع رداء "روما"، وأضاف

قائلاً: "إننا لم نتعش حتى الآن".

وبهذا الإصرار قرر "روما" البقاء، وعاد إلى

حجرة الاستقبال.

وبحلول ذلك الوقت كان "ساروتيني" واقفاً

في وسط الحجرة يقوم بخدع سحرية. فمن الأكماء

المشمرة لمعطفه الذيلي أخرج بيضة أولاً ثم ليمونة.

فالتف حوله المعجبون. وأسرع "داماسو" لينضم لهم.

وكان مبتسماً ولامعاً، وظل يهمس إلى "فيتور" قائلاً:

"إن مثل هذه سهرة رائعة..... لو كنت ارتديت

فقط سترة ذيلية".

أما "ساروتيني" فكان في هذه اللحظة يقلد طنين

الذبابة. فتظاهر أنه مطارداً بواسطة الذبابة. فضرب

على عنقه ضربة عنيفة، وتسلسل حول الحجرة على

أطراف أصابعه، ويده المقعرة ممدودة، حيث ينوي

الإمساك بها أثناء تحليقها. وفي ظل الصمت كان الطنين

الممل مستمراً، فقبل قليل كان تصفيراً خافتاً، والآن

دمدمة. فإنها كانت تظن من حول، وتتوقف للحظة، ثم تستأنف ضجتها الوقحة على الجانب الآخر من الحجرة. وكان هناك هتاف عظيم. فعاد "ساروتيني" إلى وسط المجموعة. وأصبح استعراضياً مرة أخرى. فبدأ يتحدث بمزيج من الإيطالية والأسبانية مبدياً إشارات مفرطة، ويهرج هنا وهناك، وسترته الذيلية تحلق خلفه. وكان يقلد مختلف أصوات الحيوانات، وينحني على عملة معدنية بيديه الخاليتين. وكان يحكي قصص الحملة الصقلية. وكان يقلد أشخاصاً مشهورين. ونظراً لأنه كان مؤيداً لـ "غاريبالدي"، بدأ يرتجل حواراً بين البابا والكاردينال "أنتونيلي"، والذي فيه كان أحدهما يدافع عن السيدات السمينات والآخر عن السيدات النحيفة. واختتم حوار المرتجل بإعلان نفسه مؤيداً للنظام الجمهوري.

فإندهش الجميع.

فكسر "كارفالهورا" حاجز الصمت قائلاً:

"إن البابوية بالطبع مأساة إيطالية. فالبابا يساوي الجهل والظلام".

فنظر "ساروتيني" إليه، طالباً ترجمة، مدركاً روح الوطنية في "كارفالهورا". فاجتاز إليه وعانقه، وربت على ظهره، هامساً إليه أنه هو نفسه يعد أحد الكاربوناري.

ثم أراد أن يغني "البؤساء". فبدأ يغني بالفرنسية قائلاً: "فلنذهب يا أطفال إلى الوطن!"

فأمتد الحماس إلى الشاعر "روما"، والذي شارك هاتفاً:

"البؤساء، البؤساء!"

فاعترضت مدام "مولينو". ليس "البؤساء"، فإنها

تكرهها.

وحل صمت.

”ليس البؤساء. إنني أكره هذه الأغنية على وجه الخصوص. فإنها تذكرني بالقداست. من فضلك، غني شيئاً ما آخر.“

وبدت مذعورة جداً، كما لو قد سمعت بنادق متمردة تطلق قذائف نارية. فأمسكت بذراع ”فيتور“.

”حسناً، إنهم قد فرحوا بالتأكيد!“

واجتازت مدام ”مولينو“ إلى ”كوتو“ العجوز، ومازال ذراعها موصولاً بذراع ”فيتور“. ومنحته ابتسامة جليلة محترمة، ثم قالت:

”إن هذا كان لمراعاتنا لك بالإضافة إلى إنني لا أريدهم أن يغنون ”البؤساء“. فمن الضروري أنها ستستعيد كل شيء.“

فرد ”كوتو“، والذي قد التقط الكلمة الأخيرة فقط، قائلاً: ”إنها في الواقع ليست سيئة جداً“، ”وإنها اليوم بالفعل أفضل بكثير، على الرغم من إنني مازلت مصاباً بألم في الظهر.“

فلم تقل مدام ”مولينو“ شيئاً لوقت قصير.

فتساءل ”فيتور“ بصوت عال جداً: ”هل قد كنت مريضاً إذن؟“

”نعم، بعرق النساء.“

فمالت ”جينوفيفا“ نحوه مرة أخرى قائلة:

”إنني أتوقع أن كل هذا بسبب العمل الأدبي الذي تقوم به.“

فكشر الرجل العجوز قائلاً: ”هاه؟“

فقالت ”جينوفيفا“: ”العمل الأدبي.“

”أوه، إنه لن يقرأ مرة أخرى، أليس كذلك؟ ما

موعد الشاي؟“

فابتسمت ”جينوفيفا“، وسحبت ”فيتور“ بعيداً.
 ”إنني أدرك أنه كاتب عظيم. عضو في الأكاديمية.“
 وكان ”فيتور“ على وشك أن يشرح لها أن
 الأكاديمية في ”لشبونة“ ليست كأكاديمية ”باريس“
 إلى حد بعيد، ولكنها قادتة إلى حجرة التدخين، حيث
 كان الصحفي يجلس بمفرده. وعندما رآهما الصحفي،
 أطفأ سيجارته بالشمعدان، ثم غادر منحنياً احتراماً.
 فقالت ”جينوفيفا“: ”إننا لا نقصد تخويفك.“
 فتمتم بكلام غير واضح، ووجهه محمراً خجلاً. ثم
 عقد انحناءه احتراماً.

”لقد طلبت من السيد ”داماسو“ أن يتبرع إلى
 الصحيفة التي تكتب بها. إن اسمها جريدة ”الشعب“،
 أليس كذلك؟“

فقال: ”نعم“ وانحنى احتراماً مرة أخرى، ووجهه
 أكثر احمراراً. ثم غادر الحجرة، وهو يتنفس بصعوبة.
 فقالت ”جينوفيفا“ ضاحكة:

”إن التسلية أمر مرهق جداً. ليس كثيراً هنا، حيث
 هناك فقط قليل من الناس، لكن في ”باريس“..... أوه،
 لا يمكنك أن تتخيل“، واتخذت شكلاً كئيباً، ثم أضافت
 قائلة: ”إن حياة المجتمع مملة هكذا“.

فقال ”فيتور“ أن بالتأكيد في ”باريس“.....
 ”أوه، باريس، باريس!، إنها ربما تبدو جذابة عن
 بعد، لكن عندما تضطر إلى أن تعيش في وسط هذه
 الزوبعة.....“

وبعد توقف، أضافت قائلة:
 ”إنني أفكر في دفن نفسي هنا في ”البرتغال“، في
 قرية ما صغيرة“، وألقت نظرة سريعة على ”فيتور“

من زاوية عينها.
فقال "فيتور": "حسناً، إنه هناك بعض القرى الرائعة"، "ول وقد حصلت على بيت أنيق.....".
فقالت: "وخاصة عندما يكون هناك اثنان منك".
وفجأة ظهر "جواومارينهو"، مبتسماً تماماً.
وضرب قبعته الرسمية برجليه، ثم هز رأسه قائلاً:
"إن "ساروتيني" على وشك الغناء".
ثم أمسك "جينوفيفا" بذراعه، ورافقهما "فيتور" إلى الحجرة المجاورة.

كان "ساروتيني" واقفاً بجانب البيانو، وهو طويل جداً ومنتصب القامة. وعندما قد عزف "فونسيكا" الشهير على بعض الأوتار الإفتتاحية، وإذ بصوت "ساروتيني" القوي والضحيم يملأ الحجرة بصوت نابض بالحياة. إنها أغنية عن "لوكرشيا بورجيا".
وقد نظم المدعوون مقاعدهم بصورة طبيعية في شكل نصف دائري. ورفع "ساروتيني" ذراعيه، وجال ببصره، وبدأ يغني بشجاعة، مائلاً إلى الورا قليلاً ليكشف عن حلقه الأبيض القوي. وكان يحرق النظر بشدة إلى زوجة الملازم الثاني، ويغمز إلى السيدة ذات العمامة الحمراء.

فصفق له الجميع بصوت عال. وعلى الفور انغمس "ساروتيني" في أغنية عن "دينوراه". إنه كان بالتأكيد "في حالة جيدة". والآن اتخذ شكلاً رومانسياً جدياً. وقد أصبح الاستعراض هو البطل. وعندما يكون هناك توقف، فإنه يضرب برفق على زوايا فمه بمنديله الشامبراي المزخرف.

ثم تلاه تصفيق آخر. وبدأ يتحرك بعظمة شاكرًا إياهم، منحنيًا لهم احتراماً كما لو كان على المسرح.

ثم طلب من "جينوفيفا" أن تغني. ورفضت قائلة: "لا، لا".

فزل "ساروتيني" على ركبتيه، فضحك الجميع. وبينما لم يزل على ركبتيه بعد، تقدم "ساروتيني" جازاً ركبتيه على أرضية الحجرة نحو "جينوفيفا"، والتي كانت مبتسمة، وتهز رأسها. فغنى "ساروتيني" لحنا نابولياً قديماً: "بريجيامي مادونا".

ولبهجة شاملة أضاف "جواومارينهو" صوته الخشن المزعج إلى هذا الالتماس الموسيقي. وكان "داماسو" يدعك يديه بإبتهاج، هامساً إلى "فيتور" قائلاً:

"هذا تحول إلى عربة إيجابية!" وأخيراً وافقت "جينوفيفا"، واجتازت إلى البيانو. وصفق "داماسو"، وتبعه الجميع. وأشار "جواومارينهو" بمنديله، كما يفعل الناس أثناء تصفيق الحضور.

فقالت: "هذا يكفي". وكان هناك هدوء متوقع. "إن الأغنية الوحيدة التي أعرفها عن ظهر قلب هي "أوفيليا" من مسرحية "هاملت" لـ "أمبرواز توماس". ما رأيكم؟"

فصاح الجميع قائلين: "برافو، برافو" فمال "كارفالهورا" نحو "فيتور" قائلاً: "آه، هاملت! عمل عميق كهذا. وبدأ يقول، مغمضاً عينيه: "لتكون أولاً تكون....."

وارتفع صوت "جينوفيفا" عالياً بقوة. وكان شفافاً كالبلور. واهتزت قليلاً على العلامات الموسيقية السفلى، ثم غنت بالفرنسية قائلة:

شاحبة وشقراء
تنام أسفل أعماق الموجة
ويليس بجانب النار
ماذا يبقى الله
هذا الذي ما زال باقياً
الليل حول البحيرة الزرقاء!

لم يسمع "فيتور" شيئاً مطلقاً أكثر شهية من تلك. فهذه الموسيقى بالغة الرقة، والممتلئة جداً بشفافية شعرية وكآبة واعتزال أسطوري، منحته تصوراً بعيداً لأرض أسطورية. الريف الاسكندنافي الضبابي، أرض ممهدة لكثير من الأشجار. هناك تنام بحيرة. وهناك أشكال غامضة لهيمنة حوريات الماء محصورة في هذا الانسجام الصوفي. ويمكن أن تلمح الجدران الصخرية للقلعة الاسكندنافية القديمة عبر الضباب، ويمكن سماع صوت لأغنية كئيبة.

وهذا جعله لوقت طويل أن يكون بعيداً في إحدى هذه المناطق الشمالية، حيث النساء طويلة القامة وذات عيون زرقاء. أو يكون بعيداً في حديقة ما فخمة كئيبة حيث تلقي أشجار التنوب ظلالاً رطبة، ونسيم مالح يخيم الجو، وبحر البلطيق تشتد زرقته. وعلى الشرفة الطويلة والتي شيدت بواسطة صياد سمك ما عجوز، هناك أميرة من السلالة السويدية، وهي ابنة ملك، تدعى "أوفيليا"، تحلق، صامتة، عميقة التفكير، ملتفة في الهواء البارد.

وفي فترة التوقف لما قبل المقطع الشعري الثاني، تعلقتا عينا "جينوفيفا" على "فيتور". وفجأة وبلا سبب شعر "فيتور" بالفخر للغاية، سعيداً ليكون على قيد الحياة مجدداً. فشرع بما يشبه تقريباً البكاء فرحاً.

وكانت "جينوفيفا" تصفق بحرارة. وكان هناك ضجة بالقرب منها. وسُمعت تعليقات ممتدحة تقول: "يا إلهي!", "رائع!"

فقال "مارينهو": "إنه يمكنها أن تصنع ثروتها بهذا الصوت!"

وعلق "كارفالوزا" بنفوذ عظيم قائلاً:

"من المؤكد أنها شاعرة بهذه الأغنية".

وأقر الملازم الثاني أنها بالتأكيد سيده يمكنها أن تلف عقول الرجال.

وفي ذلك الوقت كانت "جينوفيفا" جالسة ترتعش قليلاً، كما لو كانت متعبة.

فجاء إليها "داماسو"، وقال لها بلطف:

"إنكِ تغنين كملاك يا حبيبتى".

"لقد أخبرتك قبلاً، لا تخاطبني بـ"أنتي"."

فاغتاظ "داماسو".

"حسناً، إن هذا يصدمني حتى....."

فقالت بلا مبالاة: "حتى أنا معك، أليس كذلك؟"،

حسناً، فما زال هذا أيضاً لا يعطيك الحق".

ثم دخل كبير الخدم ليعلن عن أن العشاء قد جُهِز.

وكان هناك كشط بارز لبعض المقاعد. واتجهت

"جينوفيفا" بجلال لتمسك بذراع السيد "كوتو". فكان

الرجل العجوز نائماً، مما اضطرروا إلى إيقاظه.

ومازال نصف نائم، حتى أنه لم يدرك تماماً ماذا

يحدث، حيث كان الجميع واقفاً حوله لوقت قصير

دون تحدث.

فسحب "داماسو" من ذراعه، وبعد أنين وتمتمة

وكحة وتحريك رأس، استطاع الرجل العجوز

أخيراً أن يقف على قدميه الوارمين، وأمسك بذراع

”جينوفيفا“، وتقدم ببطء وبارتعاش إلى مائدة العشاء. وتبعه الآخرون. وكان الصحفي هو آخر شخص تبعهم. وقد ازداد نكده. وكان مهاناً وغازباً، لكنه لم يريد أن يفوته تناول العشاء. فبصق على أرضية الحجرة. وبدأ يختال بها، ويداه وراء ظهره. وفي نحو الساعة الثانية من الصباح انتهى الجميع من تناول العشاء. وكانت ”جينوفيفا“ منغمسة في تبادل عميق للأسرار مع ”فيتور“. وكان ”فيتور“ يخبرها بهوموم واهتماماته وآرائه.

فقال: ”إنني مؤيد للنظام الجمهوري“. فوبخته برقة: إنه ينبغي تأييد ملكه ودينه. فالواجب الأول لرجل بالغ التهذيب هو دينه. فإنه لا يمكنك أن تنتمي إلى مجتمع أفضل، ولا يمكن اعتبارك أنيقاً دون دين. ثم تحول حديثهما إلى المدعويين الآخرين، وبدأ يحللا على أفراد بعض شخصيات مضحكة: الصحفي، والذي كان يأكل في صمت وبصلابة وبمزاج سيء، واضعاً سكينه بفمه. الشاعر، والذي كان يلتهم طعامه بشراهة، ويمد يده على المائدة ويقطع خبزه بدلاً من أن يكسره. السيد ”رينالدو“، والذي كان يتحدث مع زوجة الملازم الثاني، وينظف أظافره بالمسواك. وكان كلاهما يضحكان ويهمسان ويشربان. انتهاء بـ ”مارينهو“ والذي كان بجوار السيدة ذات العمامة، وكان غازباً، حيث ظل يلقي لمحات يائسة على ”جينوفيفا“. فلم تتحدث السيدة كثيراً كخنزير مقبوع. وقد أنت مع زوجة الملازم الثاني. ولم تقل إلا أربع كلمات واضحة طوال الليلة بأكملها، حيث كانت رداً على ”جينوفيفا“ والتي سألتها ما إذا قد تعيش جيداً أم لا. فأكدت بصوت عالي قائلة:

”إنني على وشك الانفجار“.

وما زال ”كوتو“ يأكل، هابطاً بكرسيه، وإحدى ذراعيه على المائدة، يشكل كرات من الخبز، والتي أصبحت سوداء اللون لتلامسها مع الأطراف القذرة لأصابعه العظمية الشائخة، والخارجة من أطراف أكمامه الواسعة. ودائماً ما يكون ”داماسو“ مشغولاً، حيث وقف عن المائدة، وأخذ يصدر أوامر سرية إلى كبير الخدم، والذي دخل إلى المطبخ، ثم عاد حاملاً زجاجات تحت إبطه. ووُضعت حيث كان هو، لأن زوجة الملازم الثاني هي التي وضعتها، نظراً لأنه هو الذي ”دفع الفاتورة“. ثم شاركت في مناقشة طويلة مع السيد ”رينالدو“ حول ”ما هو الثمن الذي يجب عليه أن يعطيه لها في الشهر“.

وكان ”فونسيكا“ الشهير هو أكثر المدعين سعادة بشكل غزير. وكان ”ساروتيني“ يخاطبه بـ”المايسترو“. وسرعان ما دعاه الجميع بـ”المايسترو“. إنه كان متورداً جداً بالنجاح. وفي مرة واحدة قال إلى ”ساروتيني“:

”إنك ذو عبقرية عظيمة.....“

فرد ”ساروتيني“ قائلاً:

”حسناً، نتحدث عن العبقرية. إنك ذو عبقرية تفوق

أي شخص هنا“.

فإنحني ”فونسيكا“ الشهير إحتراماً بشكل بالغ. ومن أحد أطراف المائدة إلى الطرف الآخر لم يتبادلا كلاماً شيئاً سوى ”عبقريتي، عبقريتك، عبقريتنا.....“

وكان لدى شخص ما فكرة أن يغني أغنية، مصاحبين إياه بالقرع على أطباقهم. أما ”ساروتيني“ فكان يقرع بكؤوسه. وعلى الفور أطلق ”جاريبالديان“

عدداً شعرياً بقوة:

إلى الأمام إلى "روما" المقدسة.

سنصعد إلى العاصمة.....

فصاح الجميع قائلين: "لا، لا"، "إننا لا نريد أي شيء سياسياً".

إنهم يريدون شيئاً ما مرحاً.

فصاح "فيتور"، والذي كان مسروراً بوضوح قائلاً: "إلى جانب"، "أن هذه الأغنية غير مناسبة. إن

الإيطاليين هم الذين يخرجون في مسيرة إلى "روما".

وأثار هذا التعليق "ساروتيني". فوقف، وقرع على

كرسيه بقوة كما فعل هو أيضاً. واجتاز إلى "فيتور"،

وعينه ملتفتين. وأمسك برأس "فيتور" بيديه

القويتين، ثم زرع قبلة على جبينه. فصاح الجميع

بادين استحسانهم.

فصاح "مارينهو" قائلاً: "إنني أقترح أنه ينبغي أن

تقبل السيدات فقط"، "على الرغم من أن السيد جميل

بالتأكيد بما يكفي لتقبله".

فنظر الجميع إلى "فيتور" للحظة. وكان وجهه

متورداً. وكانت هناك إبتسامة مبتهجة على شفثيه،

وعينه تلمعا نظراً لقربه من "جينوفيفا"، ولكمية

الـ"فوف كليكيوت" التي قد شربها. كما أن السيد

"رينالدو" علق بهدوء قائلاً:

"إنه سيدفع السيدات إلى أن تجمع به!"

فنظرت "جينوفيفا" إليه أيضاً، واتسعت عيناها

بشكل أكبر وأصبحت أكثر قتامة، وانتفخ صدرها،

وكان جفناها يرمشا باهتياج وبرغبة خارقة عابرة.

فلم تقل شيئاً، لكنها كانت تبتسم ابتسامة ملتوية

قليلاً حتى كشفت عن أسنانها البيضاء الصغيرة.

وما زال "مارينهو" يصيح عالياً قائلاً:
"إنني أقترح أنه ينبغي أن تُقبل السيدات فقط".
فصاح "رينالدو" مغشياً من الضحك قائلاً: "إنه
خائف من أنه قد يكون محمداً".
فقال "داماسو" منحنياً: "إنه ينبغي أن يبدأ مع
جارتة".

وعندما قيلت هذه الكلمات، قفزت السيدة ذات
العمامة الحمراء على قدميها بغضب، وتركت الحجرة.
فأسرع "داماسو" ورائها. أما "جينوفيا"، وزوجة
الملازم الثاني، وجميع من حولها كانوا يقولون:
"إمرأة سخيفة. فإنها مجرد مزحة!"

وظلت السيدة ذات العمامة الحمراء تكرر وهي
تلهث قائلة: "إنني إمرأة محتشمة. إنني إمرأة محتشمة".
وأخيراً أقنعوها بعودتها مرة أخرى إلى المائدة،
وأجلسوها عليها. وكانت ساكنة، وعيناها محتقنة
بالدم.

وأتجه "داماسو" إلى "كارفالوزا"، ثم قال له
شيئاً ما. وابتسم "كارفالوزا" معبراً عن موافقته.
وعاد "داماسو" إلى مقعده، وقرع بشوكتة على طبقه
بصوت عال، ثم قال:

"سيداتي وسادتي، هدوءاً من فضلكم".

فرفع "كارفالوزا" كأسه في يده بعظمة.

فحل صمت على الجميع. وكان العضو المحترم
يمر بأصابعه عبر شعره، ثم يمسحها بعناية بمنديله،
والذي ألقاه بعد ذلك على المائدة. وكان يعبث بطبقه
وسكينه كشخص ما يلخبط مذكراته على منضدة
القراءة، ثم قال:

"إنه لم يكن في نيتي أن ألقى كلمة، ولكن صديقي

الشهير، السيد "داماسو" قد طلب مني أن أعبر عن الشكر الذي نشعر به جميعاً في هذه الليلة الاحتفالية إلى مضيفنا الكريم.

ثم صمت، وبدأ ينظر حوله، ورفع كأس الشمبانيا على شفثيه. وسمع البعض وهو يمزغ على مسواك، وكوعيم على المائدة. وآخرون كانوا جالسين بعيون مسبلة كما لو كانوا يستمعون إلى خطبة. وكان "ساروتيني" ينظر حوله غاضباً. وما زالت "جينوفيا" جالسة تبتسم تماماً.

وواصل "كارفالهورا" كلمته قائلاً: "إنك قد أتيت إلينا من "باريس". "ومن الواضح أنك لن تجد هنا روائع الـ"بوليفارد"، أو رفاهية "فندق جراند"، أو الهرج والمرج لـ"خشب البولوني".

وعندما سمعته "جينوفيا" يتحدث عن رفاهية "فندق جراند"، اضطرت إلى أن تركز ملامحها في تعبير من الدهشة لكي تمنع ضحكها.

"إننا فقراء، لكننا....."

فتمتم "فونسيكا" قائلاً: "مؤيدون رائعون".

"قد لا نكون قادرين على التنافس على إظهار ثروة وافرة هكذا، لكن ما يمكننا إظهاره لبقية دول "أوروبا" هو السلام المستمر والدائم، والتعب الصادق الصارم. فأمجادنا ليست أمجاداً صغيرة، أوه، لا يا مدام....." فوجدت "جينوفيا" نفسها على الفور أن وجهها أحمر. لكن لم ينته "كارفالهورا" من كلمته بعد، حيث واصل قائلاً:

"ربما لا ينيرون كمنارات، لكنهم متقدون كنيران". فقال الشاعر: "أو، رائع"، "يا له من ثراء لغوي!" فأحمر وجه "كارفالهورا" من السعادة في تصويره

للتعبير، فكرره قائلاً:

”ربما لا ينبرون كمنارات، لكنهم متقدون كنيران“. فقال ”فيتور“: ”معذرة“، ”لكنني أعتقد أن السيدة تشعر بالتعب“.

فتحولت جميع الأنظار على السيدة ذات العمامة الحمراء. وبدأت أنها في ألم ما. فكانت تتنفس بصعوبة، وعيناها متراجعتين، ثم سقطت ورأسها متدلياً بين ذراعي ”مارينهو“. فقفزت السيدات على قدميهن، واندفع الرجال نحوها. أما ”كارفالهورا“ فكان شاحب الوجه، وكأس الشمبانيا في يده، وواقفاً ينظر حوله باكتئاب، ويده اليسرى مازالت مرفوعة، منتظراً.

لكن أصبحت الحجرة خالية. فقد خرج الجميع تقريباً إلى الصالون الأكبر، حيث كان البيانو يصدر معزوفاً في ذلك الوقت. ومازال فقط الشاعر الغنائي شبه السكران يلتهم طبق المهلبية الكبير، والذي ألقى نظرة سريعة على ”كارفالهورا“، ثم قال:

”ماذا حدث أيها الخطيب الشهير، هل قد قطعت القطة لسانك؟“

فأصبح ”كارفالهورا“ غاضباً، وبدأ يشتمه بشدة، ثم ارتدى سترته، وغادر.

أما كبير الخدم، والذي أضاء الطريق، لاحظته قائلاً:

”إن القهوة على وشك أن تُقدم يا سيد“. فقال ”كارفالهورا“: ”حسناً، إنني أمل أن يستمتعون بها!“. وأخذ يتخبط نزولاً على درج السلم بغضب.

وفي هذا الوقت كانت السيدة ذات العمامة الحمراء مشغولة بمرضها في مخدع ”جينوفيفا“. وقد عملوا لها شاي أخضر، لكن فاض الكيل بأمعائها المضطربة،

وانفجرت محتوياتها من فمها في تدفقات عظيمة.
وفي الحجرة الأخرى كان "فونسيكا" يعزف موسيقى
الفالس. وكان "ساروتيني" و"داماسو" يرقصان معاً.
وأخيراً تمكنوا من تهدئة الأمعاء المضطربة للسيدة
ذات العمامة. فأخذتها "ميلاني" إلى حجرة الأنسة
"سارة" حتى يمكنها أن تستريح قليلاً، وتخفف من
مشدها. وكانت "جينوفيفا" جالسة أمام المراة تمشط
شعرها. وعندما ظهر "فيتور" عند الباب، ورأها
لوحدها، تراجع قائلاً:
"إنني أتيت فقط لأرى ما إذا كانت السيدة بحالة
أفضل....."

فقالت "جينوفيفا": "ادخل، ادخل". "إنك لن تخاف
من حجرة نومي، أليس كذلك؟، فإنها ليست كهف
رئيس عصابة!"
فدخل "فيتور" إلى الحجرة ببطء، كما لو كان داخلاً
إلى كنيسة. وعلى الفور أصيب بالشلل لرؤيته للستائر
حول السرير، ودولاب قمصان النوم الحريرية زرقاء
اللون، والزجاجات اللامعة، والروب الحريري،
والشموع الوامضة. كل هذا شكل جزءاً من نسيج
الحياة. فكان مضطرباً جداً، حتى كان كل ما استطاع
قوله هو:

"إنه لديك حجرة أنيقة جداً هنا....."
فضحكت ضحكتها الموسيقية.

"أعتقد ذلك؟، إنها مجرد حجرة مؤجرة، بايخة
بشكل فظيع. إنني لا أعرف حقاً كيف أجبر نفسي
على النوم هنا. فإنني اضطررت إلى شراء أغطية
جديدة ومرتبطة مرتفعة، ومن ناحية أخرى لم يمكنني
النوم هنا إطلاقاً".

فوقعت هذه التفاصيل على روح "فيتور" كمشروع مسكر لخمير جيد. وأخذ يتأمل كل تفصيلة بشوق، كما لو كان يأمل أن يكتشف في المفروشات، وفي منضدة الزينة، وفي قميص النوم، أثراً ما من جمالها العاري أو من أفكارها.

وظلت "جينوفيفا" عند المرأة، تسوي شعرها، وتضع على وجهها مزيداً من مساحيق التجميل، وتجلجل أساور يديها. وكان صدرها يرتفع وينخفض بشكل سريع جداً. وكانت عيناها الداكنتان تلمع، وكان جانبها المضاء باللمبة التي فوق المرآة يلمع بنعومة، كاشفاً في صفرة بشرتها الرائعة إشراقاً حياً.

فقالت: "لو تريد أن تجلس، فأفعل ذلك من فضلك".
 "هناك سجائر. ويمكنك أن تدخن إذا أردت. فلا يهمني دخان السجائر هنا، حيث أنها من "باريس".

فأخذ "فيتور" سيجارة، واتجه ليشعلها من الشموع المضاء بجانب منضدة الزينة. وكان قريباً جداً من "جينوفيفا"، فمسها بكوعه برفق. ولم يقل أي من منهما كلمة. وخارجاً بالحجرة الأخرى كان يمكن سماع ضجيج البيانو، والضحك، ورقصة الفالس القوية، حتى أنها جعلت ألواح الأرضية العتيقة تهتز. وكان هناك زهور جميلة من الكاملية في فازة، مما جعل "فيتور" يشير إلى جمالها. فألقت "جينوفيفا" مشطها، والتقطت زهرة كاملية حمراء من الفازة. ثم استدارت، ووضعتها في عروة سترته.

فالتقيا عينا "فيتور" بعيني "جينوفيفا" للحظة. وبينما كانت "جينوفيفا" تعدل الزهرة، كان جفناها يرمشاً قليلاً. وبصوت متردد قليلاً، قالت:

"إنك لن تضيّع هذه، أليس كذلك؟"

وبارتعاش، وازناً كل كلمة، قال "فيتور" بعاطفية وبشجاعة:

"إنني سأحتفظ بها إلى الأبد!"
فضحكت.

"لا تكن سخيّاً، آه، نسيت أنك شاعر".

ودبست "جينوفيفا" الزهرة في عروة سترته. ووقفت في الخلف قليلاً، ومازالت تلمس بتلات الزهرة.

"هذا وسامك!، توصيتي، توصية بالكاملية الحمراء. إنك فارسي الآن، "فويلا!"
فهاجمت "فيتور" موجة من العاطفة، وكان رأسه يدور، فمد ذراعيه عليها بتهور، وصاح قائلاً:
"اسمعي!"

فتراجعت "جينوفيفا"، وضربته بخفة على أصابعه بمروحتها. وقالت كما لو كانت مندهشة:
"ماذا تفعل؟"

فتجمد "فيتور"، وأحمر وجهه خجلاً. ثم اقتربت "جينوفيفا" منه مرة أخرى.
فقالت، وهي تمسك بذراعه: "دعنا نرقص على موسيقى الفالس".

وفي هذه اللحظة انفتح الباب، ودوى صوت "داماسو" قائلاً:

"ماذا كل هذا إذن؟"

وسأله "جينوفيفا"، والتي كانت واقفة منتصبية جداً، بنبرة باردة مغرورة:

"ماذا تقصد بـ"كل هذا"؟"

فتلعثم قائلاً: "إنك تتحدثين هنا في..... في إنعزال".

وكان واقفاً في المدخل، أمامها.
فقالت باحتقار بالإنجليزية: "اخرج خارجاً"،
وأشارت بمروحتها إليه بضيق، كما لو كانت تخرج
كلباً.

فغادر "داماسو"، وشفته تترعشا.
فسألت "جينوفيفا" "فيتور" بهدوء قائلة: "أتحدث
الإنجليزية؟"

فعثر على الإجابة المثالية قائلاً:
"إنني أعرف جملة واحدة فقط".
فسألته، ورأسها على جانب واحد، قائلة: "وما
هي؟"
"أنا أحبك".

فتراجعت "جينوفيفا" إلى الحجرة الرئيسية، وبدأت
تهوي نفسها بمروحتها. ولم ترد. وصاحت قائلة:
"مايسترو! موسيقى الفالس للسيدة "أنجوت"!"

وبدأ يرقصان. وكان يتحركان بسرعة بالغة، حتى
أن "فيتور" والذي لم يعتاد على الرقص، شعر كما لو
كانت الشقة بأكملها تلتف من حوله. وشعر بجسمها
القوي ينحني بين ذراعيه، ويدها تضغط على كتفه.
وكانت تنظر إلى أسفل قليلاً، ومروحتها في يدها.
ثم استدارت برشاقة، وكانت البطانة الطويلة لفستانها
مجرورة وراءها. وعندما توقفا، والتفت بطانة فستانها
حول رجل "فيتور"، هاج بدافع الرقص. فوقف
يلهث، في حين أنها كانت مبتسمة، ومتوردة، ولامعة.
ثم أن "الرماح" والذي كان صارماً بشكل مستقيم،
بدأ يتحرك بخفة ماراً بهما، يميل ويميل مع "بيا
تولومي" بذراعيه. وبعد ذلك مباشرة كانت الرقصة
أو بالأحرى القفزة بين "ساروتيني" و"رينالدو".

ثم كثف "فونسيكا" من سرعة الإيقاع. وكان الشاعر "روما" المستند على البيانو سكرانا، يرتجل أشعاراً غنائية على موسيقى الفالس:

استمر على موسيقى الفالس درها بشكل متهور. وفي حجرة التدخين كان "كوتو" العجوز متراجعا في إحدى الأركان، يشخر.

وفي الوقت نفسه كان "داماسو" يشاهد "فيتور" و"جينوفيفا" بعينين غاضبتين. ووقفت "جينوفيفا" بالقرب منه لوقت قصير.

"لا تبدُ بهذه الدرجة من الاكتئاب! ارقص! استمتع! إنك تعلم أن التبوير شيخوخة حقيقية!" فقفز بغضب على قدميه.

وتمتم قائلاً: "أوه، مرح جداً!"، وسدد لها نظرة حاقدة، ثم مشى بتشامخ.

وتمتت "جينوفيفا" في المقابل قائلة: "مغفل!" وسمع "فيتور" التبادل الحوارى، فعقد أملاً عظيماً وسعادة غير عادية من ذلك الحوار. فشدها إلى رقصة الفالس، ولكنها توقفت. فبدلاً من ذلك أمسكت بذراعه مرة أخرى، واتجهت سريعاً إلى "داماسو"، والذي كان منحنيًا عند المدخل هائجا. فقالت:

"انظر، إنك أصبحت سخيلاً. ولو ستتظاهر بهذه الأجواء المأساوية، فمن الأفضل لك أن ترتدي معطفك وتغادر."

"لكن لماذا كنتي.....؟"

"لقد أخبرتك قبلاً ألا تخاطبنى بـ"أنتي"."

فقال بغضب، وكان على وشك أن يمضي: "عندك حق، تصبحين على خير."

"اسمع، خذ معك السيد الذي من الأكاديمية، الرجل

العجوز الذي يشخر هناك. انصرف!“
أما ”داماسو“، والذي قد تعهد أن يأخذ ”كوتو“ إلى
البيت، اجتاز إليه، وهزه لإيقاظه، ثم جره على قدميه،
وهو نصف نائم ومعتزضا، واصلاً ذراعيه به. وقاده
للنزول. وهو وكبير الخدم غطيا ”كوتو“ برداءه ذا
الياقة الناعمة. ثم حزمه ”داماسو“ إلى داخل العربية،
وأغلق الباب بعنف. ثم زعق في السائق قائلاً:

”تقدم، لا تتسكع!“

وكانت الشبابيك عالياً تشع بالضوء. واستطاع
”داماسو“ أن يسمع معزوف البيانو، وضحك الناس.
وتأمل ”داماسو“ في غيظه، وهو منحنياً في ظلام
العربة. المرأة العاهرة! تغازل رجلاً آخرًا!، وأسلوبها،
ونبرة صوتها كما لو كانت سيدة حقيقية، في حين أنها
لا شيء سوى عاهرة بذيئة، ماصة للدماء. وهو كان
مغفلاً بما فيه الكفاية لتغذيتها بالمال!

وتمتم ”كوتو“ قائلاً: ”حفلة رائعة“.

فقال ”داماسو“ بمرارة: ”رائعة“.

الفصل الخامس

وبينما كان "فيتور" عائداً من سهرة "جينوفيفا" إلى بيته، كان مثاراً بعاطفة رقيقة عميقة تتدفق من روحه، وتغمر كيانه بالكامل. نفس الشكل الذي تتخذه الرياح لتنفخ الأشرعة. كان الضباب محملاً، والنجوم لامعة. وكان هناك هياج خفيف لرياح باردة. وبينما كانت ترجع أصداً أثار أقدامه بالشوارع المهجورة، كان "فيتور" يبذل قصارى جهده ليتذكر كل تفصيلة من السهرة لكي يطيلها بعقله، وليجرب المشاعر التي قد استيقظت فيه مرة أخرى، لكن تلاشى كل شيء إلى لا شيء، غارقاً في تألق "جينوفيفا".

وكانت تبدو "جينوفيفا" أمامه إما بأكملها، تبهره بجمالها المثير والساحق، أو على أجزاء تلمع في الليلة المظلمة: كتفاها بالكامل حيث يتحد فستانها مع لحمها، أو جذعها الطري يتحرك مع همس من الحرير، أو البشرة الرائعة لساعدها العاري، أو الظلال المصبوبة من ذقنها المستدير المتين. وما زال يمكنه سماع وقوع الموت الجميل من تغريدات عذبة مؤكدة في صوتها، وانفجارات ضحكها الفضي. وشعر بالسعادة البالغة حتى أنه كان يغني إلى نفسه بصوت منخفض. وشعر بوفرة الحياة تتدفق عبر عروقه، حيث أن هناك ألف باعث يدفعه كما لو كانت كل مزايا روحه وشخصيته الرائعة، والتي قد ظلت كامنة لعدم وجود الحافز، قد استيقظت بصوت وعيون "جينوفيفا". وكان كل هذا الآن يستدعي العمل والحركة.

حتى أن حياته لم تكن شيئاً سوى رحلة مملة بطيئة أسفل نفق لا نهاية له. وفجأة رأى الآن تفتحاً لحياة مشرقة وافرة مليئة بالحنان أمامه. فإنه سيشترك "جينوفيفا" حياة أفراسها مستمرة في ذروة من

السعادة..... لأنه لا يمكن أن يكون هناك شك في أنها تحبه. حيث بدأ يجمع الأدلة: الكاملية الحمراء، للأشياء الجميلة التي قد همستها له، التلميحات، النظرات، الإشارات. مما جعله يشعر بالفخر للغاية. وبدأت "جينوفيفا" بالنسبة إليه مخلوقة إلهية، فهي مزينة بكل المدن التي قد عاشت فيها، وبكل المشاهير التي قد عرفتهم، وبكل السرور الذي قد تمتعت به. فحضارة قوية مثقفة كاملة ثرية قد هيأتها ولمعنها وتغلغلت فيها وجعلتها مثالية. وهذه المخلوقة المثالية تحبه!

فالتى قد عرفت الكثير والكثير من الرجال ذي الجمال الساحر والذكاء المثير للإعجاب تحبه هو. فشعر كما لو قد كان موضوعاً على قاعدة تمثال طويلة جداً في غمرة الحياة.

فأقسم "فيتور" أن يكون جديراً بها: فسيرتدي ملابس أنيقة، وسيقرأ قصصاً ومسرحيات ليشبع روحه بموهبة متجددة تماماً حتى يكون قادراً على ممارستها كرقاقة معدنية. فسيكتب شعراً، ويقترض مالاً من عمه. وعندما دخل إلى حجرته، نظر إلى نفسه في المرأة، ومسح على شعره. وبدأ أنه رائق ووسيم. ماذا قد أوقعها فيه؟، ماذا قد أعجبها فيه؟ هل شعره الأسود المجعد، أم عينيه الكسولتين الواسعتين، أم لحيته الناعمة؟، أم بشرته التي تشبه الرخام الشاحب؟ ولم يستطع إجبار نفسه على خلع ملابسه وارتداء شبشب، كما لو كان خلع سترته الذيلية وحذاءه الجلدي سيبيد سحره الفاتن، وذلك من سهرة اليوم.

واستيقظ "فيتور" كرجل عاشق، حيث شعر بكل العذوبة لقبله أم وذلك بتذكره على الفور بملئ

”جينوفيفا“ لروحه. ولف ذراعيه حوله، واحتضن صورة لها. وبدأ يفكر في الكثير من الأفكار الرقيقة. ولم يبدُ اليوم أبداً أروع بالنسبة له من قبل، فكان الضوء أكثر إشراقاً، وكل صوت أكثر بهجة، وكسل غامض يحلق في الهواء. وقد تناول فطوره في سريره. ومال إلى الوراء على المخدات، وبدأ يدخل سيجارة، واستغرق في تخيل سيناريوهات مبهجة شتى. فتصور نفسه معها يمشيان جنباً إلى جنب في ”سينترا“ تحت الأشجار، مصحوبين بالصوت البارد للمياه المتدفقة. أو يتصور نفسه راكعاً عند قدميها بحجرة نومها، وخصلة واحدة من شعرها الأشقر تلتف حول إصبعه. ولم يمر عبر عقله أية أفكار نجسة أو شهوانية. فحدة رغبته تلاشت تقريباً في ظل حلاوة الحب. حتى أن تخيله لنفسه وهو يقبل لحمها الأبيض العاري بقبليات مبتهجة عميقة مخصصة خفيفة، كان تخيلاً طاهراً.

ثم ارتدى ملابسه ببطء، وحاول أن يكتب شعراً، ولكن بعدما أجهد عقله، كل ما استطاع إخراجه هما كلتي السطرين:

أمس، في الحركة الدائرية لرقصة الفالس الحماسية شعرت بجسمك يرتعش ويهتز.....
ونظراً لأن الجو كان صباحاً جميلاً، ارتدى ”فيتور“ قبعته وخرج خارجاً.

وتمنى بشكل غامض أنه ربما يلتقي بها. إنه لم يذهب بالطبع إلى المكتب. فقد كان مرعوباً من شارع ”أركوبانديرا“، أو من الدكتور ”كامينها“، أو من الشخصية الهادئة للقاضي. لا، الشيء الأخير الذي كان في حاجة إليه هو أن يغلق على نفسه في ذلك

الكهف المصطف بمستندات قانونية. ليس هذا ما قد وُلد لأجله. فإنه رجل أدب، أدب الإحساس والقصص والشعر. فلنذهب أوراقه الرسمية إلى الجحيم. إنه سيكتب كتاباً. هذا ما سيفعله. وسيهديه إليها.

ولكن بعدما تجول عبر "شيدو"، ماراً بـ "ألفيز"، على طول شارع "روزماري" والجسر، وعودته مرة أخرى ماراً بـ "ألفيز"، مازال لم يرها. وبدا اليوم يشدد كربه كما لو كان تحت سحر، فكل الألوان قد تراجعت فجأة.

وفي اليوم التالي لم يعد قادراً على الإنتظار فترة أطول. فبدأ يشق طريقه بعصبية إلى شارع "ساو بينتو". فقد أخبرته "جينوفيفا" أنها دائماً ما تكون بالبيت فيما بين الساعة الواحدة والثالثة. وارتعش "فيتور" عندما سمع الجرس يرن في الممر.

فتحت "ميلاني" الباب، وبضيق تنفس قالت: "أه، أنت يا سيد"، والطريقة التي اتخذتها "ميلاني" في ذهابها إلى "جينوفيفا" لتخبرها بحضوره، جعله يفكر بغرور أنه هو المتوقع زيارته.

فوجد "فيتور" "جينوفيفا" مستلقية بكسل على الأريكة في الصالون، وفي يدها كتاب. وأقامت نفسها على إحدى كوعها. واعتذرت على اضطرارها إلى استقباله بمثل ذلك الوضع، لكنها قد كانت مريضة ليلة أمس. وتركت كتابها يسقط على الأرضية بضعف. وأشارت على كرسي مجاور، ثم سألت قائلة:

"ما الأخبار؟"

فشعر "فيتور" بالخل بشدة. فكانت مرتدية ثوباً أزرقاً واسعاً حتى أنه كان متدلياً في ثنايا واسعة طويلة حول جسمها. وكان مشدوداً على ثدييها، والمنحنى

العميق لوسطها. وكانت قدماها الصغيران والمكسوان بجوارب سوداء تنتعلا شبيهاً من الحرير. وكانت تبدو شاحبة الوجه. على العكس من المخدة المزينة بالدانتيل، والتي كانت تسند رأسها عليها ببياض وذهبية بشرتها وشعرها. وعيناها المحاطتان بهالات بنية باهتة بدتا أكثر قتامة. وكانت تحقق نظرها إليه حتى أصبحت حزينة وغريبة فجأة.

”ماذا جرى؟“

فقالت أنها شاعرة بالتعب والمرض بشكل غامض، حيث كانت معدتها مقلوبة قليلاً. فطلبت منه أن ينادى على ”ميلاني“. وعندما ظهرت ”ميلاني“، ويديها في جيوب مريلتها البيضاء المنشية، طلبت ”جينوفيفا“ منها بصوت منخفض أن تحضر لها بعض الشوربة. ثم التفتت إلى ”فيتور“ قائلة:

”إنه ليس لديك مانع من عدم تمسك بالشكليات، أليس كذلك؟، فإنك صديق ”داماسو“، وتعد بالتالي من العائلة بالفعل“

إن الإشارة العابرة لاسم ”داماسو“ كمبرر لعلاقتها الحميمة جعلت ”فيتور“ محمراً بغضب. فلم يقل فقط إلا:

”لا، لا، بالطبع لا“

وشعر بأن كل شيء حوله اشتد برودته. وشعر بأن بعداً كثيباً متجمداً هائلاً انفتح بينهما فجأة. وأن العاطفة التي قد أثارته، تبخرت. فجلس في كرسيه، لا يعرف ماذا يفعل أو يقول. فما قاله هو:

”لو كنت أعرف أنك لست بخير، لما أتيت أبداً.....“
فأعطت إشارة بيدها، وابتسمت كما لو كانت تطمنه، ثم تحركت قليلاً على الأريكة، وقالت مرة

أخرى:

”ما الأخبار؟“

لا شيء في الواقع. فكان يوماً رائعاً، ربما بارداً قليلاً.

فتحركت لتتقدم على جانبها على الأريكة، وأدراة وجهها إليه بإنتباه وفضول، وخدها متكاً على إحدى يديها.

”ماذا فعلت بالأمس؟“

وكشفت ابتسامتها عن أسنان بيضاء بين شفتين حمراوين رطبتين، والتي تشبها ببتلة وردية تحت المطر. وأساء ”فيتور“ فهم نظرتها كدعوة غرامية. فقال بصوت منخفض:

”كنت أفكر بكِ“

لكن عند هذه النقطة أتت ”ميلاني“ ومعها الشوربة، وبطريقتها الخصوصية المتقنة وضعتها على منضدة صغيرة بجوار ”جينوفيفا“، ووضعت تحتها صينية من الفضة، وطببت على مخدة سيدتها، وغادرت بخفة ظل، وهي تسدد نظرة جانبية مستطلعة سريعة إلى ”فيتور“.

فقالت ”جينوفيفا“، والتي قد أقامت نفسها على إحدى كوعها مرة أخرى، وكانت تحرك الشوربة على نحو متسرع: ”ماذا فعلت؟“

فقال ”فيتور“ مرة أخرى:

”كنت أفكر بكِ“

وبعد ذلك طالبت ”جينوفيفا“ منه في سيل من كلمات جريئة ألا يتحدث بمثل هذا. فتراجعت على مخدتها. إنه لم يكن صحيحاً. فهل لم تجد أحداً مطلقاً يتحدث بإخلاص ويظهر إحساساً ما شائعاً، لماذا على وجه

الأرض كان ينبغي عليه هو أن يفكر بها. فقد تقابلًا مرتين فقط. وفي ذلك الإحتفال الثاني قد تعشيا سوياً، ورقصا. هل هذا سبباً حتى يغازلها أو يتحدث عن الحب؟، إنه ليس من الصحيح التفكير بمثل هذه الأفكار في أشخاص دون إذنه. وبالتأكيد استطاع "فيتور" أن يدرك أنه لا يمكنهما أبداً أن يكونا أي شيء أكثر من صديقين جيدين. وبصراحة إن الرجال غرباء جداً، فعندما تضغط على يديهم، أو تعطيه زهرة لمجرد التسلية، دون أي دافع أبعد من ذلك، فإنهم يصبحون على الفور متقدين بالشهوة، ويعتقدون أنه لديهم الحق في طرح مطالب.....

فقال "فيتور"، والذي كانت آماله محطمة بهذه العاصفة من الكلمات بشكل مؤلم: "إنني لا أطرح أية مطالب".

"لكنك ستبدأ أن تطرح مطالب لو استمعت إليك وصدقتك. إنه ليس شيئاً لطيفاً لتفعله. فإنك تعرف أنه كان لدي عشاق آخرون، ولذلك ظننت إنني سهلة، فقلت إلى نفسك: أنه يمكنني أن أملكها. ولذلك تأتي وتراني، وتجذني مريضة، وتخبرني مباشرة أنك قضيت طوال ليلة أمس تفكر بي. لماذا؟، لأي غرض؟، بأية نية؟، حتى يمكنني أن أصبح هواية صغيرة لك، شيئاً ما تتفاخر به أمام أصدقائك".

"مادم، أرجوك، يجب أن تصدقي....."

هذه القراءة الخاطئة بكل ما في الكلمة من معنى لمشاعره أغضبته، ولكن "جينوفيفا" أسكتته بإشارة.

فقالت بكل تأكيد: "اسمع، إنني لم أعد شابة. كم أبلغ من العمر في رأيك؟، حسناً، فإنني أبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً. وقد كانت حياتي سلسلة من

المحن. وخاصة إنني لست حسنة، فإنني متقلبة ولا أطاق، ومديونة بأكثر من عشرة من "الكونتورائيس". وكما ترى إنني لست سيدة لطيفة. فإنني لست سيدة حتى "يفكر بي" الرجال. "إنني أحبك، فبين الحين والآخر تعال وزرني وتعشى معي..... إنني أتناول العشاء في تمام الساعة السابعة من كل مساء..... إنه يمكننا أن نتحدثا، لكن ليس أكثر من ذلك. فأني شيء أكثر من ذلك سيكون سخيلاً. ولتعلم إنني فتاة جيدة، وقد كنت أمينة معك. إنك لم تتضايق، أليس كذلك؟"

وعندما تحدثت بهذه الكلمات، كان هناك مثل خليط من حنان وإخلاص مبتهج بعينيها، حتى أنه شعر بدافع أن يركع أمامها، ويقسم بخضوعه المقدر لرغباتها. ولكي يعزيها قرر أن يكون مجرد صديق حميم لها، أخ لها. وتمنى أن يمكنه تسديد ديونها. وبخفة لمس قدمها، والذي عندما تحركت، قد ظهر تحت ثوبها. ولمح أيضاً كعب قدمها، حيث أضفت الجوارب السوداء عليه جمالاً رومانسياً مثيراً.

فقالت: "إنك لست متضايقاً مني، أليس كذلك؟" وكانت في هذه اللحظة مائلة إلى الأمام، كاشفة عن الفجوة العميقة لوسطها، والمنحنى الضعيف لوركيها، والخطوط العريضة لفخذها تحت طيات ثوبها، وشعرها الأشقر منتظماً في صفائر سائبة حول جبينها. وبرأسها المرفوع قليلاً في مثل هذا الوضع، استطاع "فيتور" أن يرى حلقة الأبيض، متيناً وناعماً. فقال فجأة بعاطفية: "كيف يمكن لي أن أتضايق منك؟"

"أتقصد هذا بالفعل يا صديقي؟، تعال واجلس هنا". فأفسحت مكاناً له على الأريكة. وشعر "فيتور"

أن قدميها اللذين تحت ثوبها يلمسا فخذها، فلاقى رغبة غرامية، حيث انتهى أن يقع عليها، ويحتضنها، ويغطيها بقبلات.

فسألتها، مستجوبة إياه عن قرب: "لماذا لا تفرق شعرك من منتصفه؟"

فمسح "فيتور" على فرق شعره.

"لا أعرف. فدائماً ما أجعل شعري على مثل هذا الوضع".

فنصحته أن يفرق شعره من منتصفه، فبهذه الطريقة سيكشف عن المزيد من جبينه، نظراً لأنه ذو جبين جميل..... وسرعان ما أضافت قائلة: "إن "داماسو" ذو جبين لشخص مغفل".

فضحك "فيتور". وبمجرد ما كان على وشك أن يكوم شتائم ظريفة على رأس صديقه، بدأت "جينوفيا" بدلاً من ذلك أن تمدح "داماسو": إنه شاب لطيف جداً، مساعد جداً، وذو قلب طيب، علاوة على أن أسنانه ليست سيئة، ويركب الخيل بشكل استثنائي تماماً. ثم سألتها فجأة كم يبلغ من العمر.

"داماسو؟، أوه، أنا، ثلاثة وعشرون عاماً".

ثلاثة وعشرون عاماً، وتجراً أن يقول أنه قد كان يفكر بها، هي، امرأة عجوز منهوكة القوى، تصلح فقط أن تكون جدة.

فأثير "فيتور"، ومال نحوها، وكان على وشك أن يخبرها بحبه لها، ولكنها سألتها بهدوء بالغ عن الوقت الآن.

وكانت الساعة حوالي الثالثة، و"داماسو" لم يصل. فقد وعدا أيضاً أنه سيأتي.

فإنزعج "فيتور"، واعتقد أنها تسخر منه. فوقف

على قدميه، وكان على وشك أن يلتقط قبعته.
لكن "جينوفيفا" بدت مندهشة. لماذا؟ إلى أين
ذاهب؟
"اجلس"

ووضعت يديها خلف رأسها على المخدة. وكشف
الثوب الضيق عن الخطوط العريضة الغامضة
لرجليها، ومنحنى ثدييها. وأغمضت عينيها، وكان
صدرها يرتفع وينخفض. وهذا الصمت جعل "فيتور"
يشعر بالحر. ولم يفهم، فبدأ يبرم أحد طرفي شاربه،
وأخذ يلتهمها بعينيه. فهذه الوضعية النائمة تملأ
قلبه برغبات محمومة جامحة، حيث بدت في هذه
الوضعية أنها تعرض نفسها. فكان على وشك التحدث
أو احتضانها عندما فتحت عينيها، وصوبت إليه
نظرة شبه معانية، ثم أغمضت عينيها مرة أخرى،
وبدأت تتنهد. وكانت مستلقية صامتة تماماً، غافلة عن
وجوده.

فوقف "فيتور"، وبدأ يخطو بأرجاء الحجرة. وكان
صدغاه يهتزا. ففتحت عينيها مرة أخرى، وتمتمت
قائلة:

"لا، اجلس بجانبى. كن رجلاً جيداً. فأنا أشعر إنني
لست بخير على الإطلاق".

ما المشكلة؟، هل تتألم؟، فوضع "فيتور" أصابعه
بخفة على ذراعها، وهو يرتعش.

"هل إنني مصابة بحمى؟"

ومدت يديها إليه، فأمسك بمعصمها بين أصابعه.
واستطاع أن يجس قلبها. فإنه كان ينبض بشكل سريع،
وبدا أنه يطن في داخل رأسه.

"لا، لا، لست مصابة بشيء"

فضحكت ضحكتها الموسيقية الغريبة.

“يا لك من طبيب رائع!”

ثم في تغير مفاجئ للحالة المزاجية بدأت “جينوفيفا” تقول كيف أن الحياة كثيبة، ومدى الوحدة التي تشعر بها. فلم تعرف فرحة العاطفة الحقيقية مطلقاً.

”جميع الرجال الذين قد أخبروني أنهم يحبونني كانوا مجرد أشخاصاً أنانيين. فكنت شابة وأكافئهم بمتعة“.

لكنها دائماً ما كانت تدرك بعد ذلك بقليل أن حبهم ليس حقيقياً، حيث كانوا غير مخلصين، وليسوا أنقياء، وغير مستعدين بالتضحية بأنفسهم من أجلها.

”حقاً لم يحترمني أحد على الإطلاق. فزوجي، السيد “مولينو”، كان كريماً معي جداً جداً، لكنه كان أنانياً أيضاً. لم يظهر لي أحد أبداً أي إخلاص حقيقي. حتى “ميلاني” التي تعشقني، ستنتركني غداً لو عرض عليها شخص ما مزيداً من المال. فالحياة كثيبة جداً. كل شيء وهمي أيضاً!“

فأمسك “فيتور” بيدها.

”ولو أخبرتك أنني أحبك، أعشقتك، حتى إنني أريد أن أكون كل شيء بالنسبة إليك في هذه الدنيا.....“
فجلست “جينوفيفا” منتصبة، وصوبت نظرها إليه، وأمسكت يديه بقوة، ثم قالت بشدة:

”لا، إنه ليس صحيحاً، ليس صحيحاً!“

وكان هناك عاطفة حقيقية في صوتها.

فقال “فيتور”، واقعاً عند قدميها: “أقسم بهذا“.

لكن وقفت “جينوفيفا”، وقالت بشبه برود:

”الآن يا صديقي، لا تتحمس تماماً. فإنك برتغالي

فظيع تشتعل بك النيران هكذا بسهولة“.

ثم ضحكت ضحكة استقرازية قصيرة. فكرها "فيتور".

وانفتح الباب، وظهر الشكل الطويل والنحيف للآنسة "سارة". وكانت على وشك أن تتراجع سراً عندما نادى "جينوفيفا" عليها.

"ادخلي، ادخلي. إنه صديق "داماسو"."

وقدمت "فيتور" إليها، قائلة أنه يتحدث الإنجليزية. فأنحنت الآنسة سارة إحتراماً، ووجهها محمراً خجلاً، وذراعاها الطويلان معلقين بجانبها. وفجأة قالت "جينوفيفا":

"أه، إن الساعة الآن الثالثة والنصف!"

فالتقط "فيتور" قبعته.

فقالت "جينوفيفا"، وهي تمد يدها إليه: "تعال وانظر المريضة المسكينة مرة أخرى".

فإنحنى "فيتور" إحتراماً إلى الآنسة "سارة"، والتي كانت تحقق النظر إليه في دهشة، وخداها متوردين.

فتساءلت "جينوفيفا" ضاحكة: "ماذا قد فعلت بزهرة الكاملية؟"

فقال بينما كان يغادر: "لقد وضعتها في مكان آمن".

فإجتازت "جينوفيفا" إلى الشباك، ورفعت جزءاً من الستار المزين بالدانتيل، لكن تراجعت على الفور، وسارت إلى داخل منتصف الحجرة، حيث كانت تتمطط وتتئاءب:

"أوه، يا رب!"

فعلقت الآنسة "سارة" بشكل بالغ أن "فيتور" شاب وسيم جداً.

"إنه نظير مناسب لك يا آنسة سارة".

فأصبح وجه السيدة الإنجليزية قرمزي اللون. وصل "فيتور" إلى بيته في موعد العشاء، ووجد رسالة من "أنينهاز" في انتظاره أربع أوراق كاملة لكن كان الخط سيئاً جداً، فإنه لا يستطيع أن يزعج نفسه بقراءتها، لذلك بمجرد ما تخطاها ببصره، واستطاع فك الرموز فيما بين تشابك الحلقات والأوضاع العمودية إلى عبارات غامضة مثل: "حياتي التعيسة"، "سأعشقك حتى الموت"، "مضطرة بحكم الضرورة"، "ندم عميق"، ألقى الرسالة، معلناً: "أوه، لتذهب معها إلى الجحيم!"

وبدأ يجتاز صباحه مع "جينوفيفا"، واضطر إلى أن يعترف أنه لم يفهمها. فهل كانت تحبه؟، للحكم على بعض النظرات، وبعض المواقف التي أحدثتها، وصمتها، وكذلك الإثارة، يبدو أنها تشعر عندما تقترب منه أنها تحبه بالفعل. لكن أحياناً ما كانت تتحدث معه بسهولة ودية، وإلى آخرين بإحتقار بارد. وغالباً ما كانت تبدو مجرد منشغلة، أو غير مبالية تماماً بأكثر استثنائية. لكن لهذه الأسباب بالذات كان "فيتور" يحبها بزيادة. فوجد أن تقلبها، وتعتقدا، وغموضها، وهكذا، إضافة إلى حبه لها، شاعراً أيضاً أنه غريب الأطوار. ولكي يتحدث عنها من منطلق الحاجة التي تقود روحه الضعيفة إلى أن تتبعثر، وتفيض على آخرين بجزء ما من مشاعرهما، فإنه كان يذهب ليقضي الليل مع صديقه المقرب، الرسام "كاميلوكيراو". إنهما غالباً ما لا يرون بعضهما البعض، لكن كان هناك احترام كبير متبادل بينهما.

كان "فيتور" معجباً ببلاغة وأصالة الرسام. ووجد "كاميلو" في "فيتور" مشاهداً يقظاً صبوراً على

نظرياته وخطاباته الطويلة، ومستودعاً سلبياً لغزارة فقهياته الجمالية.

كان "كيراو" يقيم في شقة بالدور الرابع. وقد حول حجرة منخفضة السقف إلى إستوديو، بها شباك كان يطلان على الشارع. أما الأرضية والتي كانت غير مغسولة، كانت سوداء بفعل كعوب ونعال الأحذية التي تعبر عليها. وعندما يكون في حاجة إلى أن يستريح من الرسم، أو لينغمس في "خلواته التأملية" حسب ما يسميها، فإنه يستلقي على أريكة قديمة بالية. حيث أن هذا هو المكان الذي يتأمل ويبدع فيه. وكانت كل أنواع النقوش مسمرة أعلى الجدران، إضافة إلى بعض اللوحات التي تم الحصول عليها من معرض لأشياء مستعملة. وكان هناك درع ما يرجع إلى القرن السابع عشر، تم شراؤه من مستودع الأسلحة البحرية بقليل من "البنس". وكان هناك بعض من رؤوس مجبسة، وصور فنية رخيصة لنماذج متحفية، ومنضدة مكدسة بأوراق ولوحات وألوان مائية نصف منتهية. وكان هناك أربعة كراسي عتيقة من الجلد، مرتبين كما لو كانت في كنيسة كبيرة. والإضاءة الضعيفة التي تتسرب عبر الأجزاء الضيقة كانت تقع على حامل اللوحة الموضوع بجانب الشباك. وكانت هناك أوعية للرسم، ومنصة صغيرة تشغل زاوية أخرى من الحجرة. وهناك شبشب وجبية وروب ذو شامبر لسيده في زاوية أخرى من الحجرة. وكان هناك بعثرة لعيدان من الكبريت المحروق على الأرضية. فكان كل شيء ذو مظهر قذر، مظهر من الفقر، مظهر من الفوضى، مظهر لحياة مهملة، مظهر لأعمال بدأت بضيق صدر، وهُجرت في حالة من اليأس.

وكان "كيراو" مرتدياً شبشباً، وسترة مزدوجة الصدر قرمزية اللون فوق قميصٍ مجعد. وكان يخطو بعصبية حول الأستوديو، مدخناً بغضب، وكان يفيض بكلمات ككاتب لسلسلة من الأخبار. إنه قصير القامة، ونحيف للغاية، ومنحنياً قليلاً. وكان يتحرك بشكل أخرق مخلع. إنه ذو رأس ضخم، وكان يعلو جبينه البارز فرشاة من الشعر الأسود الخشن. فهو ذو وجه هزيل، وأنف مقوسة، وشفتين رقيقتين مزينتين بشارب مجعد، وعينين معبرتين تلمعا بالحياة. وكانت أيامه مشغولة بشكل كامل. فلكي يكسب لقمة عيشه كان يعمل كمصمم معين في مسرح المنوعات بشارع "كونديس"، على الرغم من أنه في فترة المساء ببيته كان "يصنع فناً". فكان "كيراو" يتمتع بموهبة. لكن لأنه كان منشغلاً تماماً بأنظمة ونظريات، وثرثراً بشكل مفرط جداً، ودائماً ما يكون مشبعاً بأمثال وحكم واقتباسات، فإنه كان يبدد أية موهبة لديه في هذه الثرثرة التي لا تنتهي، ولا ينتج شيئاً.

وأصبح، بينما كان يقترح هذا، في بحث عن أحد المبادئ الحقيقية للفن، مقتنعاً بأنه بمجرد ما يجد هذا، فإنه سيبدع شيئاً ما رائعاً. وأنه سيحقق النهضة في الرسم البرتغالي، محققاً تغيرات لقضيته. ويملاً المتاحف والمعارض بلوحات عظيمة تعيش عليها الأجيال القادمة. ولتحقيق هذه الغاية كان يقرأ كل شيء يكتبه النقاد والجمالين. ولأنه كان حساساً للغاية، ودائماً ما يكون تحت تأثير الشيء الأخير الذي يقرأه، فإنه سيعبر من نظام إلى آخر كمذنب شارد، يرسم ضوءاً من جميع الآراء التي مر بها.

وفي البداية قد كان متحمساً بفكرة الرسم هذه، على أنه في الأساس إحدى الفنون البلاستيكية، والذي يعد تصوير الجمال الطبيعي هدفاً له. ولتحقيق هذه الغاية كان فقط ينتج صوراً، تظهر الهوية الخالدة لأجسام عارية: أوضاع جسمانية بارزة، عضلات رائعة، عظمة اللحم، آلهة حب وجمال مذهلة في شكل عبيد مثير للإعجاب. ولم تكن هناك أفكار تتناسب معه. فلا ينبغي أن يكون هناك أفكار في الرسم: فينبغي أن تظهر اللوحات أجساماً جميلة ذات أوضاع نبيلة. ينبغي أن تكون اللوحات منحوتات، والتي لأنها بالألوان، تكون بالتالي أقرب إلى الحياة.

وأضاف إلى هذا نظرية غامضة حول تغيير هيئة الجسم الحديث، حيث كان يجده في حالة يرثى لها، فأجسام الناس في هذه الأيام مشوهة أو خرقاء أو ملتوية أو نحيفة أو قبيحة أو سخيفة على نحو ما. وأرجع هذا إلى طغيان الفكرة، والتخلي عن مذهب البلاستيكية. فأراد أن ينشأ مدرسة لرسامين مستغرقين في الجمال البلاستيكي فقط. وسرعان ما يكون بكل بيت على جدران لوحه جميلة لشخصية إلهية مضاءة بضوء رائع. وفي ذلك الوقت ستكون هذه الصور الجديدة لدى زوجات حوامل دائماً في البيت، وبعد التسعة أشهر لفترة الحمل ستلد أطفالاً بأجسام مثالية، كما السيدات بـ"اليونان". وسرعان ما ستكون السلالة البرتغالية هي السلالة الأكثر جمالاً على مستوى العالم، وستنافس اليونانيين القدماء. وستمتلأ "شبادو" بخياطات جميلات كإلهة الحب والجمال، والوزارات بموظفين نبلاء كـ"أبولو". وسيصبح خلق الجمال ذا الأولوية بالنسبة للمدينة. وسرعان ما سينظر إلى هذا

التأثير في الثياب والفن المعماري. وخلال مائة عام ستصبح "لشبونة" "أثينا" جديدة، تسكنها أجسام نحتية ذات أشكال متناغمة، ترتدي ثياباً فنية، وتتجول بين أروقة رائعة على خلفية زرقاء كبحر التيراني.

وبعد هذا وقع في الحب مع الرسم بشغف. فصاح قائلاً: "ما هو الفن"، "سوى مثالية الحياة، وسائل مثالية إضافية إلى الكيان البرجوازي. إن الحياة في الوقت الحاضر مملة وتافهة، مستغرقة في أمور مالية، شراء وبيع يعني اهتمامات مبتذلة. رجل الأعمال مع عملياته التجارية، المحامي مع مستنداته القانونية، المصرفي مع بيانات أسهمه المالية، الطبيب مع كماداته، الموظف مع نسخ من مذكراته. جميع هؤلاء يعيشون حياة فارغة خشنة مبتذلة ثانوية، حياة خانقة. فالجميع في حاجة إلى مثل ما عال وسام في حياتهم، شيء ما يعرضهم عن أعمالهم الفارغة، ويلهيمهم عن مشاغلهم الحقيرة. هذا هو هدف الفن. هذا هو سبب تعليق لوحات على جدران، والسبب في أن الناس يمتلأون بالمتاحف، بحيث أن البرجوازية، والرجل العملي، والروح النبيلة المملولة من الحزن المبتذل لحياته ربما تتأمل في شيء ما أسمى، أكثر جمالاً، أكثر إثارة، أكثر روعة من الكازينوهات، وقاعات الإنتظار الكثيرة في محاكم قانونية، والإضاءة الضعيفة لمكاتب ومثل الوزارات. ثم أن الفن ينبغي أن يكون تصويرياً، فينبغي أن يظهر مناظر طبيعية لطيفة جميلة كتعزية للرجل المضطر إلى العيش خارج حياته في وسط "لشبونة". لوحات لسماوات عظيمة ومهرجانات ومواكب انتصارية على العكس من المشية التافهة لموظفين أو بغال عابرة. لوحات

تظهر ثياباً فخمة ومخامل ومجوهرات إلى أشخاص يرون فقط من ناحية أخرى سترة سوداء تصل إلى الركبتين وبناطيل. فينبغي أن يكون الفن مؤازراً عظيماً. ثم تخيل أن لوحات زيتية حتى هذه اللحظة ليست معروفة بغزارة "روبنز" وعظمة "فيرونيس". تخيل لوحة معدة كنقيض معز للحياة العصرية. إنها ستظهر اكتساحاً واسعاً لطبيعة مثالية على غرار "تيرنر". إن الإضاءة الرائعة ستتخلل عبر أوراق الأشجار لجمال فردوسي. وستظل هناك مباني رائعة من رخام شاحب ويشب شفاف قائمة وسط الخضرة، والينابيع ستفيض، وسيمتلأ الرسم ببرودة جذابة، وسيكون هناك في المقدمة جسم لسيدة مثالية جالسة في ممر مصمم في منظر طبيعي لطيف من ألوان رائعة. إنها ستكون حاملة قطعة من الدانتيل في يديها، والتي ستدخل في طيات فخمة منقخة. وسيكون هناك فاكهة مكدسة عالياً في أوعية خزفية، وخمور نفيسة في أباريق فضية، وأزواج متشابكون في وضع غرامي سيتجولون على طول الشوارع في الهدوء المنتشي لسعادة مطلقة، ورجال عواجيز هادئون حكماء ذي عيون لامعة سيتحدثون عن شعراء وفلاسفة وشباب أبطال يشاركون في ألعاب رياضية ويتباهون بإعترازهم بتركيبهم الجسماني المثالي. وعلى الفور ستتوافق فكرة الرسم هذه مع احتياجات الروح. وتأملاً في هذا، ستلاقي الناس تعزية من مناظر طبيعية لطيفة، وعذوبة الفلسفة، وفرحة بأراضٍ خصبة، وإحساس بحب خالد.

واكتشف "كيراو" فيما بعد أن كل هذا متصوراً وغيباً على الإطلاق بدلاً من نوع من مهرجان فينيسي

على طراز "تينتوريتو": فعلى شرفة عصر النهضة ستشكل سيدات وسادة جماعات بطولية. وعلى طول الدرابزينات ستنتشر طيور الطاووس ذيولها اللامعة على نطاق واسع، وخمور نفيسة ستصب من أباريق ذهبية. وستكون هناك خزائن مملوءة إلى أقصاها بعملات معدنية ذهبية، وخناجر تحكي عن انتقامات دامية، وخدم ذي ثياب سوداء يحملون كلاباً سلوكية على مقاعد، وموكب من الناس سيلقون قصائد على صوت آلات الكمان. وفي الخلفية ستكون الزهور والأشجار من مشهد رمزي مصطنع. كل هذا سيغذي عيون المشاهد مع قلة لوسائل الترف في الحياة العصرية.

لكن قد توصل "كيراو" أخيراً إلى احتقار مثل هذه الأفكار، حيث وجدها غير أخلاقية. فالفن بالنسبة له أنه ينبغي أن يعلم بإستقامة مرسومة بدلاً من تعبيرات فاسدة من الترف. ومن هنا على الرغم من أنه كان ممتلاً بأفكار وكلام، صور وأجزاء من صور، إلا أنه أهمل الممارسة الفعلية للرسم. فكان أسلوبه خاطئاً في الرسم، وتركيبه غير دقيق، والإضاءة في لوحاته غير متقنة، وتحركات شخصياته غير واقعية وخاطئة. وعلى الرغم من ذلك كان لديه من أفكار تكفي لتملاً متحفاً. وقد أنتج في الواقع فقط عملاً فنياً واحداً كاملاً. ووجده "فيتور" يرسم على إضاءة مصباح زيتي ذا ظل أخضر يشكل إضاءة ضعيفة على مجموعة كبيرة من الورق والذي يغطيه تشابك من خطوط فحمية غامقة. وبقية الحجرة توجد في ظل صامت، والذي يظهر منه قليل من أشكال بشرية مجبسة بيضاء أو بريق من النقوش. ومن حجرة مجاورة كان يتحدر

صوت صرير لهزاز حامل.
وأشار "كيراو" إلى "فيتور" ألا يقول شيئاً، خائفاً
من أن خطواته تخيف إلهامه (والذي كان يشبه في
بلاغته طائراً رقيقاً يهبط للحظة فقط، والذي يمكن
أن يزعجه أقل ضجيج). ولذلك جلس "فيتور" على
الأريكة المنجدة بسعر رخيص. وكان "كيراو" بغضب
يغطي الورق بخطوط غير منضبطة. وظل يمر بيديه
عبر شعره، وقفز عن الكرسي، وبدأ يميل إلى الأمام
يتنهد ويئن ويكشر ويتململ كما لو كان في ألم.
ولاحظ "فيتور" عنق الجيتار خارجاً من تحت
المائدة، فالتقطه، وأخذ يعزف على بعض الأوتار.
فقفز "كيراو".

"نعم، اعزف شيئاً ما كشيء مصاحب. هذا ما
أحتاج إليه، شيء ما برازيلي أو "فادو".
فداعب "فيتور" أوتار الجيتار بهدوء. وخلقت
الأصوات المنومة الخافتة دممة جميلة تسود الظلال
الخفية للحجرة.

فقال "كيراو": "انظرا!"
فاجتاز "فيتور"، وكل ما استطاع ملاحظته هو
الشكل الغامض لتل خشبي بشكل سميك، والذي كان
معلقاً فوقه على جانب واحد اسطوانة مستديرة، حتى
بدت أنها قائمة كنقطة فوق برج جرس بارز.
فتساءل، وهو يشير على الأسطوانة قائلاً: "هل
هذا هو القمر؟"

فتشمم "كيراو" على يده. وكان مدفوعاً إلى الخلف
بكرسيه، وأخرج سيجارة، ووضع إصبعه على
اللوحة، ثم قال:

"لا، إنه خبز القربان المقدس".

وواصل تفسير الرسم، مطوراً أحدث نظرياته على الفن.

إنه قد كان في المسار الخطأ تماماً. فقد ضيع عشر سنوات من حياته، السنوات الأفضل، الأكثر قوة، الأكثر إبداعاً من حياته سعيًا وراء هذا المبدأ المثير للاشمئزاز: الفن لأجل الفن. يا له من غباء، أليس كذلك؟، أما الآن فهو في حوزة الحقيقة. حيث رأى كل شيء بشكل واضح كالقديس "بولس" في الطريق إلى "دمشق"، وذلك بفضل النور الإلهي الذي أرشده. فالفن هو قوة من قوى الطبيعة. وعلى هذا النحو لابد أن يستخدم لخير الحضارة. ومن ناحية أخرى (وقد اشتد تحمسه في هذه اللحظة)، فالفن هو مركز الحضارة. فالجنس البشري يميل إلى تحويل ظاهرة طبيعية عظيمة إلى أشياء لاستخدامها. ما هي الرياح؟ حركة هوائية حول السماء. ومن تلقاء نفسها، ما الهدف الذي تعمل عليه؟

"ما هي فائدة الرياح؟ إنها حمقاء، هاذية، غاشمة، منبهة. إنه يمكنني الآن أن أرها تتنهد في شجرة كشاعر غنائي. إنها هناك فوق ساق سيدة تداعبها بشهوانية كفاجرة. وهناك تلعب ببرنيطة شخص ما كمازحة، أو كقاتلة تغرق قارب صيد حقير. يا له من تكاسل، من حقارة!، فماذا فعلنا بها؟ إننا درسناها وعرفناها واستكشفناها واستعبدناها. فإننا نقول لها: تعالي إلى هنا، أنتي تهاجمين، وتحولين أشرعة هذه الطاحونة الهوائية لأجلي، وتطحنين لي بعض القمح، وتنفخين أشرعة هذه السفينة، وتحضرين لي كاكاو من "البرازيل". ولذلك لدينا الطحان وزورق السحب. ماذا فعلنا بالكهرباء؟ إننا حولناها إلى ساعي بريد، موظف

بمكتب البريد. ماذا فعلنا بباخرة السفر؟ حولناها إلى حصان، مسحوبة بمحركات. هذه الأشياء تنحدر من الطبيعة، وتتحول مباشرة إلى شيء ما مفيد. فكل شيء له غرض. ولا شيء يوجد فقط لمجرد الوجود. فلا بد للشخص ألا يسمح لأي شعور أو قوة أو حركة غير مستخدمة. فلا بد من استخدام كل شيء وتعيينه للعمل لخلق حضارة. فالشمس هي رسام لوحة. إننا لا نريد أي كسالى في الكون. وتعد النجوم تخطيطاً ملاحياً سماوياً. فلا شيء من هذا جديداً. لكن ما نفعله بقوى الطبيعة لا بد لنا أيضاً أن نفعله بقوى العقل. فالفن ظاهرة عظيمة للمخ، والذي لا بد من توجيهه إلى فائدة ما مباشرة، مثل العمل من أجل الحضارة أو من أجل الثورة. محاربة العالم القديم، والأفكار القديمة، والاستبداد، والقوة الغاشمة، ويزن ما هو عادل، ومتوازن، وحق. فينبغي أن يكون الفن ثورياً من خلال طبيعته الحقيقية. وينبغي أن يكون الرسم كتاباً، كراساً، مقالاً صحفياً. فإنه ينبغي أن يهاجم المذهب الكاثوليكي، والنظام الملكي، والبرجوازية العفنة، والطاغية. إنه ينبغي أن يهاجم كل الغيلان العواجز العنيدون والذين مازالوا متمسكين بالسلطة. ينبغي أن يكون الفن منبراً للفلسفة وتوزيع المنشورات. ويعد كل شيء أيضاً هو فن الترف والزخرفة والفساد، ممتعاً للعيون، ولكن فارغاً كتفاهة وحقيراً كدعارة. هذا هو الفن القديم كما أتصوره. إنني كنت مغفلاً و غافلاً وأعمى حتى الآن. كل عمل أنتجه سيثبه متراساً. إنني سأقبض على الفن القديم وأبيده بضربات فرشاة. وها هي لوحتي الأولى. ورفع اللوحة قائلاً: "انظر". "إنها صورة لقداس، فالقداس أيضاً موضوع يستحق. إنه

لديك الكنيسة هنا، الكنيسة الدنيوية الحديثة، مدهونة، ومضاءة بالغاز، مع آلات الأرغن الموسيقية والتي تعزف موسيقى من أوبريتات، وأفخم السجاجيد التي تصل إلى الهيكل، وقديسين مرتدين ملابس بواسطة أفضل مصممي أزياء كـ "ألين"..... مع كهنة، والذين هم كل شيء إلا أن يكونوا كهنة: مقامرون، قوادون، ملحنون أوبرا هزلية، مزمرين، كل شيء. وهنا جماعة المصلين والكاهن بحذاءه البالي، ذي وجه شاحب بعد ليل أمضوها في بيت الدعارة المحلي، يتناولون لحم الخنزير كغداء، وبأصابعه الملطخة بالنيكوتين يرفع خبز القربان المقدس إلى فوق رمز الذبيحة.

هذا هو القداس لك!، الآن انظر إلى جماعة المصلين: هذه امرأة سمينه، والتي مازال لحم الخنزير الذي كان في فترة الغداء بحلقها، تنفجر من لباس الأحد الذي ترتديه، وتمعن النظر إلى ملابس نساء أخريات، وتنقد قبعاتهن ونميتهن. والرجال عند الأبواب الجانبية ينظرون إلى أرجل السيدات، راسمين عيوناً، وإشارات، وملاحظات عابرة. والرجال العواجيز الذين يأتون ليروا أي الفتيات يمكنهم أن يعملون كقوادين لهن. والمتملقون الذين يحضرون قداس الساعة الواحدة لكي يعجبوا مديرهم العام. والأشخاص الذين ينامون أو يتشاءبون. والأشخاص الذين هناك فقط لأجل الموسيقى. انظر إليهم وهم يقفون، وهم ينتقلون من جانب إلى آخر، وهم يجلسون، وهم يركعون. انظر إلى وجوههم: شخص يفكر في حبيبته، وآخر في عسر الهضم والذي أصيب به من تناول التين عند الغداء، وآخر في

الفائدة التي سيسددها على سبيل القرض، وآخر في "الصديق الأفضل" الذي سيجلب له وظيفة كموظف. وهذا الشخص يفكر في صديقه، وهذا الشخص في الطريقة التي سيعد بها رسالة إلى عشيقته.

هناك شعور بالاضطرار، بالشوق إلى المغادرة. فهم يراجعون ساعات يديهم بخجل، ويتفحصون من يجاورهم. فلونبح كلب، فالجميع يستدير، يتهايمسون، ويتعرفون بالشم، ويسعدون بأن شيئاً ما قد كسر الرتابة الإلهية. وعندما يفتح المغفل عند الطرف العلوي من الكنيسة ذراعيه على مداهما ويقول: القداس، فإن تنفس الصعداء يترك كل صدر. فالعمل الكئيب قد انتهى. شاهدتهم وهم ينحنون، وهم يتصافحون بالأيدي، وهم يهنئون بعضهم البعض، سعيدين بأن المهمة قد انتهت. هذا هو الدين الذي لك!، يا له من حب العمل للمصلحة العامة، يا لها من لوحة!، اعطني سيجارة، ممكن؟"

ثم تراجع مرهقاً على الأريكة. وقال: "على أية حال، قد عثرت على الطريق أخيراً"، ونقر على رأسه: "لقد أخرجت ما يكفي من لوحات حتى أدفع إلى ثورة. فبعد القداس سأقوم بالجنائز، ثم مجلس النواب، ثم إقراض المال، ثم إجراء انتخابات أخيراً.

فكان "فيتور" على وشك أن يقول شيئاً ما، لكن قاطعه "كيراو" قائلاً:

"وكل هذا يا صديقي سيتم في شكل جديد من الرسم. لم ينتهِ أو يتكلف أو يتحسن شيء. لا شيئاً مسرف أو زخرفي. فاللوحة هي لا شيء، والفكرة هي كل شيء. جرات قلم عريضة، وأشكال مظلمة اللون بخشونة،

وألوان غامقة حتى تعطي انطباعاً حقيقياً بالواقع.“
وقام بضربات الفرشاة في الهواء. ”فالتعبير هو ما
يهم!، فإنه يمكنني أن أرسم لك مرابياً بثلاث ضربات
فقط من فرشاتي. إنك تريد مرابياً. تفضل: درجات
من اللون الأخضر على خدين غائرين، أثر من أكسيد
الرصاص على الجبين، درجات من لون معدني
فضي على العينين، لون أسود على الحلق، وحينئذ
يكون لديك هذا: نحيلاً، بارداً، لا ينحني، حقيراً.“ يا
له من فن عظيم!“

قد تحدث ”كيراو“ بحماسٍ عظيمٍ، دافعاً شعره إلى
الخلف، ويتميل جيئةً وذهاباً، مبدئاً لفات جامحة،
ويتلوى فيما حول الأريكة بصعوبة ملهمة. فالتقط
الجيتار، وبدأ يداعب أوتاره بصوت عالٍ، وأنزله مرة
أخرى. ثم طوى يديه على صدره، وظل صامتاً كما
لو كان في سبات، حيث أن عيناه اللامعتان تحدقا
النظر بعمق في الفراغ.

أما ”فيتور“ والذي كان يسير حول الاستوديو، بدأ
يقول أن هذا بالتأكيد فكرة عظيمة، لكن من سيشترى
منه هذه اللوحات؟، ففي نهاية المطاف لو لم تناسب
هذه اللوحات الذوق العام، لو أصبحت ضد كل الأفكار
المسبقة لما يعنيه الفن، لو لم تكن حتى مرسومة بشكل
جيد للغاية، فإنه سيكون من الصعب عليه أن يجد
مشتريين.

فجلس ”كيراو“ كما لو كان شخص ما قد طعنه
بسكين. فهذا الإعتقاد قطع التشعبات الرائعة لحلمه
كفأس متجمد.

فقال وهو يخطو حول الاستوديو، ورأسه للأسفل،
وكتفاه يرتعشا: ”من سيشترىهم؟“، ”من سيشترىهم؟“،

لماذا لا أحداً!

وفي حالة من اليأس تراجع "كيراو" على الأريكة مرة أخرى، لافظاً تنهيدة مريرة. فربما يكون من الأفضل له لو كان بائعاً للسجق. فهو نفسه سيرسم التوقيع، توقيعاً استثنائياً، والذي سيظهر عليه كل البضائع الإعتيادية للبقال، لكن بملامح بشرية. فالدهن الأبيض للحم الخنزير المملح سيكون ذا خدود منفوخة لمحافظ. والجبن سيكون ذا ذقون مزدوجة لتجار برجوازيين. ونقانق لحم الخنزير الوردي ستكون متوردة بثروة منتصر بالربا. والشموع الشحمية التي تشبه الأعمدة في "روسيو"، ستبدو وكأنها أثار دستورية. وبراميل الزبدة سيكون لها كروش ضخمة زنخة محشوة للبرجوازية. وفي الأسفل بحروف قرمزية جذرية مرئية سيظهر: "كاميلوكيراو" البقال بالأسرة الملكية".

ثم دحك يديه بإبتهاج في تفكيره بتوقيعه، مفكراً بحماس وإبتهاج فيما سيقوله الناس، والفضيحة التي سيسببها هذا!، نعم، هذا ما ينبغي عليه فعله، أن يصبح بقالاً!

فقال: "بالإضافة إلى ذلك"، "إن الفن مستحيل في ظل الديمقراطية. أنا أسف، لكن هذه هي الحقيقة. فنهاية البيوت العظيمة شاهدت نهاية كل المجموعات الضخمة. فما يريده البرجوازية، والبرلمانيون، والدستوريون، والجمهوريون الليبراليون هي أشياء صغيرة، نقوشاً: منظراً طبيعياً نقياً لطيفاً، خرافاً، عذراء غبية تقطع بتلات زهرة ربيع بأصابع تشبه زبدة ذائبة. أوه، منذ أيام "رافائيل"، و"تيتيان"، و"فيرونيس". منذ أيام الرسم البشري، عندما كان

للفنان مكانة، عندما كان ينافس الدولة نفسها، عندما كان لديه دور بارز في المعارض الفنية، يأمر بالدفاع عن المدينة، مضيفاً خلوداً. وبفعل وضعه الرفيع كان يملئ أوامره على البابا.

هذا كان في جميع الأنحاء، فكان العالم متفوقاً. ثم عاد إلى فكرته في أن يصبح بقالاً.

فقال: "الأغنياء"، "ربما لديهم جميع الأنواع من أفكار غبية بذئبة سخيفة، لكن لن يخطر في بالهم بوضوح مطلقاً أن يكلفوا بعمل فني. فإنهم سيفكرون في أي شيء آخر عدا هذا: أن يصبحوا بارونات، أن يقيموا مع راقصة في شقتها الخاصة، أن يشتروا زوجاً جديداً من الخيول، أن يهيأوا قارباً شراعياً لسلسلة سباقات القوارب، أن يخصصوا حفلة راقصة تنكرية، وأشياء تافهة أكثر من تلك. لكن الفكرة الطبيعية التوفيقية المفيدة النبيلة البسيطة التي تقول: "كاميلو"، احمل فرش الرسم الخاصة بك، واخلق شيئاً ما سامياً" لن تخطر في بالهم بوضوح مطلقاً.

ثم التفت إلى "فيتور"، وقال:

"إنك غني، ولديك عم غني ذو مكانة في المجتمع. وحصلت منه على سلسلة ذهبية لساعة يد، لكن هل طلبت أبداً مني لوحة؟". وابتسم. "ولماذا لا تفعل ذلك؟ لأنك غبي".

وفجأة نفذت فكرة إلى عقل "فيتور": لوحة لـ "جينوفيا". وأعجب بها مسبقاً، وهي محاطة بإطار في حجرة نومه. فسيضع زهوراً تحتها، وستصبح كوعاء خبز القربان على مذبح الكنيسة.

فقال: "وهو كذلك، إنني سأكلفك بلوحة".

فرد "كاميلو" وهو يقترب منه، وصوته خشناً،

وعيناه تلمعا قائلاً: "ماذا عن شخص القداس؟"
 "لا، إنني أريد لوحة فنية للوجه."
 فشد "كاميلو" وجهه، ودار بشكل مستدير على
 كعوب قدميه.

وصاح باسطاً ذراعيه قائلاً: "أوه، بحق السماء!"،
 "أوه، بالطبع. إنني أظن أنك تريد لوحة فنية لك
 محاطة بإطار غال الثمن بكرافته بيضاء وسترة ذيلية،
 مع وجهك الغندور الغبي. ويوضع كل هذا على خلفية
 قرمزية اللون، حتي تصاب جميع الفتيات بالإغماء."
 ثم نظر إليه قائلاً: "إنك لا تستحقها. ما الاعتقاد أو
 الفكرة التي يمكن لوجهك أن يكون مصدر إلهامها؟"
 ثم التقط المصباح الزيتي، وأمسكه بالقرب من
 وجهه "فيتور"، يتفحص إياه، ثم تتمم قائلاً:

"لا شيئاً خارق، لا شيئاً يستحق، لا شيئاً مميز.
 فالبشرة لونها باهت، بيضاء بهزل، غير واضحة
 المعالم. ماذا تنتظر مني أن أفعل بهذه الخلقة؟، إن
 الصورة الفنية للوجه يمكن أن تكون بالطبع عملاً
 فنياً، لكنك في حاجة إلى نموذج أفضل، شخصاً ما ذو
 روح، أفكار، طاقة، فخامة، لكن سيد برجوازي تافه؟
 لا أتصوره فوتوغرافياً."

فقال "فيتور":

"إنني لا أريد صورة لي، بل لسيدة، أجنبية، سيدة
 رائعة حقاً."

وبدأ يتحدث عن روحها، وجمالها الأشقر، وسموها
 العام.

أما "كاميلو" فكان جالساً على الأريكة، ورجلاه في
 وضع تقاطع. وكان يقضم أظافره بغضب.
 وأراد أن يعرف لون عينيها، وشعرها، وكم

تبلغ من الطول. ثم بدأ يخطو خطوات واسعة حول الأستوديو، وبدأ يخطط عملاً لافتاً للنظر، والذي سيجلب له شهرته. فسيرسم طولها بالكامل، في فستان ناعم أزرق اللون مزين بالدانتيل الأسباني، وعقد لؤلؤي حول رقبتها. وسيرسم نزولها على درج الشرفة، ووراءها حديقة من عصر النهضة مثلما يمكنك أن ترها في "تيتيان".

ثم تساءل فجأة: "هل هي تتركب الخيل؟"
"بشكل حسن للغاية".

"إذن لماذا لا أرسمها ببذلة سوداء طويلة خاصة بركوب الخيل، أو بقفازات طويلة من جلد الغزال، أو بقبعة "غينزبورو"، أو ربما قبعة "فروندا"..... وبثوب حريري مبطن بالفرو يكسو ذراعها؟"
وحبه للمشهد المتنوع الألوان كان يرجع إلى إغرائه.

وصاح قائلاً: "ماذا أقول؟ ينبغي أن يكون الفن قوة حضارية!". "فلا بد أن يكون من الممكن أن يرسم لوحة فنية حتى تكون سبب إدانة للرفاهية والتباهي". وأشار كما لو كان يرسم الخطوط العريضة للوحة. فسيظهر أحد أجزاءها مشهداً برجوازيًا سيرها أسفل "برغولا"، والتي بطبقات متدرجة من الألوان يقود البصر إلى النقطة المركزية للوحة، رأسها مكشوفاً ومظلاً بالمقابلة مع اللون الأسود للممر. وستكون ذات وجه لطيف ناعم وقور، وعينين دقيقتين، وملامح نسرية مستقيمة، وهدوء يكشف عن توازن روحها....."

فبدأ طفل في الصياح.

فصاح "كيراو" قائلاً: "ألا يمكنك أن تسكتي ذلك

الصعلوك؟“، ثم أدار ظهره إلى “فيتور” قائلاً: “كيف يمكن انتظار الشخص أن يعمل، أو يفكر، أو حتى يشعر بصياح طفل مزعج لإطعامه طوال الوقت؟، هذه الحياة البرجوازية الضيقة حياة خانقة. فينبغي أن يعيش الفنانون في قصور، في بيئة متحضرة محاطة بكل الرفاهيات الفنية، وحدهم مع أفكارهم.”

“هل ذلك طفلك؟“

فقال بفظاظة: “نعم”، “إنه كان ينبغي عليّ أن أقدمه إلى دار الأيتام. ماذا كنت أقول الآن؟، آه، نعم، وجه بحيث يكون تعيشاً للعدالة والمنطق. إنها ستكون مرتدية ثوباً أسوداً وقوراً محتشماً بأكمام طويلة، مع طيات صغيرة في فستانها يكشف عن جمال السيدة الأم، ينبوع الحياة، وتعرض يديها، يدين مجملتين شهيتين.... لا، ليس ذلك. ما الخبز الذين يحتاجون إليه؟“

“من؟“

“من؟، لماذا، إن الطفلين الباكيين الخائفين بالطبع باكيان ومنمشان ومتذللان ومرتعشان من البرد والجوع: الأشخاص المظلومة إلى الأبد!“

“إنها ليست فكرة سيئة.....“

“ماذا تعني بـ“ليست فكرة سيئة؟“ إن اللوحة ببساطة جداً كالفلسفة. إن اللوحة كالمنشور. إنها لوحة إشترابية.“

ثم صوب نظره على “فيتور” كما لو كان مندهشاً من الطبيعة الطموحة لخطته الخاصة. إنها ستكون إلهاماً!، ولكم الهواء بقبضتيه، ثم صاح قائلاً:

“ليس هناك شيء لا يمكننا فعله!“

فتساءل صوت امرأة عبر الباب النصف مفتوح:

”أتريد بعضاً من الشاي؟“

”نعم، احضره.“

وكان مسيطراً عليّ ”كاميلو“ حماسة فكرته، فطلب على الفور مزيداً من المعلومات عن النموذج الذي سيعمل عليه: هل هي حساسة، ما هي أفكارها، جذورها الاجتماعية والسياسية. ”لأن كل هذه تعتبر معلومات حيوية“.

أما ”فيتور“ والذي كان منتهزاً الفرصة ليفضي بهوممه، بدأ يصف ”جينوفيفا“ وحبها لها على حد سواء.

وبإستماع ”كاميلو“ إليه، تغيرت أفكاره فجأة. ”آه، أنا أرى، العاهرة، سيدة الكاملية!“، وتصور تفسيراً آخرًا محتملاً: لوحات ”تيتيان“ لعاهرات. إنها ستكون مستلقية على أريكة، مغطاة بعباءة من المخمل القرمزي. وسيكون النموذج على الأريكة نصف عارياً. وستارة مسحوبة لتكشف عن حديقة في خلفية الصورة. وفي المقدمة آلة المندولين الموسيقية لترمز إلى إحتفال وإنسجام، وخنجر ليثير الإنتقام بخصوص جريمة ما، وقلائد مرصعة باللالئ تفيض من كأس فضي، ومكافآت من الفسق. أو لماذا لا أقوم برسم لوحة حديثة على طراز ”فورتوني“؟، حجرة مغطاة بنسيج حريري أبيض، ونار مشتعلة بموقد عال. وسيكون النموذج الذي سيعمل عليه جالساً على مقعد مزدوج خلف نار عظيمة، مع يدين تصلا إلى السنة اللهب الذهبية؟

وتساءل فجأة، وهو يلتقط سيجارة قائلاً: ”وبالتالي أنت في حالة حب، أليس كذلك؟“
”بجنون“.

”سيء جداً وغبي للغاية“.

فإنفجر ”فيتور“ بصيحات غنائية. ماذا يمكن أن يكون أفضل من أن يرتعش من الحب، ماذا يمكن أن يكون أفضل من الأحلام، من القبلات، من جسمين متشابكين؟

فتجاهل ”كاميلو“ ما قيل من قبل ”فيتور“، وعرض رأيه في الحب بصوت أمر واقع كما لو كان يتحدث إلى نفسه: إن الحب هو أسوأ مكروه يمكن أن يعانيه رجل ذكي. فأى فنان يقع في الحب يصبح ضائعاً. فالحب سيدخل إلى حياته جميع أنواع المخاوف والهموم والتنازلات، وسيصبح كل عمل وكل فكر مستحيلاً. ثم أن هناك غيرة، وعاطفة مزعومة، والتجديد المستمر للرغبة الجنسية، والكسل من التعب، والإعالة الطفولية. فستصبح شخصية الرجل عاجزة، ويتلن المخ، وتتلاشى الأفكار، وشخصاً ما كان يوماً ذا قوة في المجتمع لن يعد أكثر من حارس بيت دعارة. فينبغي على الفنان أن يتجنب الحب كأغلب المهانين من الطغاة. فلكي تحب امرأة لابد أن تضع كل الطاقات الحيوية للشخص في خدمة..... العضو!، إنه يشبه كونه شراً يفكر ويعيش ويعمل ويتحرك لكي يشبع معدته. فالعاشق يحيا فقط لخدم، ويخضع لقلبه، ويعطي هذا اسمه المحترم. ولقد اتخذت فناني عصري قدوة عظيمة. وقد أقمعت الحب. فلم تطرق هذه الأبواب أبداً أية امرأة، فقط لسيده بحزمة من الأهواء والأوهام والعصبية والمشاعر والاستبدادية والمجادلات والتقلبات. لكن نظراً لأن البنية الطبيعية لديها احتياجات، والمخ يحتاج إلى أن يتحرر من هذه الاحتياجات، فإخترت أنثى“.

وهذه الكلمة فاجأت "فيتور".

"إنني اخترتها لصفاتها التمثالية حتى يمكن أن تكون نموذجاً أعمل عليه. وفي ذلك الوقت كنت مهووساً بأغلب الأفكار الغبية. فكنت أؤمن بالعري، وأؤمن بالهة الحب والجمال. واعتقدت أنه ينبغي على الفن البلاستيكي أن يهتم بنفسه فقط بنسب وحالات وألوان وجهاز عضلي. يا له من غباء! فقد نسيت هذا الشيء الصغير: الفكرة. إنني اخترت أنثى جميلة. وهذا استغرق مني وقتاً طويلاً حتى أجدها، لأن الحقيقة هي أن أغلب السيدات قبيحات. ليس هناك بيت في منتصف الطريق في نساء بين القبح والجمال، فكل ما يُقدر في امرأة ثديين، شعر، أرداف كل هذا سيتلف في النهاية لو لم نحول النساء إلى آلهات. ونظراً لأنهن مجرد إضافات خاطئة إلى النموذج البشري الصحيح، والذي هو الرجل، فسرعان ما سيفقدن جمالهن ورقتهن وطبيعتهن المثالية. فذات يوم سينخفضا ثدياها، ويبدأ الجزء السفلى منها في التهادي، ويصبح شعرها خفيفاً ومتناثراً. فالمرأة مجرد خرافة. إنها أقبح من برنيق أو قرد".

ثم انفتح الباب، ورأى "فيتور" أكثر مخلوقة رائعة تدخل حاملة صينية. إنها ذات بشرة بيضاء للغاية، وعينين متوهجتين داكنتين واسعتين، وكتلة من شعر رائع، ورأسها يرتكز بنبيل على جسم تمثالي. ويمكن للشخص أن يشعر في ظل فستانها القطني أصفر اللون بروعة فريدة وثبات للمظهر. ووضعت الصينية بيديها الكبيرتين. وبهدوء غادرت مرة أخرى.

فقال "كاميلو" بفضاظة، وهو جالس على المائدة، ويقطع لنفسه قطعة سميكة من الخبز: "إنها هي".

فتساءل "فيتور" قائلاً: "هل هي من "لشبونة"؟"
 "لا، لا يمكن لـ"لشبونة" أن تنتج جسماً كهذا. فقد
 أصبحت السلالة مشوهة. إنها من منطقة قريبة من
 "أوفار"، في الريف. وهي أكثر تركيبة استثنائية،
 نصف عربية، نصف كيلتية. نموذج حسن".
 ثم سار "كاميلو" فيما حول الأستوديو، وقطعة من
 الخبز في يده.

"إنها الأنثى المثالية لفنان. فإنها غبية وسلبية. فإنها
 تأكل وتطيع وتخلع ملابسها. إنها مجرد جسم يتلقى
 أوامر. فهي لا تزعجني، ولا تعترضني، ولا تتحدث
 معي، فهي مجرد موجودة. فعندما أحتاج إلى أنثى،
 فإنني أستدعيها".

"هل أنت متزوج؟"

"نعم، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن
 أحصل عليها بعيداً عن والدتها. إنني اشتريتها، لكن
 بدلاً من إعطائها ذهب السيدة العجوز، أعطيتها سر
 الزواج المقدس. فإنني دفعت لها عملة روحية. حيلة
 جيدة، أليس كذلك؟، وها هي هنا. فينبغي أن يفعل
 جميع الفنانين نفس الشيء. فعشقنا هو لإبداعاتنا.
 فإننا نهب روحنا ودمنا وحياتنا للحب، متنازلين عن
 الأفضل جداً لأنفسنا. فتستخدم الأنثى فقط عندما
 تستريح الروح، والبهيمة التي بداخلنا تطلب إشباعاً
 لرغبتها".

"إنك سعيد؟"

فقال "كاميلو": "لا، أنا تعيس".

وجلس على الأريكة بجوار "فيتور"، وبدأ يوضح.
 "إنني قد حققت كل هذا בזكاء بالغ، لكنني نسيت
 شيئاً واحداً: الأطفال!، نسيت الأطفال. فكنت غير

مستعد تماماً أن يصل بعد تسعة أشهر ولد ضخمة كبير. بذرة صغيرة من اللحم تصرخ وتزرق وتصيح بأعلى صوت، وعادة ما يجعل البيت جحيماً. فالحياة الأسرية هي موت للفنان. كيف لي أن أتحمّل. هل سمعت صوت سرير الطفل الهزاز وهو يصر منذ قليل، حسناً، إنها أجمل موسيقى أسمعها. وبصورة مختلفة في الصباح هناك صرخات مدوية، وفي المساء صرخات مرعبة يرجع صداها في كل أرجاء البيت..... وبالطبع زوجتي مشغولة، لذلك أضطر إلى إتخاذ خادمة. يا له من جحيم، جحيم! لا بد لي من تعديل مبدأي: "ما يحتاجه الفنان هو أنثى عاقرة. وعلى أية حال، اسمها "جوانا". والشيء الاستثنائي هو أن الحمل والولادة لم يغير خطأ من جسمها، فليس هناك ثنية ولا جعدة ولا ارتخاء لمنحنى واحد. فهي مثالية تماماً. نموذج رائع..... لأولئك الأغبياء الذين ينظرون إلى الخط والشكل..... "جوانا!"

فدخلت السيدة. وأما هذه المرة فكانت عيناها، والتي كانت تبقيهما للأسفل عندما دخلت في المرة الأولى، تنظر إلى "فيتور" مباشرة، وبدت أنها تتسعا في دهشة، شيئاً ما لمع بهما. ثم التقطت صينية الشاي، وغادرت بهدوء مثلما أتت.

فقال "كاميلو"، وهو يربت على ظهره: "فلديك إذن رأيي بخصوص الحب".

وكان "فيتور" يرتدي قبعته.

"ماذا إذن عن اللوحة الفنية تلك؟"

إن "فيتور" سيضطر إلى أن يتحدث مع "جينوفيفا".

وكان "كاميلو" يفكر، وإحدى أصابعه يرتكز على ذقنه.

”أنا أعرف إنني سأرسمها في شكل ثوري. يا لها من لوحة!، انتظر، سأستدعي شخصاً ما ليضئ لك أسفل السلالم. فلن أتي معك، حيث إنني لا أريد أن أصاب بنزلة برد“. ونادى قائلاً: ”جوانا“، رافقي هذا السيد إلى الباب، ممكن؟“

فنزل ”فيتور“ على درج السلم، و”جوانا“ تتبعه ممسكة بمصباح زيتي. لكن خطواتها الهادئة، والذيل الكثيف لفستانها على درج السلم، أثارا ”فيتور“. وعند المدخل الرئيسي أشعل ”فيتور“ سيجارة من على لهب المصباح الزيتي، والتقيا عيناه بعيني ”جوانا“. كان هذا للحظة فقط، لكن اهتز قلب ”فيتور“ بالشهوة. ثم خلع قبعته، وشكرها قائلاً:

”تصبحين على خير يا سيدتي“.
فاحمر وجهها خجلاً، وردت قائلة:
”تصبح على خير يا سيدي“.

الفصل السادس

وفي اليوم التالي ذهب "فيتور" ليرى كيف حال "جينوفيفا". فإستطاع أن يراها في ذهنه هامة كما قد بدت له في اليوم السابق، مستلقية على أريكة، وإشاراتها بطيئة، وكلامها متعباً. وأزعج إلى حد بعيد برؤيته لعربة "داماسو" عند مدخل البيت. ونظراً لأن السائق يعرفه، قاوم وسوسة أن يتراجع سراً، فدخل. وعلى الدرجة الأخيرة من درجات السلم اصطدم بـ"داماسو"، والذي كان نازلاً. وكان كلاهما مرتبكين قليلاً.

فقال "داماسو" بفضاضة: "إنها قد خرجت".
 "كنت أظن أنها مريضة".
 فقال "داماسو" مندهشاً: "مريضة؟"، "لا، إنها بصحة جيدة. فإنها قد خرجت. إنني قضيت الليلة معها".

وكانت هذه كذبة، لكنه أراد إهانة "فيتور"، وأن يجعله يعتقد أنه سعيد. فإصفر وجه الشاب المسكين. ونزلاً على درج السلم في صمت.

فتساءل "داماسو" عند المدخل الأمامي، وهو يرتدي قفازيه قائلاً: "ماذا تنوي أن تفعل؟"

فقال "فيتور" بشكل غامض: "أوه، لا شيء أكثر".
 فدخل "داماسو" إلى العربة، ولرغبته في أن يظهر مصدراً للأوامر، أمر السائق بحدة إلى حد ما أن ينطلق. وأغلق باب العربة بمظهرٍ راضٍ، على الرغم من أنه كان في الحقيقة غاضباً لأن "جينوفيفا" قد خرجت، وهي التي وعدته أنها ستنتظره.

وكان "فيتور" يسير ببطء عبر الشارع. وفضاضة كلام صديقه وضعت بعداً بينهما. فاعتقد "فيتور": "إن ذلك أفضل بكثير". "فالرجل غبي".

وعلى الفور بدأ "فيتور" رحلته بصيد كل الأماكن التي يمكن أن يقابله فيها. إنه كان غاضباً منه، وأراد أن يقابله لكي يستقبله بعدم أهمية كما لو كان عقله مشغولاً بأشياء أخرى. فتمشى حول الجسر، صعوداً ونزولاً بـ"شياو"، يبحث في كل المحلات التجارية، ويتناول بعضاً من الكعك في محلات "بالتريشي"، لكن لم يكن هناك أي أثر لـ"داماسو".

وعند تناول العشاء كان "فيتور" مكتئباً، حتى أن العم "تيموتيو" والذي كان صامتاً بما يكفي، قال بعصبية:

"أوه، بحق السماء، قل شيئاً. إنني أشتاق لبعض الحديث".

فاعتذر "فيتور"، وأوضح أنه متوَعك صحياً. وتمتم بقليل من الكلمات كما لو كان لسانه ثقیلاً كمقود، ثم غرق في صمت مرة أخرى. فإنه لم يستطع أن ينزع كلمات "داماسو" من رأسه: "إنني قضيت الليلة معها". فكانت هذه الكلمات تدندن بسخرية في داخله. واستطاع أن يرى "جينوفيفا" خالعة ملابسها، ملقاة ذراعها حول عنق "داماسو"، وتتنهد من الحب. ولم يشعر بشيء إلا بكراهية شديدة وإحتقار كبير لها. وكان يواسي نفسه بإعتقاده أنه أفضل من "داماسو"، لكن حتى أثناء ما كان يحتقره، كان يحسده.

فتساءل العم "تيموتيو" قائلاً: "وكيف حال صديقك "داماسو"؟"

فاستعاد "فيتور" نفسه على الفور. إنه لا يعرف، حيث أنه لم يره. ولا أراد أن يعرف. فهذا الرجل غبي أساساً. وأطلق "فيتور" سيلاً من التعليقات حول الشخصية السخيفة "داماسو"، وحقاقتة المطلقة،

وغباءه الشديد. وتحمس "فيتور" لموضوعه، سارداً بعض أكثر السلوكيات الخاطئة المثيرة للضحك، وسخر من ملابسه. وقطع لحم البتلو المشوي بحقد كما لو كان يقطع لحم "داماسو" الكريه إلى شرائح.

"ماذا فعل الشاب معك؟"

"معى؟ لا شيء. بصراحة. لو كان قد فعل شيئاً معى، لكنت قطعت رأسه، قطعت رأسه، مثلما أنا متأكد من أن اثنين واثنين يساوي أربعة. سأقطعه إرباً إرباً. إنني سأمشى فوقه."

وكان يتحدث بحماسة متزايدة. وكانت بشرته المصفرة متوهجة بالحب.

فألقي العم "تيموتيو" نظرة سريعة عليه من زاوية عينه، وابتسم لنفسه.

وتتمم قائلاً: "شاب مسكين".

وفي تلك الليلة قام "فيتور" بزيارة كل المسارح. وعندما ازدادت ظلمة الليل بدأت بعض قطرات المطر الرقيقة في السقوط. وفي سيارة الأجرة التي استقلها "فيتور" من شارع "كوندي" إلى مسرح "ترينداد"، ومن "ترينداد" إلى مسرح "ساو كارلوس"، كان يخطط أي تصرف سيتخذه لو رآها في مربع أحد المسارح. إنه حتى لن يزورها. فإنه فقط سيسلم عليها ببرود. فهو سيغازل نساء أخريات. وسيأخذ تحية من الممثلين على المسرح. إنه سيتحدث مع "داماسو"، ويتئاءب في وجهه. ولو نظر "داماسو" إليه كثيراً، أو أبدى ملاحظة ما وقحة، فسيضربه في ذلك الوقت على رأسه بعصاه.

لكنه لم يرى "جينوفيفا". وبدأ له كل لون قاتماً، وكل امرأة قبيحة، وكل وجه خالياً من التعبير، والمدينة

المغلقة بضباب ورذاذ رطب بدت كثيية كسجن ومهجورة ككهف. وبالقرب من مسرح "دونا ماريا" تصادف "فيتور" بـ"بالما جورديو"، والذي كانت يداه في جيوبه، ورداءه مسحوباً عليه بإحكام، كاشفاً عن المنحنيات المنفوخة لأردافه الضخمة.

فسأله "فيتور": "هل قد رأيت "داماسو"؟"

فقال "بالما" وهو مخمور، وسيجارة بين أصابعه اللحمية المبللة بالعرق:

"إنه ربما يكون مع هذه....."، واستخدم كلمة بذيئة.

فكاد "فيتور" أن يضربه، لكن بدلاً من ذلك أدار ظهره إليه، وسار إلى بيته.

"يا لها من امرأة حقيرة غبية! امرأة عاهرة!، إنني لن أفكر بها مرة أخرى أبداً!"
وذهب ليسأل ما إذا كان هناك رسالة له. ولا شيء يكن.

وبعد التقليد الرومانسي، ووفقاً لأية صعوبات تمت مواجهتها بحب مثالي، فمن الأفضل بالتالي أن تُعالجها بجرعة جيدة من الإباحية. فانطلق "فيتور" ليتناول العشاء في "مالطة" مع سيدة أسبانية تدعى "مرسيدس". إنها فتاة لذيذة من "ملقة"، تزعم أنها ابنة لجنرال، وكانت تتظاهر بسلوكيات أرستقراطية، لكنها كانت تأكل بيديها، وتلحس أصابعها بعد ذلك.

وشرب "فيتور" زجاجة كاملة من خمر "الكولاريس"، وكأسين من الكونياك، مقتنعاً بأن الحزن يجعله ممتعاً. وفكر في "ألفريد موسيت" الذي اعتاد أيضاً على أن يسكر لكي ينسى خيبة أمله في الحب.

ولكن عندما استيقظ في اليوم التالي، إذ بفكرة بسيطة جداً ملأته بنور وفرحة كشعاع لأشعة الشمس ينير حجرة مظلمة: "إنها سخافة مني أن أكون غاضباً جداً لأنها ببساطة خرجت للتنزه".

وفي تمام الساعة الثانية كان "فيتور" يطرق على باب "جينوفيفا". وانتظر لوقت قصير بالصالون، ورآها وهي داخلة، سعيدة، ومنتعشة، ومرتدية روبا حريراً واسعاً. وابتسمت، ثم مدت ذراعيها إليه بكل لطف.

وبمجرد ما رآها "فيتور"، انصهر كل غضبه كتلج حوله نار.

إنها كانت تعرف أنه قد طلبها في اليوم السابق عندما كانت خارجاً. إنه كان يوماً رائعاً إلى درجة عالية، حيث ذهبت إلى "بيليم" على المركب النهري. وكانت آسفة جداً أنه لم يذهب معها. فكانت التاجة تبدو رائعة تماماً.

ومن هنا شعر "فيتور" بأنه في حاجة إلى أن يفضي بهوممه، فأخبرها أنه قد ذهب لبحث عنها بالشوارع في الصباح، وبالمسارح في المساء.

فتذمرت قائلة: "لكن لماذا، لماذا؟"، على الرغم من أن وجهها كله كان يشع برضا عن اهتمامه بها. وقررت أن تكون أكثر رضا معه.

وسأل "فيتور" عن "داماسو"، حيث كان معذباً بفضول لاذع. وكان وجهه محمراً خجلاً.

"في الواقع أنا لا أعرف. فإنني رأيته أول أمس في المساء لإنني لم أكن بخير طوال اليوم. وعاد هذه الليلة، لكنني لم أره. وأتى صباح أمس وليلة أمس أيضاً، لكنني لم أدعه يجلس معي في كلتا المراتين".

فشعر "فيتور" بحلاوة لبنية تمر عبر عروقه. وليجعل الحوار أكثر حميمية، وليظهر كيف قد كان يفكر بها، أشار إلى فكرة رسم لوحة فنية لها. وأشاد بعبقرية "كاميلوكيراو": فهو الفنان الحقيقي الوحيد في "البرتغال"، غير معروف، مُهمَل، فقير، لكن رغم ذلك عبقرى. لكن خطط "كاميلو" جعلت "جينوفيا" تفقهه من الضحك.

"هل أعطي خبزاً إلى ذلك الفقير؟، يا إلهي. لماذا لا يظهر لي خضروات مغلية؟، لما يرسمني هذا الرجل في لوحة فنية؟ ربما أنه يريد أن يضعها تحت عنوان "غني وفقير" أو "صدقة". هذا الرجل مجنون".

لكنها لم ترفض فكرة اللوحة تماماً. فإذا كان الرجل ذو موهبة، فستكون مهتمة بالأمر، إنما فقط لو كانت مرتدية فستاناً حريراً أزرقاً باهتاً مكشوف الكتفين، والذي يترك ذراعيها عاريين، وممسكة بمروحتها النصف مفتوحة، وجالسة على كرسي من الطراز القوطي بجانب فارة رخامية مليئة بورود.

واستشهدت بلوحات أخرى شهيرة: لوحات "بونات" و"كارولوس دوران" والآنسة "ألطيم". إنها كانت تتحدث بكل سهولة، وبإشارات سريعة، ووجهها مضاءً بتعبيرات متغيرة باستمرار كلها مرحلة وسعيدة.

أما "فيتور" والذي قد رآها منذ يومين شاحبة وفاترة الهمة ومتمددة على الأريكة، ووجد نضارة وسحر جديد بها، وقد كان يحبها جداً عندما كانت ضعيفة ومريضة هكذا، فهو الآن يعشقها في حيوية استعادة الصحة.

"أتريد أن تشرب شيئاً ما؟"

فكانت عطشانة، وكان لديها كوراكو وصودا.
وكانت سعيدة جداً في هذه اللحظة. فرأت كل شيء
من خلال نظارة وردية اللون.

”ألم تقض أوقاتاً أبداً مثل هذه؟“

فقال: ”إنني اعتدت عليها“. وتبادلا كلاهما حديثاً
طويلاً عن انسجامهما المشترك، والكثير من أوجه
التشابه بينهما.

فقالت: ”إننا متشابهان جداً من نواح كثيرة، أليس
كذلك؟“

ونظرت إليه نظرة طويلة كما لو كانت مفتونة به
على الإطلاق. ثم قفزت على قدميها، واتجهت إلى
البيانو، حيث أرادت أن تعزف عليه.

فأعرب ”فيتور“ عن أسفه لعدم قدرته على أن يجبر
نفسه على ذلك لأنه هناك أوقات فيها يمكن للبيانو
أن يكون أنيساً جداً، فهناك بعض المزاجات التي
يمكن للموسيقى فقط أن تعبر عنها. فعلى سبيل المثال
أحياناً عند غروب الشمس يشق إلى أن يضع على
الموسيقى كل المشاعر الغامضة التي تشبع روحه.

فقالت ضاحكة: ”يا لك من شاعر!“

وبدت أنها تستمع إليه بشوق، وأن تهتز فرحاً مع
كل ثقة جديدة يتخذها حول مشاعره وأفكاره وعاداته،
ودائماً ما تستخلص منه أشياءً بعينها. فأرادت أن
تعرف ما الموعد الذي يستيقظ فيه، وما الكتب التي
يقرأها، وأي أوبرا مفضلة لديه كما لو كانت تفتح
الأبواب المغلقة لروحه. ولم تمتنعا عيناها مطلقاً عن
إمعان النظر إليه وتأمله.

وتساءل قائلاً: ”وكيف حال الآنسة “سارة“؟“

فصفقت بيديها، وضحكت بصوت عالي.

”إنه لا يمكنك أن تتخيل أبداً أنها تحبك“.
”لا!“

فقالت وعيناها مفتوحتان على مداها ولامعتان، مصوبتان نحوه: ”هذا صحيح. إنها تتحدث عنك فقط. فهي تقول أنها تراك وسيماً، وممتعاً، ورومانسياً. ولا أعتقد أنها على حق“.

ثم وقفت، ووضعت يديها على كتفيه، متفحصة إياه بعناية.

فقالت: لا، إنني لا أعتقد أنها كذلك، ”إنك جميل جداً، لكن هذا هو كل شيء“.

فاحمر وجه ”فيتور“ خجلاً بعض الشيء. وبدأت له أنها تتخذ الدور الاستفزازي للرجل. وبدأ ”فيتور“ أكثر شبهاً للمرأة، حيث يتلقى هذه الاستفزازات ليحب بإستسلام أنثوي.

ونظمت ”جينوفيفا“ شعره بأطراف أصابعها، وعدلت كرافتته، لكنها لم تدعه يمسك يديها، حيث تراجعت قائلة:

”هذا ما اتفقنا عليه. إننا سنكونا أصدقاء على الدوام، لكن ليس أكثر من ذلك“.

وانحنى له انحناءة إحترام محافظة، وعيناها اللامعتان كانت تلمعا بتحدٍ.

ثم ذهبت، وجلست على البيانو، وبدأت تعزف أغنياتها المفضلة:

كل امرأة لها عشقها.

ونقطة ضعفها وصورة فرسها.

وغنت بصوت مرتفع بشجاعة، معطية لبعض الكلمات النبرة الأنيقة الساحرة، والتي تستخدمها المغنيات في مسرح ”بوليفار“ عندما يريدن أن يكونن

مثيرات أو خليعات.

انظر هذا الصبي الجميل هناك،

هذا هو عاشق لأ.....

هذا هو عاشق لأ.....

ثم نظرت إليه بطريقة تجعله يرتعش بالرغبة.

انظر هذا الصبي الجميل هناك.....

وبدأت عيناها أن تشيرا إليه، مؤكدة مشاعرها،
خاضعة نفسها:

هذا هو عاشق لأ.....

هذا هو عاشق لأ.....

هذا هو عاشق لأماندا.

ثم توقفت عن الغناء، وظلت جالسة على مقعد
البيانو. وفجأة أصبح وجهها فظاً، ثم قالت له بإبتسامة
شبه محتقرة:

”إنك تحب ”أنيهاز“، أليس كذلك؟“

فتجمد ”فيتور“.

”ليس هناك شيء تخجل منه. إنهم يقولون أنها
جميلة جداً. إنني أعرف أنها طبّاخة، وتحصل على
إعانة شهرية تبلغ خمسين ألفاً من ”الرايس“ من
صاحب متجر في ”شبادو“. إنها متعلمة الفرنسية
جيداً، حيث يمكنها حقاً تصريف الأفعال. إنك ترى
كيف إنني على علم جيد بالأمر. فكيف حال هذه
الشابة الممتعة؟“

فقال ”فيتور“: ”إن هذا كذب“.

فقالت ”جينوفيفا“ وهي واقفة: ”لا، ليس كذلك“،

”فـ“ داماسو“ أخبرني بذلك، حيث أنه يعرفها“.

فأقسم ”فيتور“ بنفسه أنه سيضرب ”داماسو“
ضربة بارحة، ثم بدأ يبرر نفسه، موضحاً علاقته

بـ“أنيهاز” باتجاه آخر. إنه صحيح أنه قد كان معها. إنها مخلوقة مسكينة غير متعلمة، غبية بشكل فظيع. إنها حقاً أكثر من صديق، فإنه لم يعطها قلبه أبداً.....
”رجل بذوقي ومشاعري ربما من الصعب عليه أن يربط نفسه بإمرأة تستطيع أن تقرأ بصعوبة. علاوة على أنني لم أرَها منذ شهر. إنها مللتني، لذلك تركتها. فكتبت إلى أول أمس، ولم أقرأ حتى رسالتها“.

فقالت: “فعلاً؟”

“أقسم بذلك”

”ليس لأي شخص أية حقوق عليك“. وبدأت تسير بأرجاء الحجرة، وروبها الحريري مجروراً خلفها. ثم نظرت إليه مباشرة: ”أنا أعرف أنك لم تنجح في ذلك الأمر بالفعل. فإنها قابلت “داماسو”، وأخبرته بكل شيء بخصوص هذا. يا لها من تعاسة!، تصالح معها، ولا تحطم قلبها المسكين“.

فقال “فيتور” مجروحاً: ”إنك تسخرين مني“.

”لا، فإنها مجرد نصيحة من صديق جيد. فإنها بالطبع يمكنها أن تعزي نفسها بطول رائع لكشمير من حبيبها..... أو بأحد مساعديه“. وضحكت. ”إنك اعتدت على كتابة قصائد لـ“أنيهاز““.

فقال بغضب: ”صحيح، وهو كذلك، أنا ذاهب“.

فالتقطت قبعته من يديه.

”أنا آسفة على أنني قد تحدثت عن محبوبتك بقلة

احترام“.

ثم رأت وجهه الغاضب. فقالت وهي تملس على قبعته الحريريّة: ”إنني أمزح فقط“. ”هل ستكتب قصائد لي؟“

”بالتأكيد“

”إنني أريدك أن تكتب لي يومياً قصيدة من ١٤ بيتاً. فإنها ستكون أنيقة جداً، وعرضت قبعته إليه، ثم أضافت قائلة: ”والآن يا صديقي العزيز، مع السلامة. فالساعة الآن الثالثة“.

”إنك تطردين!“

”إنني مضطرة“

فقال بإبتسامة حقودة: ”إنك تنتظرين ”داماسو“.

فوضعت أحد أصابع يديها على شفتيها.

”ششش! كن حسناً الآن، واخرج“.

فأصبح ”فيتور“ ممتلاً بغيرة وغيظ يائس.

”وهو كذلك. سأذهب، لكنني لن أعود“.

فقالت، وهي تهز كتفيها: ”حسناً“.

فنظرا لبعضهما البعض لوقت قصير.

ثم تساءل بكآبة وجه: ”لماذا تجعليني أعاني؟“

فضحكت ضحكة اضطرارية.

”تعاني؟، يا لك من شاب غير عادي. إنك لم ترني

إلا مرتين فقط، فإنك بالكاد تعرفني، ومع ذلك تعتقد

إنني أجعلك تعاني فقط لإنني مضطرة أن أكون وحدي

في الساعة الثالثة. إن هذا أمر ظالم إلى أبعد حد“.

فقال: ”هذا لإنني أعشقك“.

فوضعت يدها على فمه.

”لا كلمات مبالغة. فهذا ليس صحيحاً“. ثم انحنت

احتراماً، وسخرت قائلة: ”لو تريدني، فتعال واطلب

يدي من والدتي“.

وضحكت بصوت عال، ثم أسرعَت إلى داخل

حجرة نومها، والتي عادت منها حاملة باقة من زهور

البنفسج.

فقالت، وهي تضع الزهور في عروة سترته:

”الآن، كن رجلاً طيباً“. ”إنك ترى أي اهتمام قد وليته بهذه الزهور، فلا شكاي. إنها زهور بنفسج بونابرتية“.

فمال نحوها بتوسل، وشفتاه تلتمسا قبلة باحتشام. فبدت ”جينوفيفا“ مضطربة فجأة، فأخفضت رأسها، وتلقت قبلته على شعرها.

فأصبح ”فيتور“ مثاراً جداً. وأخرج تنهيدة صادرة من القلب. ثم وقف هناك في وسط الحجرة كأبله، ينظر إليها مرتعشاً بلا حركة.

فقالت بشكل عميق: ”وداعاً!“ فغادر ”فيتور“، شاعراً بأن الأرض تتحرك تحت قدميه.

وعندما سمعته يغلق الباب خلفه، نادى على ”ميلاني“.

”بمجرد ما يصل ”داماسو“، أدخله. إنني في حاجة إلى التحدث معه. فقد استنفدت المال“.

وتنهدت، ثم جلست بصعوبة على الأريكة، مائلة إلى الوراء، ويدها خلف رأسها.

”ميلاني“، هذا الأمر لن يسير بشكل جيد“.

فقالت ”ميلاني“: ”إن هذا الشاب المسكين كان يبدو متضايقاً جداً“.

”يا له من حب مسكين!، أوه يا ”ميلاني“، من أين تأتي هذه العاطفة المفاجئة السخيفة؟، من كان يعتقد هذا؟“

”هذه الأشياء تحدث يا سيدتي“ فهزت ”جينوفيفا“ رأسها بحزن، وعيناها مصوبتان على الأرضية.

”لا. هذا أمر خطير. فقلبي يقول لي أن الأمر

سينتهي بشكل سيء“.

لم ينسَ ”فيتور“ طلب ”جينوفيفا“: ”إنني أريدك أن تكتب لي يومياً قصيدة من ١٤ بيتاً“. فتذكر بطل الرواية ”دون جوان باسيني“، والذي كل مساء بعد تناول العشاء يجلس بهدوء يدخل سيجاراً في شرفة قلعته، ويكتب قصيدة من ١٤ بيتاً إلى معشوقته. والسادة الإيطاليون في عصر النهضة، والذين قد رسمهم ”تيتيان“، والذين قد كانوا يتناولون العشاء مع ”سيزار بورجيا“، اعتادوا على فعل نفس الشيء. وفكر أنه أنيق جداً أن يكتب قصيدة من ١٤ بيتاً كل صباح، ويرسلها إليها كباقة من الزهور. وفيما بعد سينشر القصائد كمجموعة، ويضعها تحت عنوان ”مداعبات“. وسيحقق الكتاب شهرة عظيمة، وسيصبح ”فيتور“ مشهوراً. لكن كان ولا بد أن ينفث أمل وحيد أمامه، ويعدو خياله فيه بعيداً كحصان سبق، فقط ليستلقي بعد بضع قفزات، وجنبااته ترتفع وتنخفض كفرس مستنفذ.

وفي صباح اليوم التالي بعد تناول وجبة الإفطار أغلق ”فيتور“ على نفسه باب حجرته. وكان جالسا بشبشبه، وعلبة سجائر على المائدة، وكوباً من الماء ليروق أفكاره، ويهيأ نفسه للكتابة. وكان يمشي بخطوات ثابتة على أرضية الحجرة. وعند اقتراب موعد العشاء كان قد أنتج أول ثمان أبيات للقصيدة. وعندما أتت ”كلوريندا“ لتستدعيه لتناول العشاء، ظهر على المائدة بعينين جامحتين، ووجه مغم بالحيوية لرجل خارج من عالم الأفكار مجدداً. فتساءل العم ”تيموتيو“ قائلاً: ”هل قد كنت نائماً؟“ فقال بكل تحفظ: ”لا، لقد كنت أكتب“.

وبعد تناول العشاء أغلق "فيتور" على نفسه بحجرته مرة أخرى حتى الساعة التاسعة، حيث انتهى أخيراً من المقطعين الأخيرين للقصيدة. ثم خرج خارجاً ليستنشق بعض الهواء.

كان الجو عاصفاً، وبالأحرى ليلة كئيبة ذات سحب ضخمة تهيم في السماء، وفي بعض الأحيان تكشف عن القمر الشاحب. والعواصف التي كانت تعصف حوله جعلته يرتجف جداً حتى روحه. وكانت البيوت جميعها مغلقة، وأضواء الغاز تطفئ لدرجة مخيفة. وبينما كان يتجول بالشوارع، كان ممتلاً بهواجس مصائب فظيعة، وجرائم قتل غامضة. وكان يمشي على طول الجسر، والمياه تخفق على الأرصفة بشكل كئيب. وكان هناك على المدى الواسع اللامع بصيص من الأضواء الضعيفة لمراكب، والتي كانت صواريخها المضاءة بإضاءة متجمدة بارزة كأشباح مقابل السماء. لكن هذه الخلفية لم تتوافق مع حالته الذهنية المضيفة، ولذلك عاد إلى البيت لينشأ نسخة نظيفة لقصيدته بشبه فرحة أبوية.

وذهب إلى السرير، ومعه كتاب لـ "ألفريد موسيت"، شاعراً بأن الحياة ممتعة. وأخيراً شعر بالحب الرائع والنبيل والمثالي الذي قد قرأ عنه في كتب وقصائد، والذي قد أفتته جداً. وقد دعمه الحظ بإعطاء هذا الحب تغليفاً ساحراً بتألق، والذي أفتن عقله وخياله على حد سواء. فأيّة امرأة أخرى يمكن أن تُقارن بـ "جينوفيا"؟، من أيضاً لديها ثياب كهذه، وأفكار رائعة مثل هذه، وخبرة في الحب هكذا، والكثير من المعرفة بالعالم والمجتمع؟

إنها بالطبع كان لديها عشاق، لكن هذا جعله

ببساطة يقدر حبها بدرجة بالغة. إنه من السهل جداً أن تسعد سيدة برجوازية فقيرة، والتي ترى فقط شبيب زوجها وأطفالها سيء الطباع. إنه من السهل جداً أن تغوى فتاة في الثمانية عشر من العمر ذات خيال وأفكار لتلميذة حول أمومة مستمدة من اللعب بالعرائس. لكن أى شيء رائع في أن تكون قادراً على أن تهتم بامرأة تعرف رجالاً بشكل عميق جداً، سيدة تكرر أشياء مخيبة للأمل مما تجعلك متشككاً، مما يزيد مللاً من الإحساس. إنه لا بد أن يكون أقرب إلى السعادة المتقشفة، والتي قد يشعر بها ملحد عندما يصبح كاثوليكيًا. إن الشخص لن يمتلك جسماً جميلاً فقط، بل كائنًا متكاملًا معقدًا. فكل من عشاقها، وكل من علاقاتها قد شكلوها، تاركين في روحها أو في إحساسها بالندم جزءاً ما من شخصيتهم، يحملونها على ذراعيهم، ويمتلكون إياها. فسيكون أشبه بتصفية لكل الأشخاص الأنيقة الذين قد عرفتهم، وسخرية الكتاب المسرحيين، والعادات المصقولة للدبلوماسيين، وكل الحضارات.

كيف قد تغيرت حياته. فمنذ شهر فقط قد كانت حياته فارغة وتافهة كسطح زفتي للطريق، يتمشى من مكتب الدكتور "كامينها" الممل إلى الملذات الجسدية المبتذلة لحجرة نوم "أنيهاز": فقد كان مغفلاً، عدماً! ومع ذلك فحب "جينوفيفا" قد جعله الآن مثالياً ونبيلًا، وغطى روحه بحلاوة في الداخل، وكساه بمظهر خارجي سامخ. فتمدد بفخر على السرير، يستمتع إلى أنين الرياح، وهي تنطلق بخفة على جدران البيت.

كيف ستعجب بقصيدته، كيف ستكون سعيدة أنه

قد أطاعها، كيف يمكنها مقاومة نفسها من أن تعطيه قبلة. وهذا الأمل ملأ روحه بتراخ عنيف.

وفي اليوم التالي ذهب "فيتور" إلى شارع "ساوبينتو"، ومعه قصيدته في محفظته. وفتحت "ميلاني" الباب، وقالت:

"إنها ليست بالداخل. فإنها انصرفت إلى "كويلوز" في هذا الصباح مع السيد "داماسو". لكن الآنسة "سارة" هنا..... ادخل".

فتحت الباب، ونادت على الآنسة "سارة". فدخل "فيتور" كرجلٍ ساقط من ارتفاع عظيم. ودخل إلى الصالون حزيناً، وإبتسامة غامضة على شفثيه، وقلبه بارداً. وسمع حفيفاً لحرير متصلب على السجادة. وكانت الآنسة "سارة" بجانبه، محمرة الوجه، ومنتصبة. وأخبرته أيضاً بأن السيدة والسيد "داماسو" قد غادرا إلى "كويلوز" في وقت مبكر جداً.

ثم جلست، تفتح وتغلق الكتاب الذي بيديها، وتحقق النظر إلى "فيتور" بإعجاب، مثبتة إياه بعينيها المزرقتين، مع بياضهما المصفر القاتم. أما "فيتور" والذي كان حاملاً قبعته على ركبتيه، كان محرجاً جداً، ولا يعرف ماذا يقول.

وأشارت السيدة الإنجليزية إلى أنه يوم رائع. فبدا "فيتور" غامضاً جداً، وبعد تفكير جدي قال: "نعم، إنه كذلك". ثم أخبرته الآنسة "سارة" أن السيدة والسيد "داماسو" انصرفا في عربة مكشوفة، وأخذا غداءهما معهما. وكان يديا سعيدين جداً. وأضافت بعض كلمات في الإشادة بـ "داماسو". فهو سيد مثالي جذاب. فتمتم "فيتور" مخفوض العينين قائلاً:

"بلا شك"

وتساءل قائلاً: "ومتى سيعودان؟"، فقالت الأنسة "سارة" أنه ربما يقضيان الليلة في "كويلوز". في الحقيقة إنها لم تسمعهما يقولان ذلك، لكن يبدو أن هذا الشيء المنطقي لفعله. ثم تساءلت ما إذا كانت "كويلوز" جميلة جداً.

فقال "فيتور"، وهو واقف: "أوه، نعم" لكن لم تريد الأنسة "سارة" أن تفقده سريعاً جداً. فبدأت تتحدث عن "البرتغال" والبرتغاليين أشخاص لطفاء إلى درجة عالية. "إن هنا جنة. فإنهم يعاملون النساء باحترام إلى درجة عالية. إنه يمكن للإنجليز أن يتعلموا منهم شيئاً أو اثنين".

إنها كانت تتحدث وتلوح بشكل سيء، حيث تحنى عنقها بهذه وتلك الطريقة، مانحة عرض الابتسامات على "فيتور". ثم تنظر بعيداً كما لو كانت مبهورة، فقط لتعود تنظر إليه مفتونة، كاشفة إليه عن كل آمالها العانسة.

لكن "فيتور" كان واقفاً، ينقر على قبعته برجله بضيق صدر. ثم أكدت الأنسة "سارة" أنه لا ينبغي عليها أن تبقيه، حيث أنها بالتأكيد ينقصها مفاتن "جينوفيا".

فاحتج "فيتور" بخجل قائلاً: "لا، إنه لدى فقط أشياء كثيرة على القيام بها".

فاستعادت الأنسة "سارة" نفسها قائلة: "أوه، أنا أعرف أنك شاب متقلب هكذا تُخدع بالمظاهر بسهولة جداً".

أما نبراتها الرخيمة والهشة، وعيناها الإنجليزية المملتان، بدتا أن تشلا "فيتور". وأخيراً كسر جموده مع سعي، وقال وداعاً إلى الأنسة "سارة"، ثم غادر.

فانحنت احتراماً بشدة، ووضعت في لمحة أخيرة تصريحاً بالغاً لرغباتها.

وبمجرد ما كان "فيتور" خارجاً في الشارع مرة أخرى، نفس عن كل غيظه من "جينوفيفا" في تفكير واحد: "إنها لا شيء سوى عاهرة بذيئة". وهذا هدأه. وكشمعة انطفأت بواسطة نفخة من الرياح، هكذا اختفي حبه. وكان يخطو خطوات واسعة، قابضاً على عصاه. وكانت كراهيته تجاري استيائه منها، ومن البيت، ومن الحياة بشكل عام. فإنها تنتشر كغاز، تحتضن كل شخص وكل شيء. إنه أراد أن يتحدى، وأن يطوق شخصاً ما بعصا المشي الخاصة به، وأن يكتب مقالة في الجريدة يصرح فيها عن أشياء حقيرة بخصوص السيدات، وأن يرى فقرها وتسولها لأجل صدقة!، إنه لم يشعر بأية كراهية نحو "داماسو"، حيث أنه بالكاد يعطيه تفكير: إن هذا ما تستحقه، حيوان أخرس. إنه كان يفكر بسخرية: "إنني أمل أن يكون لديهما كثير من الأطفال، وأن يذهبا سوياً إلى الجحيم". إنه كان يوماً مشمساً بشكل رائع، لكن بدا له كل شيء مغيماً بواسطة ضباب كئيب. أما الأصوات المتدفقة صعوداً من النهر فبدت له ضجة مزعجة. وعندما عاد إلى البيت ألقى قبعته على الأرضية. وفجأة طغى عليه إحساس بالهجر والعزلة والفراغ. إنه كان كما لو أن كل الأشياء التي كان يهتم بها، أصدقاءه، وبيته، وعلاقاته، قد انسحبت وتركته وحده، شهيداً، شخصية مهجورة في فضاء خال مظلم واسع. فشعر بأنه ضعيف، وغير سعيد، وغير صالح للحياة. ثم جلس على سريره وبكى.

ولكي يتجنب "فيتور" تساؤلات وأحاديث العم

”تيموتيو“ ذهب ليتناول العشاء عند ”سيلفا“ في حجرة خاصة. وعندما عرض عليه السفرجي قائمة الطعام، وسأله عما يريد، رد ”فيتور“ بنبرات كئيبة قائلاً: ”سم إن كان هناك“.

وعزته تلك المزحة. حتى أنه قرأ الجريدة التي أحضرها له السفرجي، لكنه دائماً ما كان يتذكر أن يصطنع شكلاً كئيباً عندما يعود السفرجي لأن لا شيء يعزي طباعاً مخنثة أكثر من السماح لآخرين بمعرفة المهم.

وسار ببطء عبر ”شياو“ برحيل كئيب لمراهق. فكان يحدق النظر بهدوء فيما حوله بكسل مكدوم، يليه دموع. ومع ذلك لم يكن لديه مانع من المعاناة لأجل الحب لأنه على الأقل يستطيع أن يواسي نفسه بفكرة أن حزنه له أصل نبيل.

ودخل ”فيتور“ إلى مسرح ”دونا ماريا“. واشترى مربعا لكي يضيفي أناقة على حزنه، وكان يستند بكوعيه على اللوج المغطى بالجلد البالي. وكان يلقي نظرة سريعة حول المسرح بتشتت. وبين الحين والآخر كان يشاهد المسرحية. ومن خلال العادة، وحتى يمر الوقت، كان ينظر إلى سيدة جميلة المظهر في مربع قريب من الجناح، مما جعلها تنظر إليه بغضب. لكنه كان يعاني حقاً. وأحياناً كان مجرد التفكير في ”جينوفيفا“ يثيره. وعندما رأى أن الساعة الآن العاشرة والنصف، وتخيل أنه في هذه الساعة ”أنهما“ ذاهبان إلى السرير في ”كويلوز“، سيطرت عليه حالة من اليأس والغيب الشديد، حتى أنه فتح باب مربعه بغل، وغادر المسرح، وتجول في الشوارع مرة أخرى بلا هدف. وأخذته خطواته بعيداً إلى شارع

”جانيلاس فيرديس“ لأن أفكاره كانت هائلة جداً، حتى أنه كان يحاول استعادة الهدوء إلى روحه من خلال استنزاف بدني كامل. ثم دقت الساعة الواحدة، فعاد إلى البيت.

وعندما وصل إلى الباب الأمامي لبيته، وبدأ أن يأخذ مفتاحه من جيبه، ظهر مظهر امرأة من ممر مظلم مجاور. وأسرعت نحوه، ثم التصقت به، وبدأت تبكي بهدوء قائلة:

”فيتور!“

إنها ”أنينهاز“.

”ماذا تريدان؟“

”أرجوك، لا تتبعد. اسمع. سأقول فقط بعضاً من الكلمات إذا سمحت. فإنني سأصبح مجنونة. ولو لم تسمع ما ينبغي عليّ قوله، فسألقي بنفسي في النهر.“

”فيتور“، أقسم إنني سـ.....
وكان صوتها مختنقاً بالدموع. وكانت تتحدث في هذه اللحظة بصوت عال.

ولكي يتجنب ”فيتور“ فضيحة، لأن الناس مازالوا يخرجون من نقابة الكتاب، سار معها بعيداً عن الأكاديمية، في الظلام في تلك الساعة، أمام ممر معرض الفنون الجميلة.

وكانت ”أنينهاز“ متعلقة على ذراعه بقلق، تبكي بنعومة، حيث تمتمت قائلة:

”لقد كنت كمجنونة..... إنني لم أعد أهتم بأي شيء..... فأنا ببساطة أريد الموت“.

”لكن ماذا تريدان مني؟“

فانسكبت هذه الكلمات من ”أنينهاز“، والتي كانت تسير، ثم تقف، وتلوح بصورة عشوائية، بينما كانت

تحاول أن تشرح ما قد حدث "في ذلك اليوم": لا. ليس "بوليكاربو" من كان معها. هذا صحيح. إنه رجل آخر، لكنه ليس عشيقها. فهو رجل عجوز، شيطان، حيوان، السيد "لوبيز" الذي يعيش في حارة "بالها". فالضرورة هي التي دفعتها لذلك. فإن "بوليكاربو" بخيل جداً، حيث كان يعطيها بالكاد ما يكفي لدفع الإيجار. وكان لديها اثنان من الأساور رهناً، بالإضافة إلى القلادة الماسية. إنها لم تعرف فقط إلى أين تتجه. وقد كان الشيطان العجوز يكبرها بسنوات، وكان عليها أن تتخلص من رهن هذه الأشياء. وفي النهاية قد وافقت. لكنها لعنته الآن، حيث أنها كرهته.

"هذه هي الحقيقة. أقسم بحياة أمي. ربما أموت لو لم تكن هذه الحقيقة. اسأل "روزا". إنني كتبت إليك لأشرح لك كل شيء. ولو لم أجدك اليوم، لكنت سأخلص من نفسي".

ثم أمسكت بيديه، وضغطت عليهما بإحكام. وفي عتمة الميدان استطاع أن يرى فقط عينيها الداكنتين تلمعا بوجهها الشاحب، مظللاً عليهما بشال أسود مرصع بالدانتيل فوق رأسها. وإحساس جميل لطف من حديثه معه. فهذا التصريح العاطفي كان تعويضاً عن احتقار "جينوفيفا" له، وبالتالي كان هذا يعزي بغروره، فكان ممثلاً برغبة التسامح. فبصوت رقيق قال:

"لكن لو كنتي قد واجهتي صعوبات بخصوص المال، فلماذا لم تقولين؟، فكان يمكنني أن أعطيك المال".

"لا، لا، لن آخذ قرشاً منك. فإنني أحبك، وأريد منك الحب فقط. إنني سأحصل على كل ما أستطيع

من الرجل الآخر، لكن ليس منك. دعنا نعوض هذا. فإنني لم أُنم. فقد كنت مريضة. اسأل "روزا". فاليوم لم أعد أستطيع تحمل ذلك تماماً، ولذلك أتيت لانتظارك. أرجوك قل نعم".

لكن الألم الذي قد عاناه "فيتور" على يدي "جينوفيفا" أعطاه رغبة أن ينتقم لنفسه من "أنينهاز". فأزاحها جانباً بقسوة.

ثم قال: "أوه، لا"، "هذه ليست المرة الأولى التي تفعلين فيها ذلك معي، فلدي ما يكفي من ذلك. مع السلامة".

وخاطب "فيتور" "الخاطئة" بصوت منخفض مشوب فقط بالكآبة قائلاً: "افرحي يا "أنينهاز"".

وكانت الفتاة تبكي بنعومة، ولم يتركها "فيتور" بعد. وبشعوره بأنه ضعيف، ومضايقته من ضعفه، أخرج عليها مشاعر غضبه، قائلاً أنه لا يمكن الوثوق بها. إنه لم يعد مستعداً لتحمل ألعابها، فهو لديه كثير من نساء أخريات. وليضاعف من بكائها فقط قال أنه كان يحبها، وأنه دائماً ما كان يحبها، لكن بعد تفكير عميق قد قرر أن ينتهي كل شيء. "وداعاً"

فقالت بانشداه، كابته دموعها: "استذهب إذن؟" "نعم، وداعاً"

"وداعاً يا "فيتور""

وهذا التسليم السلس لانفصالهما أثار غضب "فيتور". فلم يغادر، حيث ظل يسير، ويداه في جيوبه، ويقول لها أشياء فظيعة، ويكرر قائمته الطويلة من اتهامات مملة. وكان كلامه ينضح بنكد يائس بغيض

حاقد.

وكانت تقول مستسلمة وباكية: "لا تغضب يا "فيتور""، "فأنا لا أريد إجبارك على فعل أي شيء. ففعلت ما كان بإمكانني. إنني أتيت فقط لأطلب سماحك. والآن وداعاً".

فأهانها "فيتور"، وعدد لها أسماء كل عشاقها: "ألفيس"، "جويرا"، "تيرا فيسجو"، "جواوباتريوتا". فاشتد غضب "أنينهاز" للغاية.

"لماذا تقذف الآن بهذه الأسماء في وجهي؟، نعم، لقد كنت معهم، لكنهم لم يخدعوك. فإنني كنت أخدعهم معك. هل قد طلبت منك أبداً أي شيء؟، أخبرني، هل قد طلبت منك أبداً ولو قرش؟"

وكانت تتحدث بصوت عال، واقفة على أطراف أصابعها.

فقال "فيتور" بغضب: "اسكتي. إن الحارس سيسمعك".

فتجاهلت الكلام بضيق صدر. وقالت: "إنه من الأفضل لنا لو أنهينا هذا"، "هذا ما يحدث عندما تقدم امرأة تضحيات لرجل".

فصاح "فيتور" بفخر: "أية تضحيات؟"

"إنني كدت أخسر "بوليكاربو" عدة مرات بسببك. وبعد ذلك ماذا سيصبح مني؟، إن البيت سيؤجر باسمه، والأثاث باسمه. وبالتالي سيكون قادراً تماماً على طردي إلى الشارع بتيابي التي أرتيدها فقط. وحينئذ ماذا سأفعل؟، هل أتجول في الشوارع وأكشف عن هويتي إلى الشرطة؟، وكل ذلك لأجلك!، لو كانت والدتي المسكينة اليوم على قيد الحياة....."

وتضاعفت دموعها.

فشعر "فيتور" بالإهانة بشكل عميق. فهذه الحجة وضعت في وضع مخز لقواد، والآن كان عليه أن يعترف بصحة ما قالته. فشعر بغرور حيواني غريزي لأن كلامها كان دليلاً على حبها للنزيه له.

وكان يسير في صمت. وبدأت حياته مع "أنينهاز" تظهر أمامه من جديد. فأغرى بتذكر ليال شهوانية، والتي خلالها كان يحبا، ويضحكا، ويلعبا، ويتعشيا على السرير. وبدأ يقارن هذه الفتاة المحبة بـ "جينوفيفا"، تلك المرأة المتكبرة والعنيدة للغاية. وتذكر النموذج الكامل المفعم بالحيوية الرشيق لجسمها، وتنهداتها الشهوانية، ومتانة بشرتها. وهذا التفكير أثاره. وفوق ذلك كان من واجبه ألا يكون ناكراً للجميل. وكان ذلك الواجب ثقيلاً على الضمير بشكل بالغ، حتى أن أقل اتهام مقنع يلتمس ملاذاً تحت هذا المبرر السامي. ثم توقف، وتساءل قائلاً:

"ما هو الذي تريديه؟"

واستشعرت من صوته أنه ناعم، فقالت سريعاً:

"ارجع إلى البيت معي الآن!"

فالتفت "فيتور" لفتة مستسلمة، وتساءل قائلاً:

"لكن ماذا عن "بوليكاربو"؟"

"إنه قد ذهب إلى "المادا". وعلى أية حال لا يهمني. قل أنك ستأتي. إننا سنكونا سعيدين للغاية!"، ثم التصقت به بعاطفة متجددة.

"امتنعي عن هذا. ربما يرى الناس ذلك".

"ماذا يهمني. فيمكن للعالم بأكمله أن يرى، ولن

يهمني. ارجع معي يا "فيتور"."

فقال مستسلماً: "ولن تخدعيني مرة أخرى؟"

"أبداً. فلو خدعتك مرة أخرى في أى وقت، فيمكنك

أن تقتلني. وسأترك رسالة لأقول أن هذا بفعلي، حتى لن تكون في حاجة إلى الذهاب إلى المحكمة بشأن ذلك“.

إنها كانت صادقة تماماً. فقد قرأت قسم الحب هذا في ”ملك الجبل“، وكانت مصممة على تنفيذ هذا. ولذلك ذهب ”فيتور“ معها. وكانت ”أنينهاز“ ملتصقة بذراعه بإحكام، وأسرعاً كلاهما على طول الشارع. ووصلا إلى شقتها لاهثين. وبينما كان ”فيتور“ يشعل عود كبريت، شدت ”أنينهاز“ جيبتها إلى أعلى، وقفزت على درج السلم. وكانت تضحك باهتياج ونفاذ صبر. ثم دقت الجرس بصوت عال جداً حتى أن الخادمة المذهولة أتت بسرعة لتفتح الباب. ”إنه هنا يا ”روزا“، إنه هنا!، فقد أحضرته، انظري!“

ثم سحبت ”فيتور“ على طول الممر، وإلى داخل الحجرة. وألقت شالها ورداءها، ثم ألقت بنفسها عليه، مغطية إياه بقبلات. وكانت تصفق بيديها. وإثارته فقط زودت من سحر عاطفتها الجنونية الجامحة له. وكانت عيناها الرماديتان الرائعتان تلمعا بالحب. واعتاد ”فيتور“ أن يقول: ”إنه يمكنني أن أقرأك ككتاب“.

”اسأل ”روزا“. إنه صحيح، أليس كذلك. ”روزا“، كيف بكي وبكي!“

فقالت الخادمة بوجه كالح: ”أوه، إنها كانت في حالة فظيعة“

”أنت ترى، أنت ترى!“

وطلبت من ”روزا“ أن تعد العشاء على الفور. فتعشياً على السرير. ووضعت ذراعيها حوله، ثم

دفعته على الأريكة، وتسقلت على رأسه، والتهمته بقبلات، متفحصة إياه بعينين شرهتين مفتوحتين على مداهما كما لو لم تره أبداً من قبل. فجبينه الأبيض، ولحيته المتناثرة، وشعره المجعد، وجماله المتأنت دفعها للجنون. فأخمدته بقبلات مفاجئة، وعيناها مغمضتان. وعضت شفتيه، ثم ركعت أمامه، مقهورة بالعاطفة، وتتفجر بالبكاء.

وأقسم "فيتور" بنفسه، وهو متأثر بعاطفة إلى درجة عالية، أنه سيحبها على الدوام، حتى أنه سينسى المرأة العاهرة الأخرى.

فرفعها "فيتور"، وأجلسها على ركبته. وقبل دموعها، ثم قال:

"إنني أحبك يا "أنينهاز"، حقاً أحبك. لكن لا تخدعيني مرة أخرى. وهو كذلك؟"

فوقفت، ودموعها قد جفت الآن، وكانت تلمعاً. ثم مدت يدها.

"لا، أبداً، ولا حتى لو كنت أموت جوعاً. فإنني لك وحدك".

ثم سقطت بين ذراعيه في حالة نصف إغماء، مدفوعة بموجة عظيمة من العاطفة، وزرعت قبلات سكرية عاجلة مبللة على عنقه.

وفي اليوم التالي لم يغادر "فيتور" حجرة "أنينهاز" حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. وتصادف مرور عربية "داماسو" بينما كان "فيتور" خارجاً من الباب المواجه للشارع.

وبمجرد ما رآه "داماسو" أوقف العربية، ونادى على "فيتور"، والذي اقترب إليه بمانعة بالغة. فقال "داماسو" عن علم: "إذن أنك تصالحت، أليس

كذلك؟“، ”إنني قابلت الفتاة المسكينة قبل أيام، وكانت مستاءة جداً. إنك فعلت الشيء الصحيح“.

فحاول ”فيتور“ أن ينكر هذا. فإنه قد أتى فقط ليراها، لأنه قد سمع أنها مريضة.

فقال ”داماسو“ مبتسماً بإبتهاج، وما زال نصف نائماً، وياقته مجعدة تماماً: ”الآن، الآن“، ”إنك لا تستطيع إخفاء الحقيقة عني. استمتع بوقتك. إننا ذهبنا أمس إلى ”كويلوز““.

فتساءل ”فيتور“، ووجهه شاحب بشكل فظيع: ”هل قد عدتما للتو؟“

”لا، إننا عدنا ليلة أمس. إننا استمتعنا برحلة رائعة“.

وبدا ”داماسو“ ممتلاً بفرحة صحية. وكان يدعك يديه، متملماً على مقعده، ومغموراً بوفرة من السعادة. وصاح إلى سائق عربته أن ينطلق.

”استمتع بوقتك. وتعال وزرنا“.

فعاد ”فيتور“ إلى البيت غاضباً. فبلاشك سيخبر ”داماسو“ ”جينوفيفا“ أنه قد رآه مغادراً بيت ”أنينهاز“. إن هذا أكثر من اللازم!، لكن بعد ذلك، ماذا يهم أخيراً؟، فـ”جينوفيفا“ قد سخرت منه. وها هو انتقامه، فإنه سيظهر لها أنه لم يموت من حبها، وقد انتهى حبه لها. وهذا هو الأفضل. فعلى كل شيء فـ”أنينهاز“ أصغر سناً، وأكثر نضارة، وأكثر حبا. ولو كانت ”جينوفيفا“ غيورة، فسيكون ذلك أفضل بكثير. دعها تعاني!

إنه لم يرجع إلى بيت ”جينوفيفا“. فكان ”بوليكاربو“ مقيماً في ”ألمادا“، و”فيتور“ يقيم مع ”أنينهاز“. فهذا هو شهر العسل. حيث كان يستيقظان في تمام الساعة

الثانية بعد الظهر، وتعشيا عدة مرات عند "سيلفا". وفي إحدى الليالي ذهبا إلى مسرح "فارياديس" لمشاهدة ساحرا. وكانت هذه هي المرة الأولى لـ "أنينهاز" التي تذهب فيها إلى المسرح مع "فيتور"، وتقضي طوال فترة ما بعد الظهر مرتدية ملابسها. وقد وصاها "فيتور" بشأن ملابسها، محاولاً محاكاة أناقة "جينوفيفا". فإنها لم تعد تجعل شعرها مكوماً عالياً أو في صفائر. وكانت تضع أوبوبناكس فوق إيشاربها، وترتدي قفازات رمادية اللون مرصعة بلألئ بثمان أزرار. وفي تلك الليلة بفسطانها الحريري الأحمر كالخمر والملائم عليها جسمانياً، وكرافتتها المرصعة بالدانتييل، ووجهها الجميل، كانت تبدو رشيقة وبسيطة جداً، حتى شعر "فيتور" بالفخر للغاية.

ولكن عندما جلس "فيتور" معها في المربع أصبح شاحباً كشمع. ففي مربع آخر كان "داماسو" جالساً بكرافته البيضاء وسترته الذيلية، ويبدو مزدهراً ومسروراً ومنفوخاً ومنتصراً. وكان يتحدث مع "جينوفيفا". وكان "فيتور" على وشك أن يتراجع إلى خلف المربع عندما سمرته إشارات "داماسو" الحميمية على كرسيه، وكانت "جينوفيفا" تهز رأسها فقط. وكانت تبدو رائعة في فستان حريري أسود مزين بمخمل مطرز. وكان شعرها على النمط الإنجليزي البسيط حتى تظهر رأسها الرائع الصغير على أفضل وجه. وكانت أذناها مزينتا بلألئ سوداء. وكانت ترتدي حول رقبتها وشاحاً رمادي اللون مرصعاً بالألئ حتى يتطابق مع قفازيها. وكان على ذلك الوشاح قلادة مصنوعة من الفيروز. وكموجة تنفجر عبر السدود، مكتسحة كل شيء

أمامها، اعتاد "فيتور" العاشق على أن يشعر بأن قلبه ممتلأ مجدداً، طاغياً عليه. ففي البداية كان يحدق النظر فقط كعمتوه، والمسرح، والأضواء الخافتة، وجدران المربعات الخضراء كالطحلب، وكل شيء أصبح ضبابياً. لكن سلوك "جينوفيفا"، والطريقة التي كانت تضحك بها مع "داماسو" أغاظته جداً، حتى أنه مال نحو "أنينهاز"، يهمس بلا أشياء جميلة، ويضحك بصوت عالٍ، جاراً كرسيه بالقرب منها.

ولم تستطع "أنينهاز" أن تقلع عينيها عن "جينوفيفا"، حيث أرادت أن تعرف من هي. وكانت تتأملها من خلال منظار الأوبرا الخاص بها، مقلدة بصورة فطرية بعض تظاهرات "جينوفيفا". واستمر "فيتور" في التظاهر بسلوك حميمية موسعة مع "أنينهاز"، لكن "جينوفيفا" لم تنظر إليه مرة أخرى بوجه كالح. فأصبح "فيتور" يائساً. فعدم مبالاتها زادته مرارة. فبدأ أن يكون فظاً بعض الشيء مع "أنينهاز". ولم يسمع الممثلين في المسرح وهم يلهون الناس بتعليقات لاذعة. وكان جالساً في خلف المربع، ولم يستطع أن يقلع عينيه عن "جينوفيفا". حتى لاحظت "أنينهاز" ذلك. فأصبح وجهها شاحباً، وسألته لماذا يحدق النظر إلى هذه المرأة؟

"أنا؟، ما الأهمية الممكنة التي من الممكن أن تكون لها بالنسبة لي؟، فإنه يمكنني أن أنظر إلى كل من أريده، أليس كذلك؟"

فلمعتا عينا "أنينهاز"، حتى أنها كرهت "جينوفيفا" في ذلك الوقت.

لكن لم تنظر "جينوفيفا" حالتهما بعد. ومن ناحية أخرى كان "داماسو" ينتهز كل فرصة ليظهر

لـ"فيتور" مدى قربيه من "جينوفيفا"، ومدى سعادتهما. فكان يصطنع ادعاءات منتصرة، وكان يبرم شاربه بفخر، ويهز كتفيه مشفقاً كلما يخرج أحد الممثلين في المسرح عن نصح.

وفي نهاية المشهد الثاني لاحظ "فيتور" "جينوفيفا" واقفة، ورأى "داماسو" يساعدها في رداؤها. إنه كان نفس الرداء الذي قد رآه عليها في مسرح "ترينداد". وكان هناك ألف ذكرى تاركة أثرها عليه. فشعر بميل إلى أن يلقي نفسه عند قدميها، ويتوسل إليها أن تتحدث معه أو تنظر إليه. ثم التقط قبعته، وأسرع إلى داخل الممر. ووصل إلى الباب في الوقت المناسب ليرى "جينوفيفا" داخلة إلى العربة بحركة تكشف عن طبقات تنورتها الداخلية البيضاء. وأغلق "داماسو" باب العربة بقوة، معتذراً بنفسه، وأشار إليه إشارة مشفقة.

ثم عاد "فيتور" إلى المربع بغیظ في قلبه. وأراد أن يحترق المسرح بأكمله إلى الأساس، وأن يتحطم العالم إلى أجزاء. وجلس مرة أخرى بجانب "أنينهاز"، ولم يقلع عينيه عن المربع الخالي المقابل. فحيث كانت "جينوفيفا" جالسة، فلا بد أن يكون عطرها مازال باقياً. ولم يستطع "فيتور" أن يذرف الدموع المتراكمة، غامراً قلبه.

الفصل السابع

لم يرجع "فيتور" إلى بيت "جينوفيفا"، فبدلاً من ذلك بدأ يعود من جديد إلى طريقة حياته القديمة. فأصبح أكثر مواظبة على الذهاب إلى المكتب، وكان زائراً معتاداً لشقة "أنينهاز". وكان يذهب لتنزهه المعتاد عبر "شيامو"، وبين الحين والآخر كان يقف حزيناً عند مدخل "كازا هافانيزا". لكن كل تصرفاته وكلامه، وحتى الطريق الذي كان يسلكه، كان بها لا مبالاة مملة حزينة لحركة ميكانيكية. وقد أصبحت صورة "جينوفيفا" جزءاً لا يتجزأ من عقله، فلا يستطيع شيء أن يمحو كل ما اضطرت الحياة إلى تقديمه. فبمجرد ما كان يستيقظ، أو ينظر إلى الكتاب الذي يقرأه، أو ينهي حديثاً، كانت هذه الفكرة ترتفع بروحه على الفور. فإنه يبتكر أحاديث فردية، ويتخيل ما سيقوله لها لو التقيا، ويخلق محادثات مؤلمة، وتغيرات ذكية للتعبير..... ولم يكن لكل هذا الجهد سوى نهاية واحدة: أن يمتلكها.

وأحياناً ما يكون "فيتور" مأسوراً برغبة مفاجئة ليسرع إلى بيتها ويراها، لكنه كان مقيداً بكبرياء وخجل وخشية من عدم مبالاتها. ولكن بدت له الحياة غير مقبولة بدون البرهانات العاطفية التي قد أظهرتها له، والتي كانت الشيء الأجل الذي قد عرفه على الإطلاق، وإثباتاً لذاته.

ويؤس "فيتور" تقريباً من عدم قدرته على استئصال هذه الفكرة من الدوران بعقله، حيث قد تثبتت كطفيل، في أعماق وأكثر الطيات التي يتعذر الوصول إليها. فكانت تقود روحه وجسمه.

وبدت لا مبالاتها له كجريمة. فلا كلمة، ولا دعوة واحدة، ولا شيء!، فإنه كما لو كانت قد ماتت. فلم

يرها مرة أخرى في الشارع أو في المسرح. وقد مر
ببيتها مرتين. وكانت الشبايبك مفتوحة، وبدا المكان
مسكوناً. فماذا تفعل، وكيف تجتاز الوقت، وفيم تفكر؟
و ذات صباح كان "فيتور" يرتدي ملابسه ليذهب
إلى المكتب عندما انفتح باب حجرة نومه، ودخل
"كاميلوكيراو". وألقى قبعته على كرسي، وجلس على
سرير "فيتور". وبدأ يتناقش في خططه عن اللوحة
الفنية لـ "جينوفيفا".

فقال "فيتور": "هل قد فكرت فيها مرة أخرى؟"

"بالطبع، فلم أكن أفكر في شيء آخر سواها!"

ثم بدأ يخطو بأرجاء الحجرة، مفسراً أحدث
نظرياته. ففن رسم الأشخاص يعد أكثر الفنون سمواً
وعمقاً وإفادة. إنه سيهجر تصميم الديكور، والذي كان
على أية حال مضاداً لمزاجه (فهو يعتبر رسم المناظر
الطبيعية أنها حرفة صبيانية)، وسيكرس نفسه لرسم
لوحات فنية للأشخاص.

"في الفن الحديث ليس هناك شيء يُقارن به. فعلى
كل شيء ما هما الفرعان الأساسيان للرسم، الفرعان
الأكثر سمواً ورفعة وضرورة؟ الرسم التاريخي، وفن
رسم الأشخاص. لكن ماذا يمكن أن يكون أكثر سخافة
من الرسم التاريخي؟ فحتى أعظم فنان لن يمكنه إنتاج
شيء منه سوى عرض لأزياء وأسلحة. فلن يمكنه رسم
شخص، بطل، فيلسوف لأن ملامح الوجه ليست هي
كل شيء، فإنك تحتاج إلى معرفة الشخص جيداً. دعنا
نفترض إنني أريد أن أرسم "شارلمان". ماذا أعرف
عن "شارلمان"، عن أفكاره، أحزانه، شجاعته....
فلو كان لديه أي..... أهواءه، وأهواله، باختصار،
حول كل الأشياء التي تشكل شخصاً؟، إنني أعرف

بعضاً من الحقائق التاريخية في ذلك الوقت: إنه كان ذا
 لحية بيضاء، وكان يلعب شطرنج مع رئيس الأساقفة
 "تثربين"، وكان يستطيع مشاهدة البحيرة في "إكس
 تشابيل" ساعة تلو الأخرى مفتوناً بها. رائع. لكن
 أيمكنني استخدام هذه الحقائق لرسم "شارلمان"؟ لا،
 إنه يمكنني رسم رجل عجوز كبير بدقة عظيمة من
 الأسلوب الفني، وصولاً إلى الدرع والأسلحة، لكنه
 سيكون تمثالاً، مظهراً لفارس، وليس "شارلمان". هذا
 هو السبب في أن الرسم التاريخي يعد سخيلاً جداً.
 فإنه لا يمكن أبداً أن يكون هذا شيئاً أكثر من معرضاً
 أثرياً لأزياء أو أسلحة أو مشاعل. فروح الشخص
 الذي لا نعرفه، والذي به لن يكون لدينا شيء مشترك،
 والمعزولين عنه بقرون من الزمان، يظل بعيداً عن
 متناولنا: إن كل هذا تخمين.

انظر الآن إلى اللوحة الفنية. ماذا نرسم؟ رجالاً
 مثلنا، بأفكار ومشاعر مماثلة، يأكلون ما نأكله،
 وينتمون إلى نفس السلالة كما نحن. فإننا نضطر فقط
 إلى مناقشتهم لكي نعرف المزيد عنهم. فإننا نعرف
 عن حياتهم وأعمالهم وتاريخهم العائلي وعيوبهم. إن
 كل هذا سيكون أماناً، كاشفين لنا ما يشعرون به:
 عيونهم، ابتسامتهم، لفتاتهم، درجة لون بشرتهم.

لاحظ الآن أهمية هذا العمل: من خلال اللوحة الفنية
 التي يورثها الفنان لمعاصريه من مؤرخي المستقبل،
 مستكملاً بملامح الوجه والشخصية. فلكي نرسم لوحة
 فنية لشخص لا بد من كتابة التاريخ، وهناك التاريخ
 الموثوق والأكثر فائدة.

ماذا سيورث الرجال العظماء إلى المستقبل؟
 كتبهم، وخطبهم، وأعمالهم، لكن لن يكشف الشخص

عن نفسه تماماً بأفعال وأقوال. فإنه دائماً ما يتخذ بعض التكلف، وبعض العرف، وبعض التحفظ، وقدراً عظيماً من التكتّم. فلن يكشف الشخص أبداً عن نفسه بشكل كامل من خلال عمله. حينئذ نأتي نحن الفنانون حاملين فرشنا، ونأخذ ملامح وجه الشخص المشهور، ونضعها على لوحة قماشية. وهذه الصورة التي تصف بضربات فرشاة طبع وشخصية وعيوب الشخص، تمد مؤرخي المستقبل بتعليق عليها وتوضيحاً لهذا الشخص.

فكر إذن في كل الأشخاص المهمين الذين لم يتركوا وراءهم كتباً أو خطباً، والذين مع ذلك يشكلون التاريخ الشخصي أو الاجتماعي للقرن: ملوك، ومصرفيون، وعاهرات، ومجرمون، وثوار.

هؤلاء الناس سيكونون غامضين بدون لوحات فنية لهم، وهكذا الأمر بالنسبة للعصر الذي كانوا يعيشون فيه. فاللوحات الفنية للأشخاص تمد بمعرض رسوم حديثة، والذي فيه يستطيع مؤرخو المستقبل أن يجدوا في ملامح الوجه توضيحاً لسلوكيات الشخص. انظر إلى "ميشيل". ما الذي يجعل تاريخه هاماً جداً، ولماذا به هذا الشعور لشيء ما يعيش ويتحرك ويشعر ويُعاد إحياءه، شيء ما يتحدث إلينا مباشرة؟ هذا لأنه يفسر أشخاصاً من خلال لوحات فنية لهم: فإنه يتأملهم، وفي ملامحهم يجد روحهم ونواياهم ومشاعرهم. إن فهم القرن السادس عشر، وعصر النهضة الإيطالية أمراً شبه مستحيل بدون اللوحات الفنية لأولئك الباباوات الوثنيين، أو بدون مواضيع مغرورة وقوية لـ"تيتيان"، أو بدون لوحات فنية لعذارى داخرة عمداً لـ"تينتوريتو". فكيف يمكننا

فهم "فلاندرز" الحساس السمين لو لم يكن هذا بسبب تلك اللوحات الفنية لأبطال سمناء أو لبرجوازية كريمة لـ "أنتويرب"؟، ويعد "فيلازكويز" هو أفضل مؤرخي "أسبانيا"، ومحكمتها الأبية الصوفية الملتزمة بالآداب. فما أفضل من اللوحات الفنية لـ "أتو"، والتي تفسر القرن الثامن عشر الفلسفي الوقح التافه؟، فماذا ينبغي على الرسم الحديث أن يعرضه للشرح؟، ألم تمد لوحات فنية لمعاصرينا بوجوههم المعذبة القلقة، والمعذبة بالشك وحبهم للخلق، بلوحة فنية لعصر النهضة هذا؟ إنني أعرف ما أفكر فيه. إنني سأصور تاريخ القرن التاسع عشر لـ "البرتغال". فعندما قد قمت بعمل خمسين لوحة قماشية لرجال وسيدات بوجوههم الحمقاء المنفوخة، وعيونهم المعكرة المذعورة، وفي شكل محبط وضعيف، كنت أشرح أفضل بكثير من أية دراسة أو من تاريخ عقم الدستورية البرتغالية".

وبينما كان "كاميلو" يتحدث، كان "فيتور" يفكر في شيء واحد فقط: إن فكرة اللوحة الفنية ستكون طريقة ليرى "جينوفيفا" مرة أخرى. وبمجرد ما توقف "كاميلو" للتنفس، قال "فيتور":

"إذن أنك تعتقد أن اللوحة الفنية لـ "جينوفيفا" ربما....."

"إنني أطلب هذه اللوحة الفنية. فإنني في حاجة ملحة إليها. فأنا أريد أن أبدأ في سلسلة لوحاتي الفنية للأشخاص على الفور. هل هي عاهرة، مغامرة، عاطفية، شهوانية؟ فحسناً إذن، إنها هامة. فإنني سأستخدمها لتجسيد هذا العصر من الدعارة والفجور العالمي، والذي يمكن أن تُشتري وتُباع فيه ملذات جسدية، بالتراهن مع العواطف. إنني سأظهرها

كتجسيد للواقع العظيم لحياة معاصرة: دعارة. وقبل أيام كانت فكرتي سخيصة وتافهة على الإطلاق.....“ واستمر يصف بالضبط كيف سيشكل ”جينوفيفا“: إنها ستكون مستلقية على أريكة في مخدع، محاطة بجميع تحف الرفاهية والتفاهة، وخلاصة من كل شيء، والذي ينتج ويغذي ويثير الوعي الحديث: فعلى البيانو موسيقى لـ”أوفنباخ“، وكتب لـ”دوماس فلس“ و”بودلير“ مبعثرة بأرجاء أرضية الحجرة، وتحت كأس من اليشب كومة من أوراق نقدية بريطانية، وعلى الكرسي كومة من جرائد رسمية قضائية، تظهر تفاصيل من مناقشات قضائية. وهناك ستكون ”هي“ على أريكة، مضاءة بإضاءة بسيطة جافة، مع نظرة جلييلة في عينها، وعلى شفيتها أنانية لمراب. فقال وهو ينقر على رأسه: ”إنها ستكون أعظم أعمالى. كل هذا هنا!“. ”فالرسم هو قدرى المجد. لكن لابد لى أن أبدأ الآن. متى تريد ”هى“ أن تبدأ؟“ فقال ”فيتور“ أنه ينبغي عليه أن يتحدث إليها ليرتب ميعاداً ومكاناً.

”إن الإضاءة فى الأستوديو الخاص بى ليست جيدة إلى حد بعيد كما تعلم. لكنها ليست مسألة الإضاءة. فعلى العكس من ذلك فإننى أريد إضاءة حديثة متمدنة متحضرة متردية ناشرة، إضاءة لعشوائيات وبيوت مزدحمة. إننى سأبتكر إضاءة حتى أجد درجة الضوء المناسبة لألقى الضوء على هذه الظاهرة الحديثة. إنها ستكون إضاءة القرن. إذن، فى الأستوديو الخاص بى.“

ثم التقط قبعته.

”انتظر، إلى أين تذهب؟“

”إنني في حاجة إلى التنزه، إلى التجول لكي أستطيع دراسة هذه الفكرة الخاصة بي. متى ستحدث إليها؟“

”حسناً، إنني لست متأكداً.....“

”لابد لك أن تفعل ذلك اليوم!، فإننا نتحدث هنا عن فكرة عظيمة بحق، عن نهضة الفن في ”البرتغال“، عن المصلحة العامة. إنه ليس لدينا من وقت لنضيعه.“

فتردد ”فيتور“. إنه كان مسروراً، لكنه كان في حاجة إلى أن يُعطى مزيداً من الأسباب حتى يذهب إلى بيت ”جينوفيفا“.

”إنه يجب عليّ أن أذهب إلى المكتب.“

”انسى ما بشأن المكتب!، محامون، هه، لا تتحدث معي بشأن المحامين..... فالمحامي ببلاغته المضطربة هو الكارثة الحقيقية لهذا القرن الذكي المطول!، فأولئك الرجال التافهون، الطموحون، الحكماء، والممتثلون بتعبيرات شائعة هم جوهر الدستورية. ليذهب المكتب إلى الجحيم اليوم..... اذهب وانظر تلك السيدة!“

وكان على وشك المغادرة، لكن برويته نقشاً لـ”قبلة يهوذا“ بواسطة ”أرى شيفر“ عند أسفل سرير ”فيتور“، توقف، وباحتقار هائل قال:

”يا لها من سخافة: ”قبلة يهوذا!“، إن الصورة التقليدية لـ”المسيح“ وهو بلحية ممشطة بعناية، وشعره مفروق بأناقة، سيجعل أي شخص يعتقد أن ”المخلص يسوع المسيح“ قد أتى مباشرة من عند الحلاق. فذات يوم سأرسم ”المسيح“ بالشكل البائس المرعب الذي لابد له أنه كان به، مرتدياً عمامة سورية على رأسه، وذات بشرة جميلة صفراء. إنه سيكون غير حالق، وذات عينيّن جامحتين للبصيرة، ومكتوباً برمال الصحراء،

ووجهه نحيل، مدبوغ، مسود، محروق“.
وبعدما هز قبضته في النقش بصمت، أضاف قائلاً:
”ليس هناك من أفكار وراءها. ليس بها من
رمزية. دعنا نفترض أن فكرة الكاثوليك عن ”المسيح“
صحيحة. فكيف ينبغي علينا أن نرسمه؟“
”حسناً، ممتلاً بالمثالية والجمال“.

فانفجر ”كاميلو“ قائلاً: ”لا“. ”أي شخص قد أخذ
على عاتقه كل علل البشر، وذل الحياة، فلا بد أن يكون
شكلاً كريهاً ومخيفاً. نعم، ذات يوم سأرسم ”المسيح“.
فلا بد لنا من مكافحة الرأي التقليدي للمسيحيين. والآن
اذهب وانظر تلك السيدة!“
ثم غادر.

وكان ”فيتور“ في حالة من الحماس المرتفع. فلدیه
الآن سبب مُلح، ومقبول، ويمكن تبريره ليعود إلى
بيت ”جينوفيفا“. لكن كبرياءه أو ربما خجله منعه،
ثم خطر في باله أنه من الممكن للوحة الفنية هذه أن
تصنع ثروة ”كاميلو“. وتذكر كيف أن ”كاميلو“ لديه
قليل من المال، وكيف أن ذلك الرجل الفقير مضطر
إلى رسم ديكورات للمسرح من أجل لقمة العيش.
فكيف يمكنه رفض المساهمة في ثروته وشهرته
المحتملة؟، وكرجل ذكي، هل لديه الحق في منع
مشروع فني عظيم كهذا؟، ألا ينبغي عليه أن يذهب
ويقنع ”جينوفيفا“ برسم لوحة فنية لها؟

وبينما كان يؤكد إلى نفسه أنه يقدم هذه التضحية
من أجل ”كاميلو“، كان في داخله مهتزاً من الفرح
لمنحه هذه الحجة ليرى ”جينوفيفا“ مرة أخرى.
فارتدى ”فيتور“ ملابسه بعناية، ونزل إلى ”كازا
هافانيزا“. وفي تمام الساعة الواحدة كان يطرق على

باب بيت "جينوفيفا". واستطاع أن يسمع شخصاً ما يعزف على البيانو. وارتبك جداً لرؤيته لـ "داماسو" جالساً على كرسي ذو ذراعين، وكان يدخن. وكانت "جينوفيفا" تغني أغنية شعبية، وترافقها الأنسة "سارة" على البيانو. وكان يعد ذلك المشهد مشهداً لأسرة سعيدة، وراحة زوجية. ولم تقف "جينوفيفا" في البداية، حيث انتهت من الأغنية ولم تستدير إليه. ثم صمت البيانو، وأتت "جينوفيفا" لمصافحة "فيتور". وكان ذلك الأمر بالنسبة لـ "داماسو" كما لو كان "فيتور" هو رب البيت، ولا زال جالساً على الأريكة.

"إننا كنا نعتقد أنك قد مت. وكنا نقول أن أقل ما كان يمكنهم القيام به هو إرسال دعوة لحضور الجنازة. وعلى أية حال قد افتقدناك". والضمير "نا" هذا، والذي به درجت "داماسو" بشكل زوجي، والذي قيل بنبرة موسيقية هادئة لامعة، ما كان به إلا أنه عذب "فيتور".

فتمتم بشيء ما حول أن كان مشغولاً جداً. فقالت "جينوفيفا": "إنني أرجو"، "ألا يكون الأمر متعلقاً بتلك الشابة"، ثم استدارت إلى "داماسو"، وقالت: "ما هو اسمها يا عزيزي؟"

فقال "داماسو" بابتسامة متكلفة: "أنيهاز تينديرا". فوضعت "جينوفيفا" إصبعيها على شفثيها لتمنع ضحكة.

"آه، نعم، "أنيهاز" البقالة. إنني أفترض، كما يوحي اسمها، أنها مفتوحة للحب على مدار الساعة. فأرجو أن تطلقك ساعتين من الزمن يومياً على الأقل. فالحب أكثر من اللازم من الممكن أن يكون خطراً

جداً. فإنك بالتأكيد أقل ثرثرة مما اعتدت على أن تكون عليه، ولا بد أن كل هذا الحب سيبيليك“.

وكان ”داماسو“ يحرك إحدى ساقيه إلى أعلى وإلى أسفل، بادياً أنه متفوق جداً، حيث أن هذا العرض من السخرية من جانب عشيقته، والذي يستهدف عشيق ”أنينهاز تينديرا“، ملأه بالفرحة.

وحينئذ التفتت ”جينوفيفا“ إلى الوراء، وتشاءبت قليلاً، ثم قالت:

”وعلى كل شيء لا بد لي أن أقول أن عشيقتك ”أنينهاز“ جميلة جداً. لكن يا صديقي لا بد لك حقاً أن تخبرها ألا تجعل شعرها يمثل ذلك الشكل، فإنها تبدو كما لو كانت لديها بطيخة فوق رأسها“.

فضحك ”داماسو“ بصوت عالٍ. ”وذلك الكاب القرمزي اللون الذي كانت ترتديه. حقاً إنه مبهرج جداً. وأنها تتلمل إلى حد بعيد، فسيعتقد أي أحد أن بها براغيث!“ أما ”داماسو“ فكان في هذه اللحظة يتلوى من الضحك.

فشعر ”فيتور“ أن الدم يندفع إلى رأسه. وكانت يدها ترتعشا. فقال بنبرة جارحة للشعور: ”إن الفتاة المسكينة لم تخرج من ”لشبونة“ أبداً. ولا يستطيع الجميع أن يجوب العالم لـ“المغامرة““.

فأصبح وجه ”جينوفيفا“ شاحباً. ”أوه، لذلك فهي دائماً ما تكون ملتصقة بصخرتها الصغيرة، أليس كذلك؟، ربما ينبغي علينا أن ندعوها بـ“أنينهاز البرنقيل““.

”برنقيل أفضل من طائر طريق“.

فاتخذ ”داماسو“ على الفور مظهراً فظاً غاضباً،

والتفت إلى "جينوفيفا" بإبتسامة غبية متصلبة على وجهه، ثم قال:

"يبدو أن صديقنا اليوم بحالة مزاجية متكبرة إلى حد ما".

فابتسم "فيتور"، وأبدى سبب زيارته. فأخبرهما ما بشأن اللوحة الفنية. وبمجرد ما سمع "داماسو" أن الفنان المسئول هو "كاميلوكيراو" أكد بشكل موثوق أنه شخص "عديم الفائدة".

فاشتد غضب "فيتور"، وبدأ يتحدث عن عبقرية "كاميلو"، ووصف خطته الطموحة، والدراسات التي قد قام بها. فالجميع في "لشبونة" يعلقون آمالاً عظيمة عليه. إنه يمكن فقط للشخص الذي لا يعرف شيئاً مطلقاً عن أمور العقل أن يفشل في إدراك المكانة التي يحتلها "كاميلو" في الفن البرتغالي. فإنه ناقد كبير، ورسام عظيم، وذو قلب كبير.

فغمغم "داماسو" مهزوما قائلاً: "إن هذا الرجل مجرد زنبور".

فتساءل "فيتور" باحتقار قائلاً: "وماذا تعرف أنت عن ذلك؟"، ثم استدار إلى "جينوفيفا" قائلاً:

"إن ذلك الرجل عبقري. فلديه الحساسية المتقدمة للفنان العظيم بقدر ما لدى "ديلاكروا". فاللوحة الفنية التي سيرسمها لك ستكون عملاً عظيماً، نقداً حارقاً للمذهب الكاثوليكي".

وتفلسف مستشهداً بشتى معجبي "كاميلو"، ومقتبساً عبارات الثناء للسيد "فرناندو". وجمال أشياء، مشيراً إلى "كونستابل"، و"آرى شيفر"، و"ديكامبس"، و"مايسونير"، و"كارولوس دوران"، ساحقاً "داماسو" تحت وزن من حشو أدبي يخرجه ويخزيه.

”ما رأيك في لوحته ”الحانة“؟ فالجميع يقرون أنها تمثل ثورة في الفن“.

هذه كانت لوحة قماشية قد رسمها ”كاميلو“، والتي قد كتب عنها بعض أصدقاء في منشور. لكن ”داماسو“، والذي لم يرى اللوحة الفنية ”الحانة“ أبداً، قال بانفعال:

”حسناً، بصراحة أنا لا أحبها“.

”لكن لماذا؟، ماذا عن الفكرة ورائها؟ فالعمل مليء بملامح ملحوظة بدقة. وموهبة الرسام موهبة إبداعية. وماذا عن الإضاءة، الإضاءة الشفافة الرائعة التي تعيش فيها الشخصيات؟، والألوان الحميمة اللامعة الصافية“، ولتفعيل جيد قال: ”إن الألوان تستحق الفلمنكية، ودرجة ماجستير تدل على الخبرة“.

فحل صمت ذليل على ”داماسو“. وقد كانت ”جينوفيفا“ تتابع كلام ”فيتور“ بشوق. فظلت تحرك رأسها موافقة، وعيناها مصوبتان نحوه. وكان كلامه يقع على روحها، جالباً معه نوبة من الأحاسيس. وأخيراً قالت:

”حسناً، لو أنه حقاً فنان رائع كما تقول، فستكون مجاملة لي أنه يريد أن يرسم لي لوحة فنية“.

فأخبرها ”فيتور“ على الفور بخطة ”كاميلو“، خامداً بعض الجوانب، حيث ركز بدلاً من ذلك على المخدع الحريري، والأريكة، والسترة القصيرة، وكتفها العاريين.....

فقالت ”جينوفيفا“: ”هذا بالضبط ما كان في ذهني“.

فانفجر ”داماسو“ قائلاً:

”سيدتي العزيزة، لو تريدين أن يرسم لك لوحة فنية، فدعيني أقدمك إلى ”سبانيارد“ والذي قد رسم جميع

الأشخاص المعروفين بـ"لشبونة". إنها ستستغرق منه أسبوعين فقط. ويعد مدى التشابه مع الأصل استثنائياً تماماً.

فوقف "فيتور" على قدميه، وبسط ذراعيه على مدهما، ثم قال إلى "جينوفيفا":

"لو هذا هو رأيك، فليس لدي شيء أكثر لأقوله. فأخبري "سبانيارد" أن يأتي".

فوقفت "جينوفيفا" أيضاً وقالت:

"لا، لا، إنها فكرة غبية!"

فكان "داماسو" على وشك التحدث، لكن "جينوفيفا" قاطعته بتكبر قائلة:

"من الذي ستأخذني له؟ أتظن إنني أريد أن أرسم بواسطة فنان ما يتنقل من مكان لآخر، ويبيع لوحات بالدسته؟"

فاحتج "داماسو" قائلاً: "إنه حقاً جيداً إلى أبعد حد!، "ورخيص جداً".

فقال "فيتور" بمظهر منتصر:

"أوه، حسناً. لو كان الأمر يتعلق بمسألة المال، فلا حاجة للقلق. فـ"كاميلو" لن يذكر حتى مسألة المال. فإنه يريد أن يخلق عملاً فنياً. فقد كان غير قادراً على إيجاد نموذج في "لشبونة" جدير بما يكفي ليعمل عليه، حتى رأى "جينوفيفا" وصدّم جداً بجمالها وطلعتها، لدرجة أنه أراد رسمها على الفور. فهو يأمل أن ينتج شيئاً ما رائعاً بحق. لكنه لا يهتم بالمال على الإطلاق".

وكان صدر "جينوفيفا" يرتفع وينخفض.

"غداً احضره ليراني، حتى يمكننا أن نتعرف".

فقال "داماسو" مصدوماً: "هنا؟"

فصوبت "جينوفيفا" نحوه نظرة ثاقبة كهزيمة في مبارزة بالسيف.

"ما المشكلة في هذا؟"

فتذوق "فيتور" لذة انتصاره، وعلق بسخرية: "إنني لا أريد أن فكرتي تعكر سعادتكما بأي شكل من الأشكال. دعونا لا نقل أكثر من هذا".

لكن "جينوفيفا" كانت ترتعش من الهياج. "لا، أنا أريد مقابلته. احضر الرجل إلى هنا في تمام الساعة الثانية غداً". وأحنت رأسها احتراماً.

فغادر "فيتور"، وهو يقول إلى "داماسو": "إذن أراك غداً".

فأشار "داماسو" إليه بشكل هزيل، ثم سار بأرجاء الحجرة، نافخاً خديه، ويداه في جيبه. وبمجرد ما سمع صوت إغلاق الباب الخارجي، استدار إلى "جينوفيفا" قائلاً:

"ماذا تقصدين بمعاملتي بمثل هذه المعاملة يا "جينوفيفا"؟"

فردت بفضاظة قائلة:

"انظر، لا تزعجني، فأعصابي متوترة".

إن فضاظتها، والشحوب المفاجئ لوجهها أُنذرتا "داماسو".

"لكن ماذا ارتكبت من خطأ؟"

فقفزت على قدميها.

"كيف استطعت أن تدع ذلك الرجل يفلت من العقاب لتسميتي بـ"طائر طريق"؟، كيف سمحت له في حضوري بمعاملتك كمعتوه؟، لماذا أخرجت سلسلة من تعليقات سخيفة معنوية؟، إنه يمكنني تحمل

جميع أنواع هذه الأشياء في رجل كبر السن، الشر، العنف، إدمان الخمر، التشاؤم، القسوة لكن الشيء الوحيد الذي لا أستطيع احتماله في رجل هو الغباء!“ فتجمد ”داماسو“، ووقف ساكناً تماماً. وكان يبدو شاحباً جداً، ويرمش كشخص ما قد استيقظ للتو. وشعر بطنين في أذنيه، ولم يستطع التفكير في أي شيء، لا في فكرة أو كلمة أو تعليق واحد. فقالت، وقد زاد مللها من جموده: ”مع السلامة.“

”أطرديني؟“

فأشارت ”جينوفيفا“ إشارة نافذة الصبر بوجه كالح. ”نعم، إنني. إنني مريضة بوجهك، بشخصيتك، بصوتك الخشن..... بك. مع السلامة.“

وقرقت بيديها.

”يا لحماقة قد كنت بها!“

فالتقط قبعته، وغادر، وهو شبه كاظم للغیظ. وعلى مدار ساعتين من الزمن كانت ”جينوفيفا“ تخطو بأرجاء حجرة نومها في حالة مرتفعة من الهياج. حيث كرهت ”داماسو“، و”فيتور“، و”نفسها“، و”لشبونة“، والحياة!. وفي هذا المزيج الكامل من الأفكار، أكثر ما كان يضايقها هو عدم مبالاة ”فيتور“، وهدوءه، وذكاءه السريع، ومظهره الشامخ. نعم، إنها كرهته أكثر من أي شيء. إنها فكرت في مغادرة ”لشبونة“، والعودة إلى ”باريس“. لكن لا ينتظرها هناك فقط إلا الديون، وليس لديها مال. خسارة، ففي نوبة من الغیظ قد أساءت إلى ”داماسو“. لكنها حقاً لم تستطع تحمله هو، وسمنته، وأسلوبه الثري، ورجليه السمينتين القصيرتين. وفي النهاية تركزت كل مضايقاتها الغامضة حوله.

وقد كانت تعيش لعدة أيامٍ في حالة من الهياج المستمر. وكان حالها مملوءاً بمصاعب ومشاكل. فكانت تعشق "فيتور" بعاطفة ساحقة متحمسة ذليلة محمومة. فإنها في التاسعة والثلاثين من العمر، ووجدت نفسها مجنونة بحب ولدٍ في الثالثة والعشرين من العمر. وكان هذا الحب مختلفاً عن أي شيء آخر قد شعرت به في أي وقت مضى. فأدركت أنه حتى ذلك الوقت، قد كانت تعرف فقط نزوات، وافتتانات، وهواجس، وأوهام، ورغبات ودوافع حسية. وفجأة على حافة الشيخوخة أصبحت مأخوذة بحب حماسي حتى أصبح مكتملاً ولا يُقاوم. فكانت تحبه بكل انتقاد يمكن أن تجمع روحها، وبكل رغبة في جسدها. وشعرت أنها قادرة على خدمته بنفسها بتفان كأخت في مؤسسة خيرية، أو بلا انقطاع كأم. لكنها أرادت أيضاً أن تلتهمه بمداعبات، بلا خجل كعاهرة.

وقد عرفت رجالاً كانوا أكثر وسامة أو أكثر ذكاءً، ولكن لم يجعلها الجمال الذكري تهتز جداً، ولم يأسرها جداً كلام شخص. حيث كان يعيش داخل مخها كوجود ما استبدادي شاذ، كفيروس. لدرجة أن العاطفة اخترقت لحمها، وأعماق كيائها، ودوران مخها، حتى أصبح لديها تفكير واحد فقط، ورغبة واحدة فقط تسري بدمها هو. وماذا يمكنها أن تفعل؟

فأرادت أن تعيش معه. ولكنها لم تستطع تحمل فكرة انتمائها لرجل آخر بمجرد ما تهب نفسها له. وكجميع العاهرات شكلت فرقاً دقيقاً جداً بين "الرجل" و"الحبيب". بين الرجل الذي يدفع الأوراق النقدية والإيجار، والذي تقدم له المرأة حباً مرتزقاً، وعاطفة مهذبة. وبين الحبيب الذي لا يدفع شيئاً، والذي في

الواقع يتلقى هدايا، والذي تقدم له المرأة أسمى عواطفها، وأكثر شهوانيتها المتقدمة. لكنها لم تستطع حتى تحمل التفكير في "فيتور" بكونه حبيبها فقط.

فلو قدمت نفسها له، فلن تهب نفسها لأي أحد آخر. فإنها أرادت أن تعيش معه، لوحده تماماً، لكن ليس لدى أي منهما ما يكفي من المال لهذا. فإنها استطاعت أن تبيع مجوهراتها، وتؤجر بيتاً صغيراً، وتتنازل عن كل كمالياتها، وتعيش حياة شاقة متوسطة. إنه ربما يقبل هذا. لكن إلى متى؟

إنها في التاسعة والثلاثين من العمر. ربما ستكون جميلة خلال عشر سنوات قادمة، لكن بعد ذلك؟، بعد ذلك سيكرهها، ويقع في الحب مع امرأة ما أخرى، ويتزوج. وحينئذ ماذا سيصبح بشأنها؟ إنها ستترك وحيدة، وفقيرة، وعجوز جداً حتى تبدأ مرة أخرى، وربما تعيش حياة حتى يمكنها العيش.

حتى أنها قد فكرت في قبول هذه الإمكانية. فبمجرد ما تلاحظ في "فيتور" فتور من الشبع التام، فإنها ستدخل الدير، أو ستقتل نفسها. فعلى الأقل تكون قد استمتعت بسنوات قليلة من السعادة المطلقة قبلما ينتهي كل شيء. فإنها ستكرس باقي حياتها للرب، حبيبها الأخير، والذي بتسامحه يقبل كل هذا ملفوفاً بحب..... ومن ناحية أخرى دائماً ما يكون هناك الشيطان. فعلى الرغم من ذلك عرفت أن هذا كله وهم خالص. فإنها تعرف نفسها جيداً. فإنها ليست من السيدات اللاتي يمكنهن قبول طعام الغرف أو الحبس خلف حاجز الدير. وبالتأكيد لن تستطيع أبداً أن تقتل نفسها. وبدأت تبكي بصورة هستيرية كما لو كانت مصابة بصداغ. فإنها تعبد للغاية لحماها المدلل، حتى

قد صنعت من نفسها عبادة شخصية. أتبيد نفسها؟ أبداً. إنها كانت تعرف ماذا سيكون مستقبلها. فلو عاشت معه دائماً، فإن الإشارة الأولى للفتور أو فقدان العاطفة تشير إلى بداية حياة من النزاع والغيرة والغضب. فإنها ستولع بزجاجة النبيذ، وسينتهي أمرها في ملجأ عقلي، عجوز، وفقيرة، وعديمة الفائدة.

هذا الحب قد أتى في أكثر لحظة دقيقة في حياتها. فالحب هو وسيلتها الوحيدة لتصبح غنية. وطالما أنها جميلة، ومع إدراكها للحب، وكفاءتها في المكائد، فما زالت تستطيع العثور على رجل يمكنه أن يعولها فيما بعد، حتى أنه قد يتزوجها. أو مع رجال آخرين، ومائة من "الليبرا" هنا، ومائة من "الليبرا" هناك، يمكنها توفير ما يكفي لاجتيازها الشيخوخة الرومانسية. ولو لم تستطع نسيان "فيتور"، فستضطر إلى العودة إلى "باريس" لكي تحتفظ برأس هادئ، وذكاء حاد، ويد راسخة. هل كانت قادرة على فعل ذلك؟

فتمت، وهي ترفع ذراعيها وتتمطط، ممثلة بالحب والرغبة، قائلة: "لا، لا".

إنها ستقبل أي شيء، صعوبات، فقر، حزن، لكنها لن تتركه. وحتى ذلك الوقت كانت تعيش في عالم من الفراغ، عاشقة إياه، لكن لم تكن مستعدة بعد لتقديم التضحية الأخيرة. فإنها كانت منشغلة في "سلب" "داماسو" بقدر ما يمكنها من سرعة. ففي الآونة الأخيرة يومياً من خلال وسائل من إبداء رفيع صارخ للحب، قد تمكنت من أن تستخرج منه مبالغ مالية ضخمة. وقد بدأت ترى "داماسو" كمنجم ذهب حقيقي، وكانت تستغله بحماسة مراوغة. لكن عندما لم يزرها "فيتور" لمدة أسبوع كامل بعد رحلتها مع

”داماسو“ إلى ”كويلوز“، قد اشتد حبها له. وقد فكرت أنه ليس من الحكمة أن تكتب له، مفضلة بدلاً من ذلك أن تعيظه بمظهر من اللامبالاة المطلقة. لكن حضور ”داماسو“ كان يضايقها أكثر وأكثر مع كل يوم يمر. وأحياناً ما كانت صلصلة جرس الباب تثير أعصابها. فكانت تقول إلى ”ميلاني“: ”إنني أتخيل على الفور يد ”داماسو“ السمينة وهي تشد على زر الجرس“.

ثم عندما رأت ”فيتور“ مع ”أنينهاز“ في مسرح ”فارياديس“، أدركت أنه لا أمل من حبها. فعندما رآته مع امرأة أخرى، بدت هناك غشاوة أمام عينيها، ودوخة سيطرت عليها. ولكن العادة الطويلة من إخفاء المشاعر أنقذتها. ففي ذلك الوقت كانت تنتظر إلى المسرح، وتتأمل الممثلين، وتبتسم إلى ”داماسو“، وتتحدث معه. ولكن عندما وصلت إلى البيت، قد أخبرت ”داماسو“ ألا يدخل، حتى أنها لم تكن بحالة جيدة، وكانت تتفجر في غضب، وحدها في حجرة نومها مع ”ميلاني“. إنها كانت تمزق ملابسها بالفعل، وتبكي، وتكسر كأسين من الكريستال. إنها أرادت حتى أن تذهب إلى بيت ”أنينهاز“، وتقتل هذه المرأة. فكانت جميع أنواع الأفكار السخيفة المجنونة تغلي برأسها. وشربت نصف زجاجة من النبيذ. وبعد ثورة من الغضب الشديد الناجم عن تناول الكحول، وبينما تستطيع ”ميلاني“ كبها بصعوبة، كانت تخذل إلى النوم مخمورة. وفي اليوم التالي كانت تبدو أكبر سناً بكثير، وكانت تشعر بالخل من نفسها، لكن لم تزل غيرتها بعد، وبدأت أنها تتزايد.

وبعد ذلك كانت تنتظر ”فيتور“ يومياً عليه يعود. وكانت تضع خططا، وحتى تقلع عنها فقط كانت

تكتب رسائل، ثم تمزقها، وحينئذ تبكي. لكن كل هذه العواطف كانت كامنة لأن بمخاطرة المساومة برغبات قلبها، كانت في حاجة إلى ضمان مصالح جيوبها. ولذلك قد بدت أمام "داماسو" مبتسمة ولطيفة وهادئة تماماً، وليست شاحبة ومتقدة بالكراهية.

الفصل الثامن

غادر "فيتور" بيت "جينوفيفا" كمغادرة جينرال
لساحة المعركة عند حلول الظلام بإبتهاج بعد
انتصار. وجميع أنواع المشاعر تحتشد به، مقدمة
له تعزية جميلة: فقد كان ذكياً وفصيحا، وقد تظاهر
إلى "جينوفيفا" حتى أنه استطاع أن يرد سخريتها
بشكل ألطف نوعاً ما. وقد أخزي "داماسو"، وسحقه،
وأفحمه.... وقد ضمن الآن كلاً من اللوحة الفنية،
وسبباً لزيارات مقبلة. وقد انتقم لنفسه، وقد أظهر
قوته، وقد اكتسب ميزة استراتيجية. ففكر، وهو يحش
الهواء بعصاه: "أنا "بسمارك" الآخر".

لم تبدُ له الحياة أبداً ممتعة جداً. فشعر أنه ذكي
وقوي بما يكفي لتدبير مزيد من المكائد لينتصر في
حفلات، وينجح بموهبة مطلقة. وكانت هناك موجات
من الطموح تجتاحه. فتخيل نفسه كرجل سياسي.
وعلى كل شيء، لماذا عليه أن يجعل نفسه حقيراً،
ويربط نفسه بإمرأة كهذه؟ فلا بد له أن يعمل، أن
يركز في مهنته، أن يصبح نائباً، وزيراً. واستطاع
أن يتخيل نفسه سائراً عبر "شياو"، ممسكاً بحقيبة
مستندات، أو ماشياً على ممرات الوزارة المفروشة
بالسجاد مع ملف وزاري أسفل إحدى ذراعيه، والذي
سيكون كمه مطرزا بالذهب.

وكان يسير بسرعة حتى اصطدم برجل خارج
مكتب البريد، وكان معطفه مشدوداً عليه بإحكام.

"السيد "جواومارينهو"!"

"سيلفا" صديقي!"

وتراجعا إلى مدخل مكتب البريد، وتحول حديثهما
على الفور إلى "جينوفيفا". فلم يذهب "مارينهو" إلى
بيتها منذ الحفلة الساهرة. وكان محرجاً حقاً بخصوص

ذلك، لكنه لم يكن لديه لحظة لنفسه، ثم بدأ يقول كلمات المديح الرسمية المعتادة له: إنها أكثر إنسانة موقرة، ولا أحداً شريف جداً إلا من يهمه الأمر!، ولو كان الجميع شرفاء، فيا له من عالم ممل!، وضحك على شره الخاص.

”ألا تتفق معي يا ”سيلفا“؟“، ثم واصل حديثه: إنها بالتأكيد بـ”لشبونة“ في غير محلها. إنه ينبغي أن تكون في ”باريس“. فإنها ذات روح ورقة، وهي مضيئة رائعة. وملابسها، ماذا يمكن للشخص أن يقول؟، وهي تعرف أيضاً عن العربات!، فقد سمع حتى ”كورا تير“ يقول..... ”كورا“ العجوز الصالح..... ”مريم المجدلية“ من الفسق“. هذا ما اعتاد على ندائها به. فكان هو الشخص الذي منحها ذلك الاسم. حتى أنه ذات مرة قال هذا إلى أمير ”أورانج“. وسمو الأمير ضحك بالفعل.

وهو نفسه انفجر من الضحك، ضارباً الأرض بقدمه. ثم هدأه مرة أخرى. إنه قد نسى تماماً ما كان يقوله، فأحياناً ما كان يعاني من ضعف في الذاكرة. ”إنه شيء ما عن ”كورا“.“

فصاح قائلاً: ”آه، نعم“. ”كورا“. ”كورا“ قال عنها: إنها ذكية جداً، وأنها برتغالية صغيرة!، إنني أعرفها جيداً. والسيد ”مولينو“ رجل عجوز مضحك..... لكن يا لها من عشاءات!، هذا كان في جميع الأنحاء على الرغم من أن الآن..... ”باريس“ بدون إمبراطورية لا تساوي شيئاً، وهز رأسه بحزن كما لو أنه استطاع أن يرى أنقاض ”فرنسا“ مرسومة أمامه.

لكن ”فيتور“، والمأسور بفكرة فجائية، قال بطريقة غير رسمية:

“مارينهو”، ألدك مانع من أن تتناول العشاء معي بالفندق المركزي؟“

“أيها الشاب العزيز، إنني أحب هذا. إنه يمكن أن يكون لدينا حجرة خاصة. إنه كان لديهم “موتون روتشيلد” لذيذ، ورخيص جداً. ويمكننا أن نطلباً زوجاً من زجاجات..... هل يناسبك الساعة السادسة؟“

“السادسة في “كازا هافانيزا““.

“إلى اللقاء!“

وليس لسبب واضح كان وجه “مارينهو” بأكمله متشنجاً من الضحك. وابتعد، وكان معطفه يرفرف في ظل الرياح.

وفكر “فيتور” في أن العشاء فكرة ممتازة. فلا بد لـ “مارينهو” أن يخبره بكل شيء يعرفه عن “جينوفيفا”، بعدما يتغذى ويسكر جيداً. ومن هنا سيفسر “فيتور” بعض النقاط الغامضة. فسيكون لديه في النهاية فكرة صحيحة عن شخصية هذه “المغامرة”. فأراد أن يعرف عن ماضيها، عن عشاقها، عن ليال “باريس” العاصفة. إنه سيفوز بذكريات “مارينهو” كشخص ما يفوز بغاية ليطرد إليها أرنباً برياً.

وذهب “فيتور” مباشرة إلى شقة “كاميلوكيراو” التي بالدور الرابع ليخبره أن “جينوفيفا” ستنتظرهما في اليوم التالي في تمام الساعة الثانية.

فأثت زوجة “كاميلو” الجميلة، “الأنثى” الخاصة به، لتفتح الباب. واحمرت خجلاً قليلاً عندما رآته. وقالت أن “كاميلو” ليس بالداخل.

“أيمكنني إذن أن أترك له رسالة؟“

فأدخلته “جوانا” إلى الاستوديو. وكان “فيتور” يراقبها أثناء ما كانت تبحث عن القلم والحبر. وكان

ذلك في فصل الشتاء. ولكن إما للعادة، أو للفقر، أو لأنها تحتقر الرفاهية، كانت ترتدي روبا ذو شامبر قديما قدرا فوق قميص نومها، كاشفا عن كل حركة لجسمها الرائع. وكان يبدو بشكل واضح أنها لم تكن مرتدية أية ملابس داخلية، وكان ثدياها يستحقان "أفروديت براكسيتيليس". وكان هناك صمت في هذه الشقة التي بالدور الرابع، وقد فقدت "جوانا" تركيبها القروية الناضرة. وعلى الرغم من أن يديها كانت خشتين وحمراء من العمل العامي، إلا أنه كان هناك جمال تمثالي حول كتفيها ووركها وذراعيها. حيث يستشعر الشخص بالدم الحار الذي يسري أسفل بشرة لبنية ناعمة. وعلى الرغم من ذلك كان أكثر ما أثار "فيتور" هو ذلك الروب ذو الشامبر، والذي كان ملتصقا على جسمها. فعندما كانت تتحرك، كان الروب يكشفها تقريبا كما لو كانت عارية. وبدأت أنها أطول في تلك الحجرة ذات السقف المنخفض. ووسط الانقراض الفنية للوحات، والرسوم التخطيطية، وتمثيل من الجبس، بدت كتمثال حي ترتدي زي طبخة، مع مظهرها الجانبي، ورأسها الروماني المتناسك، وذقنها المتين المستدير، وعينيها المندھشتين الداكنتين، وجلدها الناعم السميك.

فقال "فيتور": "لا داعي للقلق إن لم يكن هناك قلم حبر"، "فإنني سأستخدم قلم رصاص".

فسارت إلى الشباك، وعندما استدارت، رأى "فيتور" أنها تحقق النظر إليه بعينيها الداكنتين الرائعتين. فدق قلبه بشكل أسرع، وكان يهتز بعاصفة من شهوانية وثنية. فالهدوء في الاستوديو، والشيزلونج المنحدر أثارا فيه شهوة بهيمية. وكانت يده ترتعش

بينما كان يكتب.

ثم قال عندما انتهى من كتابة الرسالة: "تمام"،
"إنني سأترك له هذه الرسالة هنا".

فنظرت "جوانا" إلى أسفل. ولم يغادر "فيتور"
بعد. فإنه كان يعقد قفازيه ببطء. وكان شاحبا بعض
الشيء. وشعر بأنه محرج، ومضطرب، محاولا
البحث عن شيء ما ليقوله.

وقال أخيرا: "إنه يوم رائع".
"نعم، إنه كذلك".

وكانت "جوانا" ذا صوت موسيقي ناعم. وبدأ
"فيتور" في تأمل الجدران كما لو كان مهتما بالرسوم
التخطيطية. فاجتاز إلى حامل اللوحات، والذي كان
عليه لوحة لغروب الشمس، وكانت اللوحة مطبقة
بشكل سميك وبطريقة خرقاء، والذي فيها جذع شجرة
هابط بالقرب من كوخ.

فقال، وهو يستدير إليها، ويشير إلى اللوحة
القماشية: "إنها بارعة".

ولم تزل "جوانا" بجوار الشباك، حيث اتضحت
الخطوط العريضة لثدييها الرائعين بالمقابلة مع
الضوء المعتم الضعيف إلى حد ما. وكانت يداها
مشبوكتين أمامها.

واضطر "فيتور" إلى أن يجبر نفسه على ألا
يلمسها، ولا أن يضع يديه عليها. فكان ذلك كالتجاذب
المغناطيسي لجسمها الرائع.

"إنك لن تنسي أن تعطيه الرسالة، أليس كذلك؟"
"لا يا سيد".

ثم بحث "فيتور" عن مذكرته، فقد تركها على
الشيزلونج، لكن لم يستطع العثور عليها. وكان يبحث

في كل ما حوله. وساعدته "جوانا" في البحث. فكان يبحثان عنها سوياً، ولمحاها بين الشيزلونج والحائط. وبينما كان ينحنيان لالتقاطها، مس صدر "فيتور" كتفها برفق. فشعر بحرارة حيوانية شهية على جلده كعناق محكم. وعندما وقفت "جوانا"، أصبح وجهها قرمزيًا. وبدأت أنها خجولة وخائفة، وبدأت عيناها في هذه اللحظة أكثر دكانة.

فمد "فيتور" يده إليها:
 "عمت مساءً يا سيدتي".
 "مع السلامة".

ويدها أمسكت بيد "فيتور"، وكانت خشنة في يده كيد امرأة غسالة.

وخرجاً في الشارع مرة أخرى أخذ "فيتور" نفساً عميقاً. وشعر كما لو كان قد هرب للتو من فرن ممتلأ بجو شهواني بشدة وغير صحي. فتلك المرأة جعلته مضطرباً، ذلك الشكل الذي يتخذه الجو العاصف الخانق. فأقسم ألا يترك نفسه وحده معها أبداً مرة أخرى، لأنه لو فعل ذلك، فلن يستطيع أن يكون مسؤولاً عن تصرفه.

لكن لم يستطع "فيتور" أن ينسَ جمالها الوثني المتين القوي. وفوق كل ذلك كيف أن الاحتكاك بذلك الجسم قد ملأه بإحساس من دفء مسكر شهوي.

"يا الله، يا لها من مخلوقة مروعة!"

ولكن في تمام الساعة السادسة قد نسي كل شيء عنها. وكان يسير برشاقة في شارع "روزماري" مع "مارينهو" في طريقهما إلى الفندق المركزي لتناول العشاء. وبمجرد ما وصلا، استدعى "مارينهو" جرسون الفندق، والذي أجرى معه حواراً عميقاً

سرياً. وفي ذلك الوقت لحق "فيتور" بالمكتبة، حيث كان يتصفح كتاباً لرسوم كاريكاتورية لـ "جافارني".
 "إن قائمة العشاء تبدو شهية، لكن ينبغي لنا أن ننتظر نصف ساعة زمنية"، ثم لاحظ "مارينهو" ما كان يقرأه "فيتور"، فصاح قائلاً: "أوه، إنني أحب "جافارني". إنه ظريف جداً!، وحتى تمر النصف ساعة قبل تناولهما العشاء، اقترح أن يصعدا ليرى صديقاً حميماً له، البارون "ماركشتاين"، الدبلوماسي، حيث كان في الواقع متوَعكاً. وعندما تردد "فيتور"، أضاف قائلاً:

"لا داعي للقلق. إنني سأقدمك له. إنه شخص ممتاز. عميل جيد لي. رجل نبيل إلى أقصى حد".
 ومن التراخي ترك "فيتور" نفسه مجروراً إلى أعلى إلى حجرة الدبلوماسي الزرقاء المبطنه بالحرير. ودخل "البارون" أنيقاً، حيث كان مرتدياً روبا ذو شامبر، يلفه حوله بيده اليسرى، بينما كان يرفع طربوشاً تركياً بيده اليمنى، وانحنى عدة مرات. وكان لديه وشاح حريري أسود اللون حول عنقه، وكان يتقلد تعبيراً غامضاً لكآبة حمقاء على وجهه الهزيل الشاحب. وصافح "البارون" "مارينهو" بحرارة، ودعا "فيتور" أن يجلس. وعرض عليهما سجائر بوجه شاحب. واعتذر موضحاً أنه قد أصيب بنزلة برد يوم الأحد الماضي، وهو عائد من بيت "الماركيز" إلى بيته. حتى أنه قد اضطر إلى خلع ضرسه.

وأعرب "مارينهو" عن عميق أسفه. فأبدى "البارون" تجاهلاً مستسلماً حزيناً. وابتسما كلاهما، وأصدرا ضجة مع بعضهما البعض. ثم أشار "مارينهو"

إلى الرحيل الوشيك كما يقول الناس للسفير الأسباني. فاشتد غضب "البارون"، ووقف على قدميه. وأكد أنه لم يُحسم شيء بعد، لا شيئاً على الإطلاق، حتى يمكن أيضاً أن يحدث شيء من هذا النوع. لكنهما لم يزلَا فقط في هذه المرحلة من النقاش. فإنه لم يستطع أن يؤكد شيئاً، حيث أن هذا سيكون خطيراً جداً. فهناك احتمال لحدوث ذلك، لكن لا بد له أن يمتنع عن إبداء أي رأي ثابت. فإنها مسألة دقيقة للغاية. ولا بد لهما ألا يستخلصا استنتاجات خاطئة من أي شيء يقوله، لأنه لم يعرف أكثر من أي شخص آخر. فإنه يعرف فقط أن هناك احتمالاً لحدوث ذلك، لكن ذلك لا يعني أنه يعرف أي شيء أو أنه قد أخبر بأي شيء، لا شيئاً على الإطلاق. فإنه دائماً ما يكون حذراً جداً حول أشياء كهذه. ورفع إحدى يديه إلى ذقنه، وكشر حتى انحلت التكشيرة إلى ابتسامة.

ثم أراد أن يظهر لـ "مارينهو" أحدث صورة فوتوغرافية قد التقطها لنفسه، فتبخرت إلى داخل حجرة نومه.

فاستدار "مارينهو" إلى "فيتور"، ولف بكرة عينيه كما لو كان يقول: "رجل عظيم، وعميق جداً!" وعاد "البارون" بمجموعة من صورهِ الفوتوغرافية. فإنها تظهره بملابس صباحية، وبزي رسمي، وبزي للنزهة، ومتكأ على عمود مبتور، وبملابس صيد، وأخيراً بتكلف فلسفي يتأمل خريطة، وخده مستنداً على إحدى يديه. ووقف هناك، وأصابه على ذقنه، منتظراً رد فعل "مارينهو".

فقال "مارينهو": "رائع!"

وكشف "البارون" عن أنه قد قدم صورة واحدة

لجلالة الملك. وقد تردد حول القيام بذلك فإنها في نهاية الأمر مسألة دقيقة جداً، وقد خصص لهذا تفكيراً عميقاً. لكن منذ قد سأله الملك يوماً مازحاً لو يمكن أن يكون لديه صورة فوتوغرافية له، قد شعر أنه في إمكانه..... فجلالته، كما يعرف الجميع أنه الكرم في حد ذاته. ففي الواقع لم يتفضل الملك لقبول صورته فقط، فإنه تبادل أيضاً بصورة لنفسه. رجل عظيم. إنه لا يمكنه أن يكون أكثر سعادة منه لو قد أهداه وسام الصليب الأعظم. ليس لأنه كان لديه طموحات في ذلك الاتجاه، حيث أنه لن يريد أن يُساء فهم كلامه..... أوه، لكن الملك كان لطيفاً جداً، فلا يمكن للشخص أن يتخيل ملكاً أكثر لطفاً وبساطة ووداً من ذاك. وعلى الفور قد أبلغ حكومته الخاصة عن الشرف الذي قد فعله الملك معه. لكنه لم يلاق رد فعل، لكنه كان متأكداً من أن هذا سيعطي انطباعاً جيداً. أوه، نعم، انطباعاً جيداً جداً.

ثم استدار إلى "فيتور"، وقال كم أنه يحب "البرتغال". فالمناخ إلهي، والمجتمع مثالي، والناس لطفاء بشكل رائع جداً.....

ثم قدم لـ "مارينهو" صورة من صورته الفوتوغرافية، وزلقها في مظروف، ولحسه بقوة وبإحكام بيروقراطي على الرغم من حالته الصحية السيئة، وسلمه إليه بإنحناء. وعندما همّا كلاهما ليغادرا، اصطحبهما "البارون" إلى الباب، ومازال مُصراً على أنه لم يعرف شيئاً عن انسحاب السفير الأسباني، حتى أنه قد عبر فقط عن رأيه الشخصي، أن "هذه مسألة دقيقة جداً".

وتساءل أين يقيم "فيتور". وأكد أنه نادراً ما كان

يلتقي بشاب ذكي كهذا. وتساءل ما إذا كان سيراه يوم الخميس في بيت رئيس الوزراء، وتحدث قليلاً عن مكانة رئيس الوزراء في جميع أنحاء بقية "أوربا". ثم وقف عند الباب، وانحنى، وتمتم بكلمات وداع.

فقال "مارينهو"، حاملاً الصورة الفوتوغرافية بعناية كما لو كانت القربان المقدس: "رجل عميق جداً".

إنهما استمتعا بعشاء وافر وشهي وطويل. فكان الـ"موتون روتشيلد" ممتازاً.

وبالطبع بدأ يتحدثان عن "جينوفيفا"، لكن "مارينهو" الذي بدا أنه مأسور بالحذر الدبلوماسي المعدي لـ"البارون" حصر نفسه في التعميمات الغامضة. فتحدث أكثر عن السيد "مولينو"، ووصف آراءه السياسية، والقصر الجميل الذي يمتلكه في شارع "اللورد بايرون"، وشهيته الشرهة على المائدة، وجسمه الشيوخوي الكريه، وعيوبه.....

فتساءل "فيتور": "فهل كان لديها أي عشاق طوال هذه المدة؟"، "فهي لم يمكنها أن تكون مقتنعة بذلك الرجل العجوز فقط.....".

فقال "مارينهو"، وهو يقهقه من الضحك: "أوه، إنه ربما قد كان عجوزاً"، "لكنه كان لديه الكثير من الخبرة وقدرات عظيمة....."، وقصد بهذا أن معرفة الرجل العجوز بالفسق عوضته عن فقدان الشباب.

وبكى "مارينهو" تقريباً عندما دخل السفرجي حاملاً "طائر الحجل". وتحقق ليرى الشريحة الصغيرة من "جين الروكفورت" تلك التي قد خصصها هناك. وعندما رأى أنها هي، تفجرتا عيناه، ونظر إلى السفرجي وإلى "فيتور" بشكر لطيف.

وزود نفسه من الطعام بسخاء، وملاً كأسه، متأكداً من أنه لديه السكين الأفضل وما يكفي من الخبز، وأن الشباك مغلق تماماً، وأن ضوء الغاز يعمل. وبعد ذلك في سلام مع العالم هجم على طائر الحجل، وقال إلى "فيتور":

"إنني لست الشخص الذي يتفوه بكلام بذيء عن أي أحد. وكما تعلم إنني لست تماماً. إنني أرى، وأسمع، ولا أقل شيئاً. هذه هي فلسفتي". وتلوى في مقعده كما لو كان شخص ما يدغده، وقال مرة أخرى:

"هذه هي فلسفتي. لكن الحقيقة هي أنه بينما كان "مولينو" العجوز المسكين علي قيد الحياة، كان هناك شاب واحد حسن المظهر جداً، يُدعى "ريشانتراي". وكان زائراً معتاداً للبيت. ليس لإنني رأيت أي شيء بنفسي، إنك تفهم.....".

لكن تحت تأثير طائر الحجل و"موتون روتشيلد"، اعترف أنه قد رأى شيئاً ما.

إنه لم يرد أن يتفوه بكلام بذيء عن أي أحد، لكنه كان هناك ذات يوم، ورأى..... شيئاً ما. كان ذلك في سهرة ببيت "مولينو" المسكين. وكانت هناك حجرة زجاجية بجوار حجرة الطعام. وكان الجميع في حجرة القمار. وتصادف للتو أنه كان داخلاً إلى الحجرة الزجاجية المضاءة بإضاءة خافتة إلى حد ما..... ليس لأنه أراد أن يتفوه بكلام بذيء عن أي أحد، لكن..... إنه مال نحو "فيتور". إنه رأى "جينوفيفا" مستلقية في أحضان ذلك الشاب، وتمر بأصابعها عبر شعره. "هذا ما رأيته!".

دفدع "فيتور" كأسه بعيداً عنه بشدة بالغة، حتى

أنه انقلب، وانسكب منه الخمر. وعلى الفور وضع "مارينهو" إصبعين على مفرش المائدة المنقوع بالخمر، ووضع علامة على جبينه. ولحسن الحظ، قال:

"وماذا حدث إلى ذلك الشاب؟"

واتخذ صوت "مارينهو" نبرة حزينة قائلاً: "إنه قد مات، مات!". "إنه مات في الحرب".

فشعر "فيتور" بالسعادة، وبالأحرى بالشكر إلى الألمان المنتصرين.

فأبدى "مارينهو" لامبالاة مهملة، ثم حدق النظر إلى زجاجة الشمانيا، وقال فجأة:

"إن تلك السيدة ليس لديها قلب!، فقط بينك وبينني، ليس لأنني نمام بالطبع، لكن فقط بينك وبينني، إنني أعتقد أنها مغامرة". وأضاف قائلاً:

"من النوع الأسوأ جداً".

وجرب الشمانيا، ووجد أنها ممتازة. ومال إلى الوراء بكرسيه، وأكد أنه دائماً ما كانت لديه شكوك حول "جينوفيفا".

"لكن لماذا؟"

فقال "مارينهو"، وهو يبدو مهيباً جداً: "هناك سر ما"، وأضاف بنبرات قبرية قائلاً: "مأساة ما خفية".

أما فضول "فيتور" فلا يعرف حدوداً. فأتكأ على المائدة، ملتهماً "مارينهو" بعينه. لكن الشاب الممتاز كان يتحدث فقط بشكل متقطع، حيث كان منشغلاً لأنه في هذه اللحظة كان يلتهم اللحم البقري المشوي بشكل منهجي، ويمصمص شفثيه، ويتذوق كلما يمتلئ فمه. وفقط عندما قدم السفرجي "تشارلوت روسيه"، وجه

”مارينهو“ إحدى يديه نحو جبينه كما لو كان سيقلب صفاء وترتيباً لأفكاره، وكشف عن كل شيء:

”كان هذا ما جعلني أشك بها. فكنت أعرف أنها برتغالية. حسناً، فذلك سهل بما فيه الكفاية، إنه لديها أكثر لهجة فرنسية شيطانية. ليس كثيراً في تلك اللحظة، لكن كان ذلك فيما بعد. إنك تعلم إنني لست من النوع الشكاك، لكنني كنت فضولياً حتى أعرف الحقيقة. إنني أردت أن أعرف من أين أنت، من ”لشبونة“ أم من المحافظات. فأخبرتني أنها من ”ماديرا“. وسألتها عن اسم عائلتها، فقالت ”جوميس“.

فقلت لنفسي: ”جوميس“؟..... إنني لم أصدق في تلك اللحظة أنها من ”ماديرا“، ولا للحظة. فإنه لدي حاسة شم جيدة لهذه الأمور“. وتشمم بطريقته عبر المائدة.

”فقلت لنفسي ”إنك لست من ”ماديرا“، واسم عائلتك ليس ”جوميس“!“، لكن ماذا كان يهم هذا، فالشخص يتناول عشاءاً بشكل ممتاز في بيتها، وهي فاتنة جداً.

ماذا كان يهمني من هي؟ فلا أحد من البرتغاليين في ”باريس“ كان يعرفها. وعلاوة على ذلك، إنها ليست شابة. فلا بد أنها الآن في التاسعة والثلاثين أو الأربعين من العمر، لكنها محفوظة بشكل جيد للغاية. هل قد رأيتها بفستان ذو شق منخفض؟ أوه!“، ونفض ”مارينهو“ ذراعيه في الهواء. حلق كهذا، صدر كهذا!، إن هذا يكفي لدفع الرجل إلى الجموح“. واشتد اتساع بؤبوع عينيه بشكل غير عادي. ”حسناً، ذات يوم، ظهر برازيلي يُدعى ”كوسيرو“ في بيتهما، صديق لـ..... لـ..... أوه، لا أستطيع التذكر الآن. هذه ذاكرتي حقاً!، رجل عامي، يبدو وكأنه.....“، وبحث عن الكلمة المناسبة، ولكن بعد ذلك أعلن بحزم: ”أوه،

إنه الشيطان، إننا بين أصدقاء..... إنه يبدو وكأنه سفاح. إنه كذلك بالفعل!، وأضاف بنبرات كئيبة قائلاً: "لا أحد كان يعرف الكثير عنه، لكن كان هناك حديث عن جريمة قتل. فقد تزوج أرملة لرجل غني جداً، والذي كان يعمل لديه كمحاسب، وأشهر إفلاسه لاحقاً. وعلى الرغم من ذلك كان يعيش في "باريس" في رفاهية أكثر روعة. هذا هو كل الحديث بالطبع، وفي أسوأ ذوق ممكن. وكانت "جينوفيفا" تعرف جيداً ما كان يقوله الجميع عن ذلك البرازيلي، لكنها لم تنزل تستقبله ببיתה. فعلى كل شيء، ماذا كان يهمها في هذا؟ فإنه مليونير، وقد قامر وخسر، والذي كان يهمه ما إذا قد قتل أم لم يقتل شخصاً ما. فأشياء كهذه ليست ذات أهمية في "باريس". هل كان لديه مال؟ حسناً، إذن، "تعال هنا يا عزيزي!"، فذات مساء عند تناول العشاء، قال "كوسيرو" إلى "جينوفيفا" باللغة البرتغالية: "هل تعرفين "جواردا" جيداً؟"، إنني كنت أنظر إليها مباشرة، ورأيتها.....".

ثم انفتح الباب، ودخل السفيرجي، وقال أن البارون "ماركشتاين" قد تساءل ما إذا كان لديهما مانع لو ينضم إليهما لتناول القهوة.

فقال "فيتور": "بالتأكيد لا"، ثم ألقى نظرة سريعة على "مارينهو"، وقال: "أنا أقصد أنه يمكنه بالتأكيد". فقال "مارينهو"، وهو يبدو لامعاً: "لطيف جداً، لطيف جداً".

"استمر يا "مارينهو". إنك كنت تقول..... أنك رأيته....."

"رأيت ماذا؟"

"رأيت "جينوفيفا" عندما قال البرازيلي.....".

لكن انفتح الباب مرة أخرى، ودخل "البارون"، ورفع طربوشه عدة مرات. والتمس تأكيداً مجدداً أن وجوده لا يزعجهما. فقد شعر أنه وحده بججرتة، وهو يعرف مدى لطف البرتغاليين، حسناً، فقد أثبت له ذلك مراراً وتكراراً..... وقد فكر..... لكنه كان متأكداً من أن ذلك الأمر بالنسبة لهما ليس مزعجاً. فهل بوجوده يقطع أي شيء؟

وعندما قد قالوا كلاهما فقط: "لا، لا، بالطبع لا"، جلس "البارون"، وأوماً برأسه منحنيّاً، ملتصقاً منهما ألا يسبب لهما أي إزعاج. ثم هز قهوته، وتساءل كخدمة عن أخبار المجتمع. فقد أغلق على نفسه في حجرتة لعدة أيام، ولم يعرف شيئاً عما يحدث. من قد ذهب إلى بيت الوزير البرازيلي؟، هل قد كان استقبال الملك يتمتع بحضور جيد؟، هل قد كان فلان وعلان هناك؟، كيف حال جلالته؟، "ماذا كان في الأوبرا؟"، فإنه لم يكن يعرف شيئاً، وكان شاعراً بالخل بصورة إيجابية.

لكن "مارينهو" كان يعرف كل شيء، فأخبره بالتفصيل. وكان "فيتور" يقشر يوسفى بغضب، حيث كان غاضباً من المقاطعة. وأصغى إلى ذلك الحديث عن أشخاص لم يعرفهم، شاعراً بأنه ذليل إلى حد ما، خائفاً من لو اضطر "البارون" إلى أن يسأله، فإنه سيضطر إلى أن يعترف بانعدامه الكامل لعلاقاته الأرستقراطية.

وليتجنب ذلك الاحتمال ألقى ببعض من التعليقات عن الشرق الأقصى فهل يعتقد أنه سيكون هناك حرب؟

فأخفض "البارون" ذقنه في وشاحه الحريري،

وتجاهل التساؤل: فكان من الصعب أن يقول، حيث لم يستطع الشخص حقاً أن يخاطر برأيه. فكان كل شيء معقداً للغاية، بل كان هذا موقفاً خطيراً. ليس لأنه لا بد لهما أن يعطوا وزناً أكثر لكلامه فقط لأنه دبلوماسي، وأنه يعبر فقط عن رأي شخصي. ولكن في الواقع كان الموقف خطيراً جداً. فهذا هو كل ما استطاع أن يخاطر به لقوله. إنه سيكون أولاً يكون هناك حرب، وهذا هو التساؤل. حقاً كانت الأمور تبدو خطيرة جداً. وكان يحق النظر إلى فئجانه، مستغرقاً في التفكير، وكان رافعاً حاجبيه، ويهز قهوته ببطء. وكان "فيتور" يتحدث عن مستشار الإمبراطورية، الأمير "جوتشاروف".....

فعلق "البارون" على الفور قائلاً: "رجل ذو تفكير عميق جداً".

فأشار "فيتور" إلى "بسمارك". فقال "البارون": "قلقٌ للغاية"، وأضاف قائلاً: "إن كل هذا خطير جداً، حقاً خطير جداً".

ودعاهما أن يقضيا باقي الليلة معه. فسيأتي وزير من "فرنسا"، وكذلك الملحق الإيطالي. إنه يمكن أن يلعبوا الهويست. فقبل "مارينهو" تلك الدعوة بإبتهاج وفرح بشرط ألا تكون الأوتاد مرتفعة جداً، لأن غير ذلك..... فوسط أصدقاء لا يريد الشخص أن يخسر أكثر من اللازم.

فقال "البارون": "بلا شك!"، وعبر عن أسفه على أن "فيتور" لم يمكنه البقاء.

"لا أستطيع، أنا متأسف. إنه لدينا ضيوف بالبيت". فانحنى "البارون"، واقترح أن يصعدا إلى حجرته. وهو لديه بعض من الكونياك والسجائر الممتازة.....

لكن "فيتور"، والذي كان غير قادراً على التحدث مع "مارينهو" بصورة شخصية، وأن يستخلص منه باقي حكاية "جينوفيفا"، قال كلمات الوداع في الممر: "إنني سأتي وأراك يا "مارينهو".

"أوه، نعم، وهو كذلك يا صديقي العزيز، وهو كذلك. عشاء فاخر، شهى".

وتبع "مارينهو" "البارون" باقتناع. وبينما كان "البارون" يصعد على درج السلم، أشار إلى "فيتور" رافعا طربوشه مرارا وتكرارا.

فغادر "فيتور" شاعراً بالإحباط. فكان في حاجة عميقة ليعرف بقية الحكاية. وقرر أنه في اليوم التالي سيذهب ليرى "مارينهو" في الفندق العالمي. لكن في ذلك الوقت كان يهيم على وجهه بلا هدف، فوجد نفسه نازلاً إلى شارع "كوريو" نحو "ساو بينتو". إنه لم يخطر في باله أن هذا سيقوده مباشرة ليمر ببيت "جينوفيفا". وكانت عربة "داماسو" عند باب البيت. وكانت المصابيح مضاءة في الصالون وفي حجرة نومها. هذا فقط ما أزعجه أكثر. وشعر بالأسف على "داماسو" المغفل المسكين هذا لكونه متورطاً مع مغامرة كهذه. وكان "فيتور" يخطو عبر الشارع بغضب، وأفكاره الغاضبة في حالة اضطراب. فكان يريد أن يضرب "جينوفيفا"، ويعض تلك الرقبة الرائعة التي لها، والتي قد تحدث عنها "مارينهو"، مالئاً دم "فيتور" برغبات متوهجة مرتجفة.

وفي ذلك المساء في الواقع قد أرسلت "جينوفيفا" إلى "داماسو" هذه الرسالة المختصرة:

"سامحني يا عزيزي. إنني كنت منفعلة، فلم أدر بما كنت أقوله اليوم. أرجوك تعال، فمئذ تركتني لم

أكن أفعل شيئاً سوى البكاء“.

وقد وصل "داماسو" على الراحة بسعادة غامرة. وقد هدأت "جينوفيفا" منذ صباح اليوم. فقد فكرت طويلاً في متاعب الشجار مع "داماسو". ففي نهاية المطاف إنه لديه المال، ومهما كان ما قد تشعر به أو تقرر أن تفعله فيما بعد، فلا بد لها ألا تسيء إليه. فلو حبها ومصلحتها الشخصية تطلبا ذلك، فيمكنها أن تتخلص من "داماسو" لاحقاً، لكن حتى ذلك الوقت كان من الأفضل لها أن تغريه، وتبهره، وتستعبده، ورسالة تلو الأخرى حتى تقبض على الجرعات الأخيرة من كرمه. وكانت ترتدي فستاناً بشكل مثير بعض الشيء، وهكذا كانت "مسلحة". وكانت في انتظار ذلك الشخص البهيمي.

ولحظة ما دخل "داماسو" إليها لاهثاً، مدت "جينوفيفا" كلتي يديها إليه في إشارة مليئة بتواضع من الحب، ثم قالت:

"سامحني. فالיום كانت أعصابي بحالة سيئة".

ولكنها كانت مندهشة لأنها وجدت أن جبين "داماسو" ما زال مشققاً. فاحتوت غضبها، ووضعت يديها على كتفيه، ثم تمتعت قائلة:

"لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ فجميع السيدات يعانين من أعصابهن. فإنه مجرد إنني فقدت السيطرة على أعصابي".

فتمتم "داماسو"، وما زال مكشراً، قائلاً:

"إنكِ ذهبتِني إلى أبعد من ذلك، فإنكِ طردتيني. إنني أحب حل الأمور، ولا تعجبني ثورات الغضب". فانحنى احتراماً، وتحركت بعيداً.

وقالت ببرود شديد: "حسناً". "دعنا نتصافحاً".

ودع هذا يكون نهاية لذلك. وتنتهي علاقتنا. وسنكون مجرد أصدقاء جيدين"، وتظاهرت برعشة خفيفة في صوتها. "إن الجو اليوم بارد إلى حد ما، أليس كذلك؟" وكان "داماسو" يلتهمها بعينين شهوانيتين، فانفجر قائلاً:

"إنك لا تحبيني يا "جينوفيفا"!"

فابتسمت آسفة، وألقت بصرها نحو السماء كما لو أنها تسأل السماء، صديقتها الحميمة، لتدلي بشهادتها. فقالت بغضب: "إنني لا أحبه!". "من سيأخذني؟، ما نوع المرأة التي تظن أنها أنا؟، إنني لن أكذب بشأن حبك. لكن دعنا لا نتحدثاً بخصوص هذا أكثر من ذلك. فهذا كثير جداً. ماذا في مسرح "ساو كارلوس" في هذه الليلة؟"

وكانت جالسة بطريقة تشدد على منحنياتها الشهية. فنزل على الأريكة بجانبها، وسحق قدميها تقريباً. فقالت بنبرات صادرة من القلب: "أي، إنك

جرحتني!"

"آسف، إنني لم أقصد ذلك"، وجلس بشكل أكثر اقتراباً إلى حافة الأريكة. وأمسك يدها بيديه المنفوختين. "قولي لي فقط أنك تحبيني".

فجلست، ووضعت ذراعيها حول رقبتة، وبصوت دافئ، وتنفسها العاطفي يمس خده برفق، قالت:

"لماذا أنا إذن في "لشبونة"؟ لماذا؟، فإنه لدي أصدقاء ومعارف في "باريس"، والذين يقدمون أي شيء، مالا، ممتلكات، حياتهم، ليجلسون معي هنا على هذه الأريكة كما أنت الآن. لكن لماذا أنا هنا في "لشبونة"؟"، وأصبح صوتها عاطفياً وقوياً. "من أجلك!"

ثم قبلت شحمة أذنه، فاهتز "داماسو" من الفرحه، ووضع ذراعيه حولها، وتمتم قائلاً:
"أقسمين بذلك؟"

"أقسم لك يا قطي الصغير!"، ثم اقتربت منه، ولمسته، وأثارتها، وقبلته، بمداعبات متقدة وكلمات مسكرة. "إنني أحبك كثيراً، أنت وخديك الممتلئين. إنني لا أستطيع مقاومتك. وأنت تعلم هذا تماماً، إنك عفريت. هذا هو السبب في أنك تستغلي. قل أنك تحب "جينوفيفا" الصغيرة التي لك. استمر في قول هذا. لكن قلها كما ينبغي. اهمس في أذني، وأخبرني بفمك.....".

وكان "داماسو" يلهث ويتنهد. فكان هناك اندلاع نار في دمه.

فنادت "جينوفيفا" بصوت رنان وفظ قائلة:
"ميلاني!"

فجاءت "ميلاني" مسرعة. وابتسمت عندما رأت "داماسو" موجوداً. فرحبت به، وأعربت عن الفرحه العامة لأهل البيت بعودته. الحبيب، السيد، الرب.
"أحضري لنا شيئاً ما لنشربه يا "ميلاني"، ثم استدارت إلى "داماسو" قائلة: "ماذا تحب أن تشرب يا حبيبي؟، احضري له شيئاً خاصاً يا "ميلاني". أترغب في بعض من القهوة التركية؟"

فتردد "داماسو"، وأصبح وجهه أحمرأً ومحتقناً بالدم. وقبضت "جينوفيفا" بتلقائية على رأسه بيديها.
"أوه، يا له من رأس كبير لديك!، ماذا قد فعلت معي؟، لماذا أحبك كثيراً؟، فإنك لست وسيماً بشكل بارز أو ذكياً جداً..... ماذا قد فعلت مع؟"، ثم قالت بصوت منخفض: "احضري له قهوة تركية يا

”ميلاني“.

ثم أسرع إلى البيانو، وقالت بصوت مبتهج ومرح:

”أترى؟، إنني سيدة جديدة. إنه عليك فقط أن تظهر، وأنا سيدة جديدة“. وغنت قائلة:

”كل امرأة لها عشقها، نقطة ضعفها وصورة فرسها!“

ثم انقطعت، واتجهت إليه:

”إنك عشقي، ونقطة ضعفي، وصورة فرسي“.

ولكن ”داماسو“ بنظرة من الشك البرجوازي إلى حد بعيد، تمتم قائلاً:

”إذن لماذا كنت ترسمين بصرك نحو ذلك الأحمق ”فيتور“؟“

فتساءلت ”جينوفيفا“، وهي تنفجر من الضحك، قائلة: ”أرسم بصري؟“، وتساءلت مرة أخرى قائلة: ”أرسم بصري؟، على ذلك الحقير؟ لماذا؟ حسناً، لأنه وسيم“. ثم ابتسمت: ”لكنني قد رأيت العديد من الرجال الوسام يا عزيزي!، من ذا الذي يهتم بـ”فيتور“؟، انسى ما بشأنه“.

فقال ”داماسو“ لها:

”وهو كذلك، لكن افعلي لي شيئاً واحداً: ”دعينا نذهب ونقضيا أسبوعين سوياً في ”سينترا““.

هذا الاقتراح الغير متوقع فاجأ ”جينوفيفا“. فاستدارت، ونظرت إلى أسفل، تلك الطريقة التي تتخذها عندما تريد أن تخبأ مشاعرها، ثم تساءلت قائلة:

”إلى ”سينترا“؟ لكن لماذا؟“

”لمدة أسبوعين فقط. حيث المتعة هناك. فالجو

جميل. ويمكننا أن نذهب إلى بيتي إذا أردتي. وغير ذلك يمكننا الذهاب إلى فندق "لورانس".

فقالت "جينوفيفا": "أنا لا أعلم ماذا تقول؟" "أنتِ ترين، فإنكِ لا تريدين مغادرة "لشبونة". وهذا هو مرتبط الفرس. أعتقدين إنني لا أفهم؟، إنه يمكنني أن أرى ما يحدث".

فسدّدت "جينوفيفا" إليه نظرة موحية شرسة. وفي تلك اللحظة لم تشعر بشيء سوى كراهية شديدة لـ "داماسو". وبدلاً من ذلك فتحت ذراعيها على مدهما، وب نظرة أسفة قالت:

"هذا ما تراه. إنني كنت سعيدة جداً، وبعد ذلك تنطلق وتخلق ثورة بأفكارك الحمقاء و..... لا، فهذا أكثر من اللازم. هذا مفرط. من الأفضل أن ننتهي الآن".

وكانت تسير عبر الحجرة، وإيشاربها مدفوعاً إلى شفتيها، وبطانتها الحريرية تحدثت حفيفاً على الأرضية.

فوضع "داماسو" إحدى ذراعيه على وسطها، وتحدث إليها على الجانب الآخر من كتفها قائلاً:

"لكن لماذا أنتِ ضد الذهاب إلى "سينترا"؟، إنني أسألك فقط هذا الشيء الوحيد. فإننا سنقضي أسبوعين هناك في حضن الرفاهية. إنه يمكننا أن نأكل ونشرب.....".

وبينما كان "داماسو" يتحدث، فجأة أدركت "جينوفيفا" الفائدة العظيمة في كونهما وحدهما سوياً. فهذه فرصة لـ "سلبه" جيداً.

فاستدارت لتتنظر إليه، وما زالت عيناها لامعتا. "وهو كذلك يا حبيبي، لو هذا هو ما تريده. فإنني

سأكون سعيدة كلما تكون سعيداً. هل هناك مواقد في بيتك؟“

“لا، لكن يمكنك أن تقيمي في “لورانس“. إنني سأنتظرك غداً. فقد جهزت كل شيء بشكل رائع. إن “سينترا“ رائعة. إنه سيكون هناك شهر العسل الخاص بنا، أليس كذلك؟، ألسنت على حق؟“
“إنك قديس..... وأنت كلك لي.“

وفي تلك الليلة اتفقا كلاهما على مغادرة شارع “ساوبينتو“. وقد أجر “داماسو“ شقة مفروشة في شارع “الزهور“. علاوة على أنه سيشتري بعض الأثاث الجديد، وكذلك عربة، ويعين “جينوفيفا“ رسمياً كـ “عشيقة “داماسو“.

وفي اليوم التالي كان “فيتور“ ينتظر “كاميلوكيراو“ بفارغ الصبر لكي يذهب إلى بيت “جينوفيفا“. فقد رُتب اللقاء في تمام الساعة الثانية، لكن في ذلك الحين كان نحو الثانية إلا الربع، ولم يظهر “كاميلو“ بعد. وكان “فيتور“ ينتظر في الصالون، يرتدي قفازيه بعصبية فقط ليخلعه مرة أخرى، ويخطو لأعلى ولأسفل، ويجتاز إلى الشباك بشكل مستمر ليبحث عنه.

وفي تمام الساعة الثانية أرسل “فيتور“ مبعوثاً إلى بيت “كيراو“. ولم يكن ذلك الرجل النبيل هناك. وفي تمام الثانية والنصف في حالة من الغضب الشديد ذهب “فيتور“ بنفسه. وفتح له الباب ولد صغير أشعث الشعر، وقال أن السيد “كيراو“ لم يُرَ منذ الصباح. فنزل “فيتور“ على درج السلم، وكان يلعن “كاميلو“. وعاد إلى بيته ليرى ما إذا قد وصل “كاميلو“ في غيابه أو أرسل إليه رسالة. ولا شيء. فذهب إلى مسرح “فارياديس“، حيث يعمل “كاميلو“. فصعد على درج

السلم ليسأل ما إذا كان موجوداً أم لا، لكنه لم يكن هناك. وكان ذلك في تمام الساعة الثالثة، وقد فاتهما الموعد. فحكم على "كاميلو" أنه حقيّر ولا يستحق الاهتمام. فسيتأكد "فيتور" من أن "كاميلو" لم يحصل على عمولة للوحة الفنية. فسينهار "كاميلو" في عدم الشهرة والفقر. وقال، وهو عائد عبر "شيدادو" في حالة من اليأس: "الأحمق!"

فبدأ "فيتور" يكتب رسالة قصيرة إلى "جينوفيفا". وبعد ما مزق بعض محاولاته الأولى قرر أن يتخذ أسلوباً أخف.

"بتشتت جميع رجال العبقرية نسي الفنان العظيم تماماً أنك قد أضفيت شرفاً إليه بدعوته إلى بيتك. فالفنانون كالأطفال. فينبغي على الشخص أن يسامحهم كثيراً لأنهم يشعرون بأشياء بعمق بالغ. لكن بمجرد ما أجده، سأقوده، مكتفاً يده وقدمه حتى يمكنه أن يسأل عفوك، ويخطط النموذج الذي سيعمل عليه."

إن الرضا الذي اكتسبه "فيتور" من كتابة هذه الرسالة القصيرة بدد غضبه قليلاً من أنه فاتهما الموعد. وحتى يلهي نفسه ذهب ليرى "أنينهاز"، حيث أخبرته "روزا" قائلة:

"إن سيدتي في حالة فظيعة!"

فوجد "فيتور" "أنينهاز" مستلقية على سريرها، ووجهها مغتسل بالدموع. وبعيون حمراء ونظرة من الرعب على وجهها كانت تتوسل إليه، لمحبة الله، ألا يبقى. فإنها ضاعت. فقد تلقى "بوليكاربو" رسالة مجهولة الاسم تبلغه عن علاقتها الغرامية مع "فيتور"، فأصبح "بوليكاربو" غاضباً. وأراد أن يتركها، ويمنع عنها إعانتها الشهرية. "ماذا سأفعل، ماذا سأفعل؟"

فتساءل "فيتور" خائفاً: "لكن ماذا قلتي له؟"
 "إنني أنكرت هذا بالطبع. إنني أنكرت هذا بشكل
 قاطع، لكن الحيوان لم يصدقني. فقال أنه سيستشير
 صديقاً، ثم غادر. وإنني أترقبه في أية لحظة".
 ثم تلوت على السرير، مطلقة صرخات معذبة.
 فارتعب "فيتور". فالوفاء يتطلب منه أنه لو تركها
 "بوليكاربو"، فحينئذ يجب عليه حمايتها. ولم يرَ فقط
 أمامه إلا إخراجاً ومصاريف وتقبيداً وملا. وعلى
 الرغم من ذلك تأثر "فيتور" عاطفياً بدموعها. فكان
 على وشك مواساتها بأن يقول لها أنه "سيسعدها".
 لكنه خاف من اتخاذ تعهد إيجابي كهذا، فبدلاً من ذلك
 قال:

"إنه من الأفضل لي إذن أن أذهب إذا ما وصل".
 فألقت "أنينهاز" ذراعها حول عنقه.
 "ماذا سيصبح بشأني؟، فقد أشعلت شمعة إلى سيدة
 الفرخ، لكن من يعرف؟، فإنه قال أنه سيعود في تمام
 الساعة الرابعة، الحيوان. أوه يا "فيتور"، لو تركت
 بلا شيء، فهل ستساعدني يا حبيبي؟"
 "يا له من سؤال يا عزيزتي. إن كل شيء سيكون
 على ما يرام".

"إذن انصرف. فسأكتب وأخبرك بما سيحدث".
 ثم رن شخص ما جرس الباب.
 فحدقت "أنينهاز" النظر إليه متجمدة.
 "إنه هو! ربما تساعدني سيدتنا! يا "فيتور"، إنني
 أشعر بالضيق".

وأصبح وجهها شاحباً، وكانت ترتعش، وتلتصق
 بـ"فيتور"، والذي كان يبدو يائساً من إيجاد مخبأ ما
 قريب، فجوة ما، مخرج ما.

وتنفست "أنينهاز" الصعداء، حيث قد ميزت صوت المرأة بائعة الفاكهة. وضغطت بيديها على قلبها، ثم قالت:

"أوه، يا له من رعب!، إنني كدت أموت. إن الأشياء التي أعانيها لأجلك يا حبيبي".

فتأثر "فيتور" عاطفياً، وقبلها بحنان. ثم رافقته إلى الباب، ونادت على "روزا" لتتأكد من أن المصباح الصغير لسيدة الفرح مليئاً بالزيت.

الباب الرابع

في اليوم التالي، بحث "فيتور" عن "كاميلو كيراو" في كل مكان، ولكن دون فائدة. كان هناك بالمسرح شاب صغير ذا قميص أزرق يدخل سيجارة ويتجول حول "الغابة" المرسومة على خلفية موضوعة على الأرضية، فقال أنه عندما لا تكون هناك سعادة بالغة في العمل، فغالباً ما يختفي "كاميلو" لأيام قليلة. إنه لا يمكنك أن تتحدث مع "كاميلو"، لكن من الممكن العثور عليه في "بوتيلهو"، وهي حانة تقع في "روا دوس ريتروزيروس".

فذهب "فيتور" هنالك. كانت رائحة السمك المقلي ورائحة أخرى يصعب تحديدها تعم أرجاء الحانة. إن الأرضية السوداء كانت أكثر تشابهاً بالطين، واللون الأسود الفاحم للغاز الأحادي منتشرًا بطريقة بشعة وفجة، وظهرت الأصوات العالية للزبائن من داخل حجرة ذات جدران رقيقة مفصولة بستائر قطنية خفيفة.

كان "كيراو" يجلس في إحدى الزوايا، متكأ بكوعيه على مفرش المائدة الملون، ويتناول الطبق المخصوص للمطعم، دجاجاً مع بازلاء، وبجانبه شاب ضخم ذا بشرة شاحبة، ووجهه الصغير الحزين مغلفاً ببثرات جلدية شديدة الحمرة، وكان يرتدي وشاحاً أزرقاً.

قدم "كاميلو" من يجاوره على المائدة بقوله "صديقي تادوي"، وسمع لشكاوي "فيتور" عن الموعد الضائع، وتركه بالأسفل، فشن على الفور هجوماً حاداً ضد القيود المفروضة على الالتزام بالمواعيد. "أوف، إنه يستحيل توقع فنناً أن يكون ملتزماً

بالمواعيد ككاتب العدل، أليس كذلك صديقي
”تادوي“؟“

فأصدر ”تادوي“ كحة، وتكرفس بداخل وشاحه،
وتناول شفقة من الخمر ثم قال:
”أوف!“

”ألم تقابل صديقي ”تادوي“؟“

لم ينل ”فيتور“ هذا ”الشرف“.

فقال ”كاميلو“: ”أظهر له يا ”تادوي“!“

فالتقط ”تادوي“ لفة من الورق موضوعة على
المائدة بجانبه، وبسطها على المائدة. كانت تلك اللفة
مشوشة، حيث أنها ذات تركيبة ملخطة إلى حد ما.
من خلالها يمكن للشخص أن يلاحظ للتو قليلاً من
الأشخاص أسفل بعض الأشجار، يرتدون أحذية
طويلة الرقبة وقبعات فرسان. كانوا يقفون خارج
الحانة، يشربون ويوماون بشدة، حيث بدوا أنهم جنود
أو سادة. فكانوا متعززين جميعاً بشكل كبير وذي
مظهر سكتى، ومملوئين بقوة جبارة، وذي طبيعة
من المرح الوحشي، فيمكن لقبضاتهم أن تقضي على
ثيران بضربة واحدة، وصدورهم قوية البنية منتفخة
جداً. لا بد أن أنفاسهم الحقيقية أعاصير قوية، ولفظاتهم
كعاصف مدوي مثل قذائف الهاون. كانت تجلس على
ركبة أحدهم سيدة شابة سميكة، ذي حجم جبار بالقياس
بهم. فهي ذي خدين ممتلئين، وثديين ضخمين،
وذراعين غليظتين كأعمدة. وكان هناك امرأة أخرى
تتناسب معهم بالمثل، تضحك بصوت عال، كاشفة
عن جسم عريض وحشي، فذاذاً وعضلات بطريقة
كريمة. وكانت اللوحة معنونة بـ ”السلالة القوية“.
كانت الغزارة الكاملة للعمل تكمن في التباين الهزلي

للفنان الهزيل.

وعندما سُئل عن رأيه، أكد "فيتور" أنها "رائعة، رائعة!".

فصاح "كاميلو" قائلاً: "يا لها من قوة حقيقية، ألا تعتقد أنه بها قوة حقيقية!، فانها توضح شعراً وحشياً ومتوهجاً بالجسد! فجميع أولئك الشخصيات لديها شهوات وحشية، وطباع مرحة شديدة، وعضلات جبارة، ولحم وفير. إن الخلاصة الحقيقية لكل هذا هي القوة والمادة والجسد الشهواني. إنه ضخمة، وافر، غزير، قوي، سمين، وحشي، وفي تمام الصحة. إنها شعر الجسد! فـ"تادوي" هو "روبنس" الآخر!، حيث أن أعماله جميعها على نفس المستوى العظيم. فهي درس مفيد للسلالة العصرية، تلك السلالة النحيفة، الشاحبة، المصابة بفقر الدم، مدمنة الكحوليات، والمصابة بسوء التغذية، والتي تتنفس هواءً ملوثاً من غرف الحانات، والقائمة على الحلويات ومشروب الهورشاتا. إنه ليس من بديل للقوة!".

طوى "تادوي" اللوحة مرة أخرى بوجه كالح، وقال ملاطفاً وجهه الهزيل الشاحب: "القوة هي كل شيء. إنه لا بد لنا أن نصطبغ بالقوة!".

ثم رثى "كاميلو" الحضارة الحديثة، خاصة ما دعاه بـ"الاكتئاب الوطني".

كان يستحيل ظهور هذه اللوحة في وجود السلالة البرتغالية، حيث ليس هنالك من رجال أو نساء. فإنها تماثيل صغيرة من الخزف، وكائنات ضعيفة وكسولة كشخصيات من أصل روائي، ذي بشرة شاحبة. فإنهم لا يمشون ولا يضحكون ولا يتحركون ولا يفكرون، بل

يبتسمون إبتسامة باهتة، يبدون منكمشين، وأذرعهم رخوة كالجيلاتين. إنهم سلالة من الناس المصعقة العاجزة الضعيفة ذي بشرة بلون لحم الدجاجة.

وعاد إلى العصر البطولي حينما كان الرجال عمالقة، والنساء تماثيل مفعمة بالحياة. عندما كانت الحرب لهواً، والمجازر أيام عيد. حينما كان يشرب الناس زقاق خمر كاملة، ويلتهمون لحماً لخنزير بري بالكامل مقدم على أطباق ذهبية كبيرة. عندما كان الدم يجري بكثافة وقرمزيًا. يا له من دم كان لديهم!

فتمتم "تادوي" بضعف قائلاً: "يا له من دم!".
 "كان الحب حيوانياً بكل معنى الكلمة، فكان الرجل يأخذ المرأة إلى بيت الدعارة، وأنينهم تعبيراً واضحاً وقوياً للشهوانية. وصاح قائلاً: "ذات مساء، دخل "ارنالتون" فارس أسبانيا إلى بيت "كوندي دي فوكس"، ولاحظ أنه لم يكن هناك الكثير من الحطب على النار، حيث كان هناك فقط فرع شجرة موضوعاً على النار، وفي الحال خرج إلى فناء الدار، حيث قد أتت بعض الحمير للتو من الغابة حاملة كمية من الحطب، فرفع أحد الحمير بالإضافة إلى حمولته، ووضعها على ظهره، وصعد أربع وعشرين "٢٤" درجة من السلم متجهاً إلى الصالة، ثم ألقى الخشب والحمار على النيران. يا له من رجل!".

فقال "تادوي" مموجاً عينيه: "يا له من رجل!"
 "ارسم هذا المشهد لأجلي، انك تفهم حول أمر القوة، ألا يمكنك رؤية هذا للتو؟"

فقال "تادوي" وفمه مليئاً بالدجاج: "إنه يمكنني".
 "الغرفة عالية السقف ذات الجدران الحجرية السميقة وذات الموقد ضخمة بما يكفي لاتساع غنائم

الغابة بالكامل، أوعية الخمر التي يشربونها في نفس واحد، سيوف وسيوف عريضة تزن ثلاثين "٣٠" من الكيلوات مُلقاة في إحدى الزوايا. الرجال العمالقة الوحشيين والبدائيين ذي عيون محتقنة بالدم، وشعر بلون الحديد يتدلى على صدورهم، يتحدثون عن معارك وعمليات نهب، ويعزف المنشدون على القيثارة، متغنين بالأفعال التي قيلت بواسطة الساحر "فيرجل". أما النساء ذي الثديين الثقيلين فتُعري، وذو الأذرع الفحولية، واللاتي أمكنهن قتل التركي، أما فتحات الأنف الحسية، والتي بعد شرب الخمر تُخرم بنكهاتها اللزجة، ثم تصدر نفساً دافئاً كما لو من جمرات أتون لزج. يا لها من لوحة! أتفهم ما أعنيه يا "تادوي"؟

إنني أفهم! القوة! عصر البربرية!".
وأعاد تنظيم وشاحه الأزرق.

فشعر "فيتور" بالخجل بشكل غامض، حيث أنهما يشبهان اثنين من المجانين، ولم يمكنه أن يرفع عينيه عن "تادوي"، والذي كان يكح دون توقف بينما كان يتناول البازلاء واحدة تلو الأخرى بشوكة الطعام الخاصة به، وذا البشرة الشاحبة الدهنية. إنه أحد الذين يعانون من عملية الهضم. فقال "فيتور" فقط بخجل: "إذن متى علينا أن نلتقي يا "كاميلو"؟"
"غدا الساعة الثانية".

لكن قبلما يغادرهما "فيتور"، أصر "كاميلو" على أن يشرب بعضاً من الخمر الأبيض، ويتناول بعضاً من اللوز المحمص، وتصرف كما لو كان يملك الحانة مستدعياً "فابيو" بقصد الفضول. فأتى "فابيو". إنه جاليسي ذا وجه طويل، يرتدي قميصاً ذا

أكمام مشمرة. طلب "كاميلو" منه أن يقرأ عليه قائمة الطعام، منتصباً تماماً في جلسته، ووضع "فابيو" يديه على وركيه، مغمضاً عينيه، قائلاً في نفس واحد دون إنقطاع:

"شوربة دجاج بالأرز، شوربة خضار، ريزوتو بحري، بقلة سمك مجفف وبصل، سمك مقلي، دجاج وبازلأء، سجق وكرنب ملفوف، أقدام خنزير، هلامية قدم العجل، حساء البتلو، بتلو مشوى، حقو خنزير، بتلو مطبوخ بالفاصوليا، بط محشو بالزيتون، آذان خنزير، كلاوي، لحم مفروم، على استعداد للخدمة بسعر موحد فقط شاملاً الخمر واللوز المحمص. لا ننس المساومة في هذه اللحظة، ونلقيا كثيراً على عاتق "فابيو" الذي لنا!"

ففطس الرسامان ضحكاً.

"استمر، وأظهر لنا عضلة ذراعك!"

فشمر "فابيو" كم قميصه حتى كتفه، وكشف عن عضلة ضخمة منتفخة.

فسكبا عليه كأساً من الخمر، وشرب كأساً، ثم مسح فمه بظهر يده.

فقال "كاميلو" مغشياً من الضحك: "أحضر لنا إثنين من الفتيات الكلاسيكيات الجميلات عاريات".

كان "تادوي" يضحك أيضاً.

"أحضر لي سيدة بربرية مغطاة بأحجار نفيسة، يمكنها قتل ثعبان بيديها المجردة".

ثم أتى إلى مسامعهم أصوات مشاجرة حوارية من الحجرة التي تقع بجانب الباب. إنها أصوات مزعجة، وجلجلة قبضاتهم تحطم موائد، وشتائمهم متبادلة. فدخل "فابيو" بهدوء شديد ليعاين "الحفلة"، ثم تناول

”تادوي“ قبعته مرعوباً، ولكن إنتهى الشجار الحواري بضحك وأصوات تطلب خمراً أحمرًا للاحتفال بالمصالحة.

فنهض ”فيتور“ شاعراً بالملل، متخذاً على ”كاميلو“ عهداً واجباً أن يلتزم بالمواعيد، وانصرف تاركاً الإثنين للمرة الأخرى منغمسين في عبادتهم المشتركة للقوة والحيوانية.

وفي النهاية، بعد مرور يومين فقط على نجاح ”فيتور“ في اقناع ”كاميلو“ على الذهاب معه إلى بيت ”جينوفيفا“. كان أكثر قلقاً حينما حضر ”كاميلو“ بسترته البالية، وقبعته واسعة الحواف. فماذا ستفعل ”جينوفيفا“ بذلك الفنان القبيح رث الثياب، ذا الشعر المجعد والحداء القديم؟ إنه خجول جداً ومع ذلك اضطر إلى أن يعلق، ثم انطلقا بسيارة الأجرة.

وبينما كان يدخل إلى ”روا دي ساوبينتو“، رأى ”فيتور“ الأنسة ”سارة“، موجهاً بصره إلى قوامها النحيل المألوف، تبدو كالحة، مرتدية زيا أسود، ومحدقة نظرها إلى الأمام مباشرة، بينما كانت تسير بعناية إلى الأمام بكوعين مشدودين على جسمها.

خرج ”فيتور“ واجتاز الحد ليسأل عما إذا كانت ”جينوفيفا“ بالبيت، فأحمرت الأنسة ”سارة“ خجلاً لرؤيته، وقابلته بإبتسامة عريضة. ألم يعرف؟ إنهما سافرا إلى ”سينترا“ منذ ثلاثة أيام.

فتحطم ”فيتور“.

نعم، قد انطلقا اثنان من طيور الحب إلى ”سينترا“، وقد بقيت ”سارة“ مع ”ميلاني“ للحصول على الأشياء التي تهيأها للرحيل.

”أي رحيل؟“

فأوضحت الآنسة "سارة" أنهم سيبيعون البيت، وينتقلون إلى مسكن فاخر جديد.

كانت "سارة" منتصبة تماماً، راسخة على قدميها الكبيرين بقوة. إنها كانت تفترس "فيتور" بعينيها، فذكرت الأحوال الجوية في محاولة لتبقيه معها لفترة أطول قليلاً، لكن ذهل "فيتور" جداً للحديث، فأودعها سلاماً، وعاد إلى سيارة الأجرة ثم قال إلى "كاميلو": "إنها رحلت". وضرب بشدة على ركبته، ثم أطلق سلسلة من الإتهامات اللاذعة موجهة إلى "كاميلو". فكان كل هذا بسبب خطأ. أنها قد مللت من الانتظار حتى رحلت. وأنها الآن بالطبع لم ترد أن يكون لديها صورة مرسومة لها. فقد أضاع "كاميلو" الفرصة، فدائماً ما يكون على نفس الشيء، مهملاً وغير جديراً بالثقة. أنه لم يخرج مطلقاً إلى أى مكان كرسام. فسيموت فقيراً، في غياب تام، محبطاً، حقيراً، حيث أنه سيظهر ذلك فقط قوم من الأطفال!

فصرخ "كاميلو" راغباً في إنهاء هذا السيل من الأسلوب الغاضب قائلاً: "توقف، يا صديقى، توقف!" "إن كل هذا بسبب خطأك!"

وقال "كاميلو" ضاحكاً: "إهمالي، إهمالي، إهمالي لأقصى حد"

لكن كان "فيتور" يائساً. أنه نفس عن كل الغضب الذي يفيض به على "كاميلو".

"أنه من غير اللائق أن نجعل سيدة تنتظر، فإنها مجرد سلوكيات سيئة".

فازداد بدوره غضب "كاميلو" قائلاً: "إن الفنانين لا ينحنون إحتراماً لأحد، واستشهد بالطبقة الوسطى! أن البابا "يولييان" يتواضع بنفسه أمام "رافائيل"، واعتاد

”فرانسييس الأول“ على أن يحجز لنفسه فرش الرسم الخاصة بـ”تيتيان“.

فصرخ ”فيتور“ وهو يقفز من سيارة الأجرة قائلاً: ”أوه، اذهب إلى الجحيم!، ثم دفع الأجرة للسائق. فنزل ”كاميلو“ وراءه مستشهداً بـ”روبنس“، والذي كانت تركع له أميراته متوسلن إليه ليرسم لهن صورة، و”تشارلز“ ”إنجلترا“ الأول، والذي كان يقف حينما يدخل ”فان ديك“ المقصورة.

”إن الفن يخلق ملكوتاً خاصاً به.“
فلعن ”فيتور“، ومشى بتشامخ بعيداً.
فصاح ”كاميلو“ بصوت عالٍ قائلاً: ”كثيراً ما تتركني هاهنا بمفردي، محطماً في هذا الشارع المهجور، فريسة للوحوش المفترسة دون أي مარٍّ أوسيارة أجرة.“

فقال ”فيتور“ نازلاً إلى الطريق للتو: ”أوه، اذهب إلى الجحيم!

وذهب ”فيتور“ مباشرة إلى بيت ”جينوفيفا“، راغباً في التحدث إلى ”ميلاني“، وليسألها ويعرف ما كان الغرض من هذه الرحلة إلى ”سينترا“ وكذلك الرحيل. وعندما وصل ”فيتور“ إلى الطابق العلوى من البيت، وجد الباب الخارجى مفتوحاً، فطرق على الباب، ودخل إلى البيت، وحقق النظر إلى حجرة المعيشة حيث رأى ”ميلاني“ واقفة أمامه، وجسم كامل لرجل في سترة مختبئاً بغرفة نوم ”جينوفيفا“. أن ”ميلاني“، المتماسكة تماماً وذو المظهر المألوف لسيدة البيت، إذ بسلوك حسن للمقربات تدعوه للدخول وتساءله لِمَ لم يكن هاهنا ليراهاهم.

كان هناك إثنان من الحقائق الكبيرة في الحجرة، والتي كانت تملؤها "ميلاني". وعلى المقاعد فساتين، وأمتعة مختلفة، وصناديق قبعات. وعلى الأرضية أكوام من ملابس داخلية، والكيس الإحتياطي لأعشاب عطرية. وكان هناك أربطة وأشرطة زينة على قمصان نوم. فأثار كل كائن أنثوي عاطفي غريزة مزعجة لدى "فيتور" بنصف لمحة للتعري.

"إلى أين ترحلون؟"

"إلى روا داس فلوريس، شقة بالطابق الثالث في الزاوية. إنه بيت جميل ومؤثت تأثيثاً كاملاً جديداً، وأشادت بالبيت، لكن هذا فقط ما أغضب "فيتور".

"وأين يقيمون في "سينترا"؟"

"في "لورانس"، إنني لا أذهب حتى الغد لأنني كنت مضطرة إلى حزم الأمتعة. أنهم في "سينترا" منذ أسبوعين."

فقال "فيتور" متأهباً لإشعال سيجارة: "إنني أعرف".

فأسرعت "ميلاني" للعثور على كبريت لـ "فيتور"، وكان "فيتور" يتجول فيما حول الغرفة. "لذلك وجدت مع "داماسو" المجنون بصفة دائمة!". لم يشعر "فيتور" بالغيرة ولا بالحزن، حيث أنه أبغضها تماماً، فاكتشف بذائنها وغباءها. وفكر قائلاً: "كم أحتقرها!", "فإن أنت إلى امرأة حمقاء على ركبة راکعة، فلن ألمسها ولو حتى بملقط!". أحتك قدمه بقبعة، فركلها حتى انطلقت تجاه الحائط. حيث أغضبته جميع هذه المفروشات، وكذلك الثياب النسائية، حتى رائحتهم لم يعد يطيقها. حيث لمسهم "داماسو"، فقد استرخى ذلك الرجل الحقيق على تلك المفروشات. يا له من شيء

مضحك حقاً، "داماسو"!، لو كان هنالك الآن فقط، لكان يحب أن يسمع "داماسو" يلقي تعليقاً من تعليقاته الطريفة. وضحك على نفسه. ما تلك الضربة الشديدة التي أوقعها به، فإنه مزقه قطعاً قطعاً بكل سرور. إنه ليس من منطلق الغيرة والرغبة، لكن لأنه دائماً ما كان يكرهه، حيث أنه برجوازي، ملتزم بالأعراف والعادات، وغندور، فأبغضه.

عادت "ميلاني" حاملة علبة من الكبريت. "لذلك إنهم بعيداً لقضاء شعر عسل في "سينترا"، أليس كذلك؟"

فأومأت "ميلاني" إيماءة ضعيفة برأسها، مبتسمة إبتسامة باهتة وبلا مبالاة، ثم انحنت وعادت لتحزم الحقائب قائلة:

"حسناً، عندما تعجز عن امتلاك ما تريده، فإنه عليك أن تعمل بما تمتلكه".

فقال "فيتور": "أوه، كما في "الدوقة العظيمة لجيروولشتاين".

فجلست "ميلاني" بلا مبالاة. "إنني سعيدة لرؤيتك قابلاً لواقع الكلاسيكيات".

ضحكت "ميلاني"، وقالت مرة أخرى وعينيها مصوبة نحوه:

"كما قلت، عندما تعجز عن إمتلاك ما تريده...."

فقفز "فيتور" على قدميه، واتجه إلى "ميلاني":

ماذا تعنين يا "ميلاني"، أخبريني.

بدا صوته جافاً، وعينه بارزة. فكانت جميع كلمات "ميلاني" تجعل احتقاره لـ "جينوفيفا" يتلاشى، وبالنسبة له فإنه يمتلئ بأمل كبير. فآلح قائلاً:

"أخبريني"

فتراجعت "ميلاني" بخجل، حامية وجهها بيديها، كما لو كانت تتفادى قبلة.

"إنني لا أعلم شيئاً، حيث أؤدي عملي فقط، ولم يقل لي أحد أي شيء".

فقال "فيتور": "أخبريني يا "ميلاني"، فهناك فتاة طيبة، أتحدثت إليك عني؟"

أمسك "فيتور" ذا الأصابع الضخمة بيديها النحيلتين. فتراجعت "ميلاني" إلى الوراء محاولة تخليص نفسها. "في الحقيقة، إنها لم تعلم أي شيء"، وظلت تلقي نظرات خاطفة إلى "فيتور" بمزيج من الخلاعة والمداهنة.

وأخيراً تحررت "ميلاني" منه، واجتازت إلى مائدة صغيرة، ورفعت صندوقاً من العاج، والذي كان يحمل حرفاً واحداً من اسم "جينوفيفا" من الفضة. ومازالت تقول أن "جينوفيفا" لم تتحدث إليها مطلقاً عن أي شيء، فذهبت بهدوء تام، ولمعت الصندوق، ووقع، فانفتح ثم أغلقته. فقال "فيتور" بفضول فجائي: "دعيني أرى الصندوق يا "ميلاني"."

فأمسكت "ميلاني" الصندوق بإحكام، وأسرعت إلى الجانب الآخر من الحجرة، متصنعة الخوف كما لو أنها ترغب في أن تحتفظ بشيء ما منه، وجوه منجذبة، وضحك صاخب.

فلاحقها، وحاول أن يمسك بها. وكانت تضحك بصورة هستيرية في ذلك الوقت، كما لو كان شخص ما يدغدغها. ثم قفزت بعيداً، وجسمها النحيل خفيفاً كالغزال، ضعيفاً كالنمر.

"ميلاني"، سأعطيكي اثنين من اليورو إن سمحتيلي أن أرى الصندوق"

كان هذا كل ما يمتلكه، وكان كثيراً، لكن حب الإستطلاع المليء بالأمل جعله منفقاً بسخاء.

”اثنان من اليورو يا ”ميلاني““

وصلصل العملات المعدنية في يده.

اتجهت ”ميلاني“ إلى الأمام، وفي حوزتها الصندوق خلف ظهرها، لتفحص العملات المعدنية بعين جشعة.

”ألن تقول أي شيء إلى سيدتي؟“

”أقسم لك“

”ماذا ستعطيني أيضاً؟“

”تعزية جيدة، إنه ليس لدي أي شيء آخر سوى

اثنين من اليورو وقبلة“

”أتعطيني كلمة شرف؟“

”كلمة رجل نبيل“

ثم فتحت ”ميلاني“ الصندوق بإجلال عظيم، حاملة إياه إليه. وكان هناك بالداخل باقة من زهور البنفسج الذابلة، واثنان من القفازات المجعدة.

فأصبح ”فيتور“ غاضباً.

”إنك سرقتي يا ”ميلاني!“.

لكن ”ميلاني“، والتي بدت وقورة جداً، أظهرت له الزهور الذابلة. ألم يتذكر؟ أنها باقة قد أحضرها معه حينما أتى ليرى ”جينوفيفا“ عندما كانت مريضة، وترك وراءه قفازاته. وهذا كان أحدهم.

حقاً أنه كان قفازه، وكل إصبع للقفاز كان معقوداً

برباط لإصبع قفاز خاص بـ ”جينوفيفا“.

فتلون وجه ”فيتور“ بحمرة من السعادة.

فمدت ”ميلاني“ يدها وخدها.

فقال ”فيتور“ قلقاً: ”اسمعي يا ”ميلاني“، ”أعتقدين

“أنها تحبني؟”

“سيدتي؟”، ورفعت زراعيها إلى السماء، ثم قالت بنبرات منخفضة وسريعة: “إنه لا ينبغي أن أقول هذا، وإذا عرفت سيدتي، فإنها ستقتلني، ولكن لا يمكنني تحمل رؤية سيدتي تعاني بمثل هذا، وصداقتها بـ “داماسو” يثير أعصابي، فسيدتي متيمة بك ومتقدة بالحب”.

فبدأ قلب “فيتور” ينبض بدقات سريعة.
“أتعلمين ماذا فعلت عندما وجدت هذه القفازات؟، لا، إنني لا أفضل القول... نعم، أريد القول. إنها كانت تحتضنها بقبلات، ثم أخذت أحد القفازات الخاصة بها وعقدتهم معاً هكذا، حيث قالت أنها تربط روحك بروحها. إنه أمر سخيف، أليس كذلك؟ إنني أقول إليها أحياناً: “إنك غبية حتى تصبحين مختلة لأجل رجل. أمن قلة الرجال الآخرين!”، لكن، لا، إنها لن تريد أي شخص آخر”.

فقال “فيتور”، وهو يبدو جافاً نحوها: “أهذا صحيح يا “ميلاني”؟”

“بالطبع صحيح”

مدت “ميلاني” يدها، فأعطاه “فيتور” الإثنين من اليورو بكل سرور، وكان يود أن يعطيها أكثر. بدا البيت كله متغير المظهر، فالحقائب الكبيرة المليئة بالمفروشات والملابس الداخلية تشبه وهي مفتوحة تجويفاً بفراش حميم للحب، ووجد أشرطة الزينة بقمصان النوم مثيرة للمشاعر بشكل عميق، وبدت كل الروائح العطرة بالنسبة له كنفخة هواء خارجة من “جينوفيفا”، فملأه حب كبير عميق يقرع بداخل صدره كالموج الناشيء من حركة المد والجزر. ثم

نفذت إلى عقله فكرة مفاجئة طائشة تترك أثراً غامضاً لطيفاً مضيقاً خلفها كنيزك. إنه سيذهب ويراه.

“أقيمون في ”لورانس“؟“

”نعم، في ”لورانس“. والآن ماذا عن تلك القبلية؟“
فضحك ”فيتور“، وأمسك بها من وسطها وقبلها في فمها، فاصفر وجه ”ميلاني“ قليلاً، ولمعت عيناها كالثلج.

وقالت بإحتشام: ”أعتقد أن سيدتي قد تكون على حق“.

فالتقط قبعته، وأشار إلى غرفة النوم حيث قد اختبأ الرجل في السترة قائلاً:
”استمتع بوقتك!“

فقالت بشيء من اللامبالاة: ”أمم!“
وبينما كان ”فيتور“ ينزل إلى الطريق، إذ حدد هدفه للتو: إنه سينطلق إلى ”سينترا“. ولم يرَ أن ”جينوفيفا“ قد لا تريد أن يلحق بها، فقد يصبح ”داماسو“ طائشاً ذا غيرة. إنه رغب في أن يراها، حيث بدا له أن أسبوعين بدونها شيئاً مستحيلاً. فالآن عرف أنها تحبه، وبدا له أنها قد حملت معها كل الهواء الصالح للتنفس، وكذلك ضوء النهار اللازم للحياة. إنه سيمضي إلى هنالك عبر مدينة ”كاسكايس“، لذلك يبدو هذا كلقاء مصادفة.
فكلمات ”ميلاني“ أعادت إليه الأمل، لكن لم تمنحه تأكيداً، وهو أراد ذلك التأكيد. فبدأ الآن كل الأفكار والشكوك، وكل العذاب الذي خاضه خلال الأسبوع الماضي كشيء لا يُطاق. أما الآن بعدما منحته ”ميلاني“ لمحة حب ”جينوفيفا“ له، أراد أن يرى هذا بنفسه قوياً وكاملاً. كان ”فيتور“ كرجل متروك أمام باب مغلق، لكن يندفع بنفسه عبره لو يجده موارباً.

وإن لم يكن ذلك صحيحاً، ثم أمكنها قول ذلك. فبالتالي يمكنها احتقاره، وأن تدبر ظهرها إليه. مما يجعل عقله يتطاير منه على الأقل، ثم ينساها ملتصقاً العزاء بمكان آخر.

أما هو فنسب كل اللامبالاة التي من جانب "جينوفيفا" كلية إلى نفسه، فلم يتضح لنفسه كونه مُحِباً أم متماسكاً بما فيه الكفاية، فالحب يستلزم الصبر فوق كل شيء. إنه كان في حاجة إلى عاطفة من قبلها بأقصى سرعة، حيث إنهما قد التقيا فقط في مرة ثانية كدائن نافذ الصبر. وبعدما قد تراجع، فإنها شعرت بشكوك طبيعية لإمرأة من تحفظ غريزي بهدف الرغبة، وهو كمغفل، قد أصبح غاضباً وأبعد نفسه. ماذا قد توقع؟ هل أنها ستأخذه إلى غرفة نومها كما بعض العاهرات لحظة ما نظر إليها؟، كم كان غيباً!. إن زيارته إلى "سينترا" هي السبيل لإصلاح ذلك الشوق الفاضح. إنه سيظهر كل ثبات واتضاع ومشاركة وجدانية رقيقة لشخص تافه. فسيؤكد لها كم كان متعلقاً بها كالقمر الصناعي بالنسبة للقمر الأرضي. نعم، إنه سيسافر بالتأكيد إلى "سينترا".

وللأسف، لم يكن يمتلك مالا. وذلك العائق التافه البسيط الذي يمنع رغبته المتقدة من التقدم للأمام هو ما أغضبه: يا للجحيم، إنه مضطر إلى أن يذهب إلى مرشده "تيموتيو". فكان "تيموتيو" يقدم له إعانة شهرية. لم يطلب "فيتور" مطلقاً من مرشده مالا لأجل أي شيء آخر إلا في مرات معدودة، لذلك كان قلقاً بعض الشيء. فتوجه إلى مدخل المكتب، وأخذ ينصت، إن كان مرشده يصدر صفيراً، فهذا يدل على أنه بحالة مزاجية جيدة. كان يسود سكون تام، ولكن

الرغبة جعلته مصمماً على الدخول، فدخل ووجد مرشده نائماً بكرسيه ذي الذراعين، وبحركة من قبل الكلب، فتح مرشده عينيه، ورأسه على جانب واحد كالعصفور وكان يصدر شخيراً.

فإستطاع "فيتور" أن يقول: "أوه، لا، إنه في حالة مزاجية سيئة!". فداعب مرشده، وتسلّى معه، وقبل أنفه.

"كيف حالك يا مرشدي؟"

فتمتم المرشد "تيموتيو" قائلاً: "ماذا تريد؟"

"لا شيء يا مرشدي"

فاتجه، وفتح الشباك، ووقف أمامه.

"إنك في حاجة إلى غفوة، أليس كذلك؟"

فثناءب المرشد "تيموتيو" كأسد شاعر بالملل.

ثم انتصب في كرسيه قائلاً: "إنني اصطدفت بدكتور "كامينها" يقول إنك بالكاد قد وضعت قدمك في المكتب في الآونة الأخيرة".

فأقسم "فيتور" بنفسه أنه سيوقع بالدكتور "كامينها" ضربة مبرحة.

"إنه أمر سخيف، فقد كنت هنالك. ربما ليس كثيراً، ولكنني كنت أذهب".

أما مرشده فأصبح يقظاً تماماً، مواصلاً حديثه بعنف:

"ولماذا لا تذهب إلى المكتب؟ حتى يمكنك أن تتنزه بـ"شبادو"، وأن تنزل إلى "بوتيه داس الماس"، إنك كمغفل. فما السعادة التي قد تكون في الطواف فيما حول "لشبونة"!. فالطواف فيما حول "الهند" أو "كلكتا" يمكنني إدراكه. لكن "لشبونة"؟ ماذا هنالك يستحق المشاهدة؟"

فقال "فيتور":

"إنني في الواقع لم أكن حسناً جداً، وأصدر كحة بشكل يثير الشفقة. "إنني كنت أفكر في الذهاب لقضاء بضعة أيام في "سينترا". حقاً إنني لا أشعر بإنني حسناً على الإطلاق"، ولمس جبينه، ثم تشجع ليقول: "إنني أتساءل إن كان يمكنك أن تعطيني بعضاً من المال".
فنهض مرشده عن كرسيه.

"إلى "سينترا"؟ لأي شيء؟"

فتعد "سينترا" إحدى المدن المكروهة بشدة، فإنه لم يمكنه تحمل الإشادة التقليدية التي تنهال على المكان، وبدأ له أنها موضع إعجاب ناشيء عن جهل لشخص لم يَرَ الغابات الرائعة والمناظر الطبيعية لـ "الهند" مطلقاً.

فأشار "فيتور" على أنه مجرد تغيير للهواء.
"إن حياتك في حاجة إلى التغيير. فالهواء معتدلاً، وحياتك مازالت على نحو سيء. فاذهب إلى الفراش مبكراً، وتناول الطعام بصورة منتظمة، وامتنع عن كتابة الشعر، واذهب إلى المكتب في المواعيد المحددة، وستندهش من تحسن صحتك. إنما "سينترا"!
فهي نزهة تصلح لبقال".

فبدأ "فيتور" يتحدث بشكل يثير الشفقة قائلاً: "لا، إنني حقاً في حاجة إلى..."

فقال "تيموتيو" مهدداً: "إنني أستم رائحة امرأة" كان "فيتور" يعلم نقطة ضعف مرشده لمغامراته الخلية، فاعترف بإبتسامة حمقاء إنه هنالك بالطبع امرأة مغرم بها.

فتساءل المرشد "تيموتيو" بشكل صريح قائلاً:
"من هي؟"

فتردد "فيتور"، حيث شعر بدافع أن يخبره بكل شيء، فهو في حاجة إلى أن يتحدث عنها، حيث سيمنحه "تيموتيو" المال إن كانت لدفع العلاقة الغرامية للأمام. أليس هو صديقه العزيز القديم قبل كل شيء؟

ففتح ذراعيه على مداها في شكل إعرافي صريح قائلاً:

"إنه بكل حق، سأخبرك يا مرشدي. إنها عشيقة "داماسو"."

"داماسو"، إيه؟ ألم تشجعك؟

"هناك تفاهم بيننا".

فصاح المرشد "تيموتيو" سعيداً، جالساً على مكتبه، يفتح الدرج قائلاً: "كم تريد من المال؟". "عشيقة "داماسو"! حسناً، دائماً ما يستحق ذلك الأمر إنفاق مال لدافع جيد. فقد إقتلع هذا سنوات عمري! ذلك الدفع المالي المبدد، وأنت. إنه رائع. فإنك ستمضي بعيداً أيها الشاب. كم للمدة ستقضيها في "سينترا" لأجل ذلك؟ ثلاثة أيام؟ حسناً، إذن فإنك ستحتاج لبعض من المال".

ثم وضع مجموعة صغيرة من المال تُقدر بخمسة عشر "١٥" من اليورو على المائدة، ونهض، وعيناه تلمع.

"وهذا حباً، أليس كذلك؟ رائعاً! هذا ما أود سماعه.

ها، إنه "داماسو" مغفل. ومتى ستمضي بعيداً؟"

"بعد تناول العشاء"

فصاح "تيموتيو" قائلاً: "كلوريندا!، "أسرعي

بإحضار العشاء".

فابستم بإبتهاج، وفرك يديه معاً.

”إنه عليك أن تخبرني بكل ما حول ذلك لاحقاً. إنني أُرغب في معرفة كل شيء!“.

ثم حَقَّ النظر إلى ”فيتور“ بمحبة وبكل فخر. وفي تمام الساعة السادسة، كان فيتور يلف على طول طريق ”بنفيكا“، وفي حوزته حقيبة سفر صغيرة عند قدميه، حيث كان في عربة حنطور تُقاد بواسطة ”تويراو“، وهو سائق عربات أجرة عامة. وكان ”فيتور“ شاعراً بتوتر شديد. فكيف سيكون رد فعلها، ماذا ستفعل؟، ماذا سيقول لها؟

وأمكنه للتو تصور حوارات مختلفة. أنهما قد يفرغان للتو من تناول العشاء. فأمكنه أن يرها في قاعة الطعام بالفندق، واستطاع أن يرى إثنين من المصاييح الزيتية، وشباكين يطلا على شرفة صغيرة. إنه سيتظاهر بالدهشة والصياح: ”يا لها من مفاجئة!“.

وما الحجة التي سيختمها؟ إنه سيقول أنه هنالك لتسوية دعوى قضائية، وليشاهد منطقة رائعة، ويعبر عن شيء ما غامض بلغة قانونية مبهمة. إنهما سيقضيان الليلة في الصالون، وقد يلعبان بورق اللعب. وإن كانت ليلة دافئة، فيمكنهما الذهاب للتنزه أسفل الأشجار. هل سيكون لديه فرصة للتحدث إليها. هل سيكون قادراً على إطلاق رسالة موجزة في يدها. أينبغي عليه أن يشير إلى القفزات المتشابكة؟

وعندما نفت دخان سيجارته، أخذ يكتب رسالة موجزة عميقة شاعرية:

”إفعلي بروحي كما فعلتي بقفازي، اشبكيها بروحك“.

فاكتشف هذا أنه دون المتوسط، ففضله باللغة الفرنسية:

”إن الإثنين من القفازات هما رمز لوجودنا“.
لكن خوفاً من ”داماسو“، ولأنه بدا أكثر أناقة، قرر
أن يكتبه باللغة الإنجليزية:
”إنني رأيت القفازات. وبالتالي قد تلتصق أرواحنا
معاً بشكل وثيق“.

إنه كان لديه شك في أنه باللغة الإنجليزية ليس
أفضل إلى حد بعيد، لكنه فضل اختصاره.

وفي ”بوركالهوتا“، بينما تستريح الخيول، ويشرب
”تويراو“ كأساً من البراندي، مضى ”فيتور“ للنتزه.
حل الظلام للتو. وفي هذا الهواء البارد ليلاً، كان هناك
نجمتان تضيئان. ويعم سكون تام باستثناء نباح كلب
بالمنطقة بين الحين والآخر. وكان مسار الطريق يقع
بين جدران حجرية منخفضة، وعلى الجانب الآخر
كانت الحقول السوداء تمتد بالظلمة المنتشرة، والتي
بها بعض الأشجار الظاهرة للعيان تشكل ظلاً ساكناً
أكثر ظلمة.

وبينما يسير ”فيتور“ ببطء إلى الأمام، كان يفكر
بـ”جينوفيفا“ منسجماً مع المكان. والحب الذي يملؤه
كان به شيء ما من ضبابية الليل وهيبه السكون. وفكر
كم يكون جميلاً أن يعيش معها في الريف بقرية بعيدة.
ففي ليالٍ شتوية يجلسا إلى جانب الموقد، ينظرا إلى
بعضهما البعض ويتحدثا بهدوء. والرياح الباردة تهب
خارجاً، والكلاب تنبح بالحقل، وأي شخص ينزل إلى
الطريق، يتحرك نحوهما، وينظر نظرة فضولية على
بيتهما السعيد. تلك الصورة للأسرة الشاعرة من حب
وأشواق أسمي ستمتد معهم في طريقهم طوال الليلة
الكنيئة. وبطباع واثقة أن السعادة التي تثير الحسد في
آخرين تجعل كل شيء يبدو أحلى.

واستطاع "فيتور" أن يرى إثنين من الفوانيس المضيئة بعربة تنزل إلى الطريق. فتوقف وقفز إلى الداخل.

"إننا سنذهب بعيداً يا "تويراو" "

إن علاقته الغرامية البسيطة جعلته سعيداً لأنها كانت تشبه حلقة رائعة مثيرة من أصل روائي أو قصة مغامرة. وشعر "فيتور" وهو بمفرده في إحدى الزوايا بالعربة بنوع من الفخر يتمدد بداخله، عالماً أنه محمول بالراحة إلى الأمام، نازلاً إلى طريق خال، متجهاً إلى فصل جديد للحب. أحياناً ما كان ينزل الشباك ويطل خارجاً، حيث المنظر الطبيعي المظلم الممل يطوف ماراً بكل جانب في الظلمة، والرياح الباردة تتموج ببطء على الأرض الناعمة، وبدأت السحب الصافية بالسماء ترتعش من البرد. وحل بذاكرته أشعار أغاني محبوبه وأجزاء من الألحان، لكن أغنية "فادو" تعد أفضل تعبير لعاطفة روحه الحزينة قليلاً، فأغمض عينيه وبدأ يغني ممثلاً بإحساس بالشوق المطلق والحنان العاطفي.

كان مسار الطريق يقع بين إثنين من جدران مرتفعة متوازية، حيث تشهق الأغصان وتصدر حفيفاً. إنها "رامالهاو". بدأ الهواء أكثر رقة كما لو أصبح منعشاً بوفرة من الماء. وأطلقت الحقائق العامة والأشجار صفاءً جميلاً وجواً من الأناقة الرقيقة. وكان الهدوء الذي هنالك يبعث راحة وتراخياً شهياً. "رامالهاو".

كانت المحلات التجارية تضيئ الليلة الريفية بشكل خافت. لم تكن هنالك أية ضوضاء. ولم يمض طويلاً حتى وصلت العربة خارج لورانس. فأسرع الخادم ليفتح له باب العربة، وأرشده إلى غرفة الطعام. لم

تكن المائدة نظيفة، فكان هنالك أطباق، وزجاجات من خمر، ومكانان معينان لشخصين فقط. بلا شك أنهما معينان لهما، وبدا له أن رائحة ثيابها تنطلق بالهواء. "السيد "داماسو" يقيم هاهنا، أليس كذلك؟"

فقال الخادم: "أنه بالصالون في الدور الأسفل" فصعد "فيتور" إلى حجرته ليمشط شعره، ويغسل يديه، وأمكنه أن يرى الليل عبر الشباك، ويسمع صوت الحفيف الغامض للأشجار على طول الوادي، وكذلك من رؤية الجمال المخدر للجبال.

وتجاهل "فيتور" "الخادم" الذي كان يسأله عما أن كان يريد أي شيء لتناوله أو ليشربه، حيث اتجه إلى الدور الأسفل. كان باب الصالون موارباً، فإتجه إليه. كانت "جينوفيفا" تجلس بمفردها إلى جانب الموقد. وأضفي بريق النار على بشرتها لمعاناً ورياً. كانت "جينوفيفا" ترتدي لوناً أسوداً، ومسترخية بظهرها على كرسيها، تحقق النظر إلى النيران. وكان هنالك ثياب معلقة على الكراسي، وعلى المائدة باقة جميلة من الكاميليا بين شمعتين.

وعندما دفع "فيتور" الباب، رفعت عينيها الجميلتين تدريجياً وأخذت تبكي.

"إنه لم يمكنني تحمل ألا أكون قادراً على رؤيتك ولذلك أتيت".

فانبعثت منها نبرة عاطفية، ونصف تنهيدة، ونصف شهقة، وتدلي ذراعاها إلى جانبها، فجذبها "فيتور" إليه، وتبادلا القبلات.

وتمتت "جينوفيفا"، متكأة برأسها الحزين السعيد على كتف "فيتور" قائلة: "أوه يا حبيبي!"

كانت الألواح الأرضية على طول الممر تصدر

صريراً، وفجأة ظهر "داماسو" عند الباب، واقفاً هنالك متسماً.

لكن قد أوضح "فيتور" أنه هنالك للتحقيق في دعوى قضائية، ملفاً حجته باسم قانوني معقد، فأخذ "داماسو" نفساً عميقاً، وربت على ظهره قائلاً: "خيراً لك أيها الرجل!، إننا سنخرج إلى "بينينها" غداً".

ثم طلب كونيالك، وأشار بالمقامرة، وبدأ غير متأثراً تماماً بوجود "فيتور"، إما لأنه كان مصدقاً لما قد قاله "فيتور" بشأن الدعوى القضائية أو لأنه ليست لديه أية شكوك الآن حول حب "جينوفيفا". تلمل "داماسو" على كرسيه، متحدثاً بصوت عالٍ ورنان. وبدأ قوامه الممتلئ قليلاً مكروهاً هكذا تماماً إلى "فيتور" حتى شعر بسعادة بالغة أن يخدع هذا المهرج. ظلت "جينوفيفا" جالسة بجانب الموقد كما لو كانت مفتونة بالنيران. وكانت تبدي تعليقاً بين الحين والآخر، لكن كان يحيط بها اكتئاب من المل.

فلاحظ "داماسو" ذلك قائلاً: "إنها كانت كذلك منذ وصلنا إلى "سينترا".

"سينترا" تجعلني مكتئبة".

ولوحت بيدها في اتجاه الوادي والجبال المحيطة. إن الكأبة تنبعث من هذا التشوش من منطقة نباتية داكنة خضراء. إنها كأبة الخداع.

"إن "سينترا" تصير على نحو مختلف تماماً في فصل الصيف، حيث هناك رحلات، وجميع الفنادق مليئة بالناس، وهناك رحلات إلى "كاسكايس"، وكذلك من تسالي، إلى غيره من الأمور، حقاً إنها متعة رائعة".

فتمتعت "جينوفيفا" قائلة: "شكراً للرب أننا بفصل الشتاء".

ونهضت قائلة أنها ليلة لطيفة، وتود التنزه. فمضوا جميعاً. تأبطت "جينوفيفا" بذراع "فيتور"، وتنزهوا على امتداد أسفل الأشجار دون تحدث، إلى أقصى "سيتيايز". كانت الليلة معتمة جداً ولكنها هادئة. ورطوبة بردٍ طفيفة تعم الجو، وكان هنالك شيء ما يبدو كثيباً حول البحر العظيم للمساحات الخضراء. ونزولاً تحت الوادي العميق والسكون المهجور للحدائق والبيوت الخالية من الناس، حيث تنحدر الكأبة من الأشجار. وعلى الجانب الآخر كان كل شيء غارقاً بظلمة قاتمة، تنكسر هنا وهناك بشكل شاحب. وكان هناك ضوء جميل لمنزل صغير.

ظلاً "فيتور" و"جينوفيفا" على مسافة قريبة جداً من بعضهما البعض، متأبطاً كل منهما ذراع الآخر بشدة، بحماسة وبنشوة غامرة. إنهما لم يتحدثا، حيث أن السكون الشديد المصاحب بوفرة من مشاعر رقيقة يسيطر عليهما. كان الفستان الطويل لـ"جينوفيفا" يحتك بالأرض، وبين الحين والآخر يجر معه غصين جاف لشجرة أو ساق لنبات ذابل.

وبجانبيهما "داماسو" يطلق صغيراً للمارش العسكري لـ"فاوست" بصوت منخفض. وهكذا مرت ربع ساعة من الزمن، ثم قال "داماسو":

"إننا صامتون جميعاً كما لو أننا في المقابر! والجو بارداً جداً".

ثم عطس.

"ارجع إلى الفندق حتى لا تُصاب بنزلة برد".
أكد "فيتور" قائلاً: "لا، إنك بالتأكيد لن تفعل ذلك".

وقالت "جينوفيفا": "ادخل!"
فرد "داماسو" بنصف مستمتعاً ونصف منزعاً
قائلاً:

"إنه يشبه مشهد من "حلاق أشبيلية": مساء الخير،
مساء الخير! إنني لن أدخل، ولا أرغب في ذلك."
فضحكت "جينوفيفا" كما "فيتور" أيضاً حتى تملقاً
"داماسو"، والذي كان سعيداً بدعابته الخاصة، معترفاً
أنه يكره "سينترا" جداً بعيداً عن الموسم الخاص
بزيارتها.

"إنكما في حاجة إلى جو دافئ، وكثير من الناس.
إنها رائعة في فصل الصيف".

فعارضه "فيتور": أنه مستمتع بعزلة الشتاء
هنالك. فكل شيء، الأشجار والهواء والضوء مرتبطاً
بسوداوية شديدة هكذا. واستشهد ببعض عبارات
أدبية نوعاً ما. إن أسوأ ما بـ "سينترا" هو الرأسالية،
المصرفي والغندور، عربات النقل المليئة بسيدات
أسبانية، الإنجليز بنظاراتهم القاتمة، وجميع تلك
الثياب الأنيقة التي تشوش على منظر الأشجار،
فتصبح الجبال كمجرد ملحقات لـ "شيدو". ليس هنالك
من شيء يماثل العزلة، حيث أشار إلى الرهبان الذين
في "بينينها"، وأشاد بهدوء الأديرة، مستشهداً بالسيد
"بايرون".

فانفجر "داماسو" بفارغ الصبر.
"حسناً، إنني لست شاعراً بالطبع."
فتنهدت "جينوفيفا"، ولمس "داماسو" ذراعها،
مخاطباً إياها بـ "تو" قائلاً:

"إنك لن ترغبين بالشعر أيضاً، أليس كذلك؟"
فتوقفت "جينوفيفا"، وقالت بلهجة لطيفة مستسلمة:

”إنه في الواقع يا صديقي لا يمكنني التعود على ضرورة ”تو“، ذلك النوع الكريه المتخطى للرسميات!“

فانقطع ”داماسو“ عن الحديث فجأة، ولم يرد. فقال ”فيتور“ قلقاً وبادياً عليه الخوف:

”أليست هذه الأشجار الساكنة وهذا المكان المظلم يجعلنا الشخص يفكر بالأساطير والأشباح؟“

فقالت ”جينوفيفا“: ”حقاً، انها تجعل الشخص يفكر بذلك“، وبينما كانت تتحدث، التصقت أكثر بـ”فيتور“ كما لو سيطر عليها ضعف غرامي.

فتساءل ”فيتور“ ضاحكاً: ”أتصدقين إذن بالأشباح؟“ أبدأً، إنها لا تصدق بذلك، ولكن عندما كانت ”جينوفيفا“ فتاة صغيرة، قد سمعت عن بعض وقائع غريبة جداً. فقد كانت ترعاها مربية من ”تراس أوس مونتييس“، والتي اعتادت على حكي مثل هذه الحكايات، والتي مازالت تتذكرها. قد كانت مربيتها تعرف جميع الأنواع من حكايات وقصص في مقاطع شعرية.

”إنني مازلت أتذكر بعضها. انتظر...“، ثم غنت قائلة:

ذات يوم كان يبحر العميد البحري ذو الشأن الرفيع سفينته ذات الأشرعة ممتلئة بالناس فالكثير جداً من الرجال أسفل الطوابق كثيراً جداً إلى حد يصعب احصاءه ألا تعتقد أنها رائعة؟، ففي ذلك الوقت كانت هناك أميرة رآته ووقعت في حبه، لكن لا يمكنني أن أتذكر إلى حد بعيد. لكن هناك قصة أخرى أروع من تلك، مازلت أحياناً أرويها إلى نفسي، حيث بها شيء مميز:

من ستأتي وتكون خادمتي
 من سيستحوذ على مالي
 لابد أن تنتقل هذا الخطاب إلى حبي الحقيقي
 "دوم كلاريم" عبر المياه
 إنها تحكي عن أميرة تقيم في برج، أو شيئاً من
 هذا القبيل. من الغريب أن تبقى ذكريات الطفولة هذه
 معنا، قصص عن رحلات ودول لا ننساها أبداً.
 "نعم، إنه صحيح. فمازلت أتذكر أغنية مربيتي،
 والتي اعتادت على أن تغني لي. إنها بلحن بطيء
 وحزين جداً، ثم غني "فيتور" قائلاً:
 اذهب للنوم، اذهب للنوم، يا طفلي
 والدتك قد ذهبت إلى الينبوع...
 ألا تعتقدين أنها حزينة؟"
 فلم ترد "جينوفيفا". وشعر "فيتور" أن ذراعها
 يرتعش قليلاً، وتنهيدة ضعيفة تخرج من بين شفثيها.
 وساروا إلى الأمام في هدوء مرة أخرى. كانت
 الأرض المزروعة بشكل يُستهان به في الضباب تكتم
 صوت خطواتهم، ثم تحدثت "جينوفيفا" مرة أخرى
 قائلة:
 "نعم، كثيراً ما تعتاد المربيات على غناء هذه
 الأغنية. توفيت والدتك منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟"
 "نعم، حينما كنت أبلغ من العمر عاماً أو عامين.
 إنني لم أرَ مطلقاً صورة لها، فلم تترك صورة لها،
 ولا حتى جنس الأشخاص الذين اعتادوا على الرسم
 في ذلك الوقت، ولكنني أعتقد بالتأكيد أنها كانت جميلة
 جداً".

"وماذا عن والدك؟"
 "إنه توفي في "أفريقيا".

أصبح "داماسو" غاضباً من هذا الحديث، فأطلق صغيراً رباعياً لـ "ريجوليتو". إنهم كانوا بالقرب من "بنها فيرد". وقد هب نسيم خفيف، وانحدرت من الأشجار العتيقة وشوشة خافتة كئيبة.

فتمتت "جيويفا" كما لو كانت تفكر بصوت عال قائلة: "فالكثير من الأشياء تصادف الشخص على مدى الحياة".

كانت الليلة أقرب إلى الظلمة الدامسة، فأخذ "فيتور" بيد "جينوفيفا"، وأمسكها بإحكام في رقة مبتهجا. إنه لم يكن يحبها كثيراً على الإطلاق. إن الظلام، والكآبة الصامتة، والخيالات المراوغة، وسكون الأشجار، وتموج المياه الجارية بين الحين والآخر ينشط الحالة العاطفية الباطنة داخله. فبدت "جينوفيفا" أكثر جاذبية على الإطلاق، حيث اكتشف "فيتور" رقة في صوتها لم يميزه قبلاً على الإطلاق، وفي كلامها روح بالغة الرقة منفتحة على الشعر الأسطوري وتأثير الطبيعة، فبدا "فيتور" أنه مكشوف بروحها الشاعرية، راغباً لها مزيداً لجمالها المتألق الوافر، فأحبها في هذه اللحظة لرقة مشاعرها.

فقالت "جينوفيفا": "إنها أفضل بكثير من "بوليفارد" "باريس".

فتوقف "داماسو" مطلقاً صغيراً للاحتجاج. لا، لا! فإنه يحب "سينترا" بفصل الصيف حينما يكون هناك الكثير من الناس، ويصبح لديه رفاق طبيين. لكن "بوليفارد" "باريس"، والذي لن يتغير لأي شيء كان. فماذا بالنسبة لجميع أولئك السيدات اللاتي علي استعداد للتزين حتى الساعة التاسعة، يتنزهن صعوداً ونزولاً في الساعة التاسعة أو العاشرة من الليل،

والمقاهي المليئة لدرجة الانفجار.
فقال إلى "جينوفيفا": "أوه، نعم"، "إنها الحالة العامة لـ"بوليفارد" بكل حق".

فردت "جينوفيفا" بنفس اللهجة اللطيفة المستسلمة (وهي النبرة التي يستخدمها الشخص عندما يتحدث إلى أغبياء أبرياء) قائلة:

"نعم يا حبيبي، بالطبع. إنني لم أنتزه أبداً صعوداً ونزولاً بـ"بوليفارد" "باريس" بالتأكيد".
كان "داماسو" على وشك أن يضيف شيئاً ما عندما قالت:

"وشياً آخر، إنه يمكنني إدراك أنك على وشك أن تطلق صفيراً لـ"ريجوليتو" مرة أخرى. حسناً، أسألك ألا تفعل ذلك. هل لنا أن نعود؟"
فقاموا بالعودة في صمت.

وعندما رجعوا إلى الحجرة، كانت هناك السنة من النيران تقفز من الجمرات، وتعم أرجاء الحجرة المظلمة بانعكاساتها الواضحة الوردية، فأشعل "داماسو" شمعة وجلس متعباً، يتثاءب بشكل بالغ.

رفعت "جينوفيفا" فستانها قليلاً، وصمد قدمها الصغير أمام النار، حيث كانت مرتدية حذاءً من الجلد وجوارب من الحرير مقلمة بخطوط سوداء وصفراء. وأثناء ذلك كان "فيتور" يتصفح كتاباً على المائدة، لكن عندما سمع "داماسو" يتثاءب بشكل صاخب للمرة الثانية، قال:

"حسناً، إنه وقت النوم".

فاستدارت "جينوفيفا"، ونظرت إليه نظرة طويلة معبرة كمداعبة لقبة وعلنية كقسم:

"تصبح على خير".

”تصبحين على خير“.

فذهب ”فيتور“ إلى حجرته مخموراً بالسعادة، ووضع الشمعة بالشمعدان، وبسط ذراعيه نحو السماء، مغمضاً عينيه، قائلاً بابتسامة:

”أوه يا حبيبتي!“

ثم رجع بكرسيه، وجلس هنالك، عينيه مصوبة على الأرضية. فالسعادة لديها نفس التأثير الضعيف إليه كالافراط في التعرض لأشعة الشمس القوية بشهر أغسطس. فكان ذهنه خالياً، وروحه كسولة كما لو كانت مطروحة بحمام من اللبن، فرأى عينيها الداكنتين تلمعا أمامه، واستطاع أن يرى جسمها أيضاً متألّقا كعملة ذهبية في ثوب أسود.

ثم انفتح الباب للتو، وظهر ”داماسو“ حاملاً شمعداناً، ولو حق بواسطة ”الخدم“ الناعس المرتعش. بما أن هنالك سرير إضافي بحجرة ”فيتور“، فإنه قد أتى للنوم به، وشرح ببطء وبلغة فرنسية مشوهة، حتى لا يفهم ”الخدم“، أن السيدة ”جينوفيفا“ حائض. إنه كان بحالة مزاجية سيئة، مدخناً سيجاراً كبيراً بحزن شديد.

وبمجرد ما تمت ”الخدم“ بكلام غير واضح حول طابت ليلتهما، قال ”داماسو“ أنه حزين من صميم الوجدان أنهما قد أتيا إلي ”سينترا“.

فمنحه ”فيتور“ تنفيساً فورياً عن مشاعره: قد كانت ”جينوفيفا“ في حالة مزاجية سيئة منذ لحظة وصولهما. فإنه لم ينل كلمة منها وهما جالسين على المائدة. إنها كانت مسرورة في ”لشبونة“، حيث كانت تغني، لكن هنا...! وبعد ذلك كانت أعصابها وأمزجتها.... إنها لم تنتقل من جانب الموقد لثلاثة أيام. وإن كان هناك

شيء واحد لم يمكنه تحمله هو رؤيته للمرأة جالسة بجانب النار.

”فاليوم هي المرة الأولى التي قد خرجنا فيها، وكان هذا فقط لأنك هنا“.

وفي ذلك الحين خاف أن يكون قد أفصح عن مشاعره الغامضة للغيرة، فأضاف قائلاً:

”ليس لأنها لا تحبني، كلا، إنها مفتونة بي! وفي الفراش، حسناً...“. أدخل ”داماسو“ شيئاً من التفصيل، سارداً خطاب القسم الذي أقسمته له، فكانت تخصص له أسماءً مدللة. أوه، إنها أسيرة للحب، بكل حق، ولكنها هكذا متقلبة المزاج.

تجرد ”داماسو“ من ملابسه، وأخذ يصف الشقة التي يعدها لها، والعربة التي سيشتريها لها. وكان طوال الوقت يدخن سيجاره، ويصف جمالها المسكر وجسمها الفاخر.

تظاهر ”فيتور“ باللامبالاة، ولكن قلبه كان يدق بقوة. أما ”داماسو“، فكان كشخص ما يحكي عن فتوحاته لشركة في فندق، فكان يتحدث ويتحدث عن مفاتن عدة بـ”جينوفيفا“.

لم يشعر ”فيتور“ بالغيرة، ولسبب ما غير معروف لديه، ظل يقارن ”داماسو“ بـ”بوليكاربو“ حامي ”أنينهاز“.

وقبلاً تنتهي ولعة الشمعة، أدار ”داماسو“ ظهره للحظة، وراه ”فيتور“ يرشم علامة الصليب.

فسأل ”فيتور“ وهو على فراشه قائلاً: ”ما هذا الهراء الفارغ؟“

فاستدار ”داماسو“ على الفور، خجولاً من عبادته، كاذباً.

”إنها مجرد عادة منذ الطفولة. إنني لا أؤمن بها. أنها مجرد عادة“.

ثم استلقى في الفراش، معبراً عن بعض الآراء البذيئة في الموضوع.

وفي اليوم التالي، كان الجو غائماً، حيث هناك ضباب كثيف على الجبال وبالوادي. وعندما التقوا جميعاً للافطار، كان الجو قد سد الطريق إلى أبعد حد، وكان يتساقط رذاذ ناعم. وأمكنهم فقط رؤية الأشجار، والتي بدت منحنية ومتأثرة بالبرد.

وبينما كانوا يجلسون على المائدة، إذ بـ”جينوفيفا“ تقول إلى ”داماسو“ بنبرات أكثر رقة:

”يا عزيزي، إنني نسيت الطرحة الخاصة بي. ألدك مانع أن تحضرها إليّ؟“. كانت تنتظر إليه برقة. ”إنني في حاجة إلى ”ميلاني““.

فترك ”داماسو“ الحجرة، وعلى الفور مدت ”جينوفيفا“ ذراعيها إلى ”فيتور“، فأتجه إليها، ووضعت يديها حول عنقه، ولصقت شفثيها بشفثيه لمدة طويلة. قبلة متعطشة جعلته يرتعش كما لو قد احتك بشرارة كهربائية. ثم أعطته رسالة.

”عليك بالمغادرة هذا الصباح، والعودة إلى ”لشبونة“، ثم تقرأ هذه الرسالة“.

ثم اجتذبت له مرة أخرى، وقبلته للمرة الثانية بعاطفة بالغة، متممة قائلة:

”أوه، يا حبيبي، يا حبيبي!“.

ثم سمعا ”داماسو“ صاعداً على درج السلم، وعندما دخل، كانت ”جينوفيفا“ تنتظر إلى الطرحة الخاصة بها، قائلةً بهدوء شديد:

”شكراً لك يا سيدي الكريم!“

فجلس "داماسو" بشكل صاخب، وصاح قائلاً:
"أحضروا البتلو المفروم!"

فقالت "جينوفيفا": "إنني حلمت بسحرة. قد يكون ذلك بسبب الحديث الذي تبادلناه معاً ليلة أمس".
فقال "داماسو": "إنني حلمت أيضاً كثيراً من الأحلام. فكنت أحلم طوال الليل، أننا نتناول لحم خنزير، وكان غير قابل للهضم إلى حد بعيد. إنه كان حلماً مشوشاً جداً. ففي البداية كنت في مصارعة الثيران، ثم حلمت أن "كاستيلودا بينا" مشتعللاً بالنار. إنه شيء مرعب".

فقالت "جينوفيفا": "إنك شيء ناكر للجميل"، "ألم تحلم بي؟"

"نعم، أعتقد إنني حلمت بك بالفعل".
فقال "فيتور": "إنني حلمت بوالدي. إنه كان حلماً غريباً جداً، فحلمت إنني كنت على جانب النهر، وفجأة رأيت مركباً يتجه نحوي، ورأيت اثنين من الأشخاص يقفان، رجلاً وإمرأة يرتديان ملابس بيضاء"، ثم التفت إلى "جينوفيفا" قائلاً: "وعلى الفور تعرفت عليكي، وتعرفت على والدي فقط من إشارة محددة قام بها عندما انحنى. وكنت أغوص في الماء، وبدأت أن أعوم، لكن رفع والدي السارية، وحاول دفعي بعيداً عن المركب، فأمسكت بالحافة العليا من المركب، وحاولت التسلق للداخل، لكنه ظل يصدني بقوة، ويدفعني إلى أسفل الماء. وفي النهاية تحركت المركب بعيداً".

فتساءلت "جينوفيفا" باهتمام للأمر قائلة: "وماذا وقع بي؟"

"كان والدي يضع ذراعيه حول وسطك، وبدا

متهوراً إلى حد بعيد، حيث كان يحاول ابعادك عن الحافة العليا للمركب، ولكنني رأيتك تمدي ذراعيكي العاريتين إلى، وسمعتك تقولين بصوت عذب ولطيف جداً:

من ستأتي وتكون خادمتي.

من سيستحوذ على مالي.

لا بد أن تنتقل هذا الخطاب إلى حبي الحقيقي.

”دوم كلاريم“ عبر المياه.

فضحك الجميع. إنه من الغريب والواضح أيضاً أن هذا بسبب الحديث الذي قد تبادله معا ليلة أمس. فأضاف ”داماسو“، وهو يتكأ للخلف قائلاً: ”وكذلك أثر سوء الهضم“.

وبعد تناول الغداء مباشرة، أمر ”فيتور“ بعربة نقل. أما ”داماسو“، الذي كان بحالة مزاجية مرحة، أصر على أن يبقى. ووجهت ”جينوفيفا“ دعوة ما غامضة بالصعود معهما إلى البرج، لكن ”فيتور“ قال أنه مضطر للالتقاء بزميله، وأنه سيواصل طريقه إلى ”لشبونة“ من هناك.

كانت ”جينوفيفا“ و”داماسو“ يشاهدان ”فيتور“ من غرفة الطعام بينما يستقل العربة، فلوح ”داماسو“ له مازحاً بطرحة بيضاء. وبمجرد ما تحركت العربة بعيداً، فتح ”فيتور“ الرسالة، فسقط بعضاً من زهور البنفسج، فالتقطها، وقبلها، ووضعها في جيب صدرته، ثم قرأ رسالة ”جينوفيفا“.

يا أعز حبيب،

إنني اضطررت إلى ابعاد ذلك الأحق ب.....
لائقة، و..... الشهرية، معذرة. وفور ما أدار ظهره،
جلست لأكتب لك لأخبرك إنني أحبك، أعشقك، أرغب

بك، لكنك تعرف هذا بأية حال أو بالأحرى لا تعرفه. حقاً، إن الرجال لا يعرفون هذه الأمور مطلقاً، حيث أن حبهم كلاً من جزء: فإنهم يحبون ولا شيء أكثر من ذلك. لكن حبنا نحن النساء، الجنس الأنثوي الضعيف، يتكون من أشياء عدة، ومن أشياء عدة بالغة الصغر. فقول إنني أحبك يُعد فقط إنني أخبرك عن شعوري ليس أكثر من ذلك، لكن لو عرفت ما يكمن وراء هذه الكلمة. إنها إعجاب بك، وبعيونك الفاتنة، ونظراتك الألهية التي تنيرني، والتي أحبها وأتضرع لها، لو عرفت كيف أتضرع. إنها شهوة لحبك، لقبلاتك، لذراعيك، حتى أتحسسك بالقرب مني، كما لو كنت طفلاً صغيراً. ربما أشعر بذلك بسبب التفاوت في العمر بيننا، فإنك تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، في حين إنني أنا المسكينة، المخلوقة القبيحة الذابلة، أبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً. إنني ذي خبرة كأم. لو عرفت فقط ما شعرت به عندما قلت أن والدتك قد توفيت، إنني سأصبح والدتك. إن هذا ما أشعر به نحوك إلى حد ما يا عزيزي ومعشوقي "فيتور". هل تعرف ماذا كنت سأفعل لو كنت غنية؟ كنت سأخطفك معي إلى "باريس"، وأجعلك أكثر أناقة وجمالاً وجاذبية كشاب في عصرك. إنني كنت سأعلمك المبارزة بالسيف وركوب الخيل، وأنصحك، وأرشدك، وأعلمك يا معشوقي الوحيد، وكم من الفخر سأشعره بك. إنني سأكون أمك، لكن الأم في حبها لطفلها تكون هاذية، حيث تلتهمه بقبلات، وتقضي معه ليالي من العاطفة الجامحة المفرطة. وبينما أكتب إليك، رأسي يحترق. فلماذا رأيتك هذه الليلة؟ ولماذا أتيت إلى "البرتغال"؟ فهناك أيضاً أوقات حينما لا أحبك فيها، حينما أشعر

نحوك بصداقة ليس أكثر، لكنني أتحدث بكلام فارغ. إنني أحسك فقط حبيباً طائشاً عنيفاً غريباً. أخبرني ماذا يمكنني أن أقوم به لأجلك؟ ابتكر شيئاً ما: طلب ما، تضحية ما، أي شيء، أعدك إنني سأنفذه لأجلك دون شكوى. يا لحظ الرجال! فعندما يحبون امرأة، فإنهم يمكنهم تدمير أنفسهم لأجلها، ويكسونها بأزهار، ويزينونها كمعبود. لا بد أن فعل ذلك لذيد بحق، ألا تعتقد ذلك؟ ولتحمل أعباء فوق امرأة، قد هيأت كل شيء إلى حد بعيد من فن وترف وإبداع، حتى تعطيها كل مالك وصحتك وسمعتك. جيدة هي الطريقة التي أحبك بها. فإنه لا يمكنني أن أعطيك أساوراً أو ماساً، لكن صحتي وحياتي ودمي وروحي لك. وهل هناك فقط بعض من حب المراهقة بقلبك لهذه السيدة المسكينة العجوز، التي تجلس هنا في الساعة الواحدة من الصباح، وفي ظل وقود شبه خامد، متفكرة بطفلها المعشوق؟، أخبرني، أتحبني؟، إن عرفت ما شعرت به عندما رأيتك بالمرشح بهذا الاحتلال... كيف لك أن تبدو كمخلوق من عامة الناس؟ يا لبذاءة المرأة! يا لها من نساء تحب أن تكون مضروبة علناً! إنها قبيحة، غبية.

لكن هذا يفوق كل شيء، أليس كذلك؟، بالمناسبة، أتذكر أنك كنت تدعوني بـ"طائر الطريق"؟، حبيبي المسكين، إنني كنت أعلم أنك قلت هذا لأنك شعرت بإساءة من نحوي، وسخريتك هذه كانت حباً بالفعل، علاوة على أنني كنت مستفزة جداً. لكنني أثرثر الآن بكلام فارغ بدلاً من التحدث فيما هو أهم. الشيء المهم هو أنني سأقيم هنا في "سينترا" بشرط أن أنهى عملاً ما. وما هو العمل الذي سأقوم به في "سينترا"؟ إنه

عمل هام جداً، والذي حبيبي وأسيري، "دوم فيتور"، ليس في حاجة لمعرفة شيء عنه. إنه لا يمكنني تسوية العمل وأنت هنا، لكنني سأعود إلى "لشبونة" خلال الثلاثة أو الأربعة الأيام القادمة. إنني أريدك أن تكتب إليّ اليوم، وتعطي الرسالة إلى "ميلاني"، وتخبرها أن ترسلها إليّ، فـ"ميلاني مانياتر" تعرف كل شيء. وعندما أعود إلى "لشبونة"، يمكننا أن نتحدث عن هذه جميعها على مهل. إلى اللقاء يا حبيبي. إن الوقت متأخر، والوقود يخمد، وإنني متعبة. هل تعلم ما أود أن أفعله؟ إنني أود أن أتسلل بداخل حجرتك دون إيقاظك من النوم، وأن أضع أرق قبلات على فمك المعشوق، ثم أتسلل خارجاً مرة أخرى. قبلة واحدة فقط. ألدّي الشجاعة الكافية للقيام بذلك؟ أيمكنني مقاومة الوحوشة في أذنك: إنها لي، أنا "جينوفيفا"، أسيرتك. أسرني، كن أميرى وسيدى. حبيبي، كم أحبك! أحياناً ما أفكر على نفس المستوى أنك ستجعلني إنسانة أفضل. إنك أحدثت تأثيراً نقيماً عليّ، فإنني مليئة بمشاعر أكثر نبلاً، وبأفكار أكثر هدوءاً. كم يغيرنا الحب! إلى اللقاء يا حبيبي. إنني أتمنى أن يكون بمقدوري أن أقيم هنا أكتب إليك طيلة حياتي، لكن يدي الضعيفة الصغيرة متعبة. لو أمكنني فقط أن أتكا برأسي على كتفك! ألم تكن هذه نزهة ممتعة أسفل الأشجار؟ أشعرت بدفء ذراعي؟ هل عبر هذا إلى قلبك؟. ملاكي العزيز، إنني سأصلي، لا يمكنني أن أصلي مطلقاً. إنني أعرف بالكاد ماذا يعني هذا، لكنني أريد أن أسأل الرب أن يجعلك سعيداً، وأن يجعلك تحبني كثيراً جداً، وأن يمنحك كل ما يعظم الرجال ويأسر النساء. ليس لأنه من الضروري، إنني للتو بصدد أن أوضح لك، لكنك

قد انتهيت حقاً مع هذه المرأة، أليس كذلك؟ إنه أمر مبشر بالخير. لا بد أن أخبرك شيئاً ما: إن هذه الرسالة كاذبة، حيث أنها لا توضح ما أشعر أو أفكر به. إنني لا أحبك بهذا الشكل السطحي التافه، بل بشكل عميق، لكنني لا أريد أن أبوح بأكثر مما ينبغي، حيث أُرغب في أن أحتفظ بزاوية في قلبي أخفيها عنك، لأجعلك مفترضاً ومهتماً بالأمر، حتى يمكنك تدريجياً، يوماً بعد يوم، أن تستحوذ على روح، والتي دائماً ما تخصك منذ اليوم الأول. إنني أحبك يا "فيتور"، وأقسم بهذا. إنني لم أحب مطلقاً، لم أشعر مطلقاً، مطلقاً. إن حياتي تبدأ فقط للتو. إنها لم تكن قبلاً، حيث كانت مجرد أحاسيس كحياة لحيوان أو لشجرة. فإنني الآن على قيد الحياة لإنني أحبك. إلى اللقاء. إنني أقبل روحك. إنني أركع على ركبتاي وأقبلك، أعشّقك، أحبك يا طفلي الجميل. إلى اللقاء. هنا في هذه النقاط..... أضع شفتاي. إلى اللقاء. إنك نسيت معطفك هنا. إنني سأضعه تحت مخدتي، أو أنام وحدى متكأ عليه. إلى اللقاء.

التي لك.

ج.

وعندما عاد "فيتور" إلى "لشبونة"، سأله العم "تيموتيو" على الفور قائلاً:

لماذا رجعت في ذلك الوقت؟ هل الأمور إذن لم تسر على ما يُرام؟

فابتسم "فيتور"، وبدا مشرقاً وسعيداً جداً، وفي حالة غرامية متوهجة، حتى قال "تيموتيو":

"إذن فالقط فاز بالقشدة!"

وعندما أنكر "فيتور" ذلك، أضاف قائلاً:

”حسناً، الحذر فضيلة. إنه ليس ضمن التعليم الديني، ولكنه على الرغم من ذلك فضيلة“.

رد ”فيتور“ على ”جينوفيفا“ بعد ظهر اليوم برسالة طويلة، ومتدرب عليها بعناية، حيث فيها هنا وهناك، بعض من الانفجارات الخالصة لعاطفة غريزية، والتي اتضحت من خلال النثر الأدبي، كنباتات من نوع واحد بحديقة مزروعة. وفي النهاية، أضاف عدد لا محدود من قبلات، ووضع بعضاً من زهور البنفسج الجافة بطيات الرسالة، وأرفق بالرسالة أيضاً قصيدة صغيرة، مكونة من أربعة عشر بيتاً، حماسية جداً ليعبر عن مشاعره تلك. إنه كان يفهم بالموسيقى، وقد أدرج بلا شك تأملاً نغمياً أو موسيقياً.

ثم أخذ ينتظر رداً، ولم يمض طويلاً في حماسته الجامحة، المليئة بدعابات عاطفية ساذجة، ومداخلات ملتعبة. فكتب مرة أخرى، مرفقاً أشعاراً أكثر. وأمضى حياته مشتاقاً لرسالة منها، وكذلك إليها حتى تعود إلى ”لشبونة“.

فقد ترك ”فيتور“ المكتب تماماً لكونه متعارضاً مع انشغاله العاطفي. انه مازال أحياناً يقوم بزيارة إلى ”أنينهاز“. حيث أن الإنسجام الخيالي لمراسلته ”جينوفيفا“ أحدث به حاجة مادية للحب. فاعتقد نفسه وغداً، لكنه كان فخوراً بذلك. وكانت حفته أنه لم يمكنه الانفصال عن الفتاة المسكينة بعد كل التضحيات التي قد بذلتها لأجله. ومع ذلك شعر أن تعلقه بها يقل شيئاً فشيئاً. فـ”أنينهاز“ ذات أخلاق سوقية، فكره ”فيتور“ الرجل العجوز الذي يقيم في البيت، وأبغض الأشياء الثابتة جيئة وذهاباً، المرهونة شراءاً وبيعاً. فلم يمكنه تحمل طبعها المبتذل، ولم يشعر أنها تفهمه، لأنه كان

يشتاق لشريك يرفعه إلى طبقة اجتماعية أكثر ثقافة ومثالية، يمكنها أن تفهم الشعر، وكذلك حب هدوء الليل، والاحساس بالشخصيات في الرواية، والبكاء بإحساس على أثر الموسيقى، ومعرفة حقيقة ما تهدفه بتميزها.

فاكتشف جميع هذه المزايا الرائعة بـ"جينوفيا". ومنذ ذلك الوقت، حيث الحديث الكئيب الشعري في ظلال "بنها فيرد"، قد نسب إليها رقة مشاعر استثنائية، مقارنةً بإياها ببعض نساء عصر النهضة: بالسيدة "شامبالون" في "السيد كامورس"، وبالبطلة الجميلة لـ"زنبق الوادي"، وبشخصيات نسائية أخرى لـ"بالزاك"، مكتشفاً بها أصداء غريبة وضعيفة لـ"سيدة الكاميليا".

كان "فيتور" يخوض حياة، شاعراً فيها بالإختلاف ومراعاة مشاعره، حيث كان يذهب إلى "تياترودي ساو كارلوس" ليستمتع بحزن شديد إلى موسيقى أكثر رومانسية بالأوبرا. إنه لم يعد يرى "كيراو" لأن نظرياته الجمالية بدت علمية بشكل أكثر من اللازم. ففي الأمسيات كان يذهب ليرى صديق موسيقار، يُدعى "سيرافيم جالفاو". وكان "فيتور" يسترخي على كرسي نو ذراعين، وسيجارة بفمه، يطلب منه أن يعزف أنغاماً شديدة الإنفعال لـ"شوبان" أو أغاني لـ"شوبيرت"، والتي تشعره ببواعث صوفية. أو موسيقى "مندلزون"، والتي تثير فيه أفكاراً غامضة حالمة. أول "موتسارت"، والتي تغرقه بعذوبة ماهرة. أو "جونود"، والذي يمثل له التطرف الرائع للحب العصري.

ومن ناحية أخرى، كان يجتاز الشوارع، محتقراً

أصدقاءه ومعارفه، ظناً منه أنهم سيغرقوه في هموم الحياة اليومية، في حين أنه يعيش بعالم رائع لرغبة مشتركة.

وفي الوقت نفسه، لم تعد "جينوفيفا" حتى الآن. ففي رسائلها، كان كل ما قالته مشيرة إلى "سينترا": "إنني مازلت أسوى قضايا العمل: فـ"سينترا" هي مقرى".

وقد استمر هذا ثلاثة أسابيع. فقد رحلت "ميلاني" إلى "روا داس فلوريس"، ومنها إلى "سينترا"، وكذلك الأنسة "سارة". أحياناً ما كان يشعر "فيتور" بنفاذ الصبر والغيرة على "جينوفيفا" إلى هذا الحد بعيداً برفقتها بـ"داماسو"، والذي كان حبيبها في نهاية المطاف. لكن مع "أنيهاز" قد اعتاد "فيتور" على أن ينمي من الدور الثانوي لـ"الحبيب الحقيقي". إنه حقق اعتزازاً مؤكداً بهذا، فالرجل الآخر هو الصراف، والدافع، والمال. أما هو فكان المحبوب. وشعر بإحتقار شديد إلى درجة عالية نحو "داماسو"، حتى لم يشعر بالغيرة نحوه، فليس من الممكن لـ"جينوفيفا" أن تحب "داماسو". إنها تتحمله بالكاد. كما أن "داماسو"، لو لم يكن لديه مالا، فإنه يضطر إلى تحمل بعض الأغنياء عدا سيدة كريهة تنتمي إلى الطبقة الوسطى. فقد وهبت "جينوفيفا" جسدها لـ"داماسو"، ولكن ماذا أدى هذا الأمر؟، فروحها، ورغباتها، وحبها الشديد له هو، "فيتور". أنه أحدث فارقاً، شائعاً جداً بين رجال يعيشون مع سيدات خليعة، وبين متعة مزعومة ومتعة حقيقية. وبلا شك تظاهرت "جينوفيفا" بذلك مع "داماسو"، لكن معه لم تتظاهر بذلك. وكان كذلك بالنسبة لـ"أنيهاز" و"بوليكاربو". فاكشف نقاط

اتصال بينه وبين الشخصية الحقيمة التافهة لـ"أرماند" في "سيدة الكاميليا"، وباستثناء هذا، لم يعتقد نفسه حقيراً، فكان يعتبر نفسه ذا موهبة شعرية بشكل عال! وفي إحدى الليالي، عندما كان "فيتور" يمشي على "شارع روز ماري" في ظل اضاءة مصباح الشارع، رأى وتعرف بـ"بالما جوردو".

كان "بالما" يلوح بعصا المشي الضخمة، وقبعته مدفوعة للخلف على رأسه، كاشفاً عن وجهه العريض المترهل. وكان يهز فخذه بخلاعة، ويقول: "فما زال "داماسو" في "سينترا" مع هذه....."، وقال كلمة بذينة.

فأصبح وجه "فيتور" شاحباً، ورد بشفتين مرتعشتين:

"إنني صديق لهذه السيدة، وأجد أن هذه الكلمة مهينة".

فضحك "بالما" ضحكة خليعة.

"عجباً، إنها سيئة جداً!"

فوجه "فيتور" صفة مدوية إلى وجهه الممتلئ. فرفع "بالما" عصا المشي الخاصة به بغضب. أما "فيتور" فأظهر نوعاً من طاقة تشنجية، وانتزع العصا من يده، وهدده بها، وقال مصراً على أسنانه:

"يا لك من حقير!"

فهمس "بالما" قائلاً: "أعد لي عصاي"، "أعد لي عصاي"، وإما سأبلغ الشرطة!"

وكان يمر رجل على الجانب الآخر للطريق، يجتاز إليهما، ويفصلهما عن بعضهما بهدوء.

"تقدما الآن، إنكما لن تتعاركا بمكان عام، أليس كذلك؟ ما هذا، مسألة شرف؟"

فصاح "بالما" قائلاً: "سأخبره كي تعيد إلي عصاي"
فألقاها "فيتور" إليه بإحتقار قائلاً:
"عصاك، أيها الجبان!"

وما زال هنالك إثارة بالغة للمشاعر. فسار "فيتور"
بعيدا مع الرجل الآخر، والذي صادف أن يكون
"كارفالهوزا". فأخبره "فيتور" بما قد حدث.

فأبدى "كارفالهوزا" رأيه: أنه قد كان على صواب
إلى حد بعيد أن يصفعه. إن النزاع تقليد همجي، لكن
ايقاع ضربة جيدة قاسية على وجه ممتلئ كان انتقاما
معزياً وكافياً.

وأكد بفصاحة قائلاً: "إنه على الشخص أن يرد
على وحشية الإهانة اللفظية بوحشية قبضة اليد". "إلى
أين تخرج؟"

"لا مكان بالتحديد".

"حسناً، إنني خارج لرؤية "مارينهو"، حيث أنه
مريض في حالة متدهورة".
"ماذا به؟"

وفجأة تذكر "فيتور" واقعة "مارينهو"، والذي
قد سقط مغشياً عليه أثناء تناولهم العشاء بفندق
"سينترال". فعبر "فيتور" عن رغبة ملحة للذهاب
ورؤية "مارينهو"، ذلك الرجل المسكين.

انهما وجداه في حجرته بفندق "يونيفرسال"
بـ"روا دي كاموس". فكان "مارينهو" متلفعاً بدثار
في سريره، ومرتبداً قلنسوة النوم. كانت المائدة التي
بجانب السرير ممتلئة بأدوية مختلفة، والنوافذ مغلقة
باحكام، وتقوح من الحجرة رائحة الكافور. وكانت
الحجرة مرتبة بدقة شديدة، من الأحذية الملمعة
جيداً، والمصطفة ككتيبة. والملابس المطوية بعناية،

والمعلقة على الكرسي. وليس من قصاصة لورقة على الأرضية، ولا عقب لسيجار يُرى. حيث يشعر الشخص بالحذر البالغ لشخص حكيم ومحترس.

صافح "مارينهو" كل منهما في صمت، ونظر بابتسامة حزينة وفي صمت مرة أخرى إلى شخص يرتدي معطفا جميلاً مزيناً بالفرو، وبنطلونا بنفسجياً فاتحاً. لكنهما تعرفا عليه على الفور، إنه "ساروتيني". فأصبح المطرب المشهور بصورة رسمية واقفاً على قدميه، وصافحهما باكتئاب. ثم فتح ذراعيه على مدهما كما لو كان يلاقي نجاحاً عظيماً، ونظر إلى "مارينهو"، وتمتم بالإيطالية قائلاً: "يا لك من مسكين!"

وجلس مرة أخرى، يحدق النظر إليه بشفقة. فتساءل "كارفالهورا"، وهو ينزل بتثاقل على السرير قائلاً: "ماذا بك؟"

فأشار "مارينهو" إلى حلقه، ونقل تشخيص المرض بعينيه وشفتيه، إنه بحالة سيئة جداً. "هل أنت مصاب بالتهاب في الحلق؟"، حسناً، جرب البلادونا".

فتمتم "ساروتيني" متذكراً "ريجوليتو" قائلاً بالفرنسية: "إن الدونا متقلب المفعول...."، وضحك ضحكة أنفية خافتة، وأخذ يشرح بهدوء إلى "فيتور" بمزيج من البرتغالية والإيطالية قائلاً:

"إن القرص منها يشتت الشخص! يا له من مسكين!"

ثم طوى ذراعيه على صدره المخيف، وأخذ يستعيد تصنعه الرسمي.

ثم نهض "كارفالهورا"، ويديه في جيوبه، معلناً

كخطيب أنه مهتماً جداً بأمراض الحلق، والتفت إلى "ساروتيني"، سائلاً إياه بلطف قائلاً:

"ماذا تستخدم يا سيد لتخلي صوتك من الشوائب؟" فأوضح "ساروتيني" بالإيطالية منثورة بالفرنسية وممزوجة بالأسبانية، أنه يشرب شوربة دجاج مع بيضة مطروقة بها. ومن ناحية أخرى أقسم "باتي" بزجاجة من الخمر ومياه غازية.

"إنني أحب "جوزيه استفيو"، والتي تعتمد بشكل كامل على المياه السكرية. نحن الخطباء نميل إلى استخدام المطريات: ومنها على سبيل المثال، "الهورشاتا" الذي أشربه، "غاريت" يشرب "السانجريا" اللذيذ. إنه ينبغي أن نحفظ أفكارنا خالية من الشوائب". ثم رفع نفسه، وخاطب "ساروتيني" مرة أخرى قائلاً:

"لأنك تغني علامات موسيقية، ونحن ندندن أفكاراً، فلا يمكنني أن أنصح بالمياه السكرية بما فيه الكفاية جداً".

ثم أضاف أنه اكتشف سخافة بجميع الارشادات إلى حد بعيد، والتي يرد بها خلاصات فن الخطابة، حتى ينبغي أن يكون الخطيب بالطبع ذا مظهر جدير بالإحترام، ذا صدر ممتلئ وصوت رنان. يا للهراء! فـ"غاريت" غندور بعض الشيء، و"تيرز" يقرب إلى القزم في نموه ولديه صوت مزعج وقصبي. إن الأمور الهامة هي التشبيهات، والشعر، والإلهام.

وضغط على جبينه بأحد أصابعه قائلاً: "إنها أمور هامة للفن، يا له من عبقرية!"

فقال "ساروتيني" باستحسان: "يا له من عبقرية!"، ثم نهض ومال إلى "مارينهو"، يدعوه بأسماء رقيقة

قائلاً: "ابني وحببي "مارينهو"! "
ونصحه بالراحة والهدوء والصبر.
"لا تتحدث، لا تتحدث!"
ثم أصبح أكثر قرباً منه، وقبله على جبينه.
ثم التقط قبعته واسعة الحواف، وصافح "فيتور"
بتعبير من المحبة على وجهه، وانحنى إلى
"كارفالهوزا" قائلاً:

"تحية طيبة للخطيب المتميز!"
فقال "كارفالهوزا" باقتناع: "تحية طيبة لقائد فرقة
الغناء!"

ثم غادر "ساروتيني"، وهو يقول بتكبر:
"يا لهم من رجال مساكين!"
وجال "مارينهو" ببصره في دهشة صامتة.
لكن "كارفالهوزا" كان لديه اجتماع ليذهب إليه،
فربت على كتف "مارينهو"، وودعه بهذه الكلمات
قائلاً:

"لأبد أن يُقهر عجز الطبيعة بقوة الرغبة! وبلادونا
بالتأكيد!"

ثم غادر، قائلاً إلى "فيتور":
"مع السلامة، يا "فيتور" النبيل!"
وعلى الفور، انفتح الباب، ودخل رجل يرتدي
روباً ذو شامبر، حاملاً شمعدانا. إنه كان بالحجرة
المجاورة لـ "مارينهو". إنه "برودينسيو" البرازيلي.
نزل "برودينسيو" على السجادة بشيشبه المطرز، ثانياً
وركيه. إنه ذو لحية حوافيها شائبة، وعينين لامعتين
حادثتا النظر، تلمعا بوجهه الطويل الداكن.

انه أراد أن يعرف ما إذا قد كان هناك الطبيب، وما
إذا قد تناول "مارينهو" دواءه، ورد على الاشارات

المتراخية لـ "مارينهو" قائلاً:
"حسناً، حسناً!"

وعندما قال هذا، رفع يديه إلى وجهه، وضغط على عينيه.

وبيد ضعيفة، مسحوبة بحذر من أسفل الأغشية، قدم "مارينهو" "فيتور" بصورة رسمية. وعلى الفور علق "برودينسيو" بصوت وترى عال جداً:
"إن المرض محنة عظيمة".

فقال "فيتور": "بالطبع".

فقال "برودينسيو": "حسناً".

حيث أوضح أنه لديه مشاكل بكبدته، فاقترح "فيتور" عليه أن يجرب المياه بـ "فيداجو".

فقال "برودينسيو": "حسناً"، حيث أنه قد كان هناك بالفعل، لكن لم تكن الأمور جيدة، لم تكن جيدة على الإطلاق.

ثم صمت، محدقاً النظر إلى السجادة، وحك لحيته الخشنة بأناة.

وفجأة سأل "برودينسيو" "فيتور" قائلاً: "هل تعمل بالأعمال الحرة؟"
"لا، لا أعمل".

"موظف حكومي؟"

"لا يا سيدي، إنني محامي".

واستأنف تأمله بالسجادة قائلاً: "حسناً"، ثم أضاء وجهه، معلقاً عينيه الثاقبتين الصغيرتين على "فيتور" مرة أخرى، وقال: "الدفاع عن الأيتام والأرامل".

فاتفق معه "فيتور" على ذلك، بانحناء مهذبة.

"حسناً!". إنه كان حزيناً لأجل "مارينهو"، الذي

قد فاتته تناول العشاء. يا لها من وجبة شهية، شهية!

وهكذا الحديث الفلسفي!

فخاطب "برودينسيو" "فيتور" مرة أخرى قائلاً:

"إنني أستمع بالحديث الفلسفي."

"إنه دائماً ما يكون ممتعاً."

"حسناً"

وبدا أنه يبحث عن كلمة أو أفكار بالسجادة، لكنه

لم يكن قادراً على العثور على أي منها. إنه كان كما

لو ينسحب بشمعدانه، قائلاً إلى "مارينهو":

"إنني أأمل أن تتحسن في أقرب وقت."

ثم صافح "برودينسيو" "فيتور".

"في خدمتك يا سيدي، إنني سأكون أكثر شرفاً لو

تناولت الطعام معي. حجرة رقم "٢٠"، حسناً."

وانسل خارجاً على النعال الخفيفة لشبشبه.

وعندما كان "فيتور" بمفرده مع "مارينهو"، جلس

على السرير، وقال:

"انك لم تنته مطلقاً من اخباري بتلك القصة الليلة

الأخرى. انك أصبحت بقدر ما يلتمس البرازيلي سيدة

الـ"مولينو" لو كانت من "جواردا"."

فأشار "مارينهو" إلى حلقه، واضعاً أحد أصابعه

على شفتيه، وهز رأسه بقوة، معبراً بهذه الایمائية

المضحكة حتى أنه لم يصدر صوتاً. وظل هناك،

عينيه مفتوحة على مداها، أحمر الوجه، أبكم، مكتوماً

إلى حد الانفجار، مرعوباً، كئيباً.

"حسناً، إلى اللقاء يا "مارينهو"، أرجو لك أن

تتحسن في القريب العاجل."

وخارجاً بالمرمر، التقى "فيتور" بـ"ساروتيني" مرة

أخرى، والذي بدا أنه يستعيد بهجته ومرحه، وأن

يسقط وجهه الحزين الذي قد لبسه بحجرة "مارينهو".

”ماذا عن السيدة ”جينوفيفا“؟“
 ”إنها حسنة جداً، شكراً لك.“
 ”الليلة الأخرى، يا لها من حفلة رقص ممتعة! يا
 لها من ليلة جميلة جداً قامت بها ”هافيمي“!
 فضحك وأبهج ”فيتور“.
 ”اننا قضينا وقتاً ممتعاً، أليس كذلك؟ وداعاً!“
 ثم جرى وراءه، وقال بنبرات سرية:
 ”إنني نصيرك. فلم أنس أنك مؤيد للنظام
 الجمهوري. فأنا أيضاً مؤيد للنظام الجمهوري. إن
 الجميع في سبيل الحرية!“
 ”الجميع!“
 فحفظ ”ساروتيني“ توازنه بقمة درج السلم، ورفع
 يده، وقال ثانية بصوت أكثر ارتفاعاً:
 ”الجميع في سبيل الحرية!“
 وعندما كتب ”فيتور“ إلى ”جينوفيفا“ هذه الليلة،
 أخبرها أنه قد اضطر إلى ضرب صديق ”داماسو“،
 الذي قد تحدث عنها بقلة إحترام. وبعد أيام قليلة، ردت
 ”جينوفيفا“ عليه قائلة:
 لو أنك تحبني، فماذا يهم ما يقوله عني الآخرون؟
 فأصدقاء ”داماسو“ ملزمون أن يكونوا معتوهين كما
 هو أيضاً. والآن يا حبيبي، لدي أخبار عظيمة قد
 تجعلك سعيداً. إنني سأصل إلى ”لشبونة“ في مساء
 الغد. احضر لتراني في صباح الأربعاء. إليك حياتي،
 أحلامي، أفكارى، رغباتى، حماساتى، والقلب
 الصغير، لك للأبد.

الباب الخامس

استيقظ "فيتور" بحالة مرتفعة من الحماس صباح الأربعاء، حيث أنه أكثر الأيام أهمية بحياته، لأنه كان متأكداً أنه في هذا الصباح سيرى سعادته والتي جعلته بالغاً حد الكمال. فإن التي أحبتّه، أصبحت أخيراً في "لشبونة" مرة أخرى، وحرّة (حيث أن "داماسو" المغفل ليس محسوباً). فمع القبلة الأولى، ستترك نفسها إليه بلا شك. وكان قلبه يدق أسرع بهذا الاعتقاد المبهج. إنه كان يهيئ نفسه بعناية خالصة، فاشترى زهرة لعروة سترته، وكان يدخن سيجاراً غالي الثمن، منطلقاً إلى "روا داس فلوريس". إنه أدرك متعة حسية في عدم المسارعة، بل كل شيء بتمهل حلو المذاق. فالهواء، والشمس، والواجهات المتألقة، وفي ظل تأثير قلبه المليء بالسعادة، بدا كل شيء يبتسم مبتهجاً إليه من جديد.

كانت "جينوفيفا" تقيم بالطابق الثالث. قد كان البيت مرمماً ومدهوراً مؤخراً، وقد أضافت "جينوفيفا" بعض لمسات الأناقة للبناء البرجوازي بصورة مختلفة جرس كهربائي، وأثنين من الشجيرات، كل منها في أصيص على الأرضية.

وعندما وصل "فيتور"، كانت "جينوفيفا" بحجرة نومها، فانتظر "فيتور" متمللاً بحجرة الجلوس. لو قد أتى طوال الطريق من "الهند"، فإنه لن يكون أكثر انفعالاً من ذلك.

كان أثاث البيت منجداً بألوان زاهية، بقماش على الطراز الشرقي. وكان هناك أثنان من لوحات الزهور، والتي قد رآها ببيت "داماسو". إن الخشب الملمع، والسجادة الجديدة أعطيا للشقة مظهراً جديداً

غير معتاد. وكانت هناك إثنان من الزهريات المحاكية للخزف الايطالي تزين مائدة رخامية، والتي يقع أسفلها مرآة بيضاوية الشكل بتقليد مزخرف لاطار يرجع إلى القرن الثامن عشر. قد زُخرف كل شيء بسرعة، وبشكل سطحي، وبأسعار رخيصة. أنه يمكن للشخص أن يدرك حسن التوفير البرجوازي وكذلك الاحتراس.

قالت "ميلاني": "تفضل بالدخول".

وعندما دخل "فيتور" مخدع السيدة الصغير، سحبت "جينوفيفا" الستار على حجرة نومها، وأسرعت إليه. كان روبها مفتوحاً، ووضعت ذراعيها حول عنقه، والتقيا بقبلة طويلة ملتهبة. ولم تزل "جينوفيفا" بعد بذراعيها حوله، وإذ بها تأخذه إلى داخل غرفة نومها، وتجعله يجلس بكرسي ذو ذراعين، حيث ركعت عند قدميه، ثم أنعمت النظر إلى عينيهِ طويلاً، كما لو كانت تتغلغل بأعماق روحه. وكانت تسأله جميع أنواع الأسئلة: أيتها، أيفكر بها، ماذا فعل عندما رأى نساء أخريات، أين قد أمضى الليالي؟ إن أسئلتها والمزيد من القبلات التي تلاحقه سريعاً، الواحدة تلو الأخرى، لم يجعلها تستمع بالكاد إلى أجوبته، لكنها أمسكت يديه بتشنج، وبشكل محموم، متأملة وجهه بمثل هذا الاصرار الواضح الملهب، كما لو كانت ترغب في أن تستحوذ على شعره، وبشرته، وشفتيه.

كان صوت "فيتور" مليئاً بلوم من المحبة: "لماذا ظلت وقتاً طويلاً بـ"سينترا"؟ ماذا قد حققت في ذلك الكثير من الوقت؟"

فوقفت "جينوفيفا" على الفور، واتجهت إلى منضدة الزينة، وأعدت ترتيب المشط أولاً، ثم العبوة

الزجاجية.

”كنت أسوى عملاً يا حبيبي. إنني أخبرتك بذلك في رسائلي. ألم تقرأها؟ أنه لم يمكنني أن أأتي في وقت سابق، لكنني أتيت الآن، لأنني لم أعد أتحمّل البقاء بدونك. من يعلم، قد يكون تسرعي أمراً غير حكيماً“.

فوضع ”فيتور“ ذراعيه حول وسطها، وقال بصوت عذب:

”لكنك هنا الآن، وتحبيني، أليس كذلك؟ قل لي أنك تحبيني. إنك تبدين جميلة. إنني أعشقك جداً“.

فانغلقت عينا ”جينوفيفا“، وأصبحت شاحبة. فقبل ”فيتور“ أذنها بأناة.

فعلا ثديي ”جينوفيفا“ بتهيدة حب ومتعة. وقالت بشكل شبه حزين:

”أنك تجعلني أشعر بالنعاس“.

فاتخذ ”فيتور“ قولها هذا كإشارة لتخلي كامل عن نفسها، فقادها إلى السرير، ولكنه كان مندهشاً عندما انسحبت ”جينوفيفا“ بعيداً، وتراجعت، قائلة على نحو غاضب:

”لا، يا ”فيتور“، لا!“

فتساءل ”فيتور“ حائراً: ”لِمَ لا؟“

”لا ما دام هنالك رجل آخر هنا“. وأخذت يديه بيديها، وتمتعت بتوسل رقيق قائلة: ”إنني أُرغب في أن أكون لك وحدك!“.

فصاح ”فيتور“ بنفاذ صبر تام لرغبة مُحبطة قائلاً: ”حسناً، لتتخلص إذن من ذلك المغفل!“.

فاكفهر وجه ”جينوفيفا“، ونظرت بعيداً.

”لا، إنني لا أفعل ذلك، ليس الآن“.

”لكن، لماذا، لماذا؟“

”لأنه لا يمكنني فعل ذلك.“

ثم حل صمت. فشعر ”فيتور“ بعزلة مؤلمة تقشعر بدنه، ولكنها ضغطت على يديه مرة أخرى، وقالت: ”استمع، أنه لا يمكنني فعل ذلك تماماً. أنك لن تفهم، إنني لا أريد أن أخبرك. لا تسألني أية أسئلة. لكن لا يمكن أن يكون هذا. أنه لمصلحتك. فإنني لدى خطة. أنا فقط بحاجة إلى المعاناة عشرين يوماً أخرى يا حبيبي، لكن بعد هذا....“، ثم لمعت عيناها. أتعدني بطاعتي؟“

”لكن....“

”لا، قل، أتعدني؟“

وأحبها ”فيتور“ لدرجة أن على الرغم من أنه ذليل وغير سعيد، وافقها الرأي. فقالت: ”حسناً“، ”أنه يمكنك أن تأتي وتراني يوماً في المواعيد التي أعددتها. وعندما أعجز عن مقابلتك هنا، فسنستقابلاً بـمكان آخر، لكن أترك لي حرية التصرف، ولا تسألني أية أسئلة، وتطيعني في كل شيء. أتقسم بذلك؟“

”لكن....“

فأصبحت ”جينوفيفا“ نافذة الصبر تماماً.

”وهو كذلك، أنك لا ترغب في ذلك. فإنه كثير على حبك ووعودك.“

فقال: ”أقسم، أقسم“، متنازلاً عن كل شيء إليها، عن رغبته، هدفه في الحياة، وقته، جاعلاً نفسه سيافه وعبدها.

”حسناً، فعندما أخبرك إنني لك، فإنه سيكون للأبد.“
وضغطت وجهها بوجهه، وقالت بكل إجلال ليمين

مقدس:

”إنه لن يكون هنالك مطلقاً أي شخص آخر.“
وأصبح ”فيتور“ زائراً منتظماً بـ”روا داس فلوريس“. فعادة ما يذهب ليرى ”جينوفيفا“ بمنتصف النهار. في البداية كان يجدها بين الحين والآخر لم تنزل بسريرها، ولكنها تبدو ناضرة جداً، فشعرها مغطى بقلنسوة بشكل جميل جداً. كان كما لو كانت تزين نفسها الليلة السابقة، وإنها قضت الليلة بإحتشام وبنوم انفرادي. ومع ذلك، وجد ”فيتور“ كل شيء مشوشاً بالحجرة، أكوام الثياب، الذراعين العاريين لـ”جينوفيفا“. كان الأمر مثيراً جداً للقلق حتى لم يكن لديه القدرة على التحدث، فإنه ينظر إليها، ويقبل يديها، ثم يُصاب بشبه دوخة مصاحبة لرغبة مؤلمة. وفي النهاية، قالت ”جينوفيفا“:
”لا يا حبيبي، لا. إنني لن أعد أستقبلك بحجرة نومي“.

وظهرت ”جينوفيفا“ أمامه مرتدية ومتمنطقة، كما لو كانت على وشك الخروج، وبدا أنها تخاف من اثارته، حتى بارتدائها أحد عباءتها الصباحية الواسعة.

فأخبرها ”فيتور“ عن حبه لها، لكن دائماً ما تحول ”جينوفيفا“ الحديث إلى مواضيع أكثر عمومية. فتلعب، تغني أغنية ما يحبها ”فيتور“، وأحياناً ما تستدعي الأنسة ”سارة“.

وعلى الفور ظهرت السيدة الإنجليزية، مما جعل الحديث حرجاً في ظل وجودها، حيث أصبح مضطرباً. فكان ”فيتور“ يتحدث الإنجليزية بشكل سيء، وإنشغاله الكامل بوجود ”جينوفيفا“ بالحجرة

جعله ثقيل اللسان. فلم يكن لديه ما يكفي من مفردات، وأحياناً ما يرد على الأنسة "سارة" بأوه وآه وابتسامة حمقاء فقط. ومع ذلك دائماً ما كانت تتحدث السيدة الإنجليزية إليه بصورة مباشرة. إنها كانت مرتدية بعناية فائقة، ومغبرة وجهها بأكثر مما ينبغي من مسحوق الوجه، حالاً عليها حالة عاطفية، حيث غمرت له دون خجل، وأصبحت غاضبة ذات يوم، حينما قالت له "جينوفيفا":

"إنك تعلم أن الأنسة الفقيرة "سارة" تحبك بشدة". حيث بدت "جينوفيفا" أنها تستمتع بهذا الحب اليائس، إما لأنه ينفع كإهانة إضافية للسيدة الإنجليزية، أو لأنه أيضاً اختبار إضافي لمثالية "فيتور".

وفي أحيان أخرى، كان "فيتور" يجد "جينوفيفا" تطرز، ولا تتوقف عن عملها. وعندما كانت تلقى نظرة سريعة عليه بين الحين والآخر، وتجد عينيه العاشقة والملتهمة مصوبة نحوها، فإنها تقول:

"امتنع عن النظر إلى بمثل تلك النظرة! إنك تعلم أنه مستحيل".

يا له من عذاب!، فوجود "فيتور" كان يشبه اتهاماً مضاداً بصفة يومية. فذات يوم علقت "جينوفيفا" بغضب نوعاً ما قائلة:

"إنني أعلم أنك تعتقد حياتي مريحة، لكنني قد أعطيت نفسي كلمة شرف. فعندما أصبح حرة، فسأكون عبدتك وخادمتك، حينئذ يمكنك قتلي إن أحببت، لكن بعدئذ فقط!"

لكنهما قضيا سوياً صباحاً جميلاً وهادئاً، بدون أية تلميحات للحب. فأسعدته "جينوفيفا" بالتحدث عن "باريس" و"لندن". إنها ذكية، وكانت تغني

جيداً، ويمكنها التقاط وجه شخص ما وشخصيته في مشهد مسرحي هذلي، فإنها قد التقطت اللغة القوية والنابضة بالحياة لرجال ظرفاء وفنانين، والذين قد صاحبتهم يوماً. إنه كان يمكنها سرد حكايات عن رجال مشهورين، وكذلك تكرار مقولاتهم الساخرة، وآرائهم الأكثر ابتكاراً.

لم يمل "فيتور" من الاستماع لحديثها مطلقاً، حيث كان يشبه وقائع شخصية، وسيرة معاصرة، والتي استخلص "فيتور" منها تفاصيل حميمة بشرية عن حياة أشخاص في عالم الفن أو التعليم. ومن ناحية أخرى قد عاني فقط من المعاينة الرسمية التقليدية لشهرة مقررة. أنه كان يحب أن يستمع إلى قصص عن الارتباطات العاطفية للأمير الداعر "ويلز". فإنه كان يشبه اضطرار شخص ما بالاندفاع بشكل مفاجئ لفتح أبواب حجرة نوم النبيلات، مغازلا الزناة.

لكن أكثر ما أعجب "فيتور" هي "باريس" وسياساتها وفنانيها وعاهراتها. إنه تذوق كل قسما من المعلومات حول "دوماس فيلس"، و"جوستاف دوري"، والحفلات الراقصة التنكرية، والتي قبض عليها بواسطة "أرسين هوزايا". إنه كما لو كان مدخلا على عالم عصري بأكمله. أنه أعجب بتقديم "جينوفيفا" بياناً عن الحياة الخاصة لـ"نابليون الثالث"، فكيف للإمبراطور يغلق على نفسه لساعات متواصلة مع عميل من البوليس السري، مطعماً شهيته بمؤامرة، وبحبه المرضي للنميمة. وفي الليل، عندما ينسحب الإمبراطور إلى حجرته، فإنه يفترض لكل شخص أنه لابد أن يتفكر في مصير "فرنسا". إنه كان في الواقع يستغني ببراعة عن القليل من الشخصيات التي

تلتصق بصفحة الورق ليخلق مشاهد رائعة. وفي ليالٍ أخرى، كان يغلق على نفسه مع أربع سيدات في وقتٍ واحد، وينغمس في تجاوزاته، والتي تتركه هامداً، صامتاً، مخدراً، ومنغمساً في أفكار شريرة. ولحظة يشتاق لهياج حرب، وتليها لسلام الدير. كان "فيتور" مفتوناً بنفس القدر بنادي الفروسية والعاشرات والمقامرين سيء السمعة، والذين دائماً ما يترددون عليه. رسمت "جينوفيفا" صوراً حية لأشخاص شاذة للأسرة الملكية، من عشاء يتكلف آلافاً من الفرنكات، ومن تعليقاتهم الوقحة، وهجومات غريبة الأطوار. ثم تحدثت عن السلوك الشاذ لبعض من السيدات الشهيرات: فكانت هناك سيدة ذات اسم تاريخي، تحتفظ خادمتها بقائمة من أسماء وصور لجميع رجال "باريس" الأكثر جمالاً، وعملها هو اغرائهم، واحداً تلو الآخر بداخل حجرة نومها، ثم في لحظة تهور، تركت القصر، وأسرعت إلى شقة صغيرة بالدور الأرضي تقع في "الشانزليزية"، حيث أكدت لعشيقها أنها مستعدة للهروب معه والتنازل عن العرش! ومن هنا بدأ "فيتور" في الدخول إلى العالم المثقف الراقى، من علاقات غرامية مثيرة وألغاز شهية. إن ذكريات "جينوفيفا" أفتنت "فيتور" أكثر من المجوهرات والفساتين التي كانت ترتديها.

فعلّمته كثيراً، ونصحته بما ينبغي عليه ارتدائه، وكذلك الألوان التي يختارها للكرافاتات والجوارب الحريرية، حتى تقوده إلى غندورية إنجليزية وقورة. أرادت "جينوفيفا" أن يتعلم "فيتور" المبارزة بالسيف، فعلّمته الهويست. وبكل حكمة الحبيب وعناية الأم، نصحته بالكتب التي ينبغي عليه قرائتها، مانحة إياه

صفاتاً تعتقد أنها ذات أهمية.

وعندما أمضى "فيتور" الصباح يستمع إلى "جينوفيفا" بهدوء، كافأت "الأخيرة" طاعة حبه بقبلة، وكلمة عاطفية، ونظرة جذابة.

وبين الحين والآخر، كان "فيتور" يذهب لتناول العشاء هناك، لكن منذ ذلك الحين، دائماً ما يكون "داماسو" موجوداً، فوجد "فيتور" أن المواجهة أكثر بغضة، حيث أن "داماسو" لا يُطاق، بأنانيته الصارخة، وكذلك تصرّياته الغرامية لـ "جينوفيفا"، ومظهر من السعادة الوقائية يبدو عليه بكل وقاحة، فلديه طريقة للميل إلى الوراء بكرسيه، وسيجاره بفمه، مما يجعل "فيتور" معبأ بأشواق قتلية، ويقلد لهجة لمبذر نبيل أنيق "داماسو" كل الناس! ووجد أن طبع "جينوفيفا" مرعب، فكان يقرأ قائمة العشاء بصوت عال بلغة فرنسية مشوهة، ويهز كتفيه رافضاً.

حيث تتمم قائلاً: "حسناً، إنه بالكاد مقهى إنجليزي". وقد رآه "فيتور" يوماً، يلتهم شرائح من لحم البتلو بشراسة بفندق "بيليكانو"، ويشيد بها إلى السماء! فتغير "داماسو"، وأصبح أنيقاً، حيث يرتدي قميصاً بواجهتين، ولديه دبوس بقميصه في شكل حذاء فضي وشوكة ذهبية ضخمة. ورياضياً جداً. وأحياناً ما كان يقدم ملاحظة إليه كما لو كانت مسألة اهتمام بالغ قائلاً:

"إنني أتساءل من سيفوز بسباق الخيل هذه السنة".

وتظاهر بالاهتمام بـ "السباق الضخم" بـ "باريس".

ولابد بعد تناول العشاء، أنه سيجعل "جينوفيفا"

تغني أغاني من قاعات الموسيقى الباريسية، وتدخل الأفراح عليهم، مفتتحاً الحفلة بـ "فرنسا هي الدولة

الأروع بالعالم لأغاني ماجنة“، والآن أمكنه أن يغني قائلاً:

لدى كل امرأة عشقها، هوايتها وهوايته!
إنه كان يججع بغناء ممل، فصوته كالرعد بأرجاء
الحجرة. وكان يظهر كل مساء مرتدياً كرافاتة بيضاء
وذيولاً للسترة. فاكتشف “فيتور” أن البرتغاليين
شعبيون، ويتحدثون عن الرحيل إلى “باريس”، والتي
قال عنها أنها “عريضة منذ عهد بعيد”.

ودائماً ما كان يغادر “فيتور” المكان، وأعصابه
في حالة يُرثى لها، ملتصقاً من “جينوفيفا” ألا تدعوه
لتناول العشاء، حيث بدأ الآن أن يشعر بالغيرة من
“داماسو”، حيث مرت الأسابيع، ولم يزل “داماسو”
هناك، بإملاكه المحكم لـ “جينوفيفا”، وارتباطه إلي
حد بعيد بالتدبيرات المنزلية العامة، حتى أصبح عائقاً
ثابتاً بصفة دائمة أمام سعادة “فيتور”.

وعندما اشتكى “فيتور” إلى “جينوفيفا”، ابتسمت
وحاولت تهدئته بقولها:

“إنه لن يدوم الأمر طويلاً يا حبيبي”.
ومع ذلك، ازداد حزن “فيتور”. فحينما كان معها،
فإنه يستسلم لقدره، كما لو وجدت رغباته اطمئناناً
مريحاً في التأمل الخالص بـ “جينوفيفا”. إن الأمر الذي
لا ريب فيه هو أنها تحبه، وهو ما أسعد روحه. فكان
يشعر بالسعادة الغامرة، وهو يشاهد حديثها، وكذلك
وهي تطرز، وهي تبتسم، حتى نسي تقريباً آماله نافذة
الصبر بهذه السعادة المطلقة.

وعلى الرغم من ذلك، عندما يكون “فيتور” بعيداً
عنها، فإنه كان يتقد برغبات جنونية، حيث يزداد
تشاؤمه وعصبيته وانفعاله، وكان أدنى جهد يرهقه.

فقد ترك كلاً من مكتبه وأصدقائه، ولم يعد يذهب إلى المسرح، حيث أنه يقضي ليالي كاملة بحجرة نومه يعيد قراءة رسائلها، ويعيد بذهنه ترتيب كل ما قد قالته له طوال فترة الصباح، على الرغم من بساطته. وعلى المائدة حاول "فيتور" أن يتحدث، ليخفي حزنه عن العم "تيموتيو"، لكنه تحدث بإنهاك لشخص مسحوق تحت عبء ثقل. وما جعل الأمور أسوأ هو إما أن العم "تيموتيو" لم يذكر "جينوفيفا"، وأنه أيضاً غالباً ما كان ينغمس في فترات صمت طويلة، والتي من خلالها يعبس وجهه بشكل فظيع.

كان العم "تيموتيو" مدركاً تماماً أن "فيتور" كان يذهب ليرى "جينوفيفا" يومياً، حتى ترك المكتب إلى جانب اهتماماته الأخرى وعاداته السابقة. إنه كان متحمساً لـ "فيتور" أن تكون لديه عشيقة، ولكن ليكون مشبعاً جداً بالعاطفة، ومرتبطاً جداً بإمرأة، وليصبح مشبعاً بكل فرحة وشهية. إنه كان أكثر مما ينبغي.

قد اكتشف "تيموتيو" ما استطاعه بشأن "جينوفيفا"، حيث أنه قد سمع أنها كانت مغامرات باردة وجشعة، مصراً على تدمير "داماسو". واعتقد العم "تيموتيو" أنه من الخطأ أن ينبغي على "فيتور" أن يضحى بوظيفته، ومستقبله، ومشاعره الكريمة، وربما كرامته لأجل هذه العلاقة العاطفية مع عشيقة وقحة. وشعر أيضاً بالخوف الطبيعي من إقامة علاقات غرامية غير شرعية، والتي يشعر بها جميع الأبناء المسنين. فكانت "جينوفيفا" بالنسبة له امرأة فاتنة، تدمر رجالاً، وتجبرهم على عقد كمبيالات، وإجراء زواجات غير مناسبة، فهذا هو مصدر قلق لأمهات عصبيات وجدات مخلصات. وفكر: "إن المتعة ليست

بخطأ، فإنها فطرية في النهاية، لكن لو تضر بوظيفته وصحته وحرите وسمعته لأجل امرأة عاهرة، فإنني بالأحرى أكسر عظامه، واحدة تلو الأخرى.

وبعيداً عن العلاقة العاطفية، شعر "تيموتيو" نحو "فيتور" على الرغم من ذلك، أنه لم يجرؤ أن يتحدث إليه بجدية بشأن هذا الموضوع. فـ"فيتور" هو كل من له في الدنيا، فهو لم يعترضه قبلاً، ولم يوبخه مطلقاً، والآن قد حانت لحظة أن يقوم بذلك، وأن يضع عائقاً في طريق الحب. إن "تيموتيو" في العادة، سرعان ما يغضب، وسرعان ما يضرب، ولكنه شعر بالجبين والتعوق كأم ضعيفة.

ولكن كان "تيموتيو" يعذب نفسه بالقلق، وبعدم قدرته على النوم إن لاحظ أن "فيتور" مستغرقاً بذاته أكثر من العادة، أو أن تناول طعامه بالكاد، حيث كان يسمعه يخطو صعوداً ونزولاً بحجرته لساعات متواصلة، إنه عصر عقله كي يتخيل سبب ذلك الحزن، وفكر أنه لا بد لـ"جينوفيفا" أن تعلم أن "فيتور" سيرث ماله عندما يموت، وكانت "تبقية معلقاً" لكي تخدعه بالزواج. لكن إن أرادت زوجاً غنياً، فلديها "داماسو". فهل قد انجذبت إلى "فيتور"، ثم مللت وأبعدته، تاركة إياه في حالة من الحب واليأس؟ ربما رحلة إلى الخارج تلهيه عن ذلك. فذات يوم اندفع قائلاً:

"ما رأيك في رحلة إلى "باريس"؟، فإنه ينبغي على الشخص أن يرى جزءاً من العالم".

لكن رفض "فيتور" الاقتراح بشدة، مظهراً لنفسه أنه سعيد تماماً بـ"لشبونة"، فأرجع العم "تيموتيو" غباءه إلى الآثار المذهلة لحب سعيد، وواسى نفسه

بهذا الاعتقاد:

”إن البائس الفقير لديه قلب عنيد لأب وروح متهورة لأم“.

وبعد هذا، شعر ”تيموتيو“ بالغضب الشديد أن يسأل ”فيتور“ أية أسئلة صريحة. فأحياناً حينما لم يتطلع إليه سرا بعيون مليئة بالدموع، فإنه يصيبه بلمحة جانبية مليئة باليأس والحزن.

واستمر حزن ”فيتور“ في نموه. فأحياناً ما كان يشعر بعدم الرغبة في الذهاب لرؤيتها. ولكن عندما اقتربت الساعة، قادته قوة خارقة إلى ”روا داس فلوريس“. والآن وجد ”فيتور“ أن ”جينوفيفا“ عصبية ومنفعلة، حيث كانت جالسة في صمت لفترات طويلة، ثم نظرت إليه نظرة حادة مفترسة.

فسألها ”فيتور“ ذات يوم قائلاً: ”ما الغرض من هذا العذاب؟“

فلم ترد، أما هو ففسر صمتها على أنه صمت لصلابة مقبورة الآن، فحضرها بذراعيه، وشملته بقبلات شبه مؤلمة، حيث أنها مليئة بانتقام عاطفي، ثم وقفت قائلة:

”لا، ما يُقال يُقال. لكن، اسمع، إنه خلال أسبوعين من الزمن، سأكون لك“.

فاكتشف ”فيتور“ روعتها شبه الخيالية. أنه أحياناً ما يكون مهزوزاً، كما لو كان بارتجاف، وذلك باعتقاده أنها قد تلعب به. ”إنني سأقتلها إن كانت كذلك!“، لأن حبه الآن أصبح ممزوجاً بشعور غامض بالكرهية. أنه كان يأمل تقريباً أنها تخدعه، وتسخر منه: وفكر: ”حينئذ سأسبب فضيحة ما أو أرتكب جريمة!“، مكتشفاً أنه بأمل الانتقام راحة من حبه.

وفي المناسبات، عندما تثير "جينوفيفا" في "فيتور" مدى ثباته، فقط بارتدائها فستاناً ملائماً، أو الضغط على يده بشدة أكثر من العادة، فانه يضطر إلى اللجوء لزيارة "أنينهاز" ليهدأ من هذه الاثارة، منغمساً في الملذات. ولكنه الآن كره "أنينهاز". فسلوكها المبتذل، وأسلوبها السوقي في التحدث، ورائحة الخضار المقلي التي بالمر، جعله غاضباً وهائجاً.

يا له من أمر مختلف جداً بكونه مع "جينوفيفا"! ولكنه يستمتع أيضاً بالذهاب لرؤية "أنينهاز" كوسيلة، لأنه هناك هو السيد، فهو الذي يعطى الأوامر، ويتحدث بصوت عال، ويعذبها، معوضاً الامتناع عن ممارسة الجنس المفروض عليه من جانب "جينوفيفا". كان "فيتور" دائماً ما يجد شيئاً ما ينقده بـ "أنينهاز"، أما أنها سيئة المظهر من رداء وقلنسوة وحذاء، أو أن الحجرة غير مرتبة، أو أن الفوط غير مغسولة.

فتساءلت "أنينهاز" قائلة: "لماذا أنت فظاً جداً معي؟"، "ما الخطأ؟ ألا تحب كونك هنا؟"

فأثارت حلاوتها غضبه، ومداعباتها أخزته. فهذه الفتاة الصغيرة السوقية التي احتقرها، غمرته بحب غزير، في حين أن الأخرى التي عشقها بحماس وبصورة محمومة، تدعه بالكاد يمسك يدها.

كان "فيتور" أحياناً ما يدفع "أنينهاز" عنه بعيداً قائلاً:

"اتركيني بمفردي!"

كانت تلك الفتاة الفقيرة ترهق عقلها الصغير الضعيف حتى تجد طريقة ما لتملكه وتأسره، لكن للأسف، كانت محاولاتها لاغراء "فيتور" غير بارعة على الإطلاق، حتى دفعت "فيتور" لليأس. فلو أغرته

بتصنع عاطفي يحل عليها، فلا بد أن يجدها "فيتور" سخيّة. ولو حاولت توجيهه إلى حديث أدبي، فإنها تتحدث إليه عن كتب كانت تقرأها، "الملك اللص"، "انتقام كالأبرياء"، "المعاطف السوداء ذات الذبول"، وغير ذلك من كتب مرعبة. ولو حاولت أن تتصرف كبعض الخليعات المتألقات، فيجدها "فيتور" مساعي جافة سخيّة كنشوات مزعومة لعاهرة محترفة. فتمكنت "أنينهاز" الفقيرة من تزايد كآبة "فيتور". وعلى الرغم من ذلك، كانت تحبه بحق، وأحيانا ما كان يسمح "فيتور" لنفسه أن يُجرف بحبها، فبخدعة مألوفة من الخيال، يمنحها الكلمات والقبلات، والتي تمنى أن يمنحها لـ "جينوفيفا".

لم تستطع "أنينهاز" فهم لماذا كان ينبغي على "فيتور" أن يريد المصاييح بالحجرة، لكن برويتها إياه مثارا إلى حد بعيد، وهائجا جدا بالشهوة، جعلها سعيدة تماما. فكان "فيتور" يستحضر صورة "جينوفيفا"، ويفقد "أنينهاز" بأكثر كلمات الحب إثارة، وكذلك شراهة المداعبات، والإحياء الجامح لرغبته التي لا تشبع. كان "فيتور" يظهر هذه المشاعر المفرطة أكثر بعيدا عنها. أما "أنينهاز" الفقيرة المغفلة، فكانت تظهر عشقا أكثر.

وتحت تأثير حبه لـ "جينوفيفا"، أصبح "فيتور" تقريبا سريع التأثر بالنساء تبعا للتغيرات في الأحوال الجوية: فيمكن لأعصابه أن تستقر على حافة سماء غيمية أو رياح قاسية. ويمكن لبعض الأنغام أو المقطوعات الموسيقية أن تدفعه للبكاء. بدأ "فيتور" أن تكون لديه أشواق دينية. فذات يوم دخل إلى كنيسة، وكانوا يعقدون قداسا ملحنا. وأثارت الأصوات العالية،

وصوت الأرغن فيه شبه مشاعر صوفية، حتى ركع،
مقرراً الهروب إلى سلام الدير.

إنه كان في نوبة غضب وحيدة إلى درجة عالية
حتى قال إلى "جينوفيفا":

"انظري، إنني انتظرت حوالي شهرين من الزمن
ومازلت. لو أنك لست جادة بشأني، فلن أتي هنا مرة
أخرى".

فردت سريعاً، حيث أنها كانت بحالة عصبية بنفس
القدر قائلة: "ليس بعد ذلك".

فصدم "فيتور" وحزن جداً، حتى انفجر في البكاء.
فسقطت "جينوفيفا" عند قدميه، مداعبة إياه بعنف،
حيث قبلت يديه، وتعلقت بذراعيه، وبكت قائلة:

"انك قلت أنك فهمت. إنني أحبك لأنني لم أحب أي
أحد على الاطلاق. لكنني أريد أن أعيش لأجلك فقط.
هذا هو السبب الذي أبقيه عليك. وحينما أكون لك،
فإنني أرغب أن أكون لك وحدك". وأضافت بصوت
يمزق القلب قائلة: "لكنني لست غنية يا حبيبي. وعلى
ديون ينبغي أن أدفعها. فدعني أحصل على كل شيء
بقدر الامكان من ذلك المغفل... وبعدئذ....".

ثم استرخت على كعوب قدميها، وفتحت ذراعيها،
قائلة بإبتسامة حزينة:

"دعني أحصل على مهري".

وبدت هذه التضحية، التي عبرت عنها "جينوفيفا"
بإخلاص بالغ، عظيمة إلى "فيتور". فالتمس منها
السماح، واعداً إياها أن يكون أكثر استسلاماً، ثم
غادر، ولايزال في قبضة هذه الرغبة المفرطة، والتي
منعته من رؤية عار الموقف، وفكر طوال الوقت:

"مهرها، حبيبتي الفقيرة، ملاكي الفقير!"

إن "جينوفيفا" قالت الحقيقة، حيث أنها تعبد "فيتور". وتحت صلابتها الواضحة، كانت تعاني أكثر منه، من آلام الرغبة، وعذابات نفاذ الصبر. فأحياناً، بمجرد ما يغادر "فيتور"، فإنها تقبل مسند المقعد، حيث كان يسند رأسه، أو حافة المائدة، حيث كان يتكأ بذراعيه. فهي كانت تجمع هذه العاطفة المادية مع مشاعر مثالية أخرى. أنه لم يمكنها تحمل فكرة ضرورة اقتسام فراشها مع رجل آخر. فحينما كانت تخصه، فإنها تريد أن يكون حبهما مطلقاً، مثالياً، بلا انقطاع، بلا عقبات، بلا قيد، بلا شكوك، بلا خداع. إنها لا ترغب في أن تختبأ من أي شخص أو تتزعج منه. إنها لا تريد تحمل أي فقدان لاحترامها، حيث أرادت أن يكون لديها الملابس نفسها، وكذلك من مجوهرات، وعربة نقل، وشقة أنيقة، وعلى الرغم من أن كل هذا استغرق وقتاً طويلاً، مما ترتب عليه نقصان جمالها، فإنها في حاجة إلى استكمال جمالها بتزيينها نفسها. وكي تقوم بذلك، فإنها في حاجة إلى المال. و"فيتور"، عاشق فقير، ليس لديه مالا، و"جينوفيفا" كذلك. ففي "باريس" كان عليها ديون، ينبغي عليها أن تسددها، وعليها أن تجمع بعض المال لبعض السنوات الأولى، قبلما يمكنها أن تكون ملكاً لـ"فيتور"، بلا مخاوف، ولا مشاكل مالية، ولا دائنين. في البداية كان "داماسو"، بالتقليد البرتغالي العاقل، غير راغباً في أن يعطيها مالا، ولم تره "جينوفيفا" مطلقاً مصدراً غير محدود للنقد، فلم تخف عنه حبها لـ"فيتور"، وأنها كانت على أتم الاستعداد أن تقود "داماسو" إلى الباب وتطرده. وعلى الرغم من ذلك أصبح "داماسو" المجنون بالحب، المتيم، المستعبد أكثر كرمًا فيما بعد، وكشف

عن الحجم الحقيقي لثروته، فأظهرت "جينوفيفا" له تقدير كل عاهرة لديها زبون غني، فإنه شخص جدير بالإعتبار. ومارست معه الملهاة المعهودة للحب الجسدي. وأخبرته أنها تحبه، ربما ليس بقلبها، ولكن بغرائزها. إنها كانت تعلم أنه لا شيء يؤثر على ذلك المغفل مثل فكرة المذاذ التي يظن أنه يحدثها. ففي "سينترا"، تتظاهر "جينوفيفا" بحب شديد له، وتقع عند قدميه، وعينيها تتراجع. فقد صنعت فعلاً ماهراً لهذين مستغرق، وربطته بها بمهارة بالغة، حيث أنها استعبدته إلى حد بعيد، حتى بدأت أن تخرج منه رزماً من المال بكل سهولة كما لو من صندوق النقد. وذات يوم سدّد "داماسو" ديونها، فقط عشرة "١٠" "كونتودي راييس"، وأعطاهها ثلاثة "٣" "كونتودي راييس" كحق الرباط بينهما. مما شجعها. وفي نفس الوقت، كانت مع المرابي في "باريس" وبتدخل صديق، قد وضعت فاتورة حساب، ووقعت عليها بما يُقدر بخمسة "٥" "كونتودي راييس". فأخبرت "داماسو" أنه لو لم يكن بإمكانها سداد هذه الفاتورة، فإنها ستضطر إلى الرجوع إلى "باريس"، وبيع أثاثها وأثنين من الأحصنة الخاصة بها (واللذان ليسا بملكها)، وبكت على اعتقاد أنها ستتركه، عشيقها، "داماسو" الذي لها. وأظهرت له رسالة بها "سوفيريس" (والذي ادعت أنه شاب غني جداً في "باريس"، يعمل وكيلاً بـ "أوبنهايمر"، وقد أظهرت حبه لها)، والذي قدم لها عرضاً كريماً جداً لو تذهب معه إلى "فرانكفورت". فأثارت دموعها "داماسو"، خائفاً من أن يفقد "جينوفيفا"، وسعيداً بأنه أصبح أفضل من وكيل "أوبنهايمر"، فسدد قيمة الفاتورة. ومثل هذه البلاهة شجعتها على بقاءها أكثر،

حتى احتكمت على رأس مال صغير يُقدر بثمانية "٨" "كونتو". فأرادت أن تذهب إلى "باريس" مع "فيتور"، ثم تشاهد ما يحدث لاحقاً! لكن منذ ذلك الحين، واصل "داماسو" العطاء ببذخ، فأرادت التمسك به لأطول فترة ممكنة. واستخلصت منه الكثير من المال، حتى تصبح حياتها مع "فيتور" أسهل وأسهل. إنها ستبيع كل شيء تملكه بـ "باريس"، وتذهب وتعيش مع "فيتور" في "أوتيل" أو في "نوفشاتيل"، ولأنه لديه إعانة صغيرة من عمه "تيموتيو" وثروة ليرثها، بدا الترتيب لـ "جينوفيفا" تدبيراً متقناً، مليئاً بسعادة مستقبلية حافلة بالحب. وعلى الرغم من أن الحب قد أصبح مؤخراً بشكل كبير من الحذر. فلولم يكن عيد ميلادها قريباً، لكانت طردت "داماسو" في أقرب وقت. أنها تأمل أن تتلقى هدية قيمة. في البداية قد اقترح عليها مجوهرات، لكنها أظهرت ذوقاً برجوازيّاً طيباً، مما أسعد "داماسو"، وقالت أنها لا تريد مجوهرات فإنه لديها الكثير من المجوهرات بالفعل!، إنه ساعدها في تكوين مبلغ صغير من المال. ولو فعل ذلك، فإنها لن تعد أن تسمح له بدفع المصروفات المنزلية.

"إنني أحبك كثيراً، حتى إنني أكره حقاً اضطراري إلى أن أخذ مالا منك. إنه يمكنك أن تقدم لي هدايا، ولكن ليس مالا. إنني في حاجة إلى إيراد صغير. أنه يمكننا أن نعيش بشكل مثالي في "لشبونة" على ثلاثين من "الليبراس" يومياً. أعطني ما يكفي من المال حتى نحقق هذا، وانسى أمر المجوهرات. إنني أريد أن يكون حبنا علاقة نزيهة تماماً".

فوعدها "داماسو" المسرور أن يمنحها مفاجأة جميلة إلى جانب هذه البنود. فاعتقدت "جينوفيفا" أنه

سيعطيها حوالي ثلاثة "٣" أو "٤" "كونتودي رايس". وفي اليوم التالي، ستغلق بابها في وجهه إلى الأبد. فاليوم يوافق "١٠" من شهر مارس، وعيد ميلادها يوافق "١" من شهر أبريل.

وما زال "فيتور" يذهب لتناول العشاء ببيت "جينوفيفا"، على الرغم من أنه نادراً ما يأتي، لأنه قال أنه يجد بحضور "داماسو" "خبلاً" بالغاً. ومع ذلك، في مثل هذا الوقت، عندما حضر "فيتور" ذات مساء إلى البيت في الساعة الثامنة، اندهش من ترحيب الأنسة "سارة"، حيث قادتة إلى الصالون، موضحة له أن السيدة "جينوفيفا" قد خرجت مع "داماسو" في فترة ما بعد الظهر، حتى أنهما تناولوا العشاء بمطعم، وذهبا إلى المسرح، وأن "ميلاني" قد اختفت بمكان ما خارجاً لتسلي نفسها. كانت "سارة" تتحدث بأسلوب مرح أكثر من اللازم، حيث كانت عينيها تلمع، وظلت تضحك بدون سبب واضح، وأدرك "فيتور" السبب عندما رأى زجاجة النبيذ المسكر. فالآنسة "سارة" سكرانة. ووجد "فيتور" أن هذا مضحك في الواقع، فوافق على قليل من النبيذ المسكر، وأشعل سيجارة، واستقر ليستمتع بالعرض.

كانت الأنسة "سارة" بحالة مزاجية ثرثرة، حيث أطلقت على الفور سلسلة من الاتهامات بشأن "جينوفيفا". كانت "جينوفيفا" حسب ما قالته الأنسة "سارة"، شخصاً مقرفاً جداً، والذي يكشف النقاب بالكاد عن سيدة غير متعلمة. إنه أمر محزن أن "سارة"، التي على تعليم جيد، وتنتمي إلى عائلة محترمة، أن تضطر إلى أن تعتمد على مثل هذه المخلوقة. فتنهدت وعزت نفسها بكأس من النبيذ المسكر. بالإضافة إلى ذلك،

أن السيدة ليست لديها أية معتقدات رئيسية، فلم ترها يوماً تذهب إلى الكنيسة على الإطلاق. إنها بالطبع لم تستحسن الشعائر الكاثوليكية المروعة. لكن لو كان لدى الشخص دين، وهذا الشخص سيدة، فينبغي عليها أن تدين به لأجل كرامتها حتى تذهب إلى الكنيسة وتستمع إلى العظة. وصبت "سارة" لنفسها كأساً آخرًا من النبيذ المسكر.

ففكر "فيتور"، متسللاً جداً بكل هذا: "أنها أصبحت سكرانة تماماً".

ثم جلست الأنسة "سارة" بجواره على الكنب، وبدأت تحاول اقناعه أن يقلل اهتمامه بـ "جينوفيفا". فهذه السيدة متيمة بـ "داماسو"، وأحياناً ما يكون سلوكها غير محتشماً بشكل لا يقبل الجدل، فدائماً ما تقبله، وتداعبه، ويغلقان على أنفسهما بحجرة نومها طوال اليوم، بوقاحة إلى حد بعيد. إنه أمر مثير للاشمئزاز، مقزز جداً!

فشعر "فيتور" بإهتمام ملح مفاجئ فيما تقوله الأنسة "سارة"، فتساءل عن تفاصيل أكثر. فمنحته الأنسة "سارة" إياها: أن يوم الأحد الماضي، لم يستيقظا "داماسو" و "جينوفيفا" حتى الساعة الثالثة بعد الظهر! وقد أصبحت غاضبة حتى تركت البيت كي لا تضطر إلى استنشاق مثل هذا الجو من الفساد الأخلاقي والخطيئة.

وبينما كانت تواصل "سارة" حديثها وشرابها، ظلت تقترب إلى "فيتور". وكان "فيتور" جالساً على أحد طرفي الكنب، وشاهد وجهها الأحمر المبقع، ملتهبة بالحديث والنبيذ المسكر، وكانت تقترب إليه تدريجياً.

ثم تحسرت على وجودها، فإنها هناك في بلد أجنبية، بلا أصدقاء، ولا عائلة، ولا أحد يهتم بها في جميع أنحاء العالم بأسره. لا أحد.

ثم طوت يديها بحضنها، ونظرت إلى "فيتور"، والذي ذكر "جينوفيفا" في حديثه، فقالت: "أوه، من فضلك لا تتحدث عنها. إنني أكره هذه السيدة!"

أمن الصواب أن يحب شخص ما سيدة المولينو، سيدة بلا مبادئ، ولا دين، ولا أخلاق. ولا بد أن يكون لديها جميع الأشياء الجيدة بالحياة من ملابس جميلة، وبيت مريح، وأشخاص يحبونها. في حين أنها هي، سيدة طبيعية، وعلى تعليم جيد، تضطر إلى أن تعيش كمجرد عالة؟ إن سيدة المولينو ليست سيدة. ثم دفعت صدرها إلى الأمام، وقالت ثانية بكل تأكيد:

"لا، إنها بالتأكيد ليست سيدة!"

ووضعت يدها على ذراع "فيتور"، وسألته بحنان لماذا أحب مخلوقة لم تجعله سعيداً مطلقاً، والتي لم تحبه في المقابل، وتهتم فقط بالمال.

كان "فيتور" شاعراً بالخجل قليلاً، على الرغم من أنه سرّ بشكل معتدل بالترثرة الكحولية للآنسة "سارة"، وقال أنه لم يحب "جينوفيفا"، إنه فقط اكتشف ظرافتها.

فتساءلت الآنسة "سارة" متلهة: "حقاً؟"

فقال، وهو يجلس بشكل أكثر ارتياحاً على الأريكة: "بالطبع". لكن لماذا كانت الآنسة "سارة" راغبة جداً في أن تعرف؟

إن الآنسة "سارة"، التي كانت تصب لنفسها مزيداً

من النبيذ المسكر، إذ بها فجأة تلقي ذراعيها حول عنق "فيتور"، مصرحة له أنها تحبه.

قففز "فيتور" على قدميه، كما لو هيكّل عظمي قد لمسّه، وصاح قائلاً:

"لا، لا، من فضلك لا تقومين بذلك! من فضلك يا سيدتي، لا!"

لكن أمسكت الأنسة "سارة" به بإحكام، ودعته بجميع أنواع الأسماء العاطفية، مثل "قرة العين"، و"الطفل المدلل". وقالت أنه لا يمكنها أن تعيش بدونه. إنه شعور بأنه لا يمكنها المقاومة، أنها مفتونة به.

فشعر "فيتور" بأصابعها الناعمة النحيلة على كتفيه وعنقه. وكان وجهها القرمزي مرتعشاً بالرغبة، وكلماتها متعثرة بأسنان كبيرة. كان "فيتور" غاضباً، حيث شعر بالسخافة. وفي نفس الوقت، أثارت الإثارة الحسية لتلك السيدة الطويلة النحيلة السكرانة بالنبيذ، بعضاً من الرغبة السخيفة الوحشية في "فيتور". فهناك شيء ما مثيراً بشأن هذه الإنجليزية الملتهبة بوحشية الجسد، لكن لو استسلم لها، فكيف يتخلص منها بعد ذلك؟

واجتازت هذه الفكرة إلى عقله بسرعة البرق، حيث دفعها عنه بعيداً، وقذفها بكلمة واحدة بلغته الإنجليزية المحدودة للغاية:

فقال: "مشيناً!، وحاول أن يخبرها أن تهدأ، وترجع إلى نفسها، وتذهب للنوم.

فقامت الأنسة "سارة" بمحاولة أخيرة لإحتضانه، ولكن في ذلك الوقت، قد التقط "فيتور" قبعته. وبينما يتحرك إلى الوراء، قال:

"لا، من فضلك، لا تقومين بذلك. إنه أمر غير

لائقاً!

فحدقت الأنسة "سارة"، وهي ذليلة، النظر إليه بغضب قائلة:

"إنك حقير!"

وبينما يخرج "فيتور"، سمع الأنسة "سارة" تقول أنها ستنتقم.

وصل "فيتور" إلى البيت، شاعراً بالضيق تماماً. فإنه لم يمكنه المساعدة سوى بكونه متملقاً بهذا الانفجار العاطفي من جانب سيدة إنجليزية متدينة. لكنه شعر بالرغم من ذلك بقليل من السخافة، حيث أنها ذكرته بقصة "جوزيف وعباءته". إنه كان يخاف من أن تتآمر الأنسة "سارة" عليه.

لم يقل "فيتور" شيئاً عن هذا إلى "جينوفيفا" في اليوم التالي، حيث أن "جينوفيفا" بهذا ستطرد السيدة الإنجليزية، مما يسبب تدميراً لتلك الإنسانية الفقيرة، التي تعيش بمفردها في بلد غريبة. ولكن بعد يومين، اندهش "فيتور" بتلقيه رسالة قصيرة من "جينوفيفا"، تقول فيها:

حبيبي،

أنه من المهم جداً ألا تزورني أو تكتب إلى خمسة أو ستة أيام مقبلة. فلا تأتِ حتى تحصل على رسالة مني. فالكثير من سعادتنا المستقبلية تعتمد الآن على حذرك. إنني أعلم أن هذا فظيع حقاً، ولكنه من الضروري.

فاعتقد "فيتور" "إن هذا عمل السيدة الإنجليزية". ماذا قد قالت؟ ماذا قد فعلت؟ إنها قد تحدثت إلى "داماسو" بلا شك. هل لفقت أكاذيب بشأنه؟ وقاد الشك "فيتور" تقريباً إلى اليأس، والآن ممنوعاً

من زيارة "جينوفيفا" أو أن يكتب إليها. فكان يأمل أن يراها في الشارع، على الجسر، في المسرح، ولكن لم يسعفه الحظ. وفي الليل، كان يسير ماراً ببيتها، ورأى الشبايبك مضاءة. أنه قد يعطي أى شيء لديه حتى يعرف ماذا يحدث. فماذا تفعل "جينوفيفا"؟ ومع من؟ وما الفستان الذي ترتديه؟

أحياناً ما كان يرى "فيتور" عربة "داماسو" عند الباب، مما أثار غضبه وملاًه بغضب الغيرة. فحاول أن يتذكر ويتأمل بجميع براهين الحب التي قد منحها "جينوفيفا" إياه، رسائلها التي قد كتبتها، قبلاتها، لهفتها الواضحة، بحيث يمكنه اكتساب شجاعة الإنتظار والحياة. وأحياناً ما كانت ترجع أصداء كلماتها في أذنه: "إنني مضطرة إلى أن أحصل على مهري". وكان يرفع بصره إلى الشبايبك المضاءة ببهاء، ويتخيل "جينوفيفا" جالسة على ركبة "داماسو"، وذراعيها حوله، تبيع نفسها حتى "تسلب" "داماسو".

ثم طغى على "فيتور" نوع من الاشمئزاز لهذه العاطفة، والتي أدرك فجأة أنها ملوثة ومشينة. فلمن المهر إذن؟ بالطبع له. أليس هذا أمراً حقيراً ولا يليق؟ إنه حقاً حقير. فإنه يتآمر مع امرأة حتى "يسلبها" مغفلاً مسكيناً، ثم يقتسما المكاسب فيما بينهما. وبينما ذلك المغفل بحجرة نومها، كان "فيتور" يطوف فيما حول البيت، ينتظر، وقلبه مغموماً ومغذباً بهذا الحب الحقير، وعينييه مصوبة نحو تلك الشبايبك المنيرة التي بالدور الثالث. أليس هذا ما يفعله الديوث؟

ثم قرر أن يتركها وينساها. لكن أيمكنه ذلك؟، أن جسده، دمه، وجدانه، قضاءه، يخص هذه السيدة بالكامل. ثم أنه لم يحلف مطلقاً أن يعيش معها كرجل

وزوجة، وأن يواصل أشواقهما في انعزال تام، حتى تستفيد هي فقط من هذا "المهر".

و ذات ليلة ممطرة، كان "فيتور" التعيس والمستنفد بالغيرة، ماراً بباب بيت "جينوفيفا"، فرأى عربية أجرة واقفة بالخارج. وأثنين من الأحصنة واقفين ورأسهما للأسفل، غير مباليين بسقوط المطر عليهما. ورأى وهجاً لسيجارة بداخل العربية، حيث أن "السائق" قد اتخذها مأوى. كان هناك مصباح مضاء بحجرة نوم "جينوفيفا". فحل الشك بـ "فيتور" أنه قد لا يكون "داماسو" هناك بالأعلى، وعلى الفور غرق قلبه بجميع أنواع الشكوك الأخرى. أمن الممكن أن يكون رجلاً آخر؟، فإنها جميلة جداً، وأنيقة جداً، ولا بد أنها مرغوبة لكثير من الرجال. فهل لكي تنجز مهرها، قد تتخذ عشيقاً آخر؟ هل هذا هو السبب الذي قد أخبرته بشأنه ألا يزورها حتى لا يواجهها مع رجل آخر باستثناء "داماسو"؟ فاقترب إلى العربية، كما لو كان سيتأجرها.

فقال "السائق": "هنالك شخص آخر أصطحبه".

"السيد "داماسو"؟"

"إنه زبون، لا أعرف من هو. قد يكون السيد

"داماسو"، ولكنني لا أعرفه".

"رجل قصير وسمين".

فقال "السائق" بشدة: "إنني لا أعلم، فلست شرطياً".

فقرر "فيتور" الإنتظار، وواصل المطر في

سقوطه. وكان مخزياً من "السائق"، حيث قد اتخذ

مأوى في الزاوية بـ "كالسادي دوبيمنتا". أنه لم يقلع

بصره عن الشباك ولو لثانية واحدة، لكن لم يظهر

أي ظل نسائي. وبدا الضوء الخافت يأتي من الشموع

الموضوعة على منضدة الزينة.
وأقسم "فيتور" إلى نفسه أنه لو اكتشف أن هناك رجلاً آخر، فإنه سيقطع علاقته بها. وقد نظم رسالة قاسية متهورة عنيفة ليكتبها إليها. ماذا لو كان هذا مرشحاً آخراً لذلك المهر؟ ماذا لو كان هذا عشيقاً ونزوة أخرى؟ ماذا لو أرادت أن تخلص نفسها منه؟ ومازالت الأمطار تسقط، وقدماء متأثرة بالبرد، وركبتيه مشبعة بالماء. وكان الشارع خالياً من الناس، وأحجار الرصف تلمع تحت مصباح الغاز. وكان المطر يتدفق من البالوعات، ومازال المصباح مضاءً بحجرة النوم. وفي ظل المطر الضبابي، كانت فوانيس العربدة تلمع كعينين مرهقتين محمرتين. وفجأة، كان هناك صوت مزعج بجانبه يقول: أيمكنك أن تدبر لحظة من وقتك يا سيدي؟ كان أمام "فيتور" شخص طويل القامة، نحيل، يرتدي قبعة واسعة الحواف، ومعطفاً قديماً ذا ذيول، مطوياً بالياقة، وبنطلوناً مهلهلاً. وفي الملمح الظلي للقبعة، استطاع "فيتور" أن يلاحظ عينين لامعتين محدنتين بوجه نحيل ذي لحية كبيرة. فقال الرجل: "سيلفا"!

لكن "فيتور" لم يتعرف عليه. وكان ينظر باشمئزاز إلى هذا الشاب المرتدي بخرق الفقر والريذيلة. فرفع الرجل طرف قبعته، وتمتم قائلاً: "لم يعد أصدقاؤني يتعرفون عليّ..."

فتجمد "فيتور". أنه صديق قديم من أيام دراسته بالجامعة، والذي قد ترك دراسته في السنة الثانية. أنه ابن لعائلة معروفة، ولكن المقامرة والخمر والفجور قد حولت هذا الشاب الجميل، الذي اعتاد على ركوب

الخيل على طول شوارع "كويمبرا"، من غندور إلى تافه، من تافه إلى عدم، ومن عدم إلى هذا الصعلوك أجوف الخد، والذي يضطر إلى أن يتأوى في الليل بمداخل البيوت، ويستلف مالا من معارفه القدامى.

وقد مد الرجل يده إليه، ولكن شعر "فيتور" بالنفور من أن يمد يده إليه.

فقال الرجل الآخر بصورة رسمية: "أنه يمكنك أن تلمسني، إنني لست جربانا".

فشعر "فيتور" بالخجل، ومد يده إليه، وقال بشكل غامض:

"ماذا تفعل هنا؟"

"إنني آتأوى هناك، وفي حاجة إلى قليل من المال". فوضع "فيتور" بعضاً من النقود في يده بقوة. ووضعها الرجل الآخر بجيبه، وقال مبتسماً:

"ان الأشياء في الوقت الحالي سيئة. فإنك لا تحصل على الكثير مقابل المال هذه الأيام، حيث أن كل شيء غالياً جداً. ماذا تفعل هنا؟"

"إنني منتظر.....".

"سيدة، أليس كذلك؟، ان بطنك ممتلئة جداً. إنني أراهنك أنك تعشيت شوربة ولحماً بقرية مشوية وحلويات!"، ثم ضحك وأطلق صوتاً كالشخير قائلاً: هذه هي الحياة، أليس كذلك؟، أعطني زوجاً آخرًا من النقود، أيمكنك؟"

وعلى الفور كان هناك شيء ما مهدداً ومثيراً للشفقة حول يده الممدودة. وكان يهتز ويتميل كسكران، ويبدو ماكراً كديوث.

"كيف حال أصدقاءك؟ كيف حال عمك؟ ألدك

سيجارة؟"

فأعطاه "فيتور" سيجاراً.
"إذن أنك تدخن سيجاراً، أليس كذلك؟، يا لها من
سترة أنيقة أيضاً".

ثم أشار إلى ثيابه المهلهلة، وقال:
"لقد خيب الخياط أمني هذا الأسبوع. أنه لا يمكنك
تدبير أكثر قليلاً من غيار الملابس، أليس كذلك؟"
فقال "فيتور": "اسمع"، "أرأيت من خرج من هذه
العربة؟"

"لا، إنني كنت أنتظر كل من عليه أن يخرج. إنني
لم أره. فكنت أنتظره كي أستلف منه قليلاً من المال،
حيث أنه لديّ كمبيالة ينبغي علىّ سدادها خلال ثلاثة
أشهر، بأقل فائدة على ما أتذكر، عليهم اللعنة! أتريد
أن تعرف من هو الرجل؟

فحلت فكرة على "فيتور": "نعم أريد أن أعرف".
"أيمكنك أن تفعل شيئاً ما لأجلي؟، أيمكنك أن تنتظر
هنا وترى من سيخرج، ثم تقابلني في أي مكان آخر
بعد ذلك؟ الق نظرة جيدة على الشاب. إنك تعرف
"داماسو"، أليس كذلك. حسناً، انظر ما اذا كان هو
أم لا".

فحك الرجل الآخر جلده، كما لو قد قرص
ببراغيث.

"وماذا ستدفع مقابل هذه الخدمة الصغيرة؟ ليبرة؟"
وهو كذلك، فليكن ليبرة".

فألقي الرجل الآخر قبعته على الأرض.
"خدامك يا سيدي!. اذهب وانتظرنني في المقهى
التي تقع في "روا دونورتي". أتريدني أيضاً أن أوقع
به ضربة بارحة؟، إنه يمكنني أن أطعنه بسكين إن
أردت. إنني سأفعل أي شيء لأجل صديق".

فألقي "فيتور" نظرة سريعة على الشباك، ثم انسحب إلى المقهى التي تقع في "روا دونورتي". كانت المقهى خالية من الناس تقريباً. وبدأت الحوائط المتسخة الصفراء، والمبقعة بالدخان، أنها تمتص الضوء من مصباح الغاز. وكان هناك سحابة من الدخان بالحجرة، وبالخلف لوح زجاجي في الجزء الخلفي، يشع منه زجاجات الخمور الصفراء والحمراء الساكنة، وغير المفتوحة منذ سنوات. وعلى مائدة واحدة، كانت هناك سيدة جالسة تشرب مع ثلاثة من الرجال، حيث أنها امرأة كئيبة ذي شعر أسود، وبشرتها ذات بثور، وترتدي ثوبا أبيضاً تماماً. وكان أحد الرجال نائماً، ورأسه مستندة على ذراعه على المائدة. والآخر، كان أنبوب الشيثة عالقاً بزاوية فمه، وعينه الثقيلة ترمش، ورغوة اللعاب الأبيض على شفتيه، وكان مخموراً جداً حتى أنه لم يمكنه الاحتفاظ برأسه في وضع قائم. والرجل الثالث، رجلاً شاباً، نحيل الجسم، يرتدي كرافاتة حمراء، وقبعته المدفوعة إلى الخلف متكأة على المائدة، وكان يتحدث بصوت خافت إلى السيدة، ويشرب القهوة من الكوب. فجلس "فيتور" في إحدى الزوايا، وأمر بقهوة، ثم انتظر. وعلى الفور قد لاحظ الرجل الأصغر سناً، وسوت السيدة غطاء رأسها، وخفت ثيابها، لافتة النظر بتصنيع بارد.

وخارجاً، كان المطر يسقط سيولاً. وكان هناك صوت قصير لعربة تنطلق من بعيد، ووراء الحجرة الزجاجية، كانت هناك غلاية تفور.

فملاً "فيتور" شعور بالاشمئزاز والكآبة. واستغرق في تخيل حياة الهدوء، والتي كان من الممكن أن تكون

حياته. فلماذا أحب سيدة لا تستحق، تخونه، تلوث سمعته، والتي بلا شك ستقوده إلى التسيب والكذب؟، كان "فيتور" هناك في الساعة الثانية صباحاً بمقهى للديوث، في انتظار الحصول على معلومات من شخص حقير بخصوص سلوك عاهرة، لأنه كان متأكداً أن الرجل الذي بالشقة ليس "داماسو"، حيث أن "داماسو" لن يخرج في ليلة ممطرة كهذه، وأن فعل ذلك، فليده عربته ذات الحصان الأبيض، والتي يستخدمها في فصل الشتاء، فمن الواضح أنه شخص آخر. إنها كانت تخدعه. كم قد يكون الأمر مختلفاً لو قد تزوج بفتاة ما كريمة!، ففي هذه الساعة، يكون بالبيت، جالساً بجانب الوقود، يغلق كتاباً شيقاً للتو، ويسمع صوت زوجته الجميل يقول: "هيا إلى الفراش يا "فيتور"، فالوقت متأخراً!، وتحبه. فلماذا حياته مضطربة، مليئة جداً بالشكوك والعذابات؟

قد يكون الأمر وراثياً. فقد تزوج عمه لفترة قصيرة فقط، وقد خاض جميع أنواع المغامرات المثيرة. وقد مات والده شاباً في "أفريقيا". وقد ماتت والدته في مكان ما بالخارج. فماذا تفعل هي أوروها، على اعتبار أن هناك جنة ولديها روح، لو كان ينبغي عليها أن تراه هناك في هذه اللحظة الحرجة بحياته العاطفية. إنه تساءل ماذا كان شكل والدته. لماذا لم يكن هناك صور لها؟

كان الباب مفتوحاً، والماء يتقاطر، ودخل الصعلوك لاهثاً من الجري، وجلس بجانب "فيتور". فاشتتم "فيتور" رائحة ملابس مبللة، وزرائب، وفسق. وأمكنه أن يرى الآن يديه المتسخة، وأظافره الطويلة، ومعطفه المرقع المهلهل ذا الذبول، والمشبوك بدبوس

في عنقه، والجيوب المشقوقة منذ فترة طويلة،
والقميص المهلhel، والبنطلون الذي لا يُوصف.

”إنني رأيت الرجل. فإنه رجل شاب ذو لحية.
أيمكنني الآن الحصول على المال؟“

”إذن إنه ليس ”داماسو“؟“

”ماذا تقصد بـ”داماسو“؟ الشاب لديه لحية كبيرة.

إذن أيمكنني الحصول على المال؟“

”هل كان بمفرده؟“

”إنه دخل إلى العربة، فانطلق ”السائق“ بعيداً،

ثم تركت المكان. أنه لديه لحية سوداء كثيفة، وقبعة
رسمية، وذيول للسترة. وصاح قائلاً: ””جاو“، أعطنا
قهوة، أمن الممكن؟“

فأعطاه ”فيتور“ المال، وبينما يقف ليترك المقهى،

أمسك الرجل الآخر بذراعه.

”عليك اللعنة! انتظر لنشرب القهوة. أنك لست

خجولاً، أليس كذلك؟ لا تكن مغفلاً هكذا. اجلس ثم

اذهب. أوه، حسناً، اذهب إلى الجحيم، ثم بلغ تحياتي

إلى عمك. أعطنا سيجاراً آخر، أمن الممكن؟ اذهب،

عليك اللعنة! ولو كنت في حاجة إلى أية مساعدة في

أي وقت، فأنت تعلم أين تجدني. إنني أفعل أي شيء،

فلست الآن رجلاً نبيلاً. فلولا تعمل، ولا تأكل، وأنا

أريد أن أكل، فأنت تراهمني على فعل ذلك. في الواقع

أنه الشيء الوحيد الذي أريده. إنه جيد أن تأكل، ألا

تعتقد ذلك؟ بالطبع هكذا، أيها الرجل!“

”مع السلامة.“

”أوه، معك إلى الجحيم، وشكراً على لا شيء!“

نزل ”فيتور“ مسرعاً إلى ”شيدو“. إنه متأكد الآن

أنه رجل آخر، رجلاً ذو لحية سوداء كبيرة. فمر على

جميع الناس ذي اللحى السوداء الذين يعرفهم. هل من الممكن أن يكون فلانا وعلاناً أو هذا وذاك؟، لكن كان البعض فقراء جداً لدرجة أنه من المستحيل أن تخرج "جينوفيفا" منهم أياً من المال، وآخرين قبيحين جداً حتى تحبهم. فكرها "فيتور"، وأراد أن ينتقم، مقررًا قطع علاقته بها نهائياً، لكن رغبته المسيطرة الأقوى من غيرته اضطرته إلى أن يجعلها تغير منه، أو أن تتدم على خداعه.

إنه تمنى أن يكون لديه ثروة حتى يمكنه العيش في "لشبونة" بأزياء فاخرة، ولديه بيت كبير وعربة، فحينئذ تحزن "جينوفيفا" على أنها قد احتقرته. أو أيضاً أن يتخذ حبيبة أو سيدة نبيلة أو ماركيزة، كدليل بالغ على تفوقه العاطفي. وبما أن هذه الانتصارات صعبة التحقيق في الواقع، فإنه أعد شيئاً آخرًا. أنه سيكتب كتاباً كبيراً، ويصبح مشهوراً. ويذيع اسمه إليها ليعذبها حينما يكون مشهوراً جداً. أنه سيكون كتاباً من الأشعار، وعندما تقرأ "جينوفيفا" هذه الصفحات السامية العاطفية، فأإنها ستدرك أنها قد ضيعت قلباً عظيماً.

قضى "فيتور" جزءاً من الليل يكتب رسالتها، لكي يمزقها فقط. وفي لحظة، أراد أن يكتب رسالة ملتهبة، مليئة بعبارات غاضبة ومعالجات محتقرة. ولكنه في اللحظة التي تلتها، فضل أن تكون رسالة مختصرة فاترة باردة، صحيحة جداً، كشفرة لامعة لمشروط يمزق في قلبها. ثم قرر أن هذا الصمت المحقر هو الخيار الأفضل، كما لو لم تكن موجودة، أو أنها بهذه الأهمية الضئيلة لم تستحق حتى الاحتقار.

وأحياناً، بينما كان يخطو "فيتور" بشبشه فيما حول

حجرة نومه، شعر بأنه شبه مسرور أن يقطع هذه العلاقة الغرامية، وهدوء مصحوب بالفتاعة ملأ روحه، كما لو أن جميع العوامل المختلفة لحياته دخلت حيز التوازن فجأة من جديد. فإلى أين قد كانت تقوده مثل هذه العاطفة؟ إنها سيدة عاهرة، ماهرة، وفي منتصف العمر. فخلال حياتها الصعبة، قد أضاعت كل نضارة القلب، وكذلك كل قدرة على أن تشعر بعاطفة بريئة. ماذا قد كانت تحمل له مثل هذه العلاقة؟، هل حياة من الغيرة المهينة وانعدام الثقة؟، أن يترك مهنته، ويفقد كل رغبة بالعمل، ويعيش حياة غامضة، معروفاً لدى الآخرين على أنه فقط حبيب عشيقة "داماسو". إنه محظوظ أن عينيه قد انفتحت في الوقت المناسب. إنه حسن الحظ أنه قد ذهب إلى بيتها هذه الليلة. إنه من العار ألا يعرف هوية الرجل ذو اللحية السوداء. فإنه كان سيذهب إليه، ويصافحه، ثم يقول: "إنني مدين لك يا صديقي، فإنك قد أدبت لي خدمة عظيمة". لكن بعدئذ، تخيل "فيتور" فجأة أن "جينوفيفا" جالسة على ركبة الرجل ذو اللحية، وتعانقه، ورأى تموجات جسدها الناعم الساحر، متخيلاً ترك نفسها للمتعة، فشعر حينئذ بالغضب الشديد وبرغبة الانتقام والقتل والدم، عاجزاً عن القيام بأي شيء، شاعراً بالضعف الشديد في مواجهة المصاعب التي أحضرتها الحياة إليه، فألقى بنفسه على السرير، ممزقاً في شعر رأسه، وكان يبكي.

أعادت أثار الكبرياء الهدوء إلى "فيتور"، حيث قال بصوت عال:

"أوه، فليذهب معها إلى الجحيم، إنها لا شيء سوى أنها عاهرة!"

ثم استلقى في الفراش، ونام بعمق.
وفي اليوم التالي، ذهب "فيتور" إلى المكتب كي يستأنف حياة كريمة، فهو لم يذهب إلى هناك منذ شهر، ووجد دكتور "كامينها" جالسا بشكل مريح بكرسيه كما هو الحال دائما، ممسكا إحدى قدميه بيده، في حين أنه يسوي بيده الأخرى، الشعر الطويل لشاربه الأشقر، شعرة تلو الأخرى.

فقال إلى "فيتور": "آه، العائد المهمل!"
فخلق "فيتور" عذراً ما بخصوص مشاكل بصحته، وصعوبات بالبيت.
"إنك تعلم أن العمل ليس إجبارياً، فإنك فقط تأتي وتذهب كما تريد".

فضحك "كامينها" على سخريته الخاصة، ومال إلى الورااء بكرسيه ذو الذراعين، مستأنفاً تسوية شاربه.

وبعد ذلك بوقت قصير، دخل رجل بحذر شديد إلى المكتب، ووضع قبعة مع منديل من الحرير الهندي مطويا بداخل البطانة، على كرسي بكل عناية. وبدأ يشرح قضيته بصوت ثقيل، مفتعلاً اشارات بطيئة، متخذاً شكلاً دائرياً بإصبعيه الإبهام والسبابة. أنها قضية ما تتضمن استرداد حقوق معاشية.

كان الرجل يتحدث بهدوء، مخاطباً دكتور "كامينها" بـ "السيد" أو بـ "عزيزي" "كامينها". وكان يتصفح سريعاً حزمًا من الورق. وبين الحين والآخر، كان يجتاز إلى المنديل الأصفر، ويلتقطه لينف به، ثم يطويه مرة أخرى بداخل بطانة القبعة. وبدأ أنه مستمتع بالإجتماع، متذوقاً جميع المصطلحات القانونية.
كان "فيتور" يتصفح بعض الملفات بحزن، وسمع

همس رقيق لصوت الرجل يقول:
 "لكن هل من الممكن للمعتدى عليه رفع دعوى
 على المعتدى؟"
 "يمكنه"

"وماذا لو مات المعتدى؟"
 "إن فأنه يمكنه رفع دعوى على الورثة ذي
 الصلة".

"هل هذا كل شيء؟"
 "إنه يمكنه أيضاً رفع دعوى على أية أطراف ثالثة
 قد حول المعتدى الحقوق إليهم. هذا حسب مادة ٤/٥
 من القانون المدني.
 فقال الرجل بإبتسامة: "إن عملية السلب حدثت منذ
 وقت قريب فقط".

"إن الدعوى ستسقط بعد سنة".
 "وماذا لو عملية السلب قد جرت سراً؟"
 "متى اكتشفها الطرف المضار؟"
 "منذ ستة أشهر".

"إن فليده ستة أشهر يا صديقي، فالمادة ٤/٥
 واضحة تماماً في هذه النقطة، حيث ينبغي أن تُرفع
 الدعوى خلال سنة من السلب، أو لو لم تنفذ عملية
 السلب سراً، فتُرفع الدعوى خلال سنة من الطرف
 المعنى باكتشافها".

"فليدنا إذن معتدى نريده؟"
 "لو الطرف المضار يريد ذلك".
 ثم دخل المدعي "جور جاو". وبالرغم من أنه لم يزل
 فصل الشتاء بعد، نزع عنه قبعته، خارجاً عن العادة،
 وتخلص من بعض الشعيرات الوبرية المنقطة باللون
 الرمادي عن رأسه بمنديله. ثم جلس بهدوء، وانتظر.

وفجأة ارتدى نظارته، واضعاً قدميه تحت الكرسي، وكرشه الضخم بارزاً منه. وبدأ أن يقرأ، وفي الوقت نفسه كان يملس على ذقنه الملساء بأصابعه القصيرة الممتلئة. وبعد وقت قصير اتجه إلى "فيتور"، محدقاً النظر إليه من أعلى نظارته، وقال برقة:

"لو سُجِّل الرهن العقاري في أكثر من مكتب للسجل العقاري، فينبغي أن تتخذ الاجراءات في القسم القضائي، حيث يمكن العثور على الملكية الضريبية، وحيث تدفع أكثر الاسهامات المباشرة، أم في القسم القضائي، الذي يشمل عنوان بيت الطرف المسجل؟" فنظر "فيتور" إليه في خوف، ولم يفهم كلام "جورجاو" الذي قاله، فطلب منه أن يكرر التساؤل. وشد على شاربه بقوة، واتسعت عيناه في خوف.

فراجع "جورجاو" بعض المذكرات قائلاً: "ألا تتذكر؟". "إنه فصل "١٠"، جزء "٤"، فقرة "٧"، قطعة "٤" من القانون، إنه لابد أن تكون الإجابة هناك. ألا تتذكر؟"

"أنه لا يمكنني التذكر في الوقت الحالي". "أعتقد أنه يمكن أن يكون في أي مكان لو عنوان بيت الطرف المسجل جزءاً من الملكية المختصة". ثم همس في أذنه قائلاً: "إنها قضية إفلاس "تافيرا".....". فوقف الرجل الآخر، وترك المكتب. فاتجه "جورجاو" إلى دكتور "كامينها" ليناقدش معه هذه القضية.

وفي حجرة الانتظار خارجاً، كان هناك صوت بليد متكبر ممل، يقول إلى المساعد:

"إنه سوط صغير لفرس، حتى يذكره فقط بتأدية عمله. وعلى أية حال، إنني على مقربة من

”جوليجا“....“.

فالتقت الدكتور ”كامينها“ إلى ”فيتور“ قائلاً: ”إنه من الممكن أن يكون في أي مكان.“
فقال ”فيتور“: ”أنا آسف“

”من الممكن أن يُتخذ الاجراء في القسم القضائي الذي يشمل عنوان بيت الطرف المسجل، أو أن الشخص يلف المنطقة، حتى يمكنه العثور على الملكية الضريبية“.

فقال ”فيتور“: ”آه“

وكان الصوت الذي بحجرة الإنتظار، يقول:
”إنني لم أقل كلمة. إنني نزلت عن الفرس، وربطته بشجرة....“.

ثم انقطع الصوت. ووصل رجل ذو معطف.
وسُمع الصوت العالي المزعج للمساعد يقول:
”إنه ينبغي عليك التحدث إلى دكتور ”كامينها““.

فدخل الرجل ذو المعطف. وهو ذو وجه دهني شاحب نحيل، وذو لحية كبيرة. وكان بنطلونه يلمع مع الرداء. وكان يحمل شنطة سوداء. وأخذ يوضح أن السيد ”ألباكركي“، معاون المنطقة يريد الأوراق حالاً، وقد أخبره ألا يترك المكتب بدون حصوله على الأوراق.

فوقف دكتور ”كامينها“ على قدميه، وضرب على المكتب بقبضته بقوة.

”حسناً، يمكنك أن تخبر السيد ”ألباكركي“ أنه لو يريد عبيداً، فإنه سيضطر إلى أن ينزل إلى ”البرازيل“ للحصول عليهم. أخبره أن يذهب“.

ثم جلس الدكتور ”كامينها“ مرة أخرى، مغمساً قلمه الحبر في المحبرة بعنف، ثم ألقاه.

إنه تحدث بوقاحة، فلو لم يكن الورق جاهزاً. إنه غير جاهز! بصراحة! وضرب على المكتب بقبضته بقوة ثانية. "لو يعتقد السيد "ألباكري" أنني سأقتل نفسي من أجل إسعاده، فإنه يمكنه أن يعتقد ذلك مرة أخرى. أنه لا يمكنني العمل مع سكين في حلقي. أنه لا يمكنني، وهذه نهاية لذلك. أخبر هذا إلى السيد "ألباكري"."

وجلس المحامي مرة أخرى غاضباً. ثم ترك الرجل ذو المعطف المكتب، وهو منحنياً. ومن الخلف يمكنك أن ترى أن أذنيه تلفت الانتباه كثيراً من جانبي رأسه، حيث أنهما يشبهان مقابض زهرية.

وكان هناك هدوء، مسيطراً عليه احساس عميق بالكآبة. فتنهد "فيتور" تنهيدة عميقة. وخارجاً كانت الشمس تسطع بإشعاع، والعربات تلف، وأحياناً ما كان ينادي البائع المتجول بالشارع على بضائعه. وبدا جو من الملل الحار الكئيب أن يملأ المكتب كالدخان. وبرؤية الأوراق القانونية أمامه جعلته يُصاب بالغثيان. وكان ظهر الورق المطوي على الرفوف يعكس هدوءاً، وكآبة حدادية. واستمر الصوت خارجاً يقول:

"عندما وصلت إلى "جوليجا"، ذهبت مباشرة إلى المدير....".

وكان الدكتور "كامينها"، والذي مازال يتشاور مع المدعي، يقول بصوت ممل: "أية وصية مسجلة مسبقاً بالرهن العقاري"، ينتج عنها نزع الملكية....".

ولم يعد "فيتور" يتحمل هذا، فوقف على قدميه،

والتقط قبعته، وقال أنه سيعود بعد قليل.
وكان الدكتور "كامينها" يقول: ".... أود ذلك من
التحويل المذكور بالمادة السابقة....".

وبينما كان "فيتور" يمر بحجرة الإنتظار، سمع
الرجل وهو رجل سمين، ووجهه أحمرًا طوبيا،
ويرتدي مناخس ضخمة بحذاءه يؤكد بشدة قائلاً:
"لو لم يضع حداً لهذه الحفرة على الجانب الآخر
من الوادي، فكان ولا بد أن تكون هناك مشكلة".

فغادر "فيتور" المكتب، وهو يغلق باب حجرة
الإنتظار بعنف، ونزل على درج السلم. وخارجاً في
الشارع، أخذ نفساً عميقاً. ولم ينوي مطلقاً على العودة
إلى المكتب. فكان ملل العمل أكثر مما يمكنه احتماله.
إنه كان مضطراً فقط للذهاب إلى المكتب طوال سنوات
دراسته بكلية الحقوق حتى يزداد تشاؤمه. أنه لم
يمكنه فهم جميع المصطلحات القانونية، حيث أنها لغة
غريبة، همجية، تملؤه بالكآبة. فالمدعي، والمحامي،
والقضايا، والشروح المملة للأطراف المختلفة، كل
هذا أحدث جواً ثقيلاً، جعله يتنفس فيه بصعوبة، كما
جعل أيضاً رأسه يدور. وهذه هي مهنته.

ماذا تبقى له أيضاً؟، فإنه قد فقد "جينوفيفا"، وحياته
في إنهيار مستمر، حيث أنه كره مهنته، وقد خدع
بالحب، أي إجتماعياً وعاطفياً. وبدا له أن كل شيء
انتهى بالفعل. وكره "لشبونة". وفجأة تذكر "فيتور"
عرض العم "تيموتيو" أن يرسله إلى "باريس".

فشعر "فيتور" بتدفق من الحماس، وامتلاً عقله
بأهداف وآمال، حيث أنه سيسافر عبر "مدريد".
إنه أمكنه للتو أن يرى نفسه بـ"بوليفارد" "باريس"،
ويتناول الطعام بمقاهي تاريخية، مشيداً بمسرحيات

شهيرة، ويرى عباقرة يمرون بالشارع. وربما يجد سيدة ما تحبه.... لِمَ لَا؟، ففي نهاية المطاف، قد قالت "جينوفيفا" أن رجلاً بمظهره هذا يكون محبوباً في "لندن". "لندن"؟!، أنه سيذهب إلى سباقات الخيل، ويقوم بزيارة مقبرة "شكسبير" بكل احترام، أو ينتزه بالحدائق، حيث تتفاخر طيور الطاووس بريشها الباهر، وترفع الغزلان رقابها السامية لأعلى.

وفي نفس هذا المساء من اليوم، عند تناول العشاء، بالغ "فيتور" في حزنه، حيث أنه كان يتحدث بصعوبة، بل وكان يتنهد بعمق بالغ، وبدأ كئيماً تماماً، حتى قال العم "تيموتيو" أخيراً:

"انظر، لو كنت مكانك، أعتقد إنني كنت سأطلق النار على نفسي للتو"
 "لماذا؟"

"لأنك هاهنا، تبلغ الإثنين والثلاثين من العمر، ومليئاً تماماً بالتأوهات والحزن، كما لو كنت راهباً متصوفاً. أقتل نفسك أيها الرجل. إنه يمكنني أن أعيرك بندقيتي إذا أردت. فقط لا تخطئ الهدف، فإن ذلك سيجعلك تبدو غيباً تماماً، وستصبح مشوهاً للتوفي نهاية المطاف."

ثم تساءل "فيتور" عما إذا ما زال يتذكر أن يدعه يقوم برحلة.

فقال العم "تيموتيو"، وهو يخرج سيجاره من فمه، موجهاً بصره إليه بامعان: "آه، اذن أنك تريد أن تذهب الآن، أليس كذلك؟"

ثم هز رأسه، وقال: "حسناً، ما يُقال يُقال. إنني أصبحت عجوزاً بعض الشيء حتى لا يمكن أن أترك تماماً لوحدي ككلب، ولكن إذهب إن أردت"

فقال "فيتور": "إنها زيارة لثلاثة أو أربعة أشهر فقط".

"ما يُقال يُقال. متى تريد أن تسافر؟"
فقال "فيتور" أنه يحب أن يسافر هذا الأسبوع مباشرة.

فولول العم "تيموتيو" قائلاً: "ما يُقال يُقال"،
"أو" كيود سكريبسي، "سكريبسي"، لأن صديقنا
"بيلاط" سيكون لديه هذا".

ثم سعل، ولم يقل أكثر من ذلك، ولكنه بدا غاضباً.
وفي تلك الليلة كان "فيتور" بحجرته، متذوقاً
للتورسعادة الرحيل. وبدا أنه قد نسي كل شيء عن
"جينوفيفا"، واعتقد نفسه غيباً أن يضيع شهوراً من
حياته في هذه العاطفة بلا فائدة. لكن أيضاً إذا كان
ينطلق الآن إلى "باريس" بسببها، فالجانب الأفضل
هو أن هذا أتاح له الفرصة أن ينتقم لنفسه من
"جينوفيفا"، وذلك من خلال الذهاب لرؤيتها، ويجلس
ببرودة أعصاب، ممسكاً قبعته بيده، ويقول: "إنني
سأسافر إلى "باريس"". "أتسافر؟" نعم، لمدة سنة أو
سنتين فقط، فإنني شاعر بالملل الشديد في "لشبونة"!."
وتمنى "فيتور" أن تشعر "جينوفيفا" بالغيرة
الفظيعة. فربما ترغب في أن تذهب معه.

وهذا الفكر جعل دمه يتدفق بسرعة. حيث أنه ربما
يسافر معها، ويزور المتاحف سوياً، ويتناول الطعام
بالمطاعم، ويقضيا ليالي شهية بحجرة نوم بإحدى
الفنادق، ويلحقا بمغامرة مثيرة وكذلك بفرحة الحب!
لا، لو أرادت "جينوفيفا" أن تذهب معه، فإنه
سيرفض. إنه يحتقرها الآن. فليدع الرجل ذوالالحية
السوداء أن يحوز على هذه الفزاعة، العاهرة!

فتحت "كلوريندا" الباب، وقالت:
"هناك سائق يقول أن هنالك شخص بالدور الأسفل
يريد التحدث إليك"
"أي شخص؟"

"إنه لم يقل. حيث يقول أنهم في إنتظارك بالدور
الأسفل"

فنزل "فيتور" شاعراً بالقلق الشديد، ورأى عربية
مؤجرة. ففتح الباب، وإذ بصوت "جينوفيفا" يقول:
"فيتور"، إدخل"، وأمسكت بذراعه.

ووجد "فيتور" نفسه جالساً بجانبها، وانطلق السائق
على الفور.

قالت "جينوفيفا" بتلهف: "حبيبي"، وألقت ذراعيها
حول عنقه، وشملته بقبلات محمومة، متممة بكلمات
حب متوهجة.

"إنني لم أعد أتحمل بعدي عنك. حيث أنه دفع
بي إلى الجنون. ولكن كان لابد أن يكون ذلك. لو أنك
تعرف فقط. أن شخصاً ما كتب إلى "داماسو"، يخبرني
أنك تفكر بي. أتحبني؟ تكلم".

كان احتضانها إياه مفاجئاً جداً، وفوجئ "فيتور"
جداً حتى أنه استجاب إلى قبلاتها بغريزة خالصة.
كانت العربية تسير إلى أسفل شارع "روزماري". وفي
الضوء استطاع "فيتور" أن يرى دائرة كبيرة لتتورتها
البيضاء حول قدميه. إنها كانت مرتدية معطفاً مزيناً
بالفرو، وشريطاً من الدانتيل الأسود على رأسها. إنها
كانت محفوفة تماماً بالحريير، ومتغلغلة بالعطر.

"إنني لم أهتم بتغيير الملابس. إنه كان ينبغي
عليّ فقط أن أخرج خفية خلال دقيقة من الزمن. إننا
أحرار، أحراراً تماماً الآن، لكن ما الخطأ؟"

فانسحب "فيتور" إلى الطرف الآخر من العربة.
 "أنا آسف، لكن لا يمكن الآن أن يكون هناك شيء
 بيننا. من هو الرجل ذو اللحية الذي كان ببيتك حتى
 الساعة الثانية من الصباح؟"

فلم ترد "جينوفيفا" في البداية، وقالت بعدئذ:
 "أي رجل، ومتى؟"

"إنه ترك بيتك في الساعة الثانية من صباح أمس".
 فترددت "جينوفيفا"، ثم بدت أن تتذكر قائلة: "إنه
 لا بد أن يكون صديق "داماسو". "إنهم كانوا يتناولون
 العشاء، ويتقاملون حتى ساعة متأخرة، إنهما إثنان
 من الرجال: الفيكونت "توفار"، والرجل الآخر لا
 أتذكر اسمه، وهو ذو لحية شقراء".
 "لا، لا، هذا الرجل ذو لحية سوداء، وترك البيت
 بمفرده".

"كيف ينبغي عليّ أن أعرف من هو؟ إنه قد لم
 يخرج من شقتي، فهناك شقق أخرى. ربما قد خرج
 من الدور الأول أو الثاني أو الثالث. يا له من سؤال
 سخيف!"

"إنه ربما قد خرج من دور آخر!، لماذا لم يفكر في
 هذا قبلاً؟، إنه أصبح مقتنعاً جداً أنه لا بد أن يكون آخراً
 من عشاق "جينوفيفا". لكن الذي أقنعه هو صوته،
 حرارة مداعباتها، عطر ثيابها. إنه أراد أن يلتهمها
 بقبلات، ولكن بأثار من العناد المتكبر، قال:
 "إنه لم يكن هناك مصابيح مضاءة بالشقق
 الأخرى".

فخبطت "جينوفيفا" على الشبابيك بغضب قائلة:
 "ماذا تقصد؟"، "توقف أيها السائق، توقف!"
 "ما الخطأ؟"

كان صوت "جينوفيفا" يرتجف بالغضب والإحتقار قائلاً: "إنني أريدك أن تخرج الآن". "ففي ظل مخاطرة كبيرة، متيمة بالحب، أأتي لأرك، وتستقبلني بوقاحة. توقف أيها السائق!"

فتوقف السائق، واندفعت "جينوفيفا" لفتح باب العربة بغضب، وسحبت تنوراتها، وقالت ببرود: "مع السلامة، إنه يمكنك أن تمضي"

"جينوفيفا"....

"أعتقد إنني أستقبل رجالاً، ذي لحية أو غير ذلك في الساعة الثانية من الصباح؟، ربما أنك تخطئ بيني وبين "أنينهاز". الآن، اخرج، اخرج!" فصاح "فيتور" قائلاً: "قد العربة أيها السائق"، وأغلق باب العربة بعنف مرة أخرى. فقالت "جينوفيفا": "إنني لا أريدك هنا".

لكن أخذ "فيتور" "جينوفيفا" بين ذراعيه، شاملاً إياها بقبلات، ثم قال:

"سامحيني!، إنني غيور جداً. فكنت أمشي ماراً ببيتك، ورأيت العربة واقفة خارجاً، وكان هناك مصباح مضاء بشباك بيتك. "جينوفيفا"، إحلقي لي أنه لم يكن هناك أحد ببيتك".

فقالت بشدة: "لا، إنني لن أحلف على أي شيء"، "بأي حق لك أن تهينني؟" "سامحيني".

"إنك تعرفني منذ شهرين، فإنني أفعل كل شيء لأجلك، أضحي بنفسي لأجلك. إنك تعرف الأشياء الكريهة التي أضطر للقيام بها. ولمجرد أنك ترى رجلاً ما يترك المبنى الخاص بي، فإنك تتهمني بإستقبال رجال آخرين".

”إنني لم أقل هذا!“

”إنك قلت!“

”إنني أحلف....“.

”لو سنبدأ بالشكوك، والأسئلة السخيفة، والتبوير، فمن الأفضل لنا الآن أن ننهي كل شيء.“.

”لا، أبداً، أبداً. أخبريني أنك سامحتيني. إنني كنت غيباً. إنني كنت مستعداً للذهاب إلى ”باريس“ . فكنت سأتي وأراكي غداً، وأقول لك وداعاً، وأن أسألك ببرود ما إذا أردتي أن أرسل اليك أي شيء من ”باريس“.“.

فقالت: ”أنت“، ثم وضعت يدها على كتفه قائلة: ”أذهب إلى ”باريس“ وتتركني؟“، ووضعت وجهها قريباً جداً من وجهه. ”إنني سأقتلك أولاً.“.

فعانقته، وقبلت عينيه، وشفتيه، وجبينه. وبدأ أن يداها التائهة تستحوذاً عليه بالكامل.

”معشوقي ”فيتور“، حبيبي! أخبرني أنك لي، يا حبيبي الوحيد، يا حياتي، يا حبيبي، يا زوجي! أوه يا حبيبي!“

إنها ظلت معانقة إياه، كما لو كانت في حالة إغماء، ثم نظرت فجأة إلى أعلى، وقالت:

”إنه لم يعد يمكنني البقاء أكثر من ذلك، حيث ينبغي أن أكون بالبيت في الساعة العاشرة. أخبر السائق أن يرجع إلى البيت. أنه يمكنك الخروج عند رأس الشارع.“

فقال ”فيتور“: ”لكن أخبريني بما حدث. لماذا هذا الانفصال بيننا؟“

”إنه لا يمكنك أن تتخيل. فهناك شخص ما أرسل رسالة مجهولة الاسم إلى ”داماسو“، يقول أنك زرتني

حينما لم يكن "داماسو" هناك، حتى أنك كنت عشيقتي. وحاتت اللحظة التي في أشد الحاجة إليها للحفاظ على "داماسو". ولذلك اضطررت إلى أن أزيل كل شك. فأيام الانفصال تلك أكسبتني اثنين "٢" من "الكونتو". فقال "فيتور": "إن ذلك الشخص هي السيدة الإنجليزية". ووصف لقائه مع الآنسة "سارة". فهذا كان انتقامها.

فارتعبت "جينوفيفا".

"إنني سأطردها إلى الشارع بعد غد. لكن لا تقل كلمة إليها، هذه الخائنة. أنه ينبغي أن تجلد مثل تلك النساء. وهل صمدت أمامها؟"

"مثل "يوسف" في "مصر"!"

فضحكا كلاهما، وقبلته "جينوفيفا" مرة أخرى. من يمكنه إنقاذي سوى عشقي لك بهذه العيون التي لك؟، اسمع، إنه ربما يأتي المغفل "داماسو"، ويدعوك لتناول العشاء غداً. تأكد من ذلك، وتعال يا حبيبي". وقالت في أذنه: "إنه سيكون حفل زفافنا. غداً سأكون حرة".

توقفت العربية على رأس شارع "روزماري". فقفز "فيتور" إلى أسفل. ومازالت "جينوفيفا" ممسكة بيده، وقبلتها. تأثر "فيتور" بهذه القبلة بعمق بالغ، حتى امتلأت عينيه بالدموع. وكان يشاهد العربية وهي تبتعد بإخلاص كما لو أنه يتابع الأثر اللامع لملاك عبر السماوات. ونظر حوله. أنه كان يريد أن يتحدث إلي شخص ما، أن يعانق شخصاً ما، أن يساعد شخصاً ما. ثم اقتربت منه سيدة فقيرة ترتدي نقاباً، فأعطاه "فيتور" كل المال الذي معه، خمسة عشر "١٥" من البنسات!

وكان يكرر لنفسه، بينما كان يصعد إلى شارع
”روزماري“ قائلاً: ”غداً، غداً“.
وبدا أنه يسير على الهواء، محلقاً بروحه الخفيفة
الطائرة، وبدافع سعيد بدأ يغني ”البؤساء“.

الباب السادس

عندما وصل "فيتور" إلى بيت "جينوفيفا" في الساعة السابعة من الليل، والموافق الواحد "١" من شهر أبريل، كان مذهشاً، حيث أنه لم يتعرف على أي شخص.

فقد أخبرت "جينوفيفا" "داماسو":

"إنني لا أريد أي شخص بهذه السهرة الأولى. فلا أكاديميين سريعون الغضب، ولا شعراء جدليون، ولا سيدات مسنات في عماماتهن. إنني أريد أشخاصاً محبين للنظافة، متأنقين، ظرفاء.

ووفقاً للمحادثات المعقدة، قدم "داماسو" قائمة إلى "جينوفيفا"، حيث عرفت منها بعض الأشخاص، وبدا لها الآخرون مقبولين، أما لأسمائهم الرنانة، أو لبعض الاختلافات المركزية للسيرة الذاتية. وجمع "داماسو" المتألق معاً ما وصفه فيما بعد على أنهم "مجموعة من الأشخاص من ذوي الأناقة بالفعل".

كانت الحجرة مضأة بشكل رائع بشمعدانات غازية. وعلى الترابيزة كان هناك عدد كبير من شموع شحمية متوهجة بشمعدانات ذهبية. وكان هناك فازات من زهور الكاميليا والبنفسج. وكان البيانو يصدر معزوفاً. وبرزت الملابس الملونة للنساء، والكرافات البيضاء للرجال مقابل المفروشات القاتمة إلى حد ما، مما أضفت سيلاً من الترف، والذي اتضح من خلال متممة حذرة للحديث، وهمس المدعويين.

تقدمت "جينوفيفا" إلى "فيتور" لتسلم عليه. وبدأت "جينوفيفا" جميلة بشكل مذهش، حيث كانت مرتدية فستاناً بلون القمح، ومزيناً بشريط من الدانتيل الرائع. إن الشق المنخفض، وخط الرقبة، أظهرها كتفيتها

الرئعين، واللحم الشهى لصدورها. كان طول الأكمام يصل إلى الكوع، وتنتهي برغوة من الدانتيل. وكان شعرها الأشقر منظماً تماماً، ومموجاً قليلاً، وبه مشبك صغير للزينة بشكل سنبل القمح. وبشرتها بيضاء كاللبن، وهذا المزيج من بشرة شاحبة وفستان ذهبي أضفى عليها جمالاً فخماً أرسقراطياً أنيقاً. إنها لم تكن مرتدية أية مجوهرات، ولكن كانت ترتدي على رداؤها بين منحنى ثدييها، شيئاً على شكل وردة قرمزية رائعة، ذو درجة فريدة من لون قوي غامق.

ضغطت "جينوفيفا" على يد "فيتور" ضغطة عاطفية، حتى امتلأ "فيتور" بإحساس شهى من الفخر والغموض. وانحنى "فيتور" على يدها، وقبلها. وقدمته "جينوفيفا" إلى السيدة التي كان عليه أن يقودها لتناول العشاء. السيدة "سيفالي"، والتي لعبت أدوار ثانوية بمسرح "ساو كارلوس". إنها سيدة طويلة القامة وقوية، ذي أنف بربون، وشعر أسود فاحم، وأسنان رائعة. قد أمضت تلك السيدة معظم مهنتها التمثيلية بمسارح أمريكا الجنوبية. إنها تعرف مكسيكي وبيرو وتشيلي جيداً، وقليلاً من البرازيلي. إنها أدت أدوار تمثيلية بـ "كوفنت جاردن"، وتحدث كل لغة جيداً، حتى أنها تتحدث قليلاً من البرتغالية. فرحلتها العديدة ومغامراتها جعلها متحدثة مبدعة قوية، بحفظها لقصص تصويرية، وكذلك جرأتها الرجولية. إنها كانت مرتدية زي "هافانا" أو "فالبارايسو"، متفجراً وفاخراً بعض الشيء، وكان يجمع نمطاً مسرحياً سهلاً مع شعور فينيسي للحفل.

ثم قدمه "داماسو" إلى اثنين من الرجال. وعرفهما "فيتور" بالنظر، فأحدهم الكونت النبيل "فال موريل"،

والذي كان يقف ساكناً، وهو مثال للياقة المجاملة. وقد ذهب إلى بيت "جينوفيفا" قبلاً ذات مرة، وقد قالت بعدئذ أنه "في حين أنه غبي لا يُطاق، إلا أنه شخصية لا غنى عنها بكل معنى الكلمة". إنه أحد أولئك الأشخاص الصامتين الهادئين، والأكثر تقديراً في "لندن" و"باريس"، والذي شكل مظهراً زخرفياً جميلاً، ذلك التساوي البشري بزهرية نادرة أو لوحة عصرية. إنه أشقر أيضاً، مما جعله أكثر نفعاً، حيث أن الأثاث وأقمشة المفروشات جميعهما قاتمة إلى حد ما. فقد قالت "جينوفيفا": "إنه يمكن للمعتوه أن يكسب لقمة عيشه في "باريس"، وذلك بتأجير نفسه بعشرين "٢٠" من الليبرا في الليلة بالعشاءات الرسمية". أنه طويل القامة، وذو قوام إنسيابي، ودائماً ما يكون مهنداً بشكل رائع، وذو ملامح أرستقراطية بعض الشيء، ولحية شقراء جميلة. إنه قد تربى بالخارج، ومن عاداته، أنه لابد لكرافنته أن تكون على نمط الفحص الدقيق، وجواربه الحريرية السوداء مضبوطة تماماً. إنه يُعد "أكثر الأشخاص أناقة في "لشبونة"". فدائماً ما يكون مرتبطاً بأوضاع رسمية مؤتمرية، وكذلك كرافنته رسمية ولامعة. أنه لديه وجهات نظر معتوهة في عارضة الأزياء، ولكنه كان يعبر عنها بثقة عظيمة. أنه لاعب كبير للهويست، ومتزوج بسيدة نبيلة، والذي كان عشيقها يعمل في مجال التجارة. لو لم يكن هذا الأمر شائكاً له، لكان رجلاً سعيداً جداً.

سأل "داماسو" "فيتور" قائلاً: "أتعرف "دوم جواومايا"؟"

"بالنظر فقط".

إن "جواومايا" هو ابن لأحد أعرق الأسر

بـ"البرتغال". أنه لديه عمة عجوز مرعبة، والذي كان سؤالها الأول عن أي شخص هو: "هل هو أو هي عامياً رومانياً؟" أم "هل هو أو هي من عامة الشعب؟"، والذي دائماً ما يشير لحقيقة أنهم منحدرين من سلالة "ايجاز مونيز"، والذي خدم الملك "أفونسوانريكس". لكن "جواومايا" كان مؤيداً للنظام الجمهوري، على الرغم من أنه تردد أن يظهر تعاطفاته الثورية لأنه كان مقتنعاً أن الجمهوريين لم يخضعون. أنه مضى قدماً كما يجب مع الأشخاص العاديين، وأحب الطعام العادي: بطاطس، وشوربة كرنب، وبقلة سمك مملح، إلى آخره. إنه غالباً ما كان يوجد في الحانات، حيث كان يستمتع بحديث القوادين. ولكن أخلاقه كانت لطيفة إلى أبعد الحدود. إنه رجل ذو طباع كثيرة الشكوك، ومتمتعاً بالأذواق الأدبية. وعلى الرغم من أن عائلته متدينة، كان كافراً. إنه لا يؤمن بالله، ويكره الكهنة، ولكنه وجد أن الموسيقى الكنسية مؤثرة جداً، وتنشأ كرامة كتابية رائعة مصقولة في الواقع للصورة الشعرية للمسيح الأشقر، والذي يحكى بأمثال في سترة بيضاء طويلة، ومحاط بشباب على شواطئ البحيرات العذبة لمنطقة الجليل. إنه عشق الفن، وعبد "ألفريد ماسيت". إنه دائماً ما يهرب من الملل، ويبحث عن التسلية. إنه رجل ظريف، ويخرج أحياناً بتعليقات صغيرة لاذعة لدرجة أنه يجعل الناس يفتحون عيونهم على مداها، ولكنه كان جذاباً جداً، بدرجة تجعله بعيداً عن أن يتخذ أحد موقفاً عدوانياً منه.

إنه طويل القامة وجميل، وذو شعر مجعد، ومظهر ضعيف حوله بعض الشيء. إنه اجتماعي وعاطفي نحو النساء، وذو ابتسامة ساحرة. إنه كريم كشخص

ذو ثروة، ولكنه فقير كوضع، حيث لم يكن هناك دائنين في هذه اللحظة ليلحقوه، لأنه عرف كيف يخدعهم. إنه قد تربى في "انجلترا"، متلقياً تعليمه من خلال الطبقة الأرستقراطية لميدان القديس "جيمس"، وكان عضواً بأندية "بول مول"، ولكنه فضل أن يذهب للرقص في "آرجيل"، أو إلى أحد نوادي الملاكمة بأرصفة "لندن".

كان الناس يدعونه "بوهيمي"، على الرغم من أنه لم يقل أي أحد ذلك في وجهه، لأنه كان سريعاً جداً للمهاجمة، أو ضرب شخص ما بشدة. إنه كان الأول ليغسل أي جرح قد تسبب فيه، أو أن يخطط جرحه في أقرب صيدلية، ثم يقود ضحيته إلى داخل عربة، ويعيده إلى أسرته. إنه دائماً ما يكون في مشكلة بسبب المال أو النساء، ولكنه كان يسخر من مشاكله مع أصدقاء، ودائماً ما كان يجد أياً من الأشخاص المستعدين لتسليفه مالا أو تقديم مساعدة له من مشورتهم المالية. وكان يقيم بفنادق، منفقاً باسراف، وغالباً ما كان يضطر إلى رهن ساعة يده. إنه كان يعطي الآخرين بسخاء. وحينما لم يكن لديه مال، فإنه يقيم بالسرير، ومعه رواية أو كتاب علمي، وزجاجة من الشمبانيا.

إنه كان يشعر بالراحة في كل مكان. وكان بكل شبر الأمير الساحر. فكانت "جينوفيفا" معجبة جداً به، حيث قالت: "ربما لا يمكن للشخص أن يقع في حبه، ولكن من الصعب ألا تتعلق به قليلاً!"، فإنه أحد أكثر الأشخاص الممتعّين في "لشبونة"، والذي يتناقض بشدة مع الخلفية التافهة للبرجوازية بـ"لشبونة". هذا هو السبب الذي جعل الناس تقول أنه مجنون.

لكن أحد الأشخاص من أكثر الذين أعجبوا "فيتور"، كانت سيدة تجلس على الأريكة، وتحدث إلى "جينوفيفا". وقد سمع آخرين يخاطبونها بـ "دونا جوانا كوتينهو". إنها طويلة جداً، ونحيلة، وأثيرية، وضعيفة. كانت مرتدية فستاناً مصنوعاً من حرير واسع وشاش بألوان زرقاء باهتة ناعمة. وعيناها الداكنة رقيقة وحنونة. والاشارات التي كانت تحدثها باليدين والذراعين، كانت ذو بلاغة لأجنحة نافذة الصبر. إنها كانت جالسة نصف جلسة، ومستلقية على الأريكة نصف استلقاء. وبمظهرها عديم الوزن، وفستانها الحريري الواسع والشاش، بدت كما لو كانت على وشك الطير والزوال.

فتساءل "جواومايا" قائلاً: "من هذه؟"

فأجاب قائلاً: "روح!"

فأشار على سيدة تبدو قوية، ومرتدية فستاناً ضيقاً قرمزيًا، وذو شعر أصفر كالزبد، وأنف مثنية قليلاً، وشففتين رقيقتين كشق، قائلاً: "وماذا عن السيدة الأخرى؟"

"إنها "مادالينا جوردون"، لكن لا علاقة بين الدوق "ريتشموند" و"جوردون". إنها راقصة ألمانية. إنها تنتمي إلى البارون "مينز"، ذلك الرجل العجوز، الذي يرتدي باروكة. إنه ليس هنا في هذه الليلة. فجاءت الأنسة بمفردها. إنها شخص نافع للمعرفة، حيث أنها تقدم عشاءات جيدة، ولا تزعج الناس. بل أنها فاضلة جداً، حقاً فاضلة جداً. إنها تخاف من الرجال، وميالة للنساء."

دقت الساعة السابعة، فأمسكت "جينوفيفا" على الفور بذراع الكونت "فال مورال". وأسرع "داماسو"

السمين والمبتهج، ليمسك بشريكته، "دونا جوانا كوتينهو". وتقدموا جميعاً بصورة رسمية لأسفل الممر المفروش بسجاد ذي بطانة حريرية. أشارت السيدة "سيفالي" إلى "فيتور" قائلة: "إنها شقة أنيقة".

كانت المائدة تلمع تحت الشمعدانات الغازية. والسكاكين الجديدة تبرق بجانب أطباق من المحار. وقد كانت الفاكهة التي للتحلية مرتبة حول إثنين من فازات الزهور. وكؤوس الخمر تتلأأ بعذوبة. والجو ممتلأ برائحة الليمون الشهيية. وأعلى المائدة مصباح زيتي طويل، يعكس نقطاً لامعة على الحواف المقوسة لأدوات المائدة والأطباق المقدمة. وكان هناك إثنان من خدم "داماسو" على المائدة، يقفان جنباً إلى جنب مع سفرجي من الفندق المركزي.

كانت المائدة مربعة، وكل زوجين من الأشخاص يحتلأ أحد جوانبها. فكان الكونت "فال مورال" على شمال "جينوفيفا"، والتي على الفور وضعت قدمها على قدم "فيتور"، وضغطت عليها بقوة عاطفية. وبدخل كل منديل مائدة كان هناك حزمة صغيرة من زهور البنفسج.

أشار "جواومايا" إلى من يجاوره، الراقصة الألمانية "مادالينا جوردون"، والأثرية "دونا جوانا كوتينهو"، قائلاً: "من الواضح أنها أسرة بونابرتية". فردت "دونا جوانا" قائلة: "إنها زهرتي المفضلة"، "فلا شيء هنا أكثر شاعرية من تلك".

ووضعت رأسها على أحد الجوانب، كما لو كان مغمى عليها. فالتفت "جواو" سريعاً إلى "مادالينا"، وسأل عن البارون العظيم. هل تغير حظه تماماً

على طاولة القمار؟، فإنه قد كسب منه ثمانية "٨" من الليبرا في المرة الأخيرة التي تناول بها العشاء ببيت البارون. إنه أثبت فقط حقيقة المثل: المحظوظ بالقمار، منحوس في الحب. فردت الألمانية بكلمة ذات مقطع واحد، حيث أنها لم تستطع أن ترفع عينها الباردة الزرقاء ذات رموش شاحبة عن "جينوفيفا". فقال "جواو"، متبعاً اتجاه تحديقها الفاسق: "إنها جميلة، أليس كذلك؟"

فقالت الألمانية: "مضبوط".

ثم سألها "جواو" عن فكرتها عن المرأة المثالية، وعندما ترددت وتراجعت، بارمة شفيتها الرقيقتين، طرح "جواو" السؤال على جميع من على المائدة، كما لو كانوا مجلس الكاردينالات.

كانت "دونا جوانا كوتينهو" تعتقد أن المرأة المثالية، امرأة ذات روح، "روح نبيلة، بالطبع". فرفع "داماسو" رقبته، وألقى نظرة سريعة أنيقة إلى "جينوفيفا"، ثم قال بشكل يقيني:

"إن المرأة المثالية بحق هنا على هذه المائدة".

فقال كل شخص: "لا، هذا ليس محسوباً. إننا نتحدث بشكل عام".

وعندما سُئل "فيتور"، رد قائلاً:

"المرأة التي يحبها الشخص"، وأشار بقدمه إلى "جينوفيفا"، حيث أنها المرأة التي يعتقدونها.

ثم سألوا "الكونت". والذي كان يجلس منتصباً جداً، مزيناً المائدة بذلك الإجلال الجميل لشخصه. إنه ظل صامتاً، وكوعيه مشدوين على جسمه، ممسكاً بالسكين والشوكة الخاصين به برقة بالغة، وكان بريق خواتمه يشع بين أصابعه. وابتسم متأملاً، ثم

قال بصوت رنان:

”جلالة الملكة مثلاً“.

فصاح ”جواومايا“ قائلاً: ”لا، هذا ليس محسوباً“،
”إننا نتحدث بشكل عام، علاوة على أنك جرحت
حساسيتي المؤيدة للنظام الجمهوري“.

فصاح ”فيتور“ قائلاً: ”وأنا!“

فأضاف ”جواو“ قائلاً: ”إنك عكرت شوربتنا!“

فإنزعج ”الكونت“، ووضع يده على قلبه، ثم قال:

”إنني آسف جداً لو.....“.

فأخذوا يهدأوه، وأكدوا له أن كل هذا مجرد نكتة.

فغمغم الكونت قائلاً: ”بالنسبة لآراء الآخرين.....“.

فقال كل شخص: ”لا، لا، فجميعها صحيحة“، ”إنهم

فقط يزعمون. إنهم ليسوا جمهوريين في الواقع“.

فأخذ يصف ”جواومايا“ التآمر الجمهوري، لكي

يضحك السيدات، والذي قد شارك فيه. فقد كان مكان

الاجتماع بشقة بالدور الرابع في شارع ”كابيليستاس“،

وكانت كلمة السر: شيء ما، إنها الطريق إلى النجوم،

والذي وفقاً لـ ”جواو“ بدا مناسباً جداً، كشخص تعب

صعوداً إلى الدور الرابع.

فقال: ”إنها متعة إلى درجة عالية“، ”حيث أننا

لم نشعر بالملل مطلقاً ولو للحظة واحدة. فكانت

الخطة بسيطة: حيث كنا سنستأجر ستة آلاف من

العمال، والذين كانوا سيشترون أسلحة، ويهاجمون

”كاستيلوساوجورجي“، ثم يخرجون بمسيرة تظاهرية

بوسط ”لشبونة“، معنيين: ”امنحونا الآن دولة

جمهورية، وأما سنطلق النيران“. وبالطبع سيصوت

جميع التجار، وأصحاب الممتلكات من محلات

ومباني الذين بوسط ”لشبونة“ لصالح الجمهورية. ثم

نقيم محكمة ثورية، وكان لدينا بالفعل قائمة جاهزة بالضحايا: على رأس القائمة، العائلة المالكة، ثم أنت يا "داماسو"، وحوالي ألفين أو ثلاثة آلاف من الآخرين. وكل ليلة كنا سنأخذ قائمة بالأشخاص الذين سيُضحي بهم. فقد أعطانا الأب "ميلو" أسماء كل الأساقفة، وأنا أعطيت أسماء كل دائني. وفشل الأمر لأنه لم يكن لدينا أي من المال لشراء الأسلحة. ولم نتتمكن مطلقاً في جمع أكثر من سبعين ألفاً ومائتين "٧٠٢٠٠" من "الرايس"، ومنها "ليبرا" قد دفعتها. وفي النهاية، هرب الأب "ميلو" بالمال، وانتصر النظام. وقال إلى السفيرجي، الذي كان خلفه، مقدماً زجاجة إليه، فقال: "إنني سأخذ "شابلي"."

وعلى الفور سأل "داماسو" "الكونت" عن رأيه في "شابلي".

فتذوقها "الكونت"، وفكر طويلاً، مركزاً للحظة بعينيه مغمضتين، ثم قال بنبرات عميقة: "إنها شابلي".

فأصر "داماسو" برغبة ملحّة لمضيف قائلاً: "نعم، لكن ما رأيك فيها؟"

فنظر إلى الخدم من حوله مبتسماً، ثم التفت إلى الورا، وحقق النظر إلى "جينوفيفا". "ما رأيك؟"

فقال "الكونت"، وهو مازال يتأمل: "إنها شابلي لذيذة".

كانت "دونا جوانا كوتينهو" تقول إلى "جواومايا": "إن خمري المفضل هو كريستي لا كريما!"

بإستثناء أنها كانت تظن أنه من السخيف أن تشرب خمراً، وتأكّل في نفس الوقت. إنه لا ينبغي للشخص

أن يأكل علناً، حيث أنه أمر لا يليق، خاصة بالسيدات. دائماً ما كنت أظن أن الأشخاص ذو الرقة الحقيقية لابد أنهم يشربون لبناً ويأكلون فراولة.

فقال "جواو": "وبعدئذ، إنني أظن، أنه بخلف أبواب مغلقة لحجرة نوم شخص ما"، "يمكن للشخص أن يلتصق بخصر لذيق اللحم بقري".

فقالت مشمئزة: "أوه، يا له من شيء بشع!"

ولكنها أكلت، حيث التقطت كسرة من الخبز بأطراف أصابعها. وكان الطريق الذي سلكته حول كرسيها يشبه طائراً مذعوراً، ودائماً ما يكون هناك قليل من الشاش أو الدانتيل أو الحرير يطفو حولها، يحيطها شفافيّات أثيرية وإيحاء غامض لأجنحة.

وقد سأل "جواومايا" "فيتور"، الذي أمامه قائلاً: "ألا تتفق على ذلك؟، إنني كنت أقول إلى هذه السيدة للتو إنني أرى أنه من الخاطئ جداً أن نشعر بالاشمئزاز من طعام مجسم لذيق. إنني لا أقصد "دونا جوانا" بالطبع، لكن على سبيل المثال، إنه نفس الأمر مع الحب الأفلاطوني. فهناك سيدات تتحدث فقط عن الروح، حيث يقولن إلى معجبيهن: "آه يا صديقي، إن الشهوات الجسدية أمر مثير جداً للاشمئزاز". ويبدو أنهن يعيشن في حالة من الطهارة المثالية، مع أن الحقيقة أن نفس تلك السيدات متزوجن بأزواج في تمام الصحة، حيث أنهن متأكدن من أن أزواجهن يمكنهم أن.....".

فعارضت "دونا جوانا" مرتعبة قائلة: "يا له من موضوع للحديث!"، وكذلك اتخذت "جينوفيفا" مظهراً فظاً، وأبرمت الألمانية شفيتها باستنكار محتقر، ومال "داماسو" على "جواو"، موبخاً إياه بلهجة شبه حزينة

قائلاً:

”في الواقع يا ولدي.....“.
فصمت ”جواو“ مبتسماً، وقال إلى ”داماسو“
بالألمانية لتلميذ سيء قائلاً:
”أهذا دير؟“

فردت عشيقة البارون سريعاً قائلة: ”لا، إنها حجرة
طعام لشخص ما“.

ففكر ”جواو“: ”منافقة وقحة“.
وتناولت السيدة الممتازة ”سيفالي“ ذلك الموضوع
مع ”فيتور“، حيث كانت تقول:
”إنني لم أؤمن مطلقاً بالحب الأفلاطوني. حسناً،
إننا نعلم جميعاً ماذا يعني هذا بالنسبة للرجال“، ثم
ضحكت بخبث، مغطية وجهها بمنديل المائدة الخاص
بها. ”وبالنسبة للنساء، فإنها رغبة القوة الدافعة“.
فقالت ”جينوفيفا“ مكشرة: ”فعلاً“.

فقالت السيدة ”سيفالي“: ”ألا يمكننا أن نملك قليلاً
من المتعة؟“. ”إسمحوا لنا على الأقل أن نتكلم، فليس
هناك من شيء يماثل التحدث عن الخطيئة، طالما أنها
ليست مادية“.

أراد ”جواو“ الانضمام للحديث، فرفع كأساً من
خمر البوردو إليها عن بعد، لكي يظهر أنه مشارك
حبها لحديث ماجن.

فقلبت ”دونا جوانا كوتينهو“ الحديث إلى رحلات
حج إلى ”لورديس“، والمياه المعجزة التي هناك.
فانغمر السيدات جميعهن بالفرحة بتلك الطهارة
العظيمة لعين الماء.

فسألت ”دونا جوانا“ ”جينوفيفا“ قائلة: ”هل حصلتي
على أي منها؟“

للأسف لم تحصل، فكان لديها بعضاً منها في
”باريس“، على الرغم من أنها مُنحت لها بواسطة
رئيس الدير ”بوفيت مادلين“.

فقالت الألمانية: ”إنه لدي“.

واحمرت خجلاً بحماسة راضية عن نفسها وتقية.
ورفعت ”دونا جوانا“ كأسها إلى شفثيها، وتناولت
شفطة، ثم قالت:

”إنه بلسم من السماء“.

أما ”داماسو“، الذي ظن أنها تشيد بخمرة البوردو
الخاصة به، قال:

”أوه، إنني مسرور جداً. إنه ”شاتوليونفيل“. إنني
كثيراً ما أفضله عن ”مارجو“.

فقالت ”دونا جوانا“ غاضبة: ”لا معصية، من
فضلك“.

فقالت ”جينوفيفا“ بتكبر: ”إن هذا أسوأ طعم ممكن“.
فصاح ”داماسو“ مرعوباً قائلاً: ”لكن يا حبيبتي“،
”إنني أظن.....“.

فقاطعت ”جينوفيفا“ قائلة:

”هذا يكفي“.

فأصبح وجه ”داماسو“ قرمزيّاً. وكان هناك صمت
قصير. ثم تساءل ”جواومايا“ بهدوء قائلاً:

”إنه يمكن للشخص أن يشرب ماء سيدتنا
”لورديس“ مع الخمر“، وبرؤيته الوجوه المصدومة
من حوله، واصل قائلاً: ”أوه، إنني أعلم ما أتكلم عنه.
أنه رأى قد سمعته من خلال أعلى السلطات الكنسية.
إنه في العام الماضي في ”روما“، ببيت الأميرة
”بارباسيني“. ثم واصل ”جواو“ حديثه بصوت رنان
ورسمي قائلاً: ”كان هناك الكاردينال ”كازابيانسا“،

والأسقف "باسورشي"، وأثنين من الأساقفة من بيت الرب، وفضيلة الدوق "نورفولك"، و.....".

إنه حاول أن يتذكر رجال آخرين أتقياء ومشهورين. أما السيدات فكانت تستمعن إليه في هذه اللحظة، منكبين عليه، ومهتمين بالأمر، وبرؤوسهن المنحنية وهدوءهن المتعاطف، أضفياً تبجيلاً أنيقاً لهذه القائمة الطويلة من الأسماء الكاثوليكية.

"وعلى أية حال، كانت صفوة "روما" هناك، وسمعت أن رجلاً قديساً يُدعى "آبي دي لا شيرمايا"، يقول أنه في حالة المرض، يُفضل تماماً أن يؤخذ ماء سيدتنا "لورديس" مع قليل من الخمر الأسباني". فقالت "دونا جوانا" مندهشة: "عجباً، إنني لم أسمع بهذا مطلقاً من قبل!"

إنني أستشهد برأيي ٢ "روما" يا سيدتي". وكان هناك هدوء حذر، وبدا الجميع متذوقاً لكشف هذه الحقيقة المقدسة. وكان "جواومايا" يفكر: "يا لهن من أغبياء! يا لهن من سيدات تافهة!" ثم كشف "داماسو"، والذي دائماً ما كان يزيد من استخفافه وثرثرته بالعشاء، عن آراءه بسيدتنا "لورديس" قائلاً:

"إنه مجرد تعصب ديني". فبدت "دونا جوانا كوتينهو" مصدومة جداً، وأكدت "جينوفيفا" أنها وجدت أن هذا النوع من الإلحاد المستهزئ برجوازيًا بشكل مفرط.

فقال "فيتور"، والذي أراد دفن "داماسو" المغفل: "بالإضافة إلى ذلك"، "إن هذه المعتقدات تعزية عظيمة لكثير من الفقراء والمرضى والمشلولين، الذين ليس لديهم أمل آخر، فسيدتنا "لورديس" هي كل ما لهم".

وبدا هذا قولاً حسناً، وأنيقاً، وأرستقراطياً جداً. حتى أن "الكونت" حرك رأسه باستحسان. فقالت "جينوفيفا":

"إنه كلام من القلب".

وقبلته "جينوفيفا" بنظرتها معبرة عن الشكر. وفي نفس الوقت، كان "الكونت" يجهد فكره حتى يجد شيئاً ما ليقوله إلى "جينوفيفا". وأخيراً بعد تحضيرات داخلية كبيرة، سألها عما إذا كانت تنوي الذهاب إلى سباقات الخيل التي تلبى ببلدة "بيليم". فقالت "جينوفيفا" أنها لا تعتقد ذلك. فقد سمعت أنها ملل مفرط.

فاعترض "داماسو"، وتحدث عن المنصات، والأحصنة، والفرسان الإنجليز الذين هناك..... فقاطعه "فيتور" قائلاً:

"إن "جينوفيفا" على حق جداً. فالسباقات هنا كافية لتطلق الشخص إلى النوم. فإنه ينقصهم كل شيء حتى يجعلوا السباقات مثيرة: سيدات أنيقة، أربعة في كل يد، مخمورين بالشمبانيا يجلسون أعلى حاملتك، لذة الرهان.....".

إن تعليقاته المحتقرة أثارت "داماسو" جداً، حتى شعر أنه مضطر إلى الصد، وقال بوجه محمر:

"وماذا تعرف عن هذا؟"

"أم لك علاقة بهذا الشيء؟"

فأكدت "جينوفيفا" على الفور أن "فيتور" على حق. فالرياضة الوطنية الحقيقية هي مصارعة الثيران، فليس هناك جمهور حقيقي للسباق في "البرتغال"، حيث أنه ليس هناك أحصنة ولا فرسان ولا مال.

فأضاف "جواومايا" قائلاً:

”حقاً، إنها نكتة!، حيث إنها تشبه القفزات
بـ“كامبوغراندي“: فبعض الشباب الذين يركبون
على أحصنة مؤجرة، يتعثرون بسيارات صناعية،
مصنوعة من فروع متصلة بواسطة إثنين من الأذنان.
إنها رياضة هزلية.“
فقال ”داماسو“: ”لكن.....“.

فقالت ”جينوفيفا“: ”هذا يكفي يا صديقي“، ”فإنني
لست على ثقة بأنك رجل رياضي.“
لم يتمكن ”داماسو“ الهائج والذليل، من أن يفكر
فيما يقوله، حيث أنه بدلاً من ذلك، صب لنفسه كأساً
كبيراً من الخمر.

وجدت ”دونا جوانا كوتينهو“ كل هذه الأمور
المسلية أمورا وحشية، ومناسبة للشعبيين فقط.
فمصارعة الثيران، وسباق الخيل، والألعاب
الرياضية، والمصارعة، والكروكيه.... ماذا يعني
كل هذا؟ إنها إهدار سخي للطاقة، ونادراً جداً ما
تتضمن شهية الروح. أنه ينبغي على الشخص أن
يشغل نفسه بأشياء أخرى.

فتساءل ”جواو“ قائلاً: ”مثل ماذا؟“
”أشياء نبيلة، مشاعر شامخة، أعمال كبرى.“
”لكن لا يمكن للشخص أن يقضي طوال اليوم يقوم
بأعمال كبرى.“

”حسناً، إنه ينبغي عليهم أن يقرأون أعمالاً لشعراء،
مصقلين أنفسهم بقراءتهم أعمالاً لكبار المؤلفين.“
والتفتت إلى ”داماسو“، ثم سألتها قائلة:
”من هو شاعرك المفضل؟“

فشد ”داماسو“ على وجهه، وتمتم قائلاً:
”حسناً، إنه لا يمكنني تماماً أن أفكر تلقائياً....“ ٢٢

فقالت "جينوفيفا": "أوه، لا تسأليه"، "إنه يرتعب من الكلمة المطبوعة".

فقال "داماسو": "إنني أرجو عفوكم".
فأضافت، وهي تميل إلى الخلف بكرسيها، ضاحكة قائلة: "رعب مستعصي من الكلمة المطبوعة والمياه الباردة".

فضحك الجميع أيضاً، فأصبح "داماسو" غاضباً. فلماذا تهاجمه؟ ففي هذا الصباح قد وقع لها علي ثلاثة "٣" من "كونتودي رايس". وبدأ عداؤها جاحداً بفضاعة، حيث أعطت انطباعاً مقلقاً للتمزق بينهما. ولأنه لم يمكنه أن يفكر في اتخاذ إجراء إنتقامي، لجأ يائساً إلى خمر البوردو الفرنسي وشوربة طائر الحجل.

إن "دونا جوانا كوتينهو"، والتي مازالت على موضوع الأدب "الاستخدام المناسب الوحيد لروح نبيلة" والمعجبة بـ "فيتور" نظراً لأنه جميل، وبسبب حبه الشديد لسيدتنا "لورديس"، قالت له بابتسامة رقيقة:

"إنني أعلم أنك تكتب شعراً".
فهناك الجميع، وطلبوا منه أن يلقي عليهم شيئاً ما بعد تناول العشاء.

فقال "فيتور" بتواضع أنه مجرد هاوي، وليس شاعراً غنائياً محترفاً، ولكن هناك بعض من الأحاسيس، والحماسات، والإعترافات، في حاجة إلى أن تجد تعبيراً في الشعر أو في الموسيقى. ولأنه لا يعرف موسيقى، فكيف يمكن للشخص إلا بالشعر أن يخبر سيدة أنه قد حلم بها؟، وكيف يمكنه أيضاً أن يعبر عن كل المشاعر الرقيقة التي تثير حبها؟ إن

النثر لن يمكنه القيام بذلك. إنه ينبغي أن نتحدث إلى السيدات أما على ركبنا أو بالشعر.

فصفق له الجميع. وبدأت المشاعر ممتعة خاصة أنها من فم شاب جميل. واكتشفت "دونا جوانا كوتينهو" حالات متعددة تدل على نشوة اكتئابية. حتى أن السيدة "سيفالي" بمرحها الساخر، وجدت أن كلماته "فنية" بشكل رهيب. أما "فيتور"، المفعم بالحياة والمشجع من خلال حماسة وانسجام المحيطين به، إندهش قليلاً، حيث أنه اكتشف أنه لديه مثل هذه الموهبة للخطب الأدبية، فقال إلى "داماسو":

"إنني متأكد مما تقوم به!، فبكونك شاب أنيق، كيف لا يمكنك أن ترسل إلى الشخص الذي تحبه باقة من الزهور، وقصيدة مكونة من أربعة عشر "١٤" بيتاً في كل صباح. هذا هو الشيء المناسب الوحيد لتقوم به. ما هي قصيدة اليوم؟"

"فكر في عملك!"

"أوه، آسف."

فأصبح وجه "جينوفيفا" شاحباً، وعضت شفتها بعصبية. وبدأ الجميع مندهشاً بهذا الخطأ المفاجئ بالتصرفات. وقال "جواومايا" مستمتعاً بنفسه:

"إن صديقنا "داماسو" على حق جداً أن يظل صامتاً. فلا ينبغي على الشخص أن يرجو من حبيبته أن تقر بمشاعرها."

فقالت "جينوفيفا" ببرود: "إنه لديه طريقة واحدة فقط للتعبير عن مشاعره".

فبدأ الناس يشعرون بالقلق، حيث رأوا جميعاً أن "جينوفيفا" تقصد إهانة "داماسو"، لكن لماذا؟

فقال "جواو" بصوت منخفض إلى السيدة الألمانية:

”إن شهر العسل يتضح جلياً لهذين الاثنين“.
فردت وهي تنظر إلى ”داماسو“ قائلة: ”إنني أراه
غير مستحباً إلى أبعد حد“.
”أوه، إنه مغفل تماماً، لكنه لديه بعض من الخمر
الجيد جداً“.

ثم رفع صوته قائلاً: ”إلى الشاعر، السيد ”سيلفا“،
إنك لست من محبي السلام تماماً. ففي أحد الأيام،
رأيتك بشارع ”روزماري“، حاملاً عصا المشي
بمهارة ملحوظة“.

فنظر الجميع إليه مندهشين.
وقال ”جينوفيفا“: ”أوه“، ”إنه كان يتصدى فقط
لصديق ”داماسو““.

”إن أصدقائي لا يسمحون لأنفسهم مطلقاً أن
يضربوا بمثل هذا الشخص“.
فقال ”فيتور“: ”لا“، ”إنني كنت مضطراً فقط إلى
رفع عصا المشي، كما لو كنت على وشك أن أضربه
بها، أما هو فطالب الشرطة“.

ومن تلك اللحظة، منذ قال ”جواومايا“ هذا إلى
السيدة الألمانية، كان العشاء ”مقزراً“. حقاً، إنه من
السخيف دعوة أشخاص لتناول العشاء دون تحذيرهم
أنهم هنا لأجل مشاجرة عائلية.

كان الجميع واثقين أن ”فيتور“ هو حبيب
”جينوفيفا“، وهذه المهزلة التافهة الكئيبة من الغيرة
الرهبية أخذت مجراها أمامهم. وجعل هذا الإحراج
المتزايد الحديث حرجاً ومملاً. فكان ”داماسو“ يأكل
طعامه، بادياً عليه الكآبة، ولم يقل شيئاً. أما ”الكونت“،
والذي وجد أن كل هذا غير لائق إلى حد بعيد، ظل
على هدوءه المشرف. وكانت السيدة الألمانية تحقق

نظرها إلى "جينوفيفا" بإعجاب. و"جواومايا" يراقب "فيتور". وكان الآخرون يواصلون حوارات مشتتة. فكان "جواومايا" و"فيتور" يتناقشان في المبارزات. وكانت "جينوفيفا" والسيدة "سيفالي" تتحدثا عن "باريس" وأصدقاء مشتركة متعددة.

فسألت "السيدة الألمانية" "جواومايا" بهدوء قائلة: "ألا تعتقد أن السيد "سيلفا" يشبه "جينوفيفا"؟" "ليس صحيحا، على الرغم من أن هناك شيئا ما. فلو لم تصبغ شعرها، لكان هناك حقاً تشابه لافت للنظر".

قد قدمت الشمبانيا، وبمجرد ما انتهوا من تناول الحلويات. ارتدت "جينوفيفا" قفازها ببطء، ووقفت على قدميها. وكان هناك احساس عام بالارتياح، حيث أن "جواومايا" صاغ هذا بقوله: "قد كان العشاء ملأً مفرطاً".

أما "داماسو"، الذي تراجع قليلاً، قال إلى "فيتور" بضحكة ساخرة بعض الشيء: "إنك ظريف جداً يا صديقي". "وأنت لست كذلك".

لم يستطع "داماسو" التفكير في شيء ليرد به، فدخل إلى الصالون، وقضم بحقد على سيجاره. قد جلس "الكونت" على البيانو، وكانت السيدة "سيفالي" واقفة بجانبه، تدندن بصوت منخفض، وتطرق بمروحتها فترة من الوقت على البيانو، راكلة بطانتها الطويلة إلى الوراء. إنها كانت تقف خلف "الكونت"، وتفتح شفثيها، وبصوتها الرنان كانت تغني بصوت جليل ورسمي. إنها أغنية من "كامبانيا". فأحيانا ما يكون اللحن مهزوزاً، وبطيئاً،

وموسعاً، وحسياً، ثم يرتفع إلى ذروة غرامية من امتيازات عاطفية مرتفعة، حتى كان لديها كل الاصرار المتوهج لنداء حبيب. وفي هذه اللحظات، مالت السيدة "سيفالي" برأسها إلى الخلف، كاشفة عن حلقة الأبيض الممتلئ.

ثم وصل بعض من الأشخاص: السيد "اليسيانوماكيدو"، والذي أحضر الكمنجة الخاصة به. و"ساروتيني" المرح وكثير الكلام، والذي يملأ الحجرة بمشهد صاخب لنفسه. و"مارينهو". وكان الجميع يبتسمون ابتسامات حذرة ويصافحون مصافحات ودية.

واستقبلتهم "جينوفيفا" بشكل رسمي وبكلمات ودية، مبتسمة وكاشفة عن أسنانها البيضاء الصغيرة. وبدا أنها تعافت من الهياج العصبي، الذي قد أظهرته أثناء تناول العشاء. أما فستانها، وحلقة العاري، ورقبتها البيضاء الرشيقة، وجمال قوامها، كل هذا ملأ "فيتور" بشبه اثاره مؤلمة. علاوة على أن الخمر البورغندي جعل دمه يتدفق بعروقه بقوة غرامية، فأخذ يتجول بالحجرة، آملاً في لحظة يمكنه أن يخرج إليها إعجابه الصادق. وعندما رأى أخيراً مساحة خالية على الأريكة بجانبها، أسرع نحوها وهمس إليها قائلاً: "جينوفيفا"، إنك مذهشة. لا بد أن أراكي لوحديك. من فضلك، لا تبعديني هذه الليلة.

فتفتحت مروحتها ببطء، ومالت إلى الوراء على الأريكة، وقالت بأناة:

"اسمع، في الساعة الحادية عشر، اترك الحجرة، وارتي معطفك، وانتظر بالدور الأسفل في كوخ البواب. وستأتي "ميلاني" إليك، وتأخذك إلى حجرتها.

ولا تتحدث إلى كثيراً هذه الليلة، أو أظهر أنك سعيد جداً.

ثم انحنى إلى "ساروتيني"، والذي كان يقف أمامها، تسأله عما إذا سيكون لهم الشرف ليسمعوا صوتها الإلهي.

وابتعد "فيتور"، بادياً عليه التعب البالغ، حتى أنه لم يمكنه أن يرد على استفسار "اليسيانو" عن "كاميلوكيراو". إنه كان يعلم فقط أن قلبه يدق بعنف، وشعور بالفخر الكبير كان يغمره. وكان كل من الأضواء، وفساتين السيدات، والكرافات البيضاء للرجال، والموسيقى دوافع إضافية لحبه، كوقود إضافي للفرن. والحقيقة الإعجازية هي أنه يملك "جينوفيفا"، والسر الغامض لمعرفة أنه سيملكها، كان تقريباً فوق الاحتمال. فدخل إلى حجرة التدخين، متخذاً جانباً، ونزل على الأريكة، وذراعيه معلقة بشكل مرتخي، وتنهّد تنهيدة عميقة، وجلس هناك ساكناً، وعينيه مغمضة في نوبة من الفرحة.

وسمع "فيتور" صوتاً لحذاء يصير على السجادة. فقد جلس "مارينهو" بجواره على الأريكة، وعلى الفور أخذ يطرح حديثاً يشيد بـ "جينوفيفا" من خلاله. فهو لم يراها مطلقاً جميلة جداً، وفيما يتعلق بالزمن، فإنها كانت بالتأكيد ترجع إلى الوراء بالعمر كالكابوريا. فلم يعتقد أحد أنها تبلغ من العمر أكثر من خمسة وعشرين عاماً. يا لها من امرأة!، يا له من "داماسو" محظوظ، أليس كذلك؟، إنه كان يفتقر بالطبع، لكنه كان يحصل بالتأكيد على استحقاق ماله!

فقهقه "فيتور" من الضحك، وكان على وشك الاستمرار، عندما سمعوا الأصوات المتلاطمة

للكمنجة. فكان "اليسيانو" يعزف تركيبة موسيقية قائمة على كورال "السيدة مريم"، حيث أن الكورال اقترب من الباب تدريجياً.

أمسك "اليسيانو" ذو الشعر الأشقر والأشعث قليلاً، بالكمنجة في ذراعيه، وجسمه محني. وكان يعانق الأوتار بتلك الانحناءة برقعة وضعف. اعتقد "فيتور" أن الموسيقى إلهية مطلقاً، فالأصوات المعزوفة تحمل الروح عالياً إلى عالم غامض من الشعور، حيث تتلاشى بحب صوفي أنيق. وكان الجميع بلا حركة وصامتين. وأضفت المعاطف ذات الذبول والكرافاتات البيضاء أثراً من الحياة الأرستقراطية على الحجرة، علاوة على أنها مزخرفة بفازة من زهور الكاميليا، متوهجة على ضوء الشموع، وهنا وهناك كانت المروحة ترفرف، والفستان الأصفر القمحي لـ "جينوفيفا" وشعرها الأشقر، على النقيض من درجات الألوان القائمة للحجرة، والتي بدت أنها تتمتع بتألق طبيعي، كما لو كانت مصنوعة من مادة ما أروعها.

وبين الحين والآخر كان "فيتور" يلمح عينها، كما لو كان محمولاً على علامات موسيقية رقيقة من الكمنجة، وروحه تسرع نحوها، مدفوعة بدوافع قوية جداً، وتحركات متلهفة جداً. حتى أن محاولة اضطرابه أن يظل واقفاً في المدخل، جعل يديه ترتعش كأوراق الأشجار أمام الرياح.

أصدر الوتر الأخير للآلة معزوفاً، وكان هناك صيحات من "المرح"؛ وكان "اليسيانو" يمسح العرق عن جبينه، والذي وصل تدريجياً إلى قدميه. وهمس الحديث ملأ الحجرة بتمتمات إحتفالية. وفجأة تذكر

“فيتور” قصة “مارينهو” التي لم تنتهِ بعد، وكان للتو على وشك أن يذهب ويسأله كيف تنتهي، عندما لاحظ أن “مارينهو” مستغرقاً في الحديث مع السيدة “سيفالي”. ثم أتى “ساروتيني” وأمسك بذراعه، ذلك الرفيق الممتاز، والذي كان شاعراً بالملل قليلاً. فالسهرة الأولى التي قد قضاها هناك كانت رائعة، وممتعة إلى درجة عالية، أما اليوم فكان الجميع أكثر جدية، حيث أنهم يلبسون أجواءً من المظاهر. إنه لا يحب ذلك، حيث أنه يحب أن يستمتع مع أصدقاء، ويحب الضحك. لكن “جينوفيفا” كانت تبدو فاتنة وباهرة تماماً!

وقال الجميع نفس الشيء، فهي معشوقته. وخلال ساعتين من الزمن، سيكون بحجرة نومها. ثم نظر “فيتور” إلى الساعة، وأصبح وجهه شاحباً، حيث أن الساعة تدق الحادية عشر “١١”! فذهب إلى “جينوفيفا” ليقول لها إلى اللقاء، وكان يقف بالممر يرتدي معطفه، عندما خرج “داماسو” إليه قائلاً:

“إنك لن تمضي في ذلك الوقت، أليس كذلك؟”
 “نعم، إنني أشعر بأنني لست على ما يُرام.”
 “أسف على هذه الحركة أثناء تناول العشاء.”
 “أوه، هذا حسناً!”

فقال “داماسو”: “إنها حفلة ممتعة، أليس كذلك؟”، وبدأ راضياً الآن تماماً، حيث ساعد “فيتور” في ارتدائه لمعطفه، ونادى على “ميلاني” حتى تنير له طريقه. ومن قمة درجات السلم، صاح قائلاً:
 “من المؤكد أنك ستأتي وترانا!”
 ثم عاد إلى الصالون، مبتسماً بابتهاج.

فأشارت "جينوفيفا" إليه قائلة:
"من الذي غادر؟"
"فيتور".

"آه، الآن تعال واجلس هنا لحظة".

ثم بدأت تتحدث بأناة، وتشتكي من دعابته المريضة
التي كانت على مائدة العشاء.

"لكن لماذا كنتي بشعة جداً نحوي؟، إنكِ كنتي
تبددين أنكِ تريدين أن تعطي للجميع انطباعاً أنه لا
يمكنكِ تحمل رؤيتي".

"لماذا كنت غير محترم جداً؟، إنكِ تعلم إنني أكره
النكات التي تخص الدين".

"لكنكِ تعلمين يا معشوقي أنه أحياناً.....".

"إن هذا حسن عندما نكون بمفردنا بحجرة النوم،
على الرغم من أنه في ذلك الوقت.... لكن في الشركة،
وفي الصالون، الدين مسألة أدب".

فأصبح "داماسو" على وشك الوقوف.

"اجلس. إن أي شخص سيعتقد أنك لا تريد أن
تتحدث إليّ. وبصرف النظر عن كل ذلك، أريد أن
يكون عشيقتي قادراً على التحدث، أن يكون ظريفاً،
متألقاً..... إنكِ كنتي محرراً جداً".

فقال باحتقار: "إنني أخشى ألا أكون أحد الأدباء".

"ربما لا، لكن يمكنك أن تكون محادثاً مسلياً".

وأضافت قائلة: "وعلى أية حال، إنني مصابة
بصداع"، "ولست متأكدة من رغبتني في أن تقيم معي
هذه الليلة".

فأصبح "داماسو" غاضباً. هذه الليلة من كل الليالي،

يوم عيد ميلادها، تلك الليلة التي تبدو فيها جميلة جداً،
تلك الليلة التي أحبها فيها كثيراً..... .

”فعلى الأقل أمضي عندما يمضي الآخرون“.

”لكنني سأرجع بعد ذلك“.

فلم ترد ”جينوفيفا“.

”إنني سأعود بمنتصف الليل أو في تمام الساعة

الواحدة“.

كانت ”جينوفيفا“ تفتح وتغلق مروحتها، كما لو

كانت منشغلة.

”إنني سأعود، أليس كذلك؟“

فابتسمت ابتسامة مترددة، ووقفت، ثم قالت:

”وهو كذلك“.

ثم اتخذت ”جينوفيفا“ منحياً حول الحجرة، بكلمة

هنا وابتسامة هناك، ثم اجتازت حجرة التدخين،

ودخلت بسرعة إلى حجرة نومها. ودقت الجرس،

وألقت نظرة سريعة فيما حولها، وكان هناك برطمان

مليء بالأبوبوناكس، والملايات متراجعة إلى الوراء.

ثم نظرت إلى نفسها بالمرآة، وتنفس الصعداء.

وقالت بصوت عال: ”يسبق السيف العذل“. وقد دخلت

”ميلاني“ إلى الحجرة.

”هل كل شيء جاهزاً؟“

فقالت ”ميلاني“ ضاحكة: ”نعم يا سيدتي. إنه

محجوز بحجرتي“.

”حبيبي المسكين!، خذي له زجاجة من الشمبانيا،

وكعكة أو شيئاً ما. وتعرفين ماذا عليه أيضاً القيام به،

أليس كذلك؟، وبمجرد ما يغادر الجميع، لفي القطن

الذي يُبطن به الملابس حول جرس الباب، أو اقطعي

السلك الكهربائي. حينئذ لو رجع ”داماسو“، وأثار

ضحكاً، فإننا لن نسمع شيئاً“.

فقالت ”ميلاني“:

”إنه سيكون من الأفضل لو لم يثير ضجيجاً.“
 ”لو أراد المغفل الرجوع في الساعة الواحدة،
 فحسناً، دعيه. إنه من الأفضل أن يتخذ بين الحين
 والآخر فترة راحة طاهرة. فهذا يبطل التعقيدات.“
 ثم سوت شعرها، واستدارت، وألقت أكثر من
 لمحة حول الحجرة، ثم عادت إلى الصالون.
 أخبرها ”جواومايا“ قائلاً: ”إن أولئك السادة“،
 ”يريدون رقصة الفالس“.

فقالت بابتسامة سعيدة: ”ولم لا؟“
 فنقل ”ساورتيني“ و”اليسيانو“ المائدة. انهما كان
 يتحدثان بصوت عالٍ وضحك. وكان ”الكونت“ جالسا
 بشكل جليل على البيانو، يعزف تناغمات افتتاحية
 لـ”نهر الدانوب الأزرق“.

وحوالي الساعة الواحدة، كان ”داماسو“ ملتقاً في
 رداءه تماماً، وكان يمشي عبر ”لارغوباراوكوينتيل“.
 وقد حل الظلام تماماً. وبدأت السماء أن تمطر. ففتح
 الباب الذي يطل على الشارع بمفتاحه، مشعلاً كبريتاً،
 وأخذ يصعد على درج السلم في ظل ضوء ضعيف.
 وفي الدور الثاني، كان هناك وميض لامع يضيء
 أعلى درج السلم مع ذلك الضوء الضعيف، يليه
 صوت رعد مدوي من السماء.

وعندما وصل إلى الدور الخاص بـ”جينوفيا“،
 دق الجرس بشدة. ولا شيء. فانتظر، ثم دق الجرس
 بعنف مرة أخرى. وليس هناك صوت.

فاعتقد غاضباً: ”يا له من جرس لا يعمل!“
 فجلس جلسة القرفصاء، ووضع أذنه على الباب،
 حيث كان بالداخل هدوء كئيب ساكن.
 ”وماذا الآن!“

ثم حاول في يأس أن يثق الجرس مرة أخرى. ولا شيء. فضرب بشدة وبمفاد صبر على الباب بكوعه. وفي ظل ذلك الصمت، استطاع أن يسمع دقات قلبه. وكان هناك ومضات البرق تضيء السلم، وهزيم الرعد أعلى أسطح المباني. وضرب بقوة على الباب بقبضته، فاهتز التراباس كرد فعل على طرقه شديد الاهتياج. وكان هناك بالداخل صمت هادئ. فاعتقد أنه ربما طغى عليه الرعد. وفي لحظة هدوء، عندما أمكنه أن يسمع قطرات المطر تتساقط على المنور، رفس الباب في الحال بكل قوته، مما أحدث ضجيجاً شديداً روعه فجأة. ونظراً لجبنه، خاف من أن يسبب فضيحة، فنادى على الخادمة قائلاً:

”ميلاني، ميلاني!“

ثم حدث قصف ضخم من الرعد، مدوياً بأرجاء السماء.

كان ”داماسو“ شاعراً بالبرد، وشعر بخوف ويأس وشك غامض.

”إن هناك شيء ما غريب يحدث هنا“. وفي ظل سيطرة من الغضب الأعمى، ضرب الباب بعنف بكعب قدمه. ولا شيء.

ففكر، وهو يهز الباب باهتياج، ثم رفسه: ”العاهرة!“ واستطاع أن يشعر بحبات العرق تتكون على جبينه. وكان يتراجع في كل مرة يكون هناك وميض من البرق، وما يليه من دوي للرعد كان يهز جسده.

ثم فقد ضبطه لنفسه، حيث رمى نفسه بعنف على الباب، ورفسه بكعب قدمه. وفجأة في الدور الثاني، انفتح باب، وصاح شخص قائلاً:

”من الذي يحدث تلك الضجة بالدور العلوي؟“
فرد ”داماسو“ مرتعبا قائلاً:

”إنني كنت أطرق فقط على الباب.“
فصاح الصوت المزعج قائلاً: ”لكن لماذا يا سيد؟“
”هناك سيده تقيم هنا بمفردها. ماذا تقصد بالطرق
على باب شخص ما في هذا الوقت من الليل بمبنى
محترم؟“

إن الغضب الشديد أعطى ”داماسو“ شجاعة، حيث
قال:

”وما الذي أضرك في هذا؟“
فصاح الرجل قائلاً: ”ما الذي أضرنى؟“. ”إنني
سأريك ما الذي أضرنى بعصاي“.

ثم دخل الرجل إلى شقته، وما زال صوته عالياً.
قد كان ”داماسو“ خائفاً بالفعل من أية فضيحة
أو عنف، فانتزع البانستر، ونزل سريعاً على درج
السلم، متعقباً فقط بالبرق اللامع.

وخارجاً في الشارع، نظر عالياً إلى الشبائيك.
وكان البيت كله مغلقاً، ومعتماً، وساكناً.

أما الأمطار فكانت تتساقط سيولاً في ذلك الوقت.
ولم يكن لدى ”داماسو“ شمسية، وتلطخ حذاءه الجلدي
الطين. وكان لديه رغبة شرسة أن يقذف الشبائيك
بالأحجار، ولكنه خاف من الشرطة، والضجيج
الحتمي والرجل الذي يرتكز على عصا المشي.

فزمجر قائلاً: ”عاهرة!“، وكان يطوف حول البيت
في الظلام بلا فائدة، حيث لا يعرف ماذا يمكنه أن
يفعل.

وفي ظل الوضوح اللامع الشفاف لوميض البرق
بين الحين والآخر، كان يرى البيت، والبقع التي بواجهة

المبنى، واطارات الشباك، وسور البلكون المصنوع من الحديد المطاوع، وكذلك الستائر البيضاء خلف الألواح الزجاجية للشباك، وستائر الدانتيل نصف المسحوبة. ويصبح الضوء الأصفر مصبوغاً باللون الأحمر، يليه وهج شديد يضيء كل شيء كما لو كان بحريق أبيض، ثم يحل الظلام الكثيف مرة أخرى، وخلال هذا ترعدت السماء.

“العاهرة!”

وبدأ أن يجري عبر الأمطار الغزيرة على بعد من “لارغو كامويس” ولم يجد ولا عربة واحدة. ومشى بشارع “ساوفرانسيكو” غاضباً، ونصف مجنون بغضب شديد. وكانت نقابة الكتاب مغلقة. وتمتم بعنف قائلاً: “إن كل شيء يتآمر ضدي!”.

ثم نزل إلى “روسيو”. وليس هناك سيارة أجرة على مرمى البصر. وكانت الأمطار غزيرة في ذلك الوقت، وهسهسة الماء على أحجار الرصف، ويمكن أن تُرَ أضواء مصابيح الشوارع عبر الضباب الكثيف لخيوط مائية مضيئة. وكان “داماسو” يبكي تقريباً. ثم انطلق نحو بيته سيراً على الأقدام، وكانت جواربه الحريرية مبللة. وقد أصبحت حافة قبعته العليا الملمعة مشوهة في ظل المطر، وكان هناك ماء مركز أسفل عنقه. وكان يتنفس بصعوبة، وكان مرهقاً، ويتصبب عرقاً على الرغم من البرد. وأصبح غاضباً عندما وصل لأعمق أكثر ضبابية، حيث أنه اجتاز ساحة السوق. واستطاع أن يشعر بأن بنطلونه رطباً على ساقَيْ رجله. وكان مختنقاً بالدموع، لا عناء “جينوفيفا”، داعياً إياها بأكثر الأسماء الممكنة بذاءة، متخيلاً انتقامه، في حالة تقرب للهستيريا. ثم وصل إلى

بيته، حيث اضطر إلى الطرق على المدخل الرئيسي
للبيت بعنف لنصف ساعة من الزمن. وعندما استيقظ
الخادم من النوم، أتى ليفتح الباب، ثم صعد "داماسو"
سريعاً على درج السلم، وأخذ يلقي مزيداً من الشتائم
والكلمات البذيئة.

الباب السابع

وفي اليوم التالي في تمام الساعة الحادية عشر "١١"، ذهب "داماسو" إلى بيت "جينوفيفا". وقد استعاد الجرس صوته. لكن قالت "ميلاني" عبر المصبة أن سيدتها مازالت بحجرتها.

"لماذا لم تفتح الشيطانة الباب لك الليلة الماضية. إنني كنت أطرق الباب بقوة فيما يقرب من ساعة من الزمن!"

فهزت "ميلاني" كتفيها، وفتحت عينيها على مداها. فكل ما قد سمعته هو صوت الرعد. "افتحي الباب".

فقالت: "إن سيدتي لا تستقبل زواراً قبل الساعة الثالثة"، ثم أغلقت المصبة على الفور.

فسيطر "داماسو" على غضبه، ونزل على درج السلم متخطباً، مفكراً: "هناك شيء ما غريب يحدث هنا!"

ثم رجع في تمام الساعة الثالثة، وكان قلقاً بشكل عميق، واستطاع أن يشعر بالخيانة ضده. فكان مستغرقاً في الحب مع "جينوفيفا"، وبعيداً عن هذا، المال الذي قد أعطاه لها، والمصاريف التي قد تحملها ليجلسها في الشقة، جاعلاً إياها أثمن قيمة إليه. فاهتز غروره في اعتقاده أن يفقدها، أو يصبح مخلوعاً. فكان مملوئاً بانفعال أقوى من كل ما قد شعره طوال حياته البرجوازية. وكان مرعوباً.

فتفتحت "ميلاني" الباب إليه، وقالت:

"إن سيدتي قد خرجت، وتركت لك هذه الرسالة القصيرة".

فقرأها بينما يزال بالمرمر، وكان واقفاً مذهولاً.

إنني لم أستطع استقبالك بالأمس لسبب بسيط، وهو إنني لم أكن بمفردي. وفي ضوء هذا الاعتراف، وضعت نهاية لعلاقتنا هذه. وأشكرك على كل احساناتك إليّ، وسأظل صديقتك. وسيعود اليك معطفك وأغطية عنقك على الفور. إنني أرجو أن يكون لديك الحساسية ألا تصر على رؤيتي مرة أخرى. فهذا سيسبب ازعاجاً.

فدخل "داماسو" إلى الصالون أوتوماتيكياً بتلك القصاصة من الورق في يده، دون أن ينطق بكلمة. ثم حلت فكرة أو قرار بداخل رأسه.

فانتظرت "ميلاني"، وعينيها لأسفل، ويديها في جيوب مريلتها. وبدا "داماسو" شاحباً جداً، متخذاً بعض الخطوات فيما حول الحجرة، يعيد قراءة الرسالة، وجرت أصابعه على شعره بتشنج، ونزل على الأريكة قائلاً:

"إن هذا يحدث معي!"، ثم التفت إلى "ميلاني" قائلاً:

"من كان معها هنا؟، من ذلك الحقيق؟" فهزت "ميلاني" كتفها. إنها لا تعرف أي شيء، حيث قد كانت منشغلة بالعمل، ولم ترَ أحداً. فوجه "داماسو" إليها نظرة غاضبة، حيث كره وجهها الصغير العفن الشاحب، ووسطها النحيل، وحذائها ذو الأربطة، والطريقة التي تقف بها، حيث تقف وإحدى قدميها للأمام.

"إنك لست أفضل منها، تلك العاهرة القذرة!" فقالت "ميلاني" أنها لم تكن مستعدة لتسمعه يناديها بأسماء سيدتها. إنه ليس ببيتها، وأنها لن تسمح..... فصاح "داماسو" قائلاً: "عندما أعطيتك نقوداً،

لم تكن هناك أية شكاوي في ذلك الوقت!". "وعندما أعطيتها بضع مئات من "ميل رايس"..... الحرامية!، يا إلهي، قد كنت مغفلاً!، إنني أود تحطيم كل هذا إلى أجزاء". ونظر فيما حوله إلى المرايات والستائر. فقهقهت "ميلاني" من الضحك.

"إنك ستضطر فقط إلى دفع ثمن كل هذا مرة أخرى".

فنظر "داماسو" إليها نظرة غاضبة، لكن أرعبته عين "ميلاني" الهادئة الجريئة، وضحكته الساخرة. فلو لم يكن خائفاً من الشرطة أو الفضيحة، لكان سيضربها. فالتقط قبضته.

"إنك لم ترين نهاية هذا. إنني سأرجع!"
"سيدتي تستقبل فقط.....".

"أوه، اذهبي إلى الجحيم مع سيدتك الحرامية!". ولكنه وقف عند الباب، بادياً عليه جنون حب الاستطلاع. "اسمعي يا "ميلاني". سأعطيكي إثنتين "٢" من "الليبرا" لو أخبرتيني من كان معها". ثم أخرج المال وقال: "تفضلي".

فمدت يدها. وأسقطت النقود بجيب مريلتها، حتى تجلجل، ثم قالت بصوت منخفض:
"إنه ليس سراً. إنه السيد "فيتور"."
"الحقير!"

ونزل على درج السلم، يرتعش من الغضب الشديد. ثم رجع في تمام الساعة الخامسة. فقالت "ميلاني" أن سيدتها بالداخل، لكنها لا تستقبل ضيوفاً. وأغلقت الباب.

وبشيء من الجنون، ضغط "داماسو" على جرس الباب بشكل متهور. فعادت "ميلاني"، بادياً عليها

الضيق، وأخبرته أن سيدتها ستستدعي الشرطة لو استمر على ذلك الضجيج كثيراً.

فصاح "داماسو" عالياً، عندما أغلقت "ميلاني" الباب بعنف في وجهه قائلاً: "حرامية!"

مطروداً!، مهدداً بالشرطة!، واعتقد أنه قد صرف عليها أكثر من اثنا عشر "١٢" من "الكونتورائيس"! وقبل هذه الليلة فقط، قد أعطاه ثلاثاً من "الكونتو" قيمة السندات المالية. وقد فرش الشقة بأكملها! الحرامية!

فكان يتنفس بصعوبة، ويتصبب عرقاً. فاجتاز "لارغودوكوينتيل". ومخه الصغير كان يفور غضباً. فقرر أن يفضحها في الجرائد، وأن يرتب مع شخص ما أن يضرب "فيتور" ضرباً مبرحاً. حيث شعر بكرهية مركبة حقيرة شديدة لكليهما، مخلوطة باليأس من الخيانة العاطفية، وغضب الرفض، والعاشق الذليل، والغضب الشديد للرأسمالي المنهوب.

إنها حرامية!، بالتأكيد هناك قوانين ضد ذلك الفعل!، لا بد أن هناك قوانين!

إنه قضى اليوم وجزءاً من الليل يسير بحجرته، يشتم وينطق بكلمات بذيئة، ويضرب بقبضته بقوة على الموائد.

فأراد أن يكتب إليها رسالة، لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات. ولم يتجرأ أن يخبر أي شخص عن خيبته، حيث كان يخشى الإبتسامات الساخرة، والتعازي المخزية. يا له من أمر مهين!، فقد كان مخدوعاً، مستهزأ به، محتقراً. فإنيهما قد تعاملتا معه كما لو كان كيساً من النقود. وبمجرد ما يخرج كل المال، فإنيهما يلقيان الكيس مع الملابس المتسخة. إنهما فعلاً هذا

معه، "داماسو"، وكان يعقب هذه النوبة من اليأس البشع مباشرة، نوم عميق. وفي صباح اليوم التالي، ذهب مباشرة ليرى المحامي الخاص به، والذي يُدعى "توريس".

كان الحقير العجوز يستمع إلى حكايته، وعطس، ثم قال:

"ليس هناك شيء يمكنك أن تفعله. هذا ما يحدث عندما تتورط مع امرأة فرنسية. إنه أمر ميئوس منه. إنني خائف. شيئاً ما أسوأ بكثير من ذلك يحدث معي، أسوأ بكثير!".

فقدم "داماسو" تقريراً مفصلاً عن قضيته. يا لها من امرأة متحجرة القلب على الإطلاق!

"أنا آسف، لكن ليس هناك من شيء يمكنني فعله". فصعد "داماسو" إلى "شيدو"، يرتعش من الغضب الشديد. "ماذا كان سيحدث لو أخرج كلمة؟، فكان يفكر في الإثنا عشر من "الكونتو" التي ضاعت للتو بلا فائدة. أوه، إن هذا يحدث معي!"

ثم أمدّه غروره بتفسير مختلف: فربما كانت غيرة. وربما شخص ما قد تأمر ضده، وأخبر "جينوفيفا" أنه لديه عشيقَة أخرى. فكتب إلى "جينوفيفا" رسالة على الفور، والتي قال فيها أنه أدرك أن هذا كان التفسير المحتمل الوحيد لقطعها لعلاقتيهما. وحلف أنه قد كان مخلصاً لها، حتى أنه "أبدأ، أبداً....."، ذاكرًا لها قائمة طويلة من الأدلة على إخلاصه. وأخذ يتحدث عن الساعات اللذان قد أمضيها سوياً، وعن إحترامه الشخصي. وبيده الممتدة أخذ يضيف سلسلة كاملة من المزيد من الحماقات.

ثم أخبر "المرسال" أن ينتظر رداً. وجلس "داماسو"

على دكة بـ"كازا هافانيزا"، يدخن سيجاراً بعصبية.
ثم دخل "كارفالهورا"، وانضم إليه.
"كيف حال إمرأتك؟"
فقال "داماسو"، والذي بدا وجهه قرمزيّاً: "حسناً".
"هل سيستمر شهر العسل؟"
فقال "داماسو"، محاولاً أن يبدو معترزاً بنفسه:
"بالتأكيد!"

ثم رجع "المرسال"، ورسالة في يده. لم يستطع
"داماسو" تصديق هذا، فإن "جينوفيفا" قد أعادت
إليه رسالته، والتي كان مكتوب على ظهرها بالقلم
الرصاص:

إن رسالتك جعلتني أضحك كثيراً، حتى أصبحت
على وشك المرض. لا يا صديقي العزيز، لم يتسبب
أحد بمشكلة في التآمر ضدك. وقد قررت ببساطة ألا
أعد أزعج نفسي بوجودك. إنني سأكون شاكراً لو لم
تزعجني بأية مراسلة إضافية من أي نوع.
فتساءل "كارفالهورا"، والذي كان يشتري سجائر
من الدكان قائلاً: "أتستدعيك محبوبتك؟"
فغمغم "داماسو" قائلاً: "نعم، إنني سأذهب وأراها
الآن".

فصاح "كارفالهورا"، مختلاً خارج الدكان قائلاً:
"حسناً، استمتع بوقتك يا "روميو"!"

ذهب "داماسو" إلى مدخل المبنى ليستنشق بعض
الهواء. وبدا كل شيء كما لو كان مغلفاً بالضباب.
وكان الضجيج الصادر من الشارع بالنسبة إليه كدندنة
بعيدة. وكان يبحث عاجلاً عن بعض وسائل الانتقام.
إنه لم يهتم كيف يكون الأمر حقيراً. فإنه يمكنه أن
يشعل النار بالبيت، أو يبلغ الشرطة عن "جينوفيفا".

إنه كان يفكر بأعمال إنتقامية تُرتكب في أكثر الأوقات شديدة الإنفعال بواسطة حبيب مهجور. إنه يمكنه أن يهياً كميناً، ويعد "جينوفيفا" لثُغتصب بواسطة خدم تابعين له أو قوادين. إن هذه الأفكار أحضرت معها مخاوف من الشرطة، وضربه ضرباً بارحاً. ونظراً لجنبه، تراجع سريعاً عن فكرة الإنتقام.

وفجأة سرت قشعريرة بجسده. فقد كان "فيتور" يسير للتو في "كازا هافانيزا". وعندما رأى "داماسو"، تردد وأصبح وجهه شاحباً. لكن بقرار مفاجئ، انحنى، ولم يقل فقط إلا: "أهلاً".

فقال "داماسو" بصوت متردد وعال: "إنني لا أتحدث إلى أوغاد"، هازأ رأسه، ورافعاً نفسه لأعلى على رؤوس أصابع قدميه.

فرفع "فيتور" عصا المشي الخاصة به، فتراجع "داماسو" بالطبع. وأسرع إليهما رجل ضخم، كان يشعل سيجارة، وأمسك بـ"فيتور" قائلاً:

"الآن، الآن أيها السيد، كن عاقلاً!، صدقني، إنني أعلم ما أتحدث عنه".

فأطبق "فيتور" قبضته باحكام، وبدأ وجهه شاحباً بشكل مرعب، وشفثيه تتلوى في سخرية، قائلاً:

"إنني سأرسل إليك إثنين من مؤيدي، أيها الجبان". ثم غادره بقوله هذا.

فأصبح وجه "داماسو" أبيضاً شبيهاً بالموتى. وكان الصرافون يحدقون النظر إليه في دهشة. ثم كان هناك رجل يرتدي نظارة ذات إطار ذهبي، يلصق طابعاً بريدياً، يقترب إليه بتعبير من الدهشة على وجهه، ثم قال بنبرات إحترافية، محركاً رأسه:

”مسألة شرف.....“.

”يا له من رجل حقير!، لو يظن حقاً إنني سأذهب لخوض مبارزة، فإنه مخطئ جداً. ولكن أتركه فقط يقترب مني مرة أخرى، وسأكسر كل عظمة في جسمه“.

”حالا، حالا“

فالتقط ”داماسو“ أنفاسه بصعوبة، وكانت عينيه حمراء. وكان هناك دمعتان تنساب على خديه، فأصبح وجهه أكثر اصفراراً، وكان يهتز على قدميه. فقال الرجل الضخم: ”قدم له كوباً من الماء“. فاجتاز إليه سريعاً أحد الصرافين ببعض من الماء. وجعلوه يشرب.

”تعال أيها الرجل!، إنك ستشعر بتحسن سريعاً“. فقال ”داماسو“ منتعشاً: ”شكراً لك، شكراً لك“. ”إنني لست خائفاً. فمجرد أنه فاجأني. ذلك الحقير! إنه اعتاد على أن يكون صديقاً. فقد سلفته مالا في عدد من المرات. إنني سأكسر عظامه.....“.

وبسماع ”داماسو“ لأصوات مرتفعة، ووقوف زوج من المارة لينظرا إليه ولد صغير يحمل حزاماً ما، وشاويش عسكري. وبرؤية ”داماسو“ هذه الوجوه المحدقة الغريبة، شعر فجأة بالإرتباك، فاستدعى عربة. وتفرق أتباعه، وهم يضحكون.

فقال شاب ذا بنيان ضخم: ”إن هذا بخصوص امرأة ما“.

فقال الرجل الذي كان يلصق الطابع بصوت قصبي، وعينيه تلمع بالرغبة:

”أعتقد إذن أنهما سيتبارزان؟“

فهر الرجل الضخم كتفيه معبراً عن الرفض قائلاً:

”مبارزة؟ في لشبونة؟ إنها ستكون مهزلة كاملة!“
فقال الرجل الآخر، وهو يفتح فمه ويلصق طابعاً
آخر، واقفاً على رؤوس أصابعه، وعينيه مفتوحة
على مداها: ”أنقصد أنه سيكون هناك طريقة ما
للمصالحة؟“

فأدلى الزميل القوي بتعليق بذى على موضوع
المصالحة، ثم ابتعد، مدوراً عصاه.

إن أول إهتمامات ”فيتور“ هي أن يجد إثنين
من مؤيديه. حيث أنه يميل إلى فكرة المباراة مع
”داماسو“، فإنها ستكون تعويضاً ما عن كل الإهانات
الصغيرة التي قد عاناها. فإنه سيكتسب هالة من
الشجاعة، والتي تراها ”جينوفيفا“ أنها جذابة. إنه
أمر فظ بعض الشيء أن يحل محل ”داماسو“، وأن
يستفيد بكل شيء قد فعله لأجل ”جينوفيفا“، لكن هذا
كله سيُمحي تماماً لوفاز عليه في المباراة، كشائبة
تحت ضوء قوي. إنه سيعلم ذلك المغفل درساً!

لكن من سيكون مؤيده؟، إنه لا يمكن الإعتماد على
”كاميلوكيراو“، و”كارفالهوزا“ مسرّحياً جداً. ثم بحث
عن ”مارينهو“، فوجده مرتدياً روبا ذو شامبر بحجرة
نومه، يعيد ترتيب فرش شعره. وعندما أوضح إليه
ما يريده، تراجع ”مارينهو“، وأصبح وجهه شاحباً،
وصاح قائلاً:

”لكننى صديق قديم لـ ”داماسو“. إننا أصدقاء
حميمون“.

ثم حرق النظر إلى ”فيتور“ بعينين مذعورتين،
وأسرع ليغلق باب حجرته، ثم قال:

”أليس بإمكاننا تسوية شيء ما؟“، وعندما هز
”فيتور“ رأسه: ”دعنا نرى، دعنا نرى.....، إنه لا بد

أن نكون عقلاء. إننا لا نريد فضيحة. فسينزعج عمك بشكل فظيع. إن "داماسو" مسكين. ألا تفضل إنني أعالج كل هذا؟ صدقتي، إنني أعلم ما حول هذه الأمور".

لكن بدا "فيتور" ثابتاً على ما هو عليه.
"لكن يا "فيتور"، إنك بالتأكيد لا تريد دم "داماسو" المسكين!"

"إنني أريد تعويض الخسارة: فإنني في حاجة إلى صديقين حتى أذهب وأرى "داماسو"، وأحصل منه على رسالة اعتذار. ولو لم يكتب رسالة اعتذار، فسنبارزه إذن".

ومثل هذه الوحشية التي بـ "فيتور" أذهلت "مارينهو". فنظر إلى "فيتور" بشيء ما أقرب إلى الرعب.

فقال: "يا إلهي!", وفرك يديه معاً، والتف بمعطفه ذو الشامبر بشكل أكثر إحكاماً حوله.

وبينما كان "فيتور" على وشك المغادرة، أضاف قائلاً:

"انظر، أنا آسف يا صديقي، لكن لا أستطيع فعل ذلك. فقد كنت صديقاً مقرباً لـ "داماسو" لسنوات. وكنت أعرف والدته تلك السيدة المتدينة التقية!، والآن مبارزة لكل الأشياء.....".

وعندما ترك "فيتور" فندق "مارينهو"، فكر فجأة في "جواومايا". إنه في أشد الإحتياج إلى ذلك الرجل!، فذهب على الفور إلى الفندق المركزي. وكان ذلك في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر. ووجده بالسرير، يدخن، وبجانبه وعاء من عصير الليمون على المائدة التي بجانب سريره، وكان هناك قصة

ملقاة على الأرضية. وكان يتحدث إلى شاب جبار ذو شعر مقصوص قصيراً، ووجه برئ إلى حد ما، ويبدو لطيفاً.

وقدمه إلى "فيتور" على أنه ابن عمه، والذي يُدعى "جونكالو كابرال". عادة ما كان يقيم "جونكالو" بالأقاليم. إنه الإبن الأكبر لعائلة غنية، ومُخرج من كلية الحقوق. إنه دائماً ما كان يقضي جزءاً من فصل الشتاء بـ "لشبونة"، والتي يعتقد أنها فاسدة كـ "بابل"، وجذابة كالجنة نفسها. إنه كان للأسف خجولاً بشكل معوق. إنه كان يعتقد أن جميع سيدات "لشبونة" يهزأن به. ودائماً ما يكون بالشارع، أو بالمسرح، أو ببيت شخص ما، متحفظاً ومليئاً بالشك، وعلى أتم الإستعداد أن يطحن بقبضته الريفية القوية أي شخص يسخر منه. ولكنه كان خيراً إلى أبعد الحدود، ويتمتع بروح الأمانة، وبصدره الضخم يفوز بقلب فتاة. إنه لديه نقطة ضعف واحدة: وهي أن طموحه أن يصبح مشهوراً بـ "لشبونة". ورغبته السرية هي أن يسحب معه فتاة أسبانية إلى الأقاليم، لأنه كان يعتبر أن الفتيات الأسبانيات قمة الترف الماجن والجمال البشري. في البداية تردد "فيتور" أن يطرح قضيته، لكن قال "جواومايا":

"إنني لا أخف شيئاً عن "جونكالو"!".

فعرض "فيتور" طلبه، فأطفاً "جواو" سيجارته، ودق الجرس بعنف، ثم جلس على حافة السرير قائلاً: "إنني سأذهب حالاً يا صديقي!".

وبينما كان يرتدى ملابسه، كان يظهر لنفسه أنه مسرور جداً، حيث أنها تشبه هدية من السماء. إنه لم يكن لديه شيء ليفعله، وكان شاعراً بالملل على نحو

مميت! ومن هو المؤيد الآخر؟
هذا كان بالتحديد ما ينقص "فيتور".
فنادى "جواومايا" قائلاً: "جونكالو"، "اذهب
وارتدى سترة سوداء تصل إلى الركبتين بسرعة!".
كان العملاق النبيل خارجاً سريعاً كرصاصة،
سعيداً جداً بفكرة أن اسمه سيظهر في الجرائد في
ارتباطه بمبارزة.

اتفقا "فيتور" و"جواو" أنه ينبغي أن يُطلب من
"داماسو" أن يكتب رسالة اعتذار متذلة، وإلا سينبغي
عليه أن يختار إثنين من المؤيدين، ويستعد أن يتبارز
بالسيف بـ "كروز كيبرادا" في تمام الساعة الثمانية
صباحاً. والشخص الأول الذي يخرج الدم من الآخر
يصبح الفائز. وسيذهب "فيتور" إلى الفندق في تمام
الساعة السادسة ليتلقى رداً من "داماسو" المغفل.
فتساءل "جواو" بينما كان "فيتور" مغادراً: "أيمكنك
المبارزة؟"

"قليلاً، ومع ذلك....".
"هذا كل ما تحتاجه. إننا سنخبر "داماسو" أنك
ستبارز بالسيف كـ "بيتي". وداعاً!".
فغادر "فيتور"، وبدأ يمشي ببطء على طول
الجسر. إنه كان ذاهباً لخوض مبارزة!، هذا الفكر
جعله يشعر بالفخر والرجولية.

إنه في نهاية المطاف سيحارب لأجل "جينوفيفا".
فوقع عليه هذا كفكرة نبيلة جداً وشبه بطولية. إنه
كان في ذلك الوقت متذوقاً كيف سيبدو أمامها بعد
المبارزة، حيث سيبدو شاحباً، مثيراً للاهتمام، ومعلقاً
بذراعه حمالة السيف. ثم أخذ يستدعي بذهنه قراءة
المبارزة، والتي فيها من خلال حادث مصيري هام،

إثنان من الأشخاص لم يتبارزان مطلقاً أويطلقان النار ببندقية، يُقتلا كلاهما. ورأى نفسه مستلقياً على العشب، والدم يتدفق منه، مما جعل قلبه ينبض بشكل أسرع، وامتلاً بثقة أن الحياة شيء ذو قيمة كبيرة جداً. فنظر عالياً إلى السماء، والتي بدت جميلة تماماً كما في المدينة، مغطاة بدرجات من الألوان اللامعة العذبة لفصل الشتاء، حيث رأى سحباً ملونة باللون الأحمر في الأفق القريب. ثم أخذ يفكر في الدم مرة أخرى، في الشفاه الحمراء بفعل الجروح. هل كان خائفاً؟ إنه استنزف دماً من قلبه. وحتى يهدأ نفسه، دخل إلى خمارة إنجليزية، وشرب كأسين من الخمر. فادفأه الخمر، وأنعشه. ثم ترك الخمارة، متمنياً أن يكون في ذلك الحين خارجاً بالريف، مرتدياً قميصه ذو الأكمام، حاملاً سيفاً، شرساً كأسد. وسيكون هذا في جميع الجرائد، وسيصبح مشهوراً بشجاعته، وستتطلع إليه النساء، ويخاف منه الرجال. إنه كان شبه خائفاً في هذه اللحظة ألا يوافق "داماسو" على المباراة. ولكنه شعر أيضاً بغيرة غامضة نحو الناس، الذين يسIRON أمامه في هدوء، والذين لن يتبارزون بلا شك في تمام الساعة الثامنة من الصباح.

وفي هذه اللحظة كان "جواومايا" و"جونكالوكابرال" موجودين بعربة مؤجرة عند باب بيت "داماسو". ثم تقدما إلى داخل حجرة مليئة بالمفروشات المنجدة باللون الأخضر. فجلسا برسمية جليلة. وسرعان ما ظهر "داماسو"، والذي يبدو شاحباً، وعينيه حمراء، وقلقاً.

وبمجرد ما شرح "جواومايا" هدف هذه الزيارة المؤسفة بشكل عميق، وقف "داماسو"، وشفته

بيضاء.

”أينوي “فيتور“ إذن إعلان التحدي؟، بالتأكيد أيها السادة لا تعتقدون إنني..... سأبارزه؟، إنه أمر غير أخلاقي بشكل لا يقبل الجدل!“
 فظل ”جواومايا“ جالسا، مبدياً ملاحظة ببرودة أعصاب قائلاً:

”سيدي العزيز، إن هذه الكلمات تمثل إهانة لكل من صديقي ولنا“.

فقال ”داماسو“ بصوت مليء بالحزن العميق:
 ”أوه، جواو، جواو!“. ”إنني لا أريد إهانتك أو إهانة هذا السيد الآخر. إنني أعتذر، وإليك أيضاً يا سيد. إنه أمر ظالم جداً. إنك تعلم إنني كنت الوحيد الذي قدمه إلى الإمراة العاهرة. إنني صديق طيب معه، واعتدت على أن أدعوه لتناول العشاء، وأرافقه بعربتي، و”فيتور“ هذا هو ”فيتور“ ذاك، أيا كان ما يريده. والآن يفعل هذا معي!، معي أنا، الشخص المعروف بالمجتمع، والمحترم من الجميع!، يخطف إمرأتي، ويتحداني بمبارزة.....“.

وفي هذه اللحظة كان يمشي على الأقدام على نحو مشنت، وكان يلتفت بصورة عشوائية، وعينيه مبللة بالدموع.

فقال ”جواومايا“: ”أنا آسف“، ”لا تدعنا ننحرف عن الموضوع الذي في يدي. هل دعيت أو لم تدع صديقي حقيراً؟“

فصاح ”داماسو“، والذي كان بجواره قائلاً: ”إنني أقول مرة أخرى“، ”إنه حقير. فهذه المرأة كلفتني ثروة مالية!، وكذلك قد سلفت ”فيتور“ مالا عدداً من المرات“.

ثم وقف بمنتصف الحجرة، طاوياً ذراعيه، ورافعاً نفسه عالياً على رؤوس أصابع قدميه.

فقال "جواومايا" بخشونة: "أنا آسف، لكن هذه قضية أخرى تماماً. هل هناك مسائل مالية معلقة بينكما؟، هل "فيتور" مدين لك بالمال؟"

فتردد "داماسو" محمراً خجلاً، وتمتم قائلاً:

"لا، إنه دائماً ما كان يسدد الدين الذي عليه."

"حسناً، إنه إدعاء خطير جداً كنت تتظاهر به.

وأحذرك إنني أيضاً...."

فصرخ "داماسو" يائساً قائلاً:

"أوه يا أصدقائي، سأعطيكم كلمة شرف. إنني

"أحلف"، وهو يضع يده على قلبه بأمانة. "إنه ليس

لديك صديق أفضل مني يا "جواو". وإنني أحترم ذلك

السيد أيضاً. ولكن الشيطان يقبل التحدي للمبارزة.

ضع نفسك في مكاني!"

فمسح "جواومايا" جبينه بمنديله، وأخذ يتحدث

بنبرات منخفضة قائلاً:

"هل مستعد أن ترسل اعتذاراً صريحاً؟"

"لكن لماذا؟ ما الخطأ الذي أخطأته؟ ماذا وضع

الشيطان من خطط حتى أقوم بها؟، إنه الوحيد الذي

هددني بعصا المشي الخاصة به. واضطر رجل ذو

شارب بـ"كازا هافانيزا" إلى منعه....."

فقال "جونكالو"، والذي كان مملوياً بكل هذا الحشو

الكلامي البشع: "فليبارزه إذن."

فتتح "داماسو" عينيه على مداها مرعوباً، ثم قال

بحزم:

"لا، لن أبارز، لن!، فإنني في حاجة إلى كل هذا.

ولماذا يمكن للناس أن تهزأ بي فقط؟، من سمع عن

مبارزة في "لشبونة"؟، إنني لا أريد أن أفقد أصدقائي. ولدي عائلة. ماذا ستقول عمتي؟، إن هذا لا يخيفني. فإنني مستعد لمواجهة، وأن أخبره أن يأتي هنا". فوقف الصديقان.

"حسناً، نظراً لأنك رفضت الاعتذار أو المبارزة، فإننا سنضطر إلى إصدار بيان. إنه يمكنك أن تفعل كما يحلو لك يا صديقي". ثم أخفض "جواومايا" صوته، منبهاً إياه قائلاً: "لكنني أحذرك أن "فيتور" مصراً على إهانتك علناً".

فحدق "داماسو" النظر إليهما كأبله قائلاً: "أيهينني؟"، "أوه، إن هذا يحدث معي!"، ثم رفع يديه إلى رأسه. "ماذا ينبغي علي أن أفعل إذن؟، إنك صديقي يا "جواو"، أخبرني بما ينبغي علي فعله". "إننا قد أخبرناك للتو: اكتب اعتذاراً صريحاً". "سأكتب أي شيء".

"حسناً، اكتبه وسنفحصه بعد ذلك. أتريد استشارة أي شخص آخر؟"

فقال "داماسو": "لا"، "إنني أفضل في الواقع أن نحفظ بهذا بينكما وبينني. إنني أريد فقط تجنب أية فضيحة. أوه. إن هذا يحدث معي!"

ثم دخل يبحث عن ورقة وحبر، ومر عبر باب خاطئ، ثم اضطر إلى الرجوع، وكانت عينيه جامحة، وأخذ يتصبب عرقاً. ثم جلس، والقلم الحبر يرتعش بيده، وكان يحدق النظر إلى الورقة مرعوباً.

"أنا آسف. لا يمكنني التفكير. اكتبه أنت يا "جواو". فسوى "جواو" شاربه، وخطا خطوات واسعة بالحجرة بإجلال، ثم اجتاز إلى المائدة وقال بركة: "إن هذا موقف صعب جداً، ونظراً لأنك في الواقع

دعيت "فيتور" بالحقير، فإنك ستضطّر إلى طلب سماحه".

ثم وقف هناك، وعينيه مصوبة نحو "داماسو".
فكرش "داماسو" رأسه بكآبة.
وأضاف بصوت مليء بالحزن قائلاً: "أطلب سماحه؟". "ألا تعتقد أن الأمر سيبدو كما لو كنت خائفاً؟"

فابتسم "جواو" ابتسامة غامضة قائلاً:
"إنه يمكنك أن تقدم نوعاً ما من الاعتذار، لكن ماذا؟"

"نعم، ماذا؟"
فنظر "داماسو" بقلق من هذا الشخص إلى الآخر.
فقال "جواو": "لماذا لا تقل أنك كنت سكراناً؟"،
"ما رأيك يا "جونكالو"؟"
"نعم، قل أنك كنت سكراناً".
فقال "داماسو":

"وهو كذلك، سأقول إنني كنت سكراناً، لكن لن يكون هذا علناً، أليس كذلك؟"
"أسف على أنه سيكون علناً، حيث أنه سيكون بجميع الجرائد".

فقفز "داماسو" على قدميه.
"أتريد أن تجعلني أضحكة؟، أريد الصعلوك تشويه سمعتي تماماً؟"

فقال "جواو" بلامبالاة: "حسناً، إنك ستضطّر إذن إلى المبارزة"، "إن الطرف المهان يريد أن يتبارز بسيف. وسيرتب مؤيداك.....".

فطرح "داماسو" ذراعيه في الهواء، وصاح قائلاً:
"إنه عمل الأوغاد!"

فازداد غضب "جواومايا". والتقط قبعته، ثم قال بشدة:

"حسناً، إننا في إنتظار زيارة من مؤيديك. إنه ينبغي أن أخبرك أنه مازالت كلمة "وغد" تشكل إهانة لنا أيضاً، وأنه بعد المباراة مع "فيتور"، سنحوز على شرف تحديك بأنفسنا".

وبينما كان الزميلان على وشك المغادرة، أمسك "داماسو" بذراع "جواو"، والدموع في عينيه. "أوه، من فضلكما يا أصدقائي. إنني لم أقصد إهانتكما. أنا آسف! أوه يا الله. إنك تعرفني يا "جواو". إنك تعرف أنه لا يمكنني مطلقاً.... إنني سأفعل أي شيء. اكتب البيان وسأوقع عليه".

ثم نزل على الأريكة، وأخذ ييكي. فجلس "جواو" يكتب بهدوء. وبين الحين والآخر كان يتشاور مع "جونكالو" بصوت منخفض. ثم قرأ ما قد كتبه على "داماسو". "أتقر على ذلك؟"

"ماذا يمكنني أن أفعل؟ لو يمكنني تجنب الفضيحة....."

ثم جلس، وأخذ يتحسر. وبينما كان يرافقهم إلى الباب، قال بصوت باك هادئ:

"وليكن في اعتقادكما إنني كنت أدعو ذلك الرجل بـ"صديقي المقرب"!، شكرا لكم يا أصدقائي، شكرا لكم!"

وفي اليوم التالي كان "فيتور" و"جينوفيفا" يتناولان الغداء. وكانت "جينوفيفا" مرتدية روبا واسعا من الحرير الأزرق الغامق. وشعرها مازال غير مرتبا

بفعل ملذات الليل. وكانت تبدو شهوانية أكثر من العادة. وكانت رقبتها الجميلة بيضاء عن أي وقت مضى. كان شخصها بالكامل يعكس مظهراً من الجمال الراقى. وأضفى شعورها بتعب البعد عليها جمالاً بطيئاً من الحركات. إن السعادة بالارتياح العاطفي أضفت على نظرتها رقة جديدة، وليونة ونضارة جديدة على جسدها الرائع. وكانت هناك رائحة جميلة من العطر تنطلق من جسمها. وكان "فيتور" يحدق النظر إليها بسعادة ذليلة. إنهما تحدثا قليلاً، وبين الحين والآخر كان يشبك كل منهما يد الآخر فوق المائدة. والأكمام المفكوكة لروبها كشفت عن ذراعيها العاريين. وعندما كان يتحدثان، كان "فيتور" يغطي ذراعيها بقبلات، وعينيه مليئة بالشهوة.

تساءل "فيتور" قائلاً: "بم تشعرين؟ هل أنتي سعيدة؟"

فتنهدت "جينوفيفا"، ومالت برأسها جانباً قائلة: "إنني سعيدة جداً لدرجة تخيفني!"

فدخلت "ميلاني"، حيث أنها اشترت الجريدة التي قد طلبها منها "فيتور". وفتحتها على الفور، وتفحصها سريعاً، ثم قال بكل فخر:

"اسمعي هذا. إن هذا تصريح "داماسو":

السيد "فيتور سيلفا": إنني كُلفت بواسطة أنك أن أطلب من السيد "داماسو" أن يقدم تفسيراً واعتذاراً على كلمة تحاكمه بها قضائياً على أنها كلمة مهينة لشخصك. إنني ذهبت إلى بيت السيد المذكور سابقاً، والذي على الفور، وتلقائياً، وبروح المصالحة، قدم لي البيان الآتي:

إلى السيد "فيتور سيلفا":

سيدي،
إنني أدرك أنه أسيء إليك بكلمة بذينة خاطبتك
بها في "كازا هافانيزا". إنني سعيد جداً لأوضح لك
إنني لم أقصد إهانتك بهذه الكلمة، لأنه في الواقع لم
أكن مدركاً لما أستخدمه من كلمات لإنني كنت في
ذلك الوقت سكراناً تماماً. إنني أرجوك بإخلاص أن
تواصل تشريفي بصداقتك الكريمة.

مع خالص التقدير والإحترام،
"داماسوف".

وبعرض هذا الاعتذار الصريح، نرى أن مهمتنا
قد انتهت

مع خالص التقدير والإحترام،
"دوم جواومايا"
"جونكالوكابرال"

فطرحت "جينوفيفا" الجريدة جانباً.
وقالت باحتقار: "إنني أندش من أي شخص
لا يزال راغباً في مصافحة ذلك الرجل".
فقال "فيتور": "من، "داماسو"؟". السبب أنه
محترم جداً بالمجتمع. أنه أحد الزخارف المجتمعية،
سيدنا "داماسو"!

فاتجهت "جينوفيفا" إلى "فيتور"، وجلست على
ركبته.

"وكنت ستذهب حقاً لتبارزه؟، ماذا لو قد أصابك؟،
ماذا لو قد خدش وجهك الجميل؟"
فتظاهر "فيتور" بالشجاعة قائلاً: "ماذا تقصدين؟"،
"لماذا، لو كنا تبارزنا، كنت سأقطع أذنه، وستكون
هذه نهاية المباراة!"

فتركت نفسها تنزلق إلى الأرضية، ثم ركعت

أمامه، وأمسكت بيديه، وأخذت تقبلهما.
”أوه يا ”فيتور“ يا حبيبي. إنني قد أموت من شدة
السعادة!“

كانت عيناها مليئة بنوع من الفرحة الرقيقة. حيث
أوصلت ذراعاها إليه ببطء، بخضوع شهواني لعبدة
عاشقة. ثم قالت بعد مرور دقائق:
”دعنا نذهب ونرى كيف تسير الإصلاحات.“
”آه، الإصلاحات!“

كانت الإصلاحات في هذه اللحظة إحدى
الاختصاصات الأساسية لـ”جينوفيفا“، حيث أرادت أن
ترفق سور البلكون خارج أحد شبابيك الصالون، وأن
يكون بها زهور بالنصف الأول منها، وقفص للطيور
بالنصف الآخر.

قد كان النجارون يعملون على هذا لعدة أيام، وقد
أزالوا في هذه اللحظة أسوار البلكون.
فدخل ”فيتور“ و”جينوفيفا“ إلى الصالون، وذراعه
بذراعهها.

وتساءل ”فيتور“ قائلاً: ”كيف تسير الأمور يا سيد
”توماس“؟“
فرفع الرجل العجوز الذي يعمل بالفاعل قبعته،
ثم قال:

”إنها ستكون جاهزة في أقل من أسبوعين.“
فتقدم ”فيتور“ إلى البلكون، ووقف معتدلاً على
الحافة، التي كان بها السور، وأخذ ينظر إلى الشارع
أسفله.

فأمسكت ”جينوفيفا“ بذراعه.
”انتبه يا حبيبي. إنه ليس هناك سور، وقد تسقط.“
فقال النجار ضاحكاً: ”إذن أنه سقوط عادل لشيخ

عجوز“.

obeikandi.com

الباب الثامن

وبعد أيام قليلة، إلتقى "فيتور" بـ "كاميلوكيراو" في "روسيو". إنه لم يبدو نشيطاً كعادته، حيث بدا أنه متعب وحزين، ولمحات غاضبة كانت تتشكل حوله، ووجهه مقلوب، كما لو كان مستاءاً من المدينة، وسكانها، والألوان، والضوء، والعالم بأكمله. وأخذ يطلق على الفور قائمة طويلة من الشكاوي.

فالأمر تسير بشكل سيء. فقد تشاجر مع الناس في المسرح، ولم يكسب ولو قرش. فكان يلقي لوم كل ذلك على الدستورية وقانون البكورة. وذلك برحيل العائلات العريقة، وكذلك رحيل جميع المشاهير أيضاً. إن مقرضي المال الذين قد حلوا محل طبقة النبلاء، كانوا يشترون فقط المطبوعات الحجرية. وكان الزبون الوحيد هو الطبقة الإجتماعية، ولكنها كانت مغفلة. فكان أمله الوحيد هو الثورة، ولكن ينبغي أن تحدث غداً، لأنه إن مر أكثر من أسبوع واحد، لن يكون هناك خبزاً بالبيت.

فصدم "فيتور" قائلاً: "إنه أمر سخيف. أليس لديك مالا؟"

"لا، لا. لكنني كنت أفكر مرة أخرى في هذه اللوحة الفنية للسيدة الأجنبية".

فوعده "فيتور" أن يتحدث إلى "جينوفيفا" على الفور. فكان متأكداً، حيث قال أنها مازالت متحمسة جداً أن يرسم لها لوحة فنية.

وأخذ يمشيان حول "روسيو" لبعض الوقت. وأخذ "كاميلو" المتوتر بفعل تغير الحياة، يصف المدينة على أنها "ملل ورأسمالية بشكل فظيع"، وعلى أنه بها "الملاح الخالية من المعنى للشخص البرتغالي

العصري، والواجهة الغبية لمسرح "دونا ماريا". وقال أنها "شمعة من الشحم الحقيق، والتي تعد فتياتها الدستور الخالد". وكان متعزياً بسخرياته الخاصة. وأوضح أنه "سيعيد التفكير في اللوحة الفنية، حيث أنه تخيل في هذه اللحظة أن ردائها كاملاً باللون الأسود، وستارة من الخامة الدمشقية الصفراء اللامعة كخلفية".

"ولك أن تتخيل الصدمة!، حيث أننا بعد كل هذا، محاولين جذب انتباه البرجوازية! وكيف نفعل هذا؟ بمواجهتهم بألوان حادة. ثم اللون الأصفر بعد ذلك!" أحببت "جينوفيفا" الفكرة بالفعل. فالصورة ستكون لأجل "فيتور" ليعلقها في حجرته، ويضع تحتها زهور ناضرة، كتقديم نذري على المذبح الكنسي. ولكن أيستطيع الفنان أن يرسم الصورة بحجرتها؟، فإنه أمر ممل أن تذهب إلى الاستوديو كل أسبوع!، خاصة أنه يقع بالدور الرابع!

ولكن كان رد فعل "كاميلو" على هذا الاقتراح غامضاً. فماذا عن الإضاءة؟ فالإضاءة شيئاً هاماً. بالإضافة إلى أن الفنانين هم الذين يستقبلون، وليس أن يجلبون زبائن. فالفن كالدين، فمن المنتظر للمؤمن أن يأتي إليهم، وليس أن يذهب ليبحث عنهم. فاستديو الفنان هو معبده!، وأشار مرة أخرى إلى "فرانسييس الأول"، والذي التقط فرشاة التلوين لـ "تيتيان"، وأعلن أنه ليس الوحيد الذي يعمل بالاستوديو الخاص به.

وذاث صباح رافق "فيتور" "كاميلو" إلى "روا فلوريس"، لكي يبحث الإضاءة، ويقابل "جينوفيفا"، ويحدد الفستان الذي ينبغي عليها ارتدائه. وسأله "فيتور"، بينما كان يصعدان على درج

السلم قائلاً: "كيف حال زوجتك؟"

فقال "كاميلو" بلامبالاة:

"إنها أصبحت كئيبة. وتتحسر طوال الوقت، نعم، تحسرات!، إنني أعتقد أنها تفتقد لقريتها، والخبز الشامي، والثرثرة حول التربة. فإنها تذبل تدريجياً في هذه الشقة الخاصة بنا، والتي تقع بالدور الرابع. إنها في حاجة إلى حقول خضراء، إلى الريف، إلى الماشية. إنها كالبقرة الخرساء بحجرة. إنها تشبه جميع المخلوقات المنفية. إنها مشتاقة إلى بيئتها الطبيعية". فلم يقل "فيتور" شيئاً، حيث أنه كان يفكر في الشكل "الحيواني" الرائع للمرأة، وفستانها القطني الأصفر. بدا "كاميلو" معجباً جداً بـ "جينوفيفا"، حتى أنه بدا خجولاً للحظة واحدة. وبقبعته واسعة الحواف، والتي يمسك بها بإحكام، وقدميه المتقاطعة تحت كرسيه، كان يلقي نظرة غير مريحة بسوقية ممثلة رعباً. وكانت "جينوفيفا" تتحدث إليه عن عبقريته وعمله. وأشارت إلى رسامين مشهورين قد كانت تعرفهم جيداً: "كارولوس دوران"، "بونات"، "ريجنولت"، وأخذت تتحدث عن معارضهم. وقد كان لديها شيئاً ما لتقوله عن طريقة توزيع الضوء والصورة، وكان "كاميلو" كسمكة وضعت في الماء مرة أخرى، حيث استعاد اشاراته الصريحة المعتادة، وبراعته في الحديث المنطقي.

وسرعان ما كان على قدميه، ومعطفه مدفوعاً إلى الخلف، وشعره غير مرتباً، ويتحدث بطلاقاته التصويرية المعتادة. فبدأ بانتقاد لون أقمشة التجديد والمفروشات بالحجرة: في الواقع أن خلفية الشوكولاتة البنية والصفراء ليست مناسبة لجمالها: فشقراء فخمة

ذات مظهر جانبي نسري وشكل ملوكي، ينبغي أن تُفجر بديكور خطير جداً: تركيبة هادئة أنيقة من البلوط الداكن وشموع كرزية حمراء. فبعض اللوحات المرسومة بواسطة خبراء أسبان اسودت مع مرور الوقت، والتي كان منها الوجه الصوفي المصفر لقديس يلمع عليها من خلال الظلام. أوه، وأريكة كبيرة.

فوافقته "جينوفيفا"، ولكنها اعتقدت أنه بوصفه هذا قد يكون كديكور أكثر مناسبة لحجرة النوم: "إنه سيدفع إلى أن تحب شخصية متدنية عميقة، مزجاً من الصوفية والشهوانية". فنظر "كاميلو" إليها مندهشاً.

بالتأكيد أنها كانت على حق. فإنها فكرة تستحق جمالاً إيطالياً من القرن السادس عشر. نعم، إنه سيرسمها، وهي مرتدية فستاناً أسوداً ناعماً، ممتددة على أريكة، على أسلوب "تيتيان".

ثم أخذاً يتباحثاً في أمر الثياب. فأراد "كاميلو" أن يرى بعضاً من فساتينها. فأحضرت "ميلاني" خزانة ملابسها بالكامل إلى الصالون تدريجياً. وغطت الكراسي بالفساتين. وأخذ "كاميلو" يعيد تنظيم طيات الفساتين فنياً. وهذا المعرض من الملابس الحريرية، والمخامل، أعطى الحجرة مظهراً فاخراً لمحل خياطة، فالفساتين ملقاة فوق الكراسي بشكل ضعيف، والأكمام متدلّية كأذرع ميتة. والثياب مسطحة رخوة، والتي تكشف عن البطانة والجسم. وكانت السجادة مملوءة بالبطانات والأقمشة الفاخرة. وكانت المخامل تكشف عن طبيعتها الرسمية الثقيلة في طيات لينة ناعمة. وأشرطة الدانتيل المخرمة تبرز على الألوان الأكثر

دكانة. وكان "كاميلو" مستغرقاً في تفكيره، ويده على ذقنه، بارماً شفثيه، ويمشي وسط الثياب، مكموماً بعض الثياب الحريرية هنا، والبطانة المخملة هناك، باحثاً درجات الألوان المختلفة، من لعبة الإضاءة على طيات القماش، والظلال المزرققة، ولمعان الأسطح اللامعة للقماش.

إنه كان منجذباً إلى فستان أسود غامق، حيث وقف أمامه، مفكراً، ثم ألقى نظرة تصويرية على "جينوفيفا".

إنه جمع بين تأمل الفيلسوف وسلوكيات القس: كيف كان التعادل ليلتقط كل هذا على لوحة قماشية؟ نعم، سيكون الفستان الأزرق مع خلفية من المخمل البنفسجي الداكن، وبشرتها وشعرها الأشقر، متفجراً بهذا اللون الخطير، ممتصاً الإضاءة، مستحوذاً على نظرة المشاهد، متخذاً من الدرجة اللونية الكالحة للخلفية (وهنا أبدى إشارات واضحة لشخص ما يرسم) تخفيفاً بشكل عام، وتأثير الستار من التوسط للأسطح المستوية بين الخشونة والنعومة..... فتساءل "فيتور"، مبتسماً إلى "جينوفيفا" قائلاً: "هل هيأت هذا؟"

فقال "كاميلو": "إنه سيكون عملاً رائعاً". وكان مثاراً بحماسة الخاص، حيث أراد بدء العمل في اليوم التالي، ولكن "جينوفيفا" قد وعدت أن تزور عشيقة "البارون" الألمانية. "فمتى إذن؟"، إنهما اتفقا على أن يذهب "فيتور" ويخبر "كاميلو" حينما يستقران على يوم.

"في خلال ذلك، ساعد فرش الرسم". وبعد مرور ثلاثة أيام، كان "فيتور" يصعد على

درج السلم إلى شقة "كاميلو" ليخبره أن "جينوفيفا" ستأتي للجلسة الأولى خلال يومين.

وعندما دخل إلى الاستوديو، رأى على الفور أن "كاميلو" قد بدأ في إتخاذ الاستعدادات، فقد غسلت الأرضية، ونفض التراب عن اللوحات وطاقم أدوات الرسم. وعلى منصة منخفضة مغطاة بسجادة خضراء قديمة، كان هناك كرسي مغطى بالجلد ذا مسامير صفراء، ومعلقاً خلفه ستارة ناعمة ذات لون بنفسجي غامق، كما لو في استوديو مصور فوتوغرافي. وكان هناك لوحة قماشية نظيفة على الحامل. وعلى المائدة كان هناك فازه من الزهور، وطبق من التفاح، ووعاء زجاجي مليء بالخمير الأبيض.

فضحك "فيتور"، حيث أدرك في هذا الترتيب رغبة "كاميلو" في تقليد استوديو "روبين"، والمنطبع في الذهن، أنه يظهر الفاكهة مكدسة عالياً بأطباق فضية، والفازات التي تقيض بالزهور، وكل تجهيزات الحياة الأرستقراطية.

فانفتح الباب في هذا الاتجاه، وإذ بـ "جوانا" تدخل. وبمجرد ما رأت "فيتور"، تدفق الدم إلى وجهها المصفر. ثم انحنى إحتراماً، وقالت أن "كاميلو" قد خرج ولن يرجع حتى المساء.

وبسماع "فيتور" أن "كاميلو" لن يعود، امتلاً بشعور مثير بالسعادة، على الرغم من أنه لم يعرف السبب تماماً. كانت "جوانا" مرتدية نفس الروب الأصفر الخطير، لكن لاحظ "فيتور" أن شعرها كان أكثر نعومة، وبه مشابك من الدانتيل.

"إنني أتيت لأقول إنني سأكون هنا بعد غد في تمام الساعة الواحدة. إنك لن تنسين أن تخبريه، أليس

كذلك؟

فكرت قائلة: "بعد غد في تمام الساعة الواحدة".
وقد ظلت واقفة، وأطراف أصابعها متكأة على
المائدة. إنها كانت واقفة تقريباً بجانب "فيتور"،
والذي لم يستطع أن يرفع عينيه عن كتفيها الجميلين،
والمنحنى الرائع لثدييها، وحلقها الصلب كرخام،
والأبيض كاللبن. لكن أكثر ما أثاره هو الفستان
الأصفر، والذي بدا أنه ملتصق بكل منحنى في
جسمها، وكان أكثر إثارة من التعري نفسه، حتى أن
اللون بدا مثيراً بدرجة غريبة.

وكان "فيتور" يصارع نفسه حتى يقول شيئاً ما،
وأخذ ينظر حوله، ثم علق قائلاً:

"هل مازال زوجك الكسول هذا لم يفعل شيئاً جداً؟"
فتجاهلت "جوانا" التساؤل.

إنه كان جهلاً خالصاً، لكن اعتقد "فيتور" أنه رأى
في هذا بعض الإحتقار الدال على الذكاء لخيالات
"كاميلو" المتناقضة.

"وكيف حال ولدك الصغير؟"

فردت قائلة: "حسناً جداً، شكراً لك".

إنها لم تتحرك من المائدة، بل كانت عيناها مصوبة
نحو "فيتور" بصراحة تلقائية لحيوان. هذا ما أزعجه،
حيث شعر بنوع من السلام الضعيف مستحوذاً عليه.
ثم وقف، وأخذ ينظر إلى لوحة فنية لمتسولة حقيرة،
تحت عنوان: "استريمدورا": "ضحية المجتمع".

"أنها رأس جميلة!"

فتقدمت "جوانا"، وأخذت تنظر إليها، ثم قالت:
"صاحب الجلالة".

"ألم يرسمك "كاميلو" أبداً؟"

”لا يا سيد“.

ثم جلست على الأريكة، وكان الروب ذو الشامبر ملتصقا بجسمها، كما لو كانت لا ترتدي تنورات داخلية تحته. وبدأت هذه الطيات الملتصقة تكشف عن عالم رائع بأكمله.

فقال ”فيتور“:

”إنه أمر يُرثى له“.

ولكنها وقفت مرة أخرى، واتجهت إلى الشباك، ثم رجعت. وجلس كل منهما بجوار الآخر على الأريكة في هذه اللحظة. فاعتقد ”فيتور“ أنه يمكنه أن يشعر بحرارة تأتي منها، كما لو كانت من حريق بعيد، ورأى نديها يرتفع وينخفض، والاستدارة الرائعة لذراعيها تحت الأكمال الضيقة. ف شعر أنه يود أن يلمسهما، كما لو كان يشعر بليونتهما. فقال مرة أخرى:

”إنه أمر يُرثى له“.

فقالت: ”أعتقد ذلك؟“

وكان صوتها حاراً جداً، حتى التفت ”فيتور“ إليها، وهو يرتعش قليلاً. وكانت عين ”جوانا“ تلمع، وأخذت تميل بجسمها إلى الأمام في وضع استسلامي هامد. فوضع ”فيتور“ إحدى يديه على كتفها بصورة شبه غريزية، فأغمضت ”جوانا“ عينيها، وأعادت رأسها للخلف، وأخذت تتنهد بنعومة.

وبعد نصف ساعة من الزمن، أخذ ينزل ”فيتور“ على درج السلم مرة أخرى، شاعراً بالضيق الشديد من نفسه. يا له من شيء سخي. فمن الواضح أن هذا تصرف حقير، فإن ”كاميلو“ صديقه في نهاية المطاف. إنه لم يحب أبداً هذه الفلاحة الجميلة. يا له من روب أصفر لديها!، يا له من دافع لحظي بهيمي!،

فكانت آخر كلماتها إليه: "إنني أريد أن أعيش معك". إنها كانت كلمات لا تحتمل تماماً!، العيش معها إنها إنسانة رائعة، نعم، لكنها غبية وبليدة.... مجرد أنثى! إنه كان يتساءل كيف يمكنه تجنب مقابلتها، عندما رجع إلى هناك مع "جينوفيفا". ولحسن الحظ لم تدخل "جوانا" مطلقاً إلى الاستوديو عندما كان "كاميلو" يعمل. وبالإضافة إلى ذلك، حتى لو رأت "جينوفيفا" وغارت منها، فإنها ستكون بليدة جداً كشيء غير موجود. حتى أن "فيتور" لم يكن في حاجة إلى الخوف من أية اتهامات متبادلة منها ولا أية مشاهد.

وبالطبع لابد لـ "جينوفيفا" ألا تعرف. أنه في نهاية الأمر لم يفعل أي شيء خاطئ جداً. إنه قد كان غيباً، وشعر بالغضب من نفسه، لكن مازال لم يستطيع أن يفكر في الجمال الرائع لـ "جوانا"، وطريقة حبها الصامته العميقة بدون ارتعاش.

ولكن ماذا عن "كاميلو"؟ إن التفكير في "كاميلو" أربعه. إنه سيوصي "جينوفيفا" أن تدفع له ستين "٦٠" من "الليبرا" بدلاً من أربعين "٤٠". وكان شاعراً بالارتياح بهذه العشرين "٢٠" من "الليبرا" كتعويض عن خيانتته. فأسرع ليرى "جينوفيفا"، راضياً عن نفسه وعن حياته.

إنه كان بالتأكيد محبوباً لدى السيدات! وبعد يومين كان "كاميلو" هناك ليستقبلهما. ومازال طبق التفاح على المائدة، وإلى جواره وعاء الخمر. وكان مرتدياً معطفاً وقبعة قرمزية. وقال إلى "جينوفيفا" بخفة ظل:

"إننا سنقدم عملاً فنياً عظيماً، وأقول "أننا"، لأنه سيكون عملاً مشتركاً بين عارضة أزياء وفنان".

وعلى الفور جعلها تجلس على الكرسي الذي على المنصة. وكان هذا في شهر "مايو"، ولكن كان الجو بارداً، يوماً ملبداً بالغيوم، مع إشارة لاقترب المطر. كانت "جينوفيفا" مرتدية معطفاً داكناً واسعاً محففاً بالفرو. وبدا وجهها أكثر بياضاً وشهية بالمقابلة مع الياقة المصنوعة من الفرو، والتي تضيء عليها مظهراً من الرقة، وقابلية الإصابة بالبرد. وكانت ترتدي على رأسها قبعة من المخمل البني الداكن، ظاهرة في المقدمة، ومزينة بالورد. وكان لديها رغبة مكبوتة للضحك، وترتعث قليلاً في الأستوديو البارد. وكانت تبدو فاتنة.

كان "كاميلو" يرى كما "جينوفيفا" بالضبط أن رسمها يتناسب مع خلفية صفراء. وأخذ يفكر طويلاً، مجرباً بعض الرسومات التخطيطية على اللوحة القماشية، ثم انفجر قائلاً:

"لا، لا، إنك ستبددين أفضل بالفستان الأزرق، مع بعض اللآلئ بشعرك. إن هذه الفساتين الشارعية لا تليق بالظهور في عمل فني".

وفي هذه اللحظة دخلت "جوانا" إلى الأستوديو. ولكن برؤيتها "فيتور" واقفاً بجانب "جينوفيفا"، فتحت عينها الداكنة الكبيرة على مداها. وفي البداية تحول وجهها إلى اللون القرمزي، ثم اصفر جداً. ووقفت هناك بلا حركة، ويديها ترتعث. فلاحظها "كاميلو"، ثم قال:

"ما هذا؟ ما الخطأ؟ إنني أعمل. انصرفي".

فأحنت رأسها قليلاً، ثم غادرت.

وعندما اكتشفت "جينوفيفا" أن "جوانا" هي زوجة "كاميلو"، باركت له قائلة: "إنها جميلة لدرجة تلفت

النظر"، ثم ألقت نظرة سريعة على "فيتور"، والذي كان يستند على حافة الشباك، محاولاً إخفاء حمرة خجله.

وفي هذا اليوم الأول، كان "كاميلو" يعمل على يديها. وبينما كان يعمل، كان يتحدث عن امتداد الفن. فقد شعر مؤخراً برغبة قوية في تخصيص نفسه للفن الديني. لماذا يعد الأصل سبب انحطاط المجتمع الحديث؟ انعدام القيم الروحية. فآية طريقة أفضل من رسم القامات والشخصيات العظيمة للقديسين والشهداء حتى تسمو الأرواح من انحطاطها وتتصرف عن حياتها الركيكة؟، ولكنه شعر أنه ينقصه الإيمان الكافي. فلكي ترسم القديس "سيباستيان"، فإنه ينبغي أن تكون مؤمناً به. وهو لا يؤمن به. ولكي ترسم صورا مقدسة، فإنه ينبغي على الشخص أن يكون قديساً. ثم قال أنه حسد الحياة المنعزلة للفنانين الزاهدين مثل "فرا بارتولوميو" و"فرا أنجيليكو"، واللذان يعيشان في السلام الساروفي لحياة الأديرة، مأخوذين بحب إلهي، واللذان لديهما رؤية واضحة للسماء إلى درجة عالية، حتى أنه يمكنهما رسم روح شخص بسهولة كشخص ما في هذه الأيام يمكنه رسم شجرة.....

ثم ابتعد عن حامل لوحته، وبدأ ينظر إلى اللوحة القماشية، فاستشاط غضبه. فليس هناك شيء أكثر سخافة وخطراً من محاولة تصوير التفكير العصري للقدماء. حيث يبدأ الشخص أن يرسم بصورة غريزية كـ بعض الزاهدين الشبهيين!

"دعنا نتحدث عن عصر النهضة بدلاً من ذلك، عن "البرجياز"، عن الأساقفة الفاسقين، عن العظمة الكاثوليكية، والأعمال الفنية.....".

وأخذ يتحدث ويتحدث عن فناني عصر النهضة، حتى أظهرت "جينوفيفا" أخيراً أنها متعبة. وما زال "كاميلو" عالقا بأفكار فناني عصر النهضة، وأساليبهم الملوكية. فقدم إلى "جينوفيفا" التفاح والخمر، كما لو كان "تيتيان" يقدم رماناً من "تيفولي"، وكأساً من "لاكريما كريستي".

وفي طريقهما إلى البيت بالعربة، ظلت "جينوفيفا" تسأل "فيتور" عن الإنسانية الجميلة التي قد دخلت إلى الاستوديو. هل كان يعرفها؟، ومن أين هي؟، هل قد رآها كثيراً من قبل؟

فرد "فيتور" بتردد، وكان كما لو أنه منشغل. هل كثيراً ما كان يذهب إلى بيت "كاميلو"؟ أليها أطفال؟

فتساءل "فيتور" ضاحكاً: "لماذا هذه الأسئلة الكثيرة؟"

"إنني لا أحبك أن يكون لديك معارف كهذه".
 "لا تقولي لي أنك غيورة من سيدة كهذه".
 "إن بعض الرجال يحبون مثل تلك النساء".
 "لست أنا، لست بأذواقى الفنية، بإحساسي المرهف.....".

فقهقهت "جينوفيفا" من الضحك.
 ثم قالت: "وذلك الشيء الأصفر الرائع الذي كانت ترتديه". "إنه جعلها بالتأكيد ذات مظهر جيد".
 فقال "فيتور": "صاحبة الجلالة".
 "جلالة ماذا؟"

"حسناً، نعم، إنها حسناً".
 فصمتت "جينوفيفا"، وأخذت تنتظر إليه بلمحات جانبية غاضبة.

ثم قالت: "حقاً إنه ملل فظيع أن تضطر إلى الذهاب طوال الطريق حتى تصل إلى الأستوديو بالدور الرابع".

قد شعر "داماسو" أن التصريح المنشور ربما لم يظهره في صورة مشرفة جداً. ولكن عندما رأى التصريح مطبوعاً بالفعل، شعر بصدمة كاملة. وفي اليوم نفسه أتى أحد أقاربه إليه ليراه، والذي يُدعى السيد "كازيمير فلاداريس". وهو رجل رزين ذو حاجبين كثيفين. ويقول الناس عنه: "إن فلاداريس رجل لا يُستهان به". فإنه منذ خمسة عشر "١٥" عاماً، قد تبارز مع لاجيء أسباني. وتلقى خلال المباراة قطعاً صغيراً بإصبعه. ومنذ ذلك الوقت كان يعتبر نفسه وكذلك يعتبره الآخرون أنه ذا سلطة حاکمة في مسائل الشرف بين السادة. والآن دخل ذلك الرجل إلى حجرة "داماسو"، قاذفاً على المائدة نسخة من "جريدة الشعب اليومية"، ثم قال:

"هذا هو أكثر شيء مخجل قد قرأته على الإطلاق!" فاحمر وجه "داماسو"، وأخذ ينطق بكلام غير مفهوم حول كيف أنه أراد تجنب الفضيحة، حتى أنه الطرف المهان بالفعل، حيث أن "فيتور" كان صديقاً مقرباً إليه، وأن المباراة لأجل عاهرة أمر غير لائق، وليس لأنه كان خائفاً. وأنه على أتم الإستعداد للمبارزة بكل ما يصل إلى يده، سكاكين، لكلمات إذا لزم الأمر. فقال السيد "كازيمير": "كلام، كلام، كلام"، "ما أقنعاك به مؤيدا "سيلفا" لفعله يُعد أمراً مخجلاً بكل ما في الكلمة من معنى. وفي رأيي أنه ينبغي عليك مبارزة "جواومايا" وذلك الزميل الآخر "جونكالو".....، أياً كان اسمه، "جونكالو" شيئاً ما أو آخراً..... آه، نعم،

”جونكالوكابرال“. إنه ينبغي عليك أن ترسل إليهما مؤيديك حالاً. ولو لم تُنصح بواسطتي، لكانت الأمور ستصبح بشكل مختلف تماماً. قد كان ”فيتور“ الوحيد الذي طالب بالترضية. ولكن في رأيي أنه أمر غير لائق بشكل لا يقبل الجدل.“

فاحتج ”داماسو“ موضحاً أنهما قد كان كلاهما أكثر مساعدة له، وقد خلاصاه من ورطة، وبالإضافة إلى ذلك أنه مازال ينوي على مبارزة ”فيتور“، رجلاً لرجل.

وكان على وشك التحدث في تفاصيل بخصوص هذا، عندما أوقفه ”فلاداريس“ بهذه الكلمات قائلاً: ”لو كنت مكانك، كنت سأذهب وأقضي عدة شهور بالخارج، وذلك لأجل اللياقة.“

فأصبح ”داماسو“ مرعوباً. ولكن لماذا؟، ما الذي قد فعله ليضر جداً بسمعته؟
”إنه في رأيي أنك قد أظهرت لنفسك أنك جبان ومدمن للخمر.“

فأخذ ”داماسو“ ينهال بالقاء اللوم على ”جواومايا“. فإنه لم يكن لديه خبرة بمثل هذه الأمور، وإنه قد فعل فقط ما قد أخبره ”جواومايا“ للقيام به، لأنه كان يثق به، حيث أنه حلف أنه لن ينشر ذلك التصريح.

”ثم في رأيي أنه ينبغي عليك تحدي ”جواو“. أتود أن أذهب وأراه؟“

فكان ”داماسو“ عنيداً. حيث أنه قد عانى بما فيه الكفاية. إنه ملل من التعقيدات. ولم ينام لليلتين على التوالي.

فتركه ”فلاداريس“، وهو يقول بملل:
”في رأيي أنك قد تحمل أيضاً عمل المرأة في

سيرك بالشارع“.

فبدأ ”داماسو“ يتساءل عما إذا كان الناس بالشارع سيتجاهلوه حقاً.

وكان ”داماسو“ يخرج لعدة أيام بالعربة، مبتعداً تماماً عن الرؤية، ومتجنباً المسرح. وذات ليلة خاطر بالذهاب إلى نقابة الكتاب، وكان يمشي بسرعة من حجرة إلى حجرة، وإذ به يلاقي إثنين من النداءات الودية للغاية: ”مرحباً بك يا ”داماسو“!“

فظهر فيما بعد في ”كازا هافانيزا“ مشجعاً، حيث أنه استقبل بالمصافحات الحارة المعتادة لدرجة تليق بثروته المالية كما هو الحال دائماً. ثم ذهب إلى مسرح ”ساو كارلوس“، وعندما تفقد المربعات المتعددة، وجد أن السيدات كن على لطفهن المعتاد، وكذلك ابتسامتهن الظاهرة. فاعتقد: ”إما أنه لم يقرأ أحد التصريح المنشور، أو أنهم وجدوه عادياً تماماً“. فاعتبر أن ”فلاداريس“ رجل قديم ومحب للقتال. وذات مساء في نقابة الكتاب، أخذ يتحدث بغضب عن ”جينوفيفا“ و”فيتور“. وبقدر ما يمكنه من معرفة أن المغفل الوقح كان يعيش بعيداً عن العاهرة، مظهراً لنفسه أنه قد ملل منها. فمذ أيام قليلة فقط قد أخبرها أن تجد شخصاً ما آخر، حيث أنه لديه أشياء أفضل ليقوم بها، ولم تكلفه ولو ”سو“، علاوة على أنها تتظاهر بكل ما في الكلمة من معنى. وبدون ارتداءها لملابسها، فهي لا شيء. وأنه من المحتمل جداً أن ينهي ”فيتور“ المغفل أمر زواجه بها، حيث أنها مجرد شيء يأتي بعد ثروة عمه، والتي تبلغ ثمانين من ”الكونتو“.

إن الفكرة الأساسية بشكل عام: (كل شخص يؤمن بغروره). ليس هناك من شيء يماثل الحب الفاتر.

وفي هذا الوقت تقريباً، صُدرت جريدة صغيرة في "لشبونة" بعنوان "بوق الشيطان". إن "رئيس التحرير" والجريدة حملاً تشابهاً مادياً قريباً. فكان كل من ملامح وجه الرجل والورق المستخدم في الجريدة رخيصاً وسوقياً بنفس القدر، حيث كانت الفقرات غير منتظمة بشكل سيء كسلوكيات "رئيس التحرير". وكان الخط المستخدم يشبه الرجل نفسه، صغيراً وردياً.

كان هدف الجريدة بكل بساطة هو أن تكسب ما يكفي من المال حتى يشتري "رئيس التحرير" بعض لترات من الخمر، ويقوم ببعض الجولات مع "المحتالين" و"الملكات"، وكذلك زيارة عاهرة بين الحين والآخر. ومن ناحية أخرى، لم يكن "رئيس التحرير" في حاجة إلى المال. فقد قام ببعض عمليات الإحتيال. وكانت الطريقة بسيطة: إما أنه يسلب مالاً من أشخاص بتهديدهم بنشر مقالات افتراضية عنهم، أو أن يأخذ مالاً من جناء يريدون نشر افتراءات عن أشخاص أخرى. فكان "الطرف المضار" يحضر له المقال، ويعطيه أتعاباً. حيث كان "رئيس التحرير" يشكل المقال، ثم يربح الأتعاب. وكان يتخلص من أية ضربات تترتب على ذلك ككلب ينفض الماء. وكان يشرب لترين من الخمر بدلاً من لتر حتى ينعش نفسه. ودائماً ما كان رد فعله على التسامح أو عدم المبالاة من أولئك الذين شهر بهم، هو نفس الشيء، حيث كان ينفخ صدره، ويرجع شعره إلى الوراء، ويعلن على مائدة القمار أو ببيت الدعارة: "إنه يخاف مني! فقط اتركوني عليه!"

أنه كان يمارس مهنته في شقة بالدور الثالث

بإحدى الحارات في "بايروالتو"، والمزودة بسرير ومائدة. وكان "رئيس التحرير" يشرب خمره على السرير المتسخ، ويتصبب عرقاً بسبب حميات ناتجة عن عدوى سُلّية من الدرجة الثانية. وعلى المائدة كان يشكل مقالاته، وكان يتقل من فمه على أرضية الشقة. أنه كان يعيش حياة حقيرة وسط كل هذه القذارة، وكذلك في خوف دائم، حيث أن الشرطة قد تأتي إليه. وذات صباح تلقى "فيتور" عدداً من جريدة "بوق الشيطان" عن طريق البريد. وكان هناك مقالة في أحد الأقسام مغطاة بحبر تحت عنوان "البواق". وبدأ "فيتور" أن يقرأها:

"السيد "فيتور"، إنك قد تركت مكتب الدكتور الشهير "ك.". ألسـت بعد في حاجة إلى استغلال أراـمل وأيتام؟، إن هذا السؤال موجهاً إلى "فيتور" بعينه، "فيتور" الرجل القانوني بـ"شياـدو". فذات مرة تصادف أن "باوباولينو" كان ماراً، وسمع إعلاناً بالبوق يهتف قائلاً: إنه يبدو أن السيد "فيتور" قد وجد عملاً أفضل مدفوع الأجر، وبدلاً من أن يستغل أراـمل، فإنه يستغل حالياً سيدات أجنبية. وفي الوقت نفسه يستغل "دولسينيا" تاجر قماش بعينه. ولو هذا صحيحاً يا سيد "فيتور"، فقد أعد الشيطان بوقه ليعلن للعالم فتوحاتك الكثيرة المربحة!

انتهى "فيتور" من قراءة المقالة، ودموع الغيظ بعينه. وكان تفكيره الأول أن يذهب ويضرب "داماسو" ضرباً شديداً، لأنه كان واثقاً أن "داماسو" هو الذي وراء ذلك، حيث تعرف على أسلوب "أليبيو"، ولكن الانتقام هو إنتقام "داماسو". لكن فعل ذلك سيسبب فضيحة وحيدة، وهو لا يريد اجتذاب مزيد من الدعاية.

ومن ناحية أخرى، إن كلمات جريدة "بوق الشيطان"، والتي قد قرأها فقط قليل جداً من الناس، من المؤكد أن أولئك القليلون سيبلغون الكثيرين. وسيقول كثير من الناس: "يا له من أمر مخزي!"، ولكن سيقول آخرون: "بالتأكيد أنه مس وترأ حساساً!"، لأن الافتراءات تشبه بقعاً زيتية بعينها، والتي دائماً ما تترك أثراً عندما تحاول إزالتها.

ولحسن الحظ لم تقرأ "جينوفيفا" هذه المقالة. وحتى لو قرأتها، فإنها ستضحك. لكن ماذا عن العم "تيموتيو"؟، فارتعش "فيتور" بمجرد تفكيره في أن شخصاً ما قد أرسل إلى عمه نسخة من الجريدة. فنزل إلى حجرة الطعام، وقلبه يرتعش خوفاً. وكان هناك نسخة من جريدة "بوق الشيطان" مطوية فوق المائدة. كان العم "تيموتيو" جالساً على كرسيه ذو الذراعين، ينتظر العشاء، وجريدة "نيويورك تايمز" مكسوة على ركبته.

وعلى الفور رأى "فيتور" أنه ينبغي عليه أن يكون أول من يفتح الموضوع، وذلك بأسلوب غير مبالي، كما لو أنه لا يعطي للموضوع أهمية، فقال: "أوه، أنهم أرسلوا إليك نسخة من هذه الخرقة أيضاً، أليس كذلك؟"

فحرك العم "تيموتيو" رأسه إيجابياً. إن هدوء العم "تيموتيو" هز ثقة "فيتور" قليلاً، وبضحكة اضطرابية قال:

"هذا هو مجرد انتقام من "داماسو"."

فطوى العم "تيموتيو" جريدة "نيويورك تايمز" بعناية. وبدأ "فيتور" يمشي حول المائدة، شاعراً في هذه اللحظة بعدم الارتياح.

”إن هذا بالتأكيد لا يهمني! فعلى كل شيء، من الذي يهتم بما تضطر جريدة ”بوق الشيطان“ إلى التصريح به؟، فلحسن الحظ، الناس يعرفوني و.....“ . فوقف العم ”تيموتيو“، وحقق النظر إلى ”فيتور“ . وبدأ قلقاً . وأخذ يرمش بعينه كما لو كان خجولاً، ماسحاً حلقه، ثم قال:

”أخبر ”كلوريندا“ أن تحضر العشاء“ .

ثم جلس، وفتح مندبل المائدة، وأخذ يتحدث عن احتمالية وقوع حرب في الشرق الأقصى. ”هناك مقالة طويلة بجريدة ”نيويورك تايمز“ تتناول هذا الموضوع..... لكن قد كانت سياسة ”إنجلترا“ وحتى الآن أنانية جداً، رأس مدفونة في الرمال، نعم، جبانة. إن الجميع يعتقد ذلك. فاللورد ”بيكونزفيلد“ و”الملكة“ يعلمان أن الرؤية العامة لهذا مجرد أنها: ”جبانة!“

كان ”فيتور“ مسروراً جداً لرؤيته أن مخاوف عمه بعيدة جداً، كالبعد بين ”نهر الدانوب“ و”مضيق الدردنيل“، حتى شجعه وقاد عمه بعيداً إلى ”الأمريكتين“ و”الهند“، مسقطاً بعض الكلمات الغامضة بداخل الحديث بين الحين والآخر، كقطع الأخشاب على النار، بحيث لا يدعها تخرج. فأعلن أنه غاضب من الأتراك. ”جنون كامل. وقد فكرت في هذا كثيراً“، مجرد أنه يعطي انطباعاً أنه مهتم بالعموميات، ”إن ”تركيا“ انتهت بصراحة“ .

”وهناك ”روسيا“ بعد ذلك“ .

وظل العم ”تيموتيو“ يتحدث بالتفصيل عن ”روسيا“، والقيصر الروسي، وتقسيم ”بولندا“، والمنفيون في ”سيبيريا“، وعبودية العمال. إنه ترجم مقالاً من جريدة ”نيويورك تايمز“ إلى ”فيتور“،

والذي ضرب بقوة على المائدة، وأخذ يتحدث في امتداد الموضوع.

فاعتقد "فيتور": "إما أنه لم يقرأ جريدة "بوق الشيطان" أو إنني قد أخرجتها من عقله".

وبعد تناول القهوة، كان "فيتور" على وشك ترك المائدة، عندما قال العم "تيموتيو"، والذي كان يملأ سيجاره بالتبغ، بصوت منخفض بليد:

"إنني قرأت هذه "الخرقة" كما تدعوها".

فجلس "فيتور" مرة أخرى، ووجهه محمراً خجلاً. وواصل العم "تيموتيو" حديثه قائلاً: "إنني قرأتها، ومتأكد أن هذا غير صحيح لأنه لا يمكنني تصديق أن أحد أفراد عائلتي يمكنه أن يعيش على مال سيده". فقال "فيتور"، والذي بدا مصدوماً بشكل لائق: "يا عم "تيموتيو"! "

"إنني لا أصدق هذا بالطبع، لكنني مازلت لا أحب حقيقة أنك تدمر نفسك لأجلها".

فقال "فيتور" بغضب: "ماذا تقصد بـ"تدمير نفسي"؟"

"اجلس، إنني أتحدث بهدوء، فاستمع لي بهدوء. إنني لا أقصد بـ"تدمير نفسك" من الناحية المالية، لأنك لم تحصل على أي من مالك الخاص".

ثم أشعل سيجاره، وأخذ ينفخ الدخان بهدوء شديد، ضاغطاً على التبغ بإصبعه.

وظل "فيتور" مصوباً عينيه نحوه.

"بينما أقول أنك لم تحصل على أي من مالك الخاص، لكن الإنسان ليس مصنوعاً من المال وحده. فهناك أشياء أخرى قد تُدمر: صحة الشخص، سمعته، عقله، شخصيته، مهنته.....".

فبدأ "فيتور" يقول: "لكن.....".

فأغضض العم "تيموتيو" عينيه ورفع يده قائلاً: "شش". "يا صديقي، إنني أدعوك "مدمراً نفسك"، تاركاً أصدقاءك، مهنتك، مكتبك، طموحاتك، أهدافك، من أجل أن تعيش مرتبطاً بتنانير امرأة، مشبهاً نوعاً ما من رفيق مدفوعاً أجره".

"يا عم "تيموتيو"، دعني.....".

"كن صبوراً، إنه من رأيي وقد قلت ذلك عدة مرات أنه ينبغي على الرجل أن يكون لديه عشيقة، نظراً لأن أي شاب في العشرينات من عمره ليس متزوجاً ولا لديه عشيقة يعد ببساطة أمراً غير صحي". وقد كان يتحدث بهدوء، ولكنه هاج فجأة، وضرب بقبضة يده بقوة على المائدة. "ولكن الشيء الوحيد حتى يكون لديك عشيقة وتزورها بين الحين والآخر، أو كل يوم، أو كل ساعة، أو كل لحظة، في حالة أن يمنح ذلك سعادة لكلا الطرفين. ولكنه أمر مختلف تمام الاختلاف أن تطلق كل شيء إلى الشيطان، العائلة، والبيت، والوظيفة، وأن تقضي كل ساعة، نهاراً وليلاً ملتصقاً بالمرأة كالعلقة! فإنه أمر غير لائق".

"لكن.....".

"إنك تتناول فطارك هناك، وكذلك تقضي النهار. وبين الحين والآخر تشرفني بتناول العشاء معي هنا. إنك ترجع فقط وتقضي الليلة هناك، حيث تنتزه وتذهب معها إلى المسرح. وليس لديك تفكير أو رأي أو هدف في الحياة!، والآن أرى هذا أمراً محزناً. إن الشخص ذو العقل السليم حقاً، ينبغي أن يكون لديه شيئاً للقيام به أفضل من أن يعيش مرتبطاً بتنانير امرأة. إنني لا أخبرك أن تكون بعيداً. ولم أفعل هذا

مطلقاً. إنني أقول لك الحقيقة بكل بساطة. فكر فيها. ولو قررت أن موهبتك الوحيدة تتمثل في تبريد حرارة ملتعبة لسيدة، فحسناء، ولكن لو قد حصلت على أي ذكاء وقوة في ذراعيك، فاستخدمهما لفعل شيء آخر! ألسنت على حق؟“

فهمهم ”فيتور“، ووجهه قرمزيًا قائلاً: ”نعم يا عمي، قطعاً أنك على حق.“

”حق، ختام الحديث.“

فوقف العم ”تيموتيو“، وذهب ليجلس على كرسيه ذو الذراعين، ومعه جريدة ”نيويورك تايمز“. ولم يتحرك ”فيتور“ من كرسيه، ومازال وجهه ملتعباً. وظل يبرم شاربه بعصبية، ثم أطاح برماد سيجارته على حافة صحن فنجانه.

أخبر ”فيتور“ ”جينوفيفا“ عن حديثه مع عمه ”تيموتيو“.

فصاحت قائلة: ”قل للمغفل العجوز عليك اللعنة!“، ثم وضعت ذراعيها حول عنقه كما لو كانت آسفة، ثم قالت: ”أنا آسفة، أنه لا ينبغي أن أتحدث بمثل هذا عن عمك العزيز ”تيموتيو“. إنني أحبه في الواقع. لكن ماذا ينتظر منك أن تفعل؟، فرجل مثلك لم يولد ليحيا حياة فارغة بمكتب محامي. وعلى أية حال، ماذا أرغب؟ إن واجبك، وعملك، وأساسك في الحياة هو أن تحبني. أليس كذلك؟“

كان بعينيها عاطفة إلى درجة عالية. وكان وجهها جميلاً جداً ومصفراً، وأخذت تزن جسمها بذراعي ”فيتور“ في انسياب غرامي، حتى استطاع ”فيتور“ أن يتمتم قائلاً فقط:

”نعم بالتأكيد.“

”إذن فلتقل له عليك اللعنة!“

ثم أشارت لشخص ما بتكبر أن يطبق الملف الممل الخاص بالدعاوي القضائية. ولكن في اليوم التالي عند تناول الغداء، كانت ”جينوفيفا“ تتحدث بجدية أكثر. فإنها لا تريد بأي شكل من الأشكال أن يتخذ العم ”تيموتيو“ موقفاً ضدها، أو أن يظن أنها تضلل ولده الصغير. إن ”فيتور“ يمكنه أن يفعل ما يسعده، حيث يمكنه أن يذهب إلى المكتب كل يوم من الساعة الواحدة إلى الساعة الثالثة، حينئذ ستكون عودته أحلى بكل ما في الكلمة من معنى، فإنه ينبغي على الرجل حقاً أن يكون لديه عمل ما، وكونه محامياً يبدو بالأحرى لطيفاً حقاً: فإنه يتحدث في المحاكمة، مدافعاً عن قضايا سياسية أو جرائم عاطفية. وأنه سيبدو جميلاً جداً بروب القضاء. وهي تحب أن تسمعه وهو يترافع.

”أيمكنك تقديم هذا بحيث تدافع عن قاتل، وأن أتي وأشهد ذلك؟“

وفي يوم آخر بدت ”جينوفيفا“ أكثر تحمساً بخصوص المحاماة كمهنة. فيا له من شيء رائع أن تنقذ شخصاً يرتعش من الخوف، أن تنقذه من الموت أو المنفى!، والمحاماة أيضاً هي الطريق إلى عالم السياسة، فيمكن أن يصبح نائباً بالبرلمان أو خطيباً. كم من الفخر يمكنها أن تشعر به عندما تراه في هذه الجلسات البرلمانية الصاخبة، واقفاً على المنصة يخاطب بشجاعة وزيراً مذهولاً خائفاً!

فبدأ ”فيتور“ يعتقد أنها على حق. فالآن ترى ”جينوفيفا“ أنه شيق أن تبدو حياة المحامي أقل برجوازية، وأقل مللاً بالنسبة إليه. إنه بدأ أن يجد في

هذا احساساً شعرياً كامناً به. فبدأ أن يذهب إلى المكتب مرة أخرى. لكن عندما لا تظهر العوامل الأكثر إثارة للمحاماة على الفور، عندما لا يُقدم إليه قضية قاتل لينقذه أو أن يدافع عن جريمة عاطفية، فإنه سرعان ما يمل من الأوراق والمشاورات مع الزبائن. حيث يبدأ أن يتثاءب، ويشعر بالحزن والنعاس. ثم يلتقط قبعته، ويسرع إلى شارع "فلوريس"، حيث يجد "جينوفيفا" مرتدية ملابسها، أو أنها تقرأ، أو تدخن سيجارة. وفي البداية ستخبره بأن يذهب بعيداً: فإنه لن ينبغي عليه أن يترك المكتب، ولا بد أن يعمل. لكنه سيحلف لها أن تفكيره بها منعه من العمل، حتى أنه لم يمكنه تحمل أن يقضي لحظة بعيداً عنها.... وحينئذ ستعطيه قبلة، وهي مسرورة.

"وكذلك حسناً!"

وذات يوم قالت "جينوفيفا":

"لا تعد تذهب إلى المكتب. فلدي خطة أخرى."

وعندما سألها، ردت عليه بضحكات وقبلات ونوع من الحذر الرقيق: فإنها هيمانة بذلك الشاب الفقير، وهي نفسها ليست غنية، ولكنه لا يمكنها مطلقاً أن تتخذ معشوقاً آخر. فإنه بالأحرى لها أن تعيش بحجرة، أو أن تعمل بالخياطة، أو تتسول بزوايا الشوارع.

وكانت هذه خطة "جينوفيفا": فديونها سُددت، ولديها رأس مال يُقدر بعشرين "٢٠" من "الكونتو" بفائدة تصل إلى ستة في المئة. فلو باعت مجوهراتها، والعربة الخاصة بها، والمفروشات التي لديها في "باريس"، سي جلب فيما بين أربع وخمس من "الكونتوريس". وهذا يمنح دخلاً لألف شخص يُقدر بخمسمائة "٥٠٠"، وهذا مبلغ كافٍ حتى يعيش عليه

شخصان. فإنهما سيذهبان إلى "فرنسا"، ويتأجرا بيتاً صغيراً جذاباً بضواحي "باريس"، يقع على ضفاف نهر السين، به قليلاً من الحشائش وبعض الأشجار. إنهما سيطوفان حول "باريس" بالسيارات العمومية، ويعيشان حياة مرحلة لذيذة لاثنتين من الطلاب في حالة حب. وقد كتبت بالفعل إلى "باريس" لتوصيهم ببيع كل شيء. وأنها ستقل من المصروفات بـ "لشبونة" حتى لا تستنفذ المال الذي لديها.

وفي إحدى الليالي بعد تناول العشاء، كان "فيتور" و"جينوفيفا" سوياً بالصالون. وكان "فيتور" مستلقياً على الأريكة، يدخل سيجارة. وكانت "جينوفيفا" جالسة على البيانو تعزف مقطوعة من "الزوجة الصغيرة"، وبين الحين والآخر كانت تغني بعضاً من الكلمات. كان "فيتور" يراها شهية تماماً. وجعلته الموسيقى يشعر بأنه جريء وعاشق، فأخذ يشاهد مظهرها الجانبي الرائع، والذي يرسم صورة ظليلة مع الضوء، وكذلك متانة عنقها الأبيض كزهرة الكاملية، والذي يتضح في ظل وهج الشموع. وبينما كان يتناول شفقة من الكونياك، شعر بالسعادة. وبدا له أن الحياة تقدم نفسها إليه كاختيار مبهج لحلويات ملونة.

وفجأة قالت "جينوفيفا": "هل أخبرتك إنني قد تخلصت من العربة؟"

وعندما تساءل "فيتور" عن السبب، قالت:

"لأنني لست غنية يا ابني، وفي حاجة إلى التوفير". فاحمر وجه "فيتور" خجلاً. حيث كان يعلم أنها تتخلى عن كمالياتها لأجله، وكره كونه غير قادراً على أن يوفرها لها بنفسه. ثم جلست "جينوفيفا" بجانبه على الأريكة، مستغرقة في التفكير، وبدأت

أيضاً أن تدخن سيجارة، ثم قالت: “إنني مضطرة إلى التوفير لكي أنفذ خطتي”.
فاقترب “فيتور” أكثر إليها، ممسكاً على يدها برفق، وأخذ يسألها عن خطتها، فكل ما تحدثت عنه هو “خطتها”. فما هي؟، هل ستعلن نفسها ملكة “ايبيريا”؟ فصمتت “جينوفيفا” للحظة، ونفخت من فمها سحابة من الدخان الأبيض للسيجارة، ثم وقفت على قدميها، وأخذت تعزف بعضاً من الأنغام المبهجة على البيانو، ثم استدارت بشدة، وتقدمت إلى “فيتور”، وركعت أمامه قائلة: “دعنا نذهب بعيداً!”

وبرؤيتها للدهشة على وجه “فيتور”، أخبرته عن فكرتها بمغادرة “لشبونة”، وإيجاد بيت بالقرب من “باريس”. فإنهما سيعيشان كإثنين من الطلاب، سيعيشان الحياة الأنانية للشباب.
“لكن ماذا عن العم المسكين “تيموتيو”؟”
“ماذا عنه؟”

فبدأ “فيتور” يمشي بخطوات ثابتة حول الحجرة، وأوضح أنه لا يمكنه ترك العم “تيموتيو”، فهو مدين له بكل شيء، فعمه هو الذي رباه، وهو وريث لثروة عمه. فليس لدى ذلك الرجل المسكين عائلة أخرى سواه. فالآن هو رجل عجوز، والتخلي عنه يبدو بوضوح أمراً جاحداً.

فصاحت “جينوفيفا” قائلة: “حسناً، فلا تتركه إذن. وامكث واستمتع بوقتك معه. ونم معه إن وجب عليك الأمر!”

فاعتقد “فيتور” أن هذا الهيجان قاسياً وأنانياً، ولكنه خاف أن يغضبها، وأنه يرى في غضبها مجرد عاطفة

من الحب، وقال شبه متوسلاً:

”لكن يا حبيبتي.....“.

فطوت ”جينوفيفا“ ذراعيها بشدة.

”إنني هنا مستعدة أن أقدم جميع أنواع التضحيات، أن أهجر بيتي، عاداتي، أصدقائي، وأن أذهب كل عام وأدفن نفسي كبقالة منعزلة في كوخ مرعب بالريف، وأنت لن تتخلى حتى عن عمك ”تيموتيو“.“.

ثم صمتت، وبدأت تنظر إليه بقسوة. وكان ”فيتور“ جالساً، وكوعيه على ركبتيه، محدقاً النظر بأرضية الحجرة، ورأسه منحنيّاً في ظل قوتها اللفظية العظمى. وواصلت حديثها قائلة: ”لو كان العم ”تيموتيو“ امرأة“، ”لو كان أمك أو أختك يعتمدان عليك، حينئذ يمكنني إدراك إصرارك على المكوث هنا. ولو كان العم ”تيموتيو“ مشلولاً عجوزاً فقيراً، فحسناً!، إنما رجل في صحة جيدة، وذا أموال كثيرة، فإنك تقضي معه نصف ساعة من الزمن يومياً على الأكثر..... فبأي معنى تكون رفقتك له أمراً لازماً؟، ماذا سيفقد برحيلك؟“

إن أسبابها، والحرارة التي كانت تتحدث بها، وقوة جمالها، بدأت أن تقنعه. فقال بنبرات مغرمة مترددة: ”لكن ألا يمكننا أن نعيش بمثل هذه الحياة في ”لشبونة“؟“

فقالت: ”هذا مستحيل. فـ“لشبونة“ مملة وكئيبة جداً، حتى أن الطريقة الوحيدة التي يمكن للشخص تعويض اضطرابه إلى العيش هناك هي أن يعيش حياة من الرفاهية، أن يكون لديه طباح رائع، وكثير من الخدم، وديكور فاخر، ووجبات طعام فخمة، وعربة وأحصنة..... إلخ. إلخ. إنه يمكن للشخص

فقط في "باريس" أن يعيش سعيداً على قليل من المال. فرأى "فيتور" أن هناك حقيقة ما في هذا. حيث بدأ يتخيل مغريات حياته السعيدة معها في "باريس" من زيارة متاحف، ورؤية مشاهير، وأن يكون لديه مربعا في المسرح، وأن يستمتع بعشاءات عاطفية في مطاعم، وكذلك الاستمتاع بحياة بوهيمية من الحب. لكنه لم يقول شيئاً، حيث كان جالسا فقط يبرم شاربه، وينفخ الدخان من سيجاره. فقالت: "عجبا، قل شيئاً".

فتنهذ "فيتور"، وتجهم، كما لو كان يعاني من اتخاذ قرار صعب.

"لكن يا حبيبتي، ليس لدي ما يكفي من المال للذهاب إلى "باريس"."

فكانت "جينوفيفا" على وشك التحدث، ولكنه أوقفها قائلاً:

"إنني أعلم ما ستقولين، وهو أنه لديك مال. لكن يا "جينوفيفا" لا يمكنني أن أعيش على مالك الخاص!" ثم حل صمت لفترة قصيرة. وبدأت "جينوفيفا" تمشي في هذه اللحظة حول الحجرة، تاركة خلفها صوت خفخة من ثوبها الحريري.

ثم قالت، وهي تعيد ترتيب بعض الكتب على المائدة، دون أن تنتظر إليه: "لم يكن لدي أية فكرة أنك مغرور جداً".

فاتجه إليها، ووضع ذراعه حول كتفها. "إنه ليس غروراً. إنها مسألة لياقة. أعتقدين حقاً أن من الصحيح أنه ينبغي على أن أعيش على مالك الخاص؟"

فنظرت إليه بعينيها المضيئتين الجميلتين.

”لكن عندما يتزوج رجل فقير بإمرأة غنية. ألا يعيش على مالها الخاص؟“
”آه، لكنهما متزوجان.“

وحل الصمت على كليهما. وبلا شك أن نفس التفكير بدأ يهمس بداخلهما. فاتجهت ”جينوفيفا“ إلى البيانو، وأخذت تتصفح عبر الموسيقى، تعزف على بعض الأوتار، ثم غنت قائلة:

البلبل كان يغني
برقة بالغة.....

ثم رجعت إليه، وقالت:
”وهذه ليست علاقة جدية، أليس هذا ما تقصده؟“
فاتجه ”فيتور“ إلى البيانو.

”إنها جدية يا ”جينوفيفا“، لكن لا أستطيع..... ماذا سيقول الناس؟، إن الجميع يعلم أنني أعيش على إعانة شهرية من عمي ”تيموثيو“. فكيف يمكنني تحمل الذهاب إلى ”باريس“؟ إنه سيكون أمراً مخجلاً..... كرامتي.....“.

فصاحت بغضب قائلة: ”لا تتحدث معي عن كرامتك!“، ثم وقفت على قدميها قائلة: ”تصبح على خير!“
”جينوفيفا!“

”ماذا؟، أنني قلت ”تصبح على خير“. فما دامت كرامتك لا تسمح لك أن تحبني، وتضحى بنفسك لأجلي، وتكرس نفسك لتبقى معي، وتعيش معي، حينئذ سيكون من الأفضل أن نقول إلى اللقاء. إننا فقط سنصافح بعضنا البعض وننسى كل شيء بخصوص هذا. تصبح على خير!“

فمدت ”جينوفيفا“ يدها. وبدأ ”فيتور“، والذي أصبح

وجهه مصفراً جداً، يحدق النظر إلى يدها.
فقالت: "إنك لا تعتقد إنني جادة، أليس كذلك؟"،
"حسناً، إنك لا تعرفني جيداً".

وبدأت تمشي خارج الحجرة بتكبر. وسمعتها
"فيتور" تنادي على "ميلاني"، وحينئذ كان هناك
صوت لباب حجرة النوم أغلق بعنف.

لم يعلم "فيتور" ماذا يمكنه أن يفعل. إنه لم يخطر
بباله مطلقاً أن "جينوفيفا" ستقطع علاقتهما. لكن هل
كان حقاً من الممكن له قبول الوضع الثانوي للذهاب
إلى "باريس" مع امرأة ستشتري له تذاكر القطار،
وكذلك عشاءه في المحطة، وأي كتب يحتاج إليها،
وحتى سجائره أيضاً؟، فمن المفهوم تماماً أن العم
"تيموتيو" قد يقطع عنه إعانته الشهرية لو ذهب مع
"جينوفيفا" إلى "باريس". وحتى لو لم يفعل ذلك بدافع
المشاعر والكرم، فماذا ستشتري له العشرة "١٠" من
"الليبرا" في "باريس"؟، فكل ما يستطيع "فيتور" القيام
به هناك هو تكويم الديون!

هل يثق بـ "جينوفيفا"؟، ماذا لو انتهى حبها له في
يوم من الأيام، أو انجذبت إلى شخص آخر؟، أيمنه
الاستمرار في العيش مع امرأة تخونه؟، فإنه سيضطر
إلى العودة إلى "البرتغال" إلى ماذا؟، إنه عار مطلق.
فلن يرغب أحد في مصافحته، وسيظل "فيتور" دائماً
هو الرجل البديل لـ "عشيقة" "داماسو". ووقعت هذه
الأسباب على اتخاذ القرار كضربات بالمطرقة،
تنبت مسماراً في مكان ما.

كان هناك شيء واحد يعزيه، ألا وهو: ادراكه أن
"جينوفيفا" تحبه، فبمجرد ما قد تغلبت على غيظها
بسبب رفض فكرتها، فإنها سترك نفسها مقيمة

بـ"لشبونة"، أو أن تؤجل رحيلها لأجل غير مسمى.
فشرب "فيتور" كأساً آخرًا من الكونياك، ثم اتجه
إلى حجرتها. وكان الباب مغلقاً من الداخل. فطرق
عليه، ونادى قائلاً: "جينوفيفا!"

فالتفت "ميلاني" بـ"فيتور" مصادفة بالمر،
فخجلت بشكل واضح، وحملت معطفه وقبعته.
"سيدتي تقول أنها مريضة، وأنها ستكتب إليك
غداً".

ثم مدت معطفه إليه.

فقال: "أهذه نكتة؟"

"إن سيدتي غاضبة جداً. فأغلقت حجرتها على
نفسها، وذهبت إلى السرير."
ثم قدمت إليه قبعته. فأسرع "فيتور" إلى الباب،
ودق عليه بقوة قائلاً:

"جينوفيفا"، هل أنتي مجنونة؟

إن صمتها الجامد الشعور جعل "فيتور" أشد
غضباً، فأخذ يدفع الباب بقوة، ويهز المقبض.
وحاولت "ميلاني"، والتي بدا وجهها مصفراً جداً، أن
تبعد "فيتور". ماذا يفعل؟، فإن تفضل لا يثير مثل ذلك
الضجيج. فسيدتها منزعة جداً!

فججع "فيتور"، وهو يهز الباب قائلاً: "جينوفيفا!"
ولم يضطر "فيتور" إلى الانتظار طويلاً. ففجأة
انفتح الباب، وانطلق "فيتور" تقريباً إلى خلف
الباب. وكانت "جينوفيفا" تقف أمامه، مرتدية ثوباً
طويلاً، وقميصاً تحتانياً من الحرير ذا شق منخفض
جداً، ونصف متراجعاً، حيث يظهر رقبتها وكتفيها
وثديها. وشعرها الذهبي مدفوعاً إلى الوراء، والذي
أضفى على جمالها مظهراً شهوانياً عن بعد. وكانت

الشموع مضاءة على مائدة الزينة. وحتماً لفت انتباه "فيتور" ذلك السرير الغير مهياً. فاندفع "فيتور" نحو "جينوفيفا". لكن "جينوفيفا"، والتي مازال المفتاح بيدها، قالت بوضوح تام:

"إنني أقسم أنك لن تضع قدمك في هذه الحجرة حتى تقول أنك ستأتي معي إلى "باريس"."

وبدأت تصوب نظرها إليه بعينين متوهجتين ثاقبتين، ثم قالت بصوت منخفض، وبرغبة ملحة: "هل ستأتي؟"

فقال: "أقسم إنني سأتي".

فتنفست "جينوفيفا" الصعداء فخورة، ووقع "فيتور" بين ذراعيها.

الفصل التاسع

obeikandi.com

وفي اليوم التالي، تم تحديد موعد رحيلهما إلى "باريس". فانهما سيسافران في شهر سبتمبر عن طريق البر، ويقضيان أسبوعين بـ"مدريد"، وربما بضعة أيام في "البيرينيه". كانت "جينوفيفا" تضحك بحماس متهللة عندما تفكر في ملذات هذه الرحلة. وكانت هذه الفكرة لا تقل سحراً بالنسبة لـ"فيتور". فقد قضت قبلات وأحضان "جينوفيفا" على ما تبقى من شخصية ورغبة "فيتور". فكان يشعر عندما يكون معها كشمع طري عاجزاً عن مقاومتها. فكلمة واحدة من "جينوفيفا" يمكنها أن تخضعه إلى حالة من العجز الحقيق، وبعض القبلات تبدو أن تتملق روحه، وتشمله بلذة متوهجة إلى درجة عالية، حتى أنه يمكن أن يصبح لصاً لو طلبت منه ذلك. إن حب "جينوفيفا" الأناني الحماسي قد حطم في "فيتور" كل شيء، لدرجة أنه لم يرضى أو يخدم هذا الحب. فقد محا الحب إرادة "فيتور"، وكرامته، ورغبته في العمل، وكل تفكير في المستقبل. وقد احتفظ الحب في "فيتور" برغبة قوية وموهبة واحدة، موهبة كتابة الشعر. فكان عمله الوحيد هو أن يحبها، وأن يكتب شعراً غنائياً. فكل ما تبقى من "فيتور" هو القافية والوزن والحاسة الشعرية. إن فكرة الرحلة كانت تتوافق مع أعمق رغباته. إنها فكرة دائماً ما كان ينشأ عليها: الحلم العاطفي القديم، أن يقوم برحلة مع السيدة التي يحبها، والآن على وشك أن يرى هذا الحلم يتحقق. كيف يمكنه حتى التفكير في المقاومة؟، علاوة على أنه أمر طفولي أن يقلق بخصوص المال. فلو أحب كلاهما الآخر، فحينئذ ما لها هو له أيضاً. فينبغي أن يكون الحب مهياً للتضحية بكل شيء. وبما أن

الحب طبيعة إلهية، فلماذا ليس لديه نفس التأثيرات الشرعية كالزواج، بإعتبار أن الزواج مجرد مسألة إدارية؟، فلو استطاع ضميره أن يعيش بهذا، فلماذا كان عليه أن يهتم بما يفكر الآخرون؟، وعلى أية حال، من هم أولئك الآخرون؟ "داماسو" و"مارينهو" و"كارفالهوزا". وعلى كل شيء، إن "فيتور" هو رجل المثاليات الخالصة، والقوانين البرجوازية التي تحكم الأخلاقيات التافهة ليست معتمدة خصيصاً له. وفيما يتعلق بالعم "تيموتيو".... هذا التفكير جعل "فيتور" شاعراً بعدم الارتياح، فلم يجرؤ أن يخبره أنه سيسافر مع "جينوفيفا"، حيث أنه يحترمه ويخاف منه. وبنزعة الحب بشكل طبيعي، قد ازداد تعلقه بذلك الرجل العجوز الطيب طوال السنوات الكثيرة التي قد أقامها معه. فلماذا ينبغي عليه أن يفعل؟، إن طبيعته المتأنتة أشارت إليه بهذه الفكرة الأنثوية وهي: أن يحزم شنطه في الخفاء، ثم يهرب، تاركاً رسالة إلى عمه.

ومع كل هذه المصاعب الممهدة، ترك "فيتور" نفسه إلى الأمل الجميل لهذه المغامرة العاطفية العظيمة. لكن مازالت هناك أشياء ينبغي أن تُشترى، قمصاناً، ومعطفاً مخملياً، وأحذية من الجلد، ومعطفاً جديداً ذو ذيل..... لأن مثل هذه الأشياء ستكون ضرورية في حياتهما الجديدة.

وفي خلال ذلك لاحظ "فيتور" أن "جينوفيفا" أحياناً ما تبدو مشغولة البال، حيث لاحظ أنها تحقق النظر إليه كأنها تتأمله، وكما لو كانت على وشك أن تقول شيئاً ما مهماً جداً. وفي أوقات أخرى كانت تبدو حزينة. وكان "فيتور" بين الحين والآخر يُفاجأ بأشياء

تقولها "جينوفيفا"، تبدو أنها تكشف عن الخوف من أن ينتهي حبهما. فأصبح "فيتور" قلقاً، وبدأ يسألها قائلاً: "ألسني سعيدة؟ ألا يكفي إنني قد وافقت على أن أتى معك؟"

فردت "جينوفيفا" قائلة: "لا، هذا لا يكفي، ليس بعد".

ماذا تريد إذن؟، لكن عندما سألها "فيتور"، كانت "جينوفيفا" تبتسم وتقول بسرية: "سأخبرك في "باريس"."

و ذات يوم خطر ببال "فيتور" فجأة أنها قد تكون حامل. فركع عند قدميها، وهمس بذلك السؤال في أذنها، فضحكت "جينوفيفا" بصوت عال قائلة: "لا، لا، لا تكن مغفلاً"، ثم تنهدت قائلة: "فقط لو كنت كذلك".

كانت "جينوفيفا" تفكر بالزواج. فقد كانت تفكر بالزواج منذ لحظة وقوعها في الحب. أما الآن بعدما أدركت طبيعة "فيتور" الخاضعة المحبة الضعيفة، ازدادت رغبته في إمكانية الزواج. فقد وجدت أخيراً الحب العظيم الذي قد كانت تشتاق إليه طوال حياتها، والذي يشبه طائراً ما رائعاً، دائماً ما يبدو بعيداً، يحلق عبر سماء بعيدة. والآن لديها هذا، فأرادت أن تستخدم كل وسيلة للحفاظ على هذا الحب، ولا تدعه يهرب.

فـ"فيتور" حقق كل رغبات "جينوفيفا"، فإنه كان جميلاً كملاك. وبالنسبة لها، كانت تعشقه. فإنه دائماً ما كان منقاداً ومرناً لدرجة تكفي لاطاعتها. إنه كان ذكياً وأنيقاً بما فيه الكفاية لاشباع غرورها. وبالطبع أنه سيرث من العم "تيموثيو" ثمانين من "الكونتو". فأين ستجد رجلاً آخرًا مثله، خاصة أن شبابها الآن قد

انتهى، وبدأت أن تظهر العلامات الأولى للشيخوخة على بشرتها؟

ولو لم تربط "جينوفيفا" "فيتور" بها بشيء ما أقوى من الشهوة الجنسية أو الحب، فربما يتركها بعد عام أو عامين. ولو لم تحصل الآن على موافقتها في حين أنه يمكنها السيطرة عليه بالغرور والشهوة الجنسية والمتعة والجمال، فإنه سيكون بعدئذ متأخراً جداً. فإنه بثروتها المالية وكذلك ثروته يمكنهما أن يعيشان سعادة في "باريس"، لكنها لم تريد أن تتحدث إليه مباشرة عن الزواج، حيث أرادت أولاً أن تمهد الفكرة بعقله. فلو ألقى بنفسه بين ذراعيها بقبول سعيد بمجرد ما تشير له بهذا الأمر، فإنه من الضروري أن يرغب في هذا سراً دائماً.

لذلك بدأت "جينوفيفا" بفعل كل شيء يمكنها لتغذي هذه الفكرة، وتطورها، وتجميلها. وأخفت طموحاتها بمهارة في ظل اهتمام من الحب.

وفي ليلة سبت، قالت "جينوفيفا" فجأة: "هل ستأتي معي إلى القداس صباح غد؟ مبكراً جداً في تمام الساعة السابعة".

فذهب "فيتور" معها، واعتقد أنها ستبدو رائعة بارتدائها ثوباً أسوداً بالكامل، وهي تميل على كتاب الصلاة في وضع جسماني لعبادة أنيقة.

وطوال الأسبوع التالي كثيراً ما كانت تتحدث "جينوفيفا" إليه عن الكنيسة والدين والتوبة، ودائماً ما كانت تضيف أن الحب هو الذي قد أعادها للفضيلة. فلم يكن "فيتور" يتخيل مقدار ما ندمت "جينوفيفا" على أخطائها الماضية. إن عذابها العظيم هذا كان ينبغي أن يخص شخصاً آخر، أما روحها وقلبها

فمازالا بتولييين، ويخصا "فيتور" وحده. فقد قالت له: "إنك زوج قلبي، فبقلبي أنت حبيبي الأول والوحيد". وأثار مثل هذا التهذيب البليغ "فيتور". علاوة على أن "جينوفيفا" شاركتها أتعاباً أخرى. فأرادت أن تعرف من سيجعل ملابسها رسمية؟، فقمصانه لم تكن رسمية بشكل سليم على الإطلاق. إنه ليس خطأه، هذا الحبيب المسكين، فلم يكن لديه زوجة حتى تعتني بهذه الأشياء. ففي "باريس" سيرى "فيتور" كيف تعتني "جينوفيفا" بكل شيء، حيث أنها ستبدأ بتطريز أغطية عنقه. وستغير عاداتها، وملابسها، وتعبيراتها. إنها ستميل إلى سلوكيات خيرية وأخلاق نبيلة. وذات يوم سمعت "فيتور" يندن بأغنيته المفضلة:

"لدى كل امرأة عشقها،

"نقطة ضعفها، وصورة فرس....."

فطلبت منه أن يغني "هذه الأغنية المثيرة".

وقالت بحزن: "إنها تذكرني بأشخاص من الماضي".

كانت "جينوفيفا" مرتدية أكثر الألوان هدوءاً وذات الاختيار المتشدد. فعبر "فيتور" عن حزنه من أنها لم تعد ترتدي الملابس التي تجعلها مثيرة وجذابة جداً. "إنها نوع من الملابس التي ترتديها عاهرة. وإنني الآن سيدة متزوجة. وقد اهتممت بأناقتي".

ثم ذهبت إلى السرير.

وذات يوم رآها "فيتور" مرتدية بهذه الملابس الداكنة، تخطط عند الشباك، ومظهرها الجانبي الجميل يرسم ظلاً بالمقابلة مع الضوء. ففكر "فيتور":

"يا لها من امرأة فاتنة!، يا لها من زوجة!، يا له من عار اصطدمننا به متأخراً جداً!"

ووسط كل هذه المخاوف قد أهمل "فيتور" أمر اللوحة الفنية قليلاً. حتى أنه ذات صباح تلقى رسالة من "كاميلو كيراو"، يقول بها:

إنني أطالب بعودة النموذج الخاص بي، والتي لم تظهر حتى الآن لمدة أسبوعين كاملين. ماذا يعني هذا؟، هل قد غيرت رأيها؟، إنه سيكون أمراً لا يُعْتَقر!، فإنني أعتمد على هذه اللوحة في الإنطلاق بمهنتي. أتريدني بالتأكيد أن يصبح لدي ثروة ونموذجاً رائعاً من العمل ضمن شهرتي المدركة؟، كل هذا سيختفي كفقاعة صابون. فـ"جينوفيفا" ستكون مسئولة أمام الفن وأمام الرب (أن صح مثل هذا الافتراض) من عدم الاستفادة من فنان. فلتحضرها هنا يا ولدي، حتى تُخلد بالألوان الزيتية.

مع خالص التقدير والإحترام. "كاميلو"
لم تتقبل "جينوفيفا" ذلك المزاح الذي بخصوص الرب. لكن أقنعها "فيتور" أن هذا قد يكون خيبة أمل شديدة لـ"كاميلو" المسكين قائلاً: "من يعرف، إن تلك اللوحة الفنية قد تصنع له ثروته؟"
"إنني لا أحب زوجته".

فقال "فيتور" بتجاهل: "أوه، بكل صراحة"، وشعر بحمرة الخجل تظهر على خديه. "هل ستذهبين اليوم إلى هناك في تمام الساعة الثانية؟، قولي أنك ستذهبين".

فقالت، وهي تنظر إليه برقة واحتشام: "سأذهب فقط لأنك تريد مني ذلك يا زوجي الصغير".

فتقدم "فيتور" لأخبار "كاميلو". فوجد الباب مفتوحاً، ثم دخل إلى الأستوديو. وبدلاً من أن يرى "كاميلو"، إذ به يرى "جوانا" جالسة عند الشباك، حيث

كانت تخطط. فوقفت "جوانا"، واحمر وجهها خجلاً. وقالت أن "كاميلو" سيرجع في تمام الساعة الثانية. فوقف كلاهما هناك خجولين، حتى أن "فيتور" أمسك بيديها بدافع المجاملة، وألقى نظرة سريعة فيما حوله، ثم قبلها ببرود. فوضعت "جوانا" ذراعيها حول عنقه، واستاقت برأسها على كتفه. وسمع "فيتور" تنهداها بحنان.

فقال محاولاً دفعها بعيداً: "انظري، ربما يدخل شخص ما".

فقالت وعينيها مغرورة بالدموع: "ماذا يهمني؟" فقال "فيتور": "عجبا، إنه يهمني!", وعلى الفور ندم "فيتور" على مثل هذه الوحشية. فدموعها تملقت غروره. وعلى الرغم من أن جمال "جوانا" استنزف قوته وأيقظ رغبته، إلا أنه فصل نفسه عنها شيئاً فشيئاً، وقال برقة:

"الآن، لا تكوني مغفلة، اهدأي".

فتساءلت، وذراعيها متدلية بجانبها، والدموع تنساب على وجهها: "هل هذه المرأة حبيبتك؟" "إنك تعرفين أنها كذلك".

فسقطت "جوانا" فوق الأريكة، وثدييها الرائعين يهتزا من تنهداتها. وأصبح "فيتور" يائساً. فماذا لو وصل "كاميلو" ووجد "جوانا" مغتسلة بالدموع. إنه سيكون أمراً محرّجاً بشكل مخيف. وفي لحظة جُبْن، التقط "فيتور" قبعته.

ولكن أمسكت "جوانا" بذراعيه، وأخذت قبعته منه، وقالت متوسلة:

"انتظر لحظة واحدة فقط، ولن أعد أبكي".

وبدأت "جوانا" تمسح دموعها، مسيطرة على

تنهدياتها، وظلت جالسة على الأريكة، وعينها مصوبة نحو "فيتور" في يأس صامت. فجلس "فيتور" بجوارها، وقال:

"لابد أن تكونين عاقلة".

ولكن امتلأت "جوانا" بموجة من الشهوة الجنسية، وبتنهيدة بدأت تضع ذراعيها حول "فيتور"، وتقبل وجهه، وشفتيه، وعينه. فشعر "فيتور" بضعفه، لكن أيقظه صوت حفيف ثوب من الحرير في الممر، وكان لديه مجرد وقت يكفي بالكاد لدفع "جوانا" عنه بعيداً، وإذ به يري "جينوفيفا" واقفة في المدخل، وكانت تبدو شاحبة جداً.

فوقف "فيتور" على قدميه أمام "جينوفيفا"، والتي كانت يديها ترتعش، وشفتيها مستنزفة بلون الروج، وبدأت تدخل إلى الأستوديو ببطء، وعينها الغاضبة القاسية مصوبة نحو "جوانا" و "فيتور".

فقالت "جينوفيفا" إلى "جوانا": "إنكِ تعرفين أن هذا الرجل هو حبيبي".

فبدت "جوانا" شاحبة بشكل مميت، ولم تقل شيئاً. فسددت "جينوفيفا" نظرة ثاقبة قاسية.

"حسناً، لو نسيتي ذلك مرة أخرى. فسأجد طريقة ما أخرى لتذكيرك".

ثم استدارت نحو "فيتور" بتكبر قائلة:
"ألا ينبغي أن نمضياً؟"

فتبعها "فيتور" في صمت. وكانت هناك عربة منتظرة عند المدخل. فركب كلاهما متجهين إلى شارع "فلوريس" دون أن ينطقا بكلمة طوال الطريق، ودون حتى أن ينظران إلى بعضهما البعض. ثم قام "فيتور" بدفع الأجرة إلى السائق، وصعد على درج

السلم وراء "جينوفيفا". ثم دخل كلاهما إلى الصالون. ونزعت "جينوفيفا" قبعته عنها سريعاً، وألقته على كرسي، وبدأت تنظر إلى نفسها في مرآه. ثم قلبت وجهها، والذي كان أصفراً كالشمع، واستدارت إلى "فيتور" قائلة بشدة:

"ماذا تريد مني أيضاً؟"

"اسمعي يا "جينوفيفا".....".

"ماذا؟، إنني قد ضحيت لأجلك بكل شيء، ثروة، ملهيات، متع، كماليات حياتية، كل شيء، وأراك تخذعني مع خادمة، طباحة، لا شيء.....".

كان صوت "فيتور" يرتعش في حزنه، شبه باكياً. وحاول أن يحتضنها باكياً قائلاً:

"من فضلك، لأجل الرب، اسمعيني".

وبدا "فيتور" يقدم لها تقريراً سريعاً حول كيف قد قابل "جوانا" قبلما يصبح معها، حتى أنه لم يكن يغازلها أو يغريها مطلقاً، حيث كان الأمر أنها هي التي.....

فقد كان "فيتور" معها بمفرده في الاستوديو ذات مرة، وقد كانت المرأة في هذه المرة في لحظة من الجنون والغباء..... هذا فقط ما قد حدث هذه المرة.

"إنك كذاب!"

فقال فجأة: "أحلف برحمة أمي!"

ثم حل صمت. وكانت "جينوفيفا" تهز رأسها بحزن.

"لا يا "فيتور"، اسمع. إنني أحبك أكثر مما يمكن لشخص آخر أن يحبك في العالم. إنني أعشقتك. وقد استعديت أن أوهب لك حياتي بأكملها، أن أكون عبدتك، عشيقتك، كل ما تريده يا حبيبي".

إن هذه الكلمات أثارت في "فيتور" تعظيماً هائلاً، فتمتم قائلاً:

"أوه، يا "جينوفيفا"، "جينوفيفا"!"
فقالت "جينوفيفا" بحزن: "لكن ثقتي قد تدمرت"،
"فإنه لا يمكنني مطلقاً أن أثق بك مرة أخرى". وهزت
يديها المشبوبة جيئةً وذهاباً، وصاحت قائلة: "أوه، يا
إلهي، يا إلهي!"

وانسالت دمعتان على خديها، وسقطت فوق
الأريكة، وهي تبكي.

فالقى "فيتور" نفسه عند قدميها، وقال نادماً بشكل
متهور:

"اطلبي مني أي شيء تحببه يثبت لكِ حبي. إنني
أريد أن أوهب لكِ حياتي، كل شيء.....".

فقالت "جينوفيفا" وهي تبكي: "لا"، "إنني سأذهب
بعيداً، سأمضي إلى حيث لا تعلم. أوه، يا إلهي، يا
إلهي!"

"لو مضيتي، سأقتل نفسي!"

ثم وقف "فيتور" على قدميه. وفي هذه اللحظة بدأ
يتحدث بصدق تام نابع من حب. وبرؤيته أن حبهما
ينحسر بعيداً، بدت له حياته مدمرة.

فمشيت "جينوفيفا" إليه، وعينيها مصوبة نحوه.
فهو لم يرى مطلقاً أن نظرتها جميلة جداً، وأضفت
دموعها على وجهها نصاعة جديدة. فوجدها "فيتور"
نبيلة وجليلة وبالغة حد الكمال. فقال مرة أخرى:
"أخبريني ماذا تريدني أن أفعل، لإنني أعشقك،
وأرجو سماحك فقط".

فوضعت "جينوفيفا" يديها على كتفيه ببطء، وقالت
بصوت متوتر منخفض:

”تزوجني“.

فاصفر وجه ”فيتور“، وبدأ أن يتراجع قليلاً. وظلت ”جينوفيفا“ مصوبة عينيها نحوه. وأبدت ابتسامة حزينة جداً، وتمتعت قائلة:

”ألا ترغب في ذلك؟“

ووضعت يديها على قلبها، وأغمضت عينيها، كما لو كانت على وشك الإغماء.

فأمسك ”فيتور“ بها سريعاً بذراعيه.

وصاح قائلاً: ”إنني أرغب، أرغب“، ”إنني أريد أن أتزوجك يا ”جينوفيفا“، أريد ذلك بالفعل“.

فوضعت ”جينوفيفا“ ذراعيها حول عنقه.

”هل ستتزوجني؟“

”أحلف بكل المقدسات إنني سأتزوجك في خلال أسبوع، هنا أو في ”باريس“ أو أينما تريدان“.

وقضى الوقت الباقي من فترة ما بعد الظهر في

إعداد الخطط بشكل لذيذ. إنهما سيتزوجان في هدوء

بـ”لشبيونة“. وفي الصباح سترتدي ”جينوفيفا“ ثوباً

أسوداً، و”فيتور“ سيرتدي سترة تصل إلى الركبتين.

وفي نفس الليلة سيبدآن شهر العسل. إنهما سيتركان

كل المفروشات بالشقة، وستكتب ”جينوفيفا“ إلى

”داماسو“، تخبره أن يفعل معها كما يحلو له. وهذه

اللفتة الكريمة أسعدت ”فيتور“.

”إنك امرأة طيبة“.

فقالت بابتسامة تبشر بأفراح لا نهائية: ”كما أنك

سترى“.

لم يستطيع ”فيتور“ التوقف عن النظر إليها

وتقيلها. حيث كان هناك شيء ما جميلاً وجليلاً ونبيلاً

جداً حول وجهها، ورقة تلمع بعينيها، وسعادة هادئة

تظهر في كل حركة من حركاتها. وأية حياة سيعيشونها في "باريس". إنهما سيختبأن بعيداً بعشهما الدافئ. إنه سيكون من الأفضل لهما ألا يبيعان المفروشات أولاً، فإنه سيحفظ لهما مصاريف إقامة بفندق، وأن تُؤجر الشقة حتى شهر "ديسمبر". إنه لن يكون لديهم عربة بالطبع، لكن ليس هناك من ضرر لو ركبا عربة مؤجرة.

كانت "جينوفيفا" متألقة، فبدأ أنها قد اكتسبت مظهراً من الصببانية. فكانت تحمر خجلاً عندما ينظر "فيتور" إليها، كما لو قد طغى عليها عذرية مفاجئة. وكانت تركع عند قدمي "فيتور"، خاضعة بخجل كحمامة متعبة. إنها لم تمل مطلقاً من أن تتأديه بـ "زوجي الصغير"، وحتى عندما كان يتجهان إلى حجرة النوم، ويحملها "فيتور" بذراعيه، كانت "جينوفيفا" تبدي كل مقاومة منزعة لعذراء خائفة.

وبعد بضعة أيام، في عرض مسرحي بمسرح "ساو كارلوس" لـ "روبرت ديابل". بمجرد ما ارتدت الراهبات جيبات كاملة وجيبات قصيرة، وبشعرهن المفكوك كن يرقصن في "دير "سانتا روزاليا"، دخل "داماسو"، والذي كان يبدو معتزلاً بنفسه. وألقى قبعته على مقعد خالي، وبدأ يلمع منظار الأوبرا الخاص به جيداً، وأخذ يتفحص الأشخاص بمربعاتهم. وفي مربع فوق الجناح مباشرة، أبدت "جوانا كوتينهو" له ابتسامة مصطنعة، وأشارت إليه بحذر. فأسرع "داماسو" ليراها.

كانت "جوانا كوتينهو" مع رفيق لها يُدعى "أسيردا"، وهو ذو شعر أشيب، ومظهر مريض يبدو حوله إلى حد ما. وكان جالساً في الجزء الخلفي من

المربع، ويكتم كحة صادرة من فمه بمعطفه.

فقالت "دونا جوانا كوتينهو" على الفور:

"هل سمعت الأخبار؟، إن "جينوفيفا" تزوجت".

"ب"فيتور؟"

"ب"فيتور"".

فأصبح وجه "داماسو" قرمزيًا، وتظاهر بضحكة غليظة نوعاً ما.

ثم استدار إليها بوجهه المنفوخ، وبدأ يصوب بعينيهِ الصغيرتين نظره نحوها، ثم قال:

"إنكِ تمزحين، أليس كذلك؟"

فأخبرته "دونا جوانا كوتينهو" أنها قد قضت فترة ما بعد الظهر مع "جينوفيفا"، وأن كل الأوراق قد أعدت، حيث أنها ستسافر مع "فيتور" إلى "فرنسا".

فتمتم "أسيردا"، بين نوبات من الكحة قائلاً: "إنه مثير للاشمئزاز".

فصاح "داماسو"، وهو يدعك يديه بشكل متكبر قائلاً: "يا له من غباء!". فإنه لم يتصور حدوث ذلك، حيث أن "جينوفيفا" كان لابد لها أن تتزوج بـ "فيتور" بعدما يرث الثمانين من "الكونتو" من العم "تيموثيو". لكن الرجل العجوز ذكياً ومغروراً جداً وقادراً تماماً على أن يحرم "فيتور" من الارث.

فتساءل "داماسو" قائلاً: "هل عمه يعرف ذلك؟"

لم تكن "دونا جوانا كوتينهو" متأكدة من ذلك. وبالتأكيد كانت تعتقد أن الزواج شيء ممتاز، ومؤسسة أخلاقية، والتي لا يمكن لجميع المسيحيين سوى استحسانها. وربما قد ارتكبت "جينوفيفا" أخطاءً، ومن منا لم يخطئ؟، فالزواج سيجرف كل ذلك بعيداً..... إنها تتمنى سعادتها. وكانت "جينوفيفا"

سعيدة كمن مزاح.
 ”وبالرغم من ذلك، بينك وبينني، إن ”جينوفيفا“
 لا تستحقه. فإنه ليس لديها أخلاق ولا شيء على
 الإطلاق“.

فقال ”داماسو“: ”ولا أي خجل“.
 فأضافت ”دونا جوانا“ قائلة: ”ولا رقة روح“.
 ومسح ”أسيردا“ حلقه، وبدأ يتساءل بصوت عال
 قائلاً:

”هل هذا من مالها الخاص؟“
 فكان ”داماسو“ على وشك أن يقول: ”فقط ما
 أعطيته لها“، ولكنه منع نفسه. فأراد أن يبقى في
 ذهنهما أنه الرجل الذي قد أحبته ”جينوفيفا“، ونظراً
 لأن ”جينوفيفا“ ربما قد تحدثت إلى ”دونا جوانا“ عن
 علاقتهما، رأى أنه من الأفضل ألا يرد، وأن يتظاهر
 بدلاً من ذلك أنه مهتم برقص الباليه.

”كيف كان المشهد الجنائزي؟“
 فقالت ”دونا جوانا“: ”أنه كان اليوم جيداً للغاية“،
 ”لكن الراقصة الأسبانية، الراقصة الضخمة، كانت
 على وشك أن تسقط أرضاً“.

فجلس ”داماسو“ لوقت قصير يبرم شاربه، ثم
 وقف وودعهما. وخارجاً بالمر، أشعل سيجاراً، ثم
 ترك المسرح.

لم يجرؤ ”فيتور“ أن يذكر أمر اللوحة الفنية إلى
 ”جينوفيفا“. ولكن طرحت ”جينوفيفا“ ذلك الأمر في
 اليوم التالي. وعندما أظهرت له رسالة قد كتبتها إلى
 ”كاميلوكيراو“، تخبره فيها أنها ستسافر إلى ”فرنسا“،
 وأسفة على اضطرارها إلى مقاطعة عمله. فهي ترجو
 أن يحتفظ بالرسم التخطيطي الذي قد أعده لحين

عودتها، وأوضحت له في الرسالة أنها قد وضعت عشرين من "الليبرا" بداخل المظروف. فقالت: "لابد أن هذا سيعزيه".

وبإدراكك "فيتور" أن اهتمام "كاميلو" بهذه اللوحة اهتماماً فنياً بدلاً من أن يكون مادياً، اعتقد أن مثل هذا العرض فقط ربما يزيد من تهيج "كاميلو" في اضطرابه إلى أن يوقف العمل. لكن لم يبدي "فيتور" أي اعتراض، لأنه لم يريد أن يبدو مهتماً بالأمر أكثر من اللازم.

وفي اليوم التالي كان "فيتور" مرتدياً ملابسه بالبيت قبل تناول العشاء (حيث أنه سيذهب إلى المسرح مع "جينوفيفا" هذه الليلة)، عندما دخل "كاميلوكيراو" إلى حجرته. وبدأ "كاميلو" أنه متضايق جداً، وشعره مجعداً ومنكوشاً أكثر من العادة. وبدأ أن يخرج رسالة "جينوفيفا" من جيب معطفه، ووضعها فوق الخزانة ذات الأدراج، ثم قال:

"اعطِ هذا إلى زوجتك الطيبة. فما قد قمت به حتى الآن لا يستحق عشرين "٢٠" من "الليبرا". إن هذا كرم عظيم منها، لكن..... على أية حال، يمكننا أن نتحدث في ذلك الأمر مرة أخرى عندما تعود "جينوفيفا".....".

أما "فيتور"، والذي قد أبدى وجهة نظر على هذا الكلام، مشيراً إلى ثمن اللوحة القماشية وأدوات الرسم، قاطعه "كاميلو" بإشارة حازمة، وألقى بنفسه على كرسي ذو ذراعين، وبدأ أن يصف حياة الفنان، حيث توصل إلى أنه ينبغي عليه أن يغير مسيرته المهنية. فهناك فقط في "البرتغال" سوق لأشغال فنية صغيرة أعدها فنانون صغار، وهو سوق ضيق جداً،

والذي فيه يريد الشخص صنع أيقونات، أو رسوم توضيحية لقصص أو مسلسلات. وإنه يعتبر مثل هذه الأشياء كممارسة الدعارة لمهنته. فأراد أن تظل موهبته نقية، لذلك قرر أن يسافر إلى "البرازيل".

"لماذا؟"

فهناك لديه أخت، متزوجة بـ رجل غني جداً، والذي من قبيل الصدفة يعشق الفن بشكل كبير. ربما هو الشخص الوحيد في كل أمريكا الجنوبية. فكان هذا العاشق للفن يقدمه إلى مدراء المسارح، وإلى بعض من الهواة المجانين. إنه يمكن لـ "كاميلو" أن يصنع ثروته إما أن يكون مصمماً للديكور أو بحصوله من الحكومة البرازيلية على مهمة أن يسافر إلى "إيطاليا"، ويقدم نسخاً للوحات شهيرة. وبمجرد ما يصنع ثروة صغيرة، عشرين "٢٠" أو ثلاثين "٣٠" من "الكونتو"، والتي كما يبدو أنها "ممكنة تماماً" ليعود إلى "البرتغال"، ويفتح استوديو، ويجمع حوله تلاميذ له، ويعيش بكيان مبجل، محاطاً بأعمال فنية. ويعيش فقط لأجل مثاليته. ولو لم يصنع ثروة، فحينئذ سيموت هناك. وعلى الأقل ستكون لديه فرصة أن يختبر ضخامة الغابات الواسعة بـ "البرازيل".

فبدأ "فيتور" يمشط شعره بعناية، ثم سعل، وتساءل سؤالاً عابراً قائلاً:

"هل ستذهب بمفردك؟"

"أوه، نعم. فـ"جوانا لا تطاق. فإنها ستقضي كل يوم صامتة كتمثال، وكئيبة كقبر. وكذلك صرخات الطفل طوال الوقت، حيث أنه في المراحل الأولى للتسنين. وبالتالي من المستحيل أن أشتغل. فإنني سأترك لهم بعض المال، وسأرسل إليهم إعانة شهرية. وستبدو

الزوجة مسرورة إلى حد ما بذلك الترتيب. إنني أفكر في ترحيلها إلى "ايلهافو". وحينئذ أبدأ حياة جديدة".
وتدلت رأس "كاميلو" على صدره، وهو جالساً على الكرسي الكبير ذو الذراعين. وقد كان يتحدث بكلمات كئيبة نوعاً ما. وفي الوقت نفسه كان "فيتور" يربط كرافتته البيضاء. إن الطريقة الغير مبالية والمتخالية التي كان يتحدث بها "كاميلو" عن "الزوجة" قللت من أية مشاعر ندم قد يشعر بها "فيتور". فقال بشكل صريح إلى حد ما:
"حسناً، فعلى أية حال، إنها ليست الزوجة المناسبة لك".

"لا، إنني أرى هذا الآن. فينبغي أن تكون زوجة الفنان فنانة أيضاً، فلا بد أن تكون ذات ذكاء وفهم وذوق فنان..... لكن ربما يكون الشيء الأفضل هو أن يعيش الفنان بمفرده، قوياً ومنعزلاً كـ"ألفريد فيني موسى".

وبدأ "كاميلو" يلف سيجارته بين أصابعه، وبرؤيته لـ"فيتور" يرتدي معطفه ذو الذيل، قال:
"هل ستخرج إلى مكان ما؟"
"نعم، إلى المسرح".

وعلى الفور بدأ "كاميلو" يشيد بـ"جينوفيفا". حيث اعتقد حقاً أنها مثل أعلى لجمال عصري، وتجسيد لسنوات الحضارة وعبقريّة كل العاهرات العظيمة من زمن ماضي.

وعندما سمع "فيتور" هذه الكلمة المستخدمة لوصف المرأة، والتي ينبغي أن تكون زوجته، أصبح وجهه أحمرًا كشخص ما قد لطمه.
وواصل "كاميلو" حديثه قائلاً: "وللأسف"، "إن

هذه الأزمنة الدستورية والإنفعالية لن تسمح بتطوير مثل هذا التجسيد الرائع لشهوانية مثيرة. فقبلاً، خاصة في القرن السادس عشر "١٦"، قد كانت مثل هذه المرأة محوراً لحياة سياسية وفنية وفكرية. فكل الأفكار العظيمة وشعر اليوم قد كانت تقع حول سريرها، والذي كانت تنام عليه ملكة النعمة، وربة الجمال، كما لو كانت على مذبح كنسي. وقد كان الشعراء يكتبون قصائد لها. و"تيتيان" في ذلك العصر كان يخلدها في لوحات فنية. وكانت كلماتها تسوي حدة النقاشات بين الفلاسفة. وفي حجرة نومها كانت تدبر مؤامرات، وتعلن حروب. وقد كان الأمراء يعطون شبائبهم إليها يدا بيد. وبينما كانت ترتدي ملابسها، فإنها تسمح بحضور الكرادلة، والذين كانوا يسألونها أسئلة حول العقيدة. وكان النحاتون العظماء وتجار المجوهرات يبتكرون لها أكثر الأعمال الفنية عظيمة. وكان الباباوات يقبلون قدميها الأبيضان. ومثل هذه النساء كانت مصدر إلهام للبحارة على القوارب. وكانت الملهمة الأساسية لانتصارات عظيمة. وقد كانت ربات لعبادة وثنية. وأضاف قائلاً: "لكن، ما يفعله جميعهن اليوم هو استغلال بقال ما، ويقعن في الحب مع عامل بمتجر، وفي نهاية المطاف يتزوجن بمغفل ما، وذلك فقط بعدما يحصل على المال من قبل رجل آخر، أو الذي يكون متألّقا، وذلك بنظرتهم الأولى لملابسه الداخلية المزينة بشريط من الدانتيل. إننا نعيش في عصور جاهلة".

حينئذ أصبح وجه "فيتور" مصفراً جداً، فاتجه إلى الشباك، وبدأ ينظر خارجاً حتى يخفي مشاعره. فكل كلمة وقعت في أذنيه كانت كإهانة محتقرة. فكان

يتساءل تقريباً عما إذا كان "كاميلو" يعرف أمره مع "جوانا"، وأنه ينتقم بذلك الكلام المحقّر حول زواجه بـ "جينوفيفا". لكن "كاميلو" كان يتحدث بهدوء شديد، كما لو كان يلقي محاضرة إنتقادية. ماذا سيعتقد لو علم بالأمر؟، فما كان يقوله كان يشبه جزءاً من أفكار جميع الرجال الصريحين.

وبداً "فيتور" يمشي فيما حول الحجرة، وينظر إلى نفسه في المرآه، ويضع يديه في جيوبه، ويحدق النظر بالأسفل كما لو كان يتأمل حذاءه الجلدي.

"إن الحب يبرر كل شيء". فقال "كاميلو": "على الأقل، إنه يضفي على أعمالنا مسحة من الشؤم، والذي يجعل الأعمال شيقة". ثم تمطط، وتثاءب، ووجه يده نحو وجهه. وكان على وشك أن يقف عندما انفتح باب حجرة النوم، وظهر العم "تيموتيو".

فقال العم "تيموتيو" إلى "فيتور": "أوه، كنت أظن أنك لوحدك"، "سأنتظر بالذور الأسفل". ثم أغلق الباب، وبدأ كلاهما يسمعا صوت رجله الخشبية تتحرك خارج أسفل الممر.

فالتقط "كاميلو" قبعته. فقال "فيتور": "ولكنك لن تسافر إلى "البرازيل" مباشرة، من يعلم، ربما تغير رأيك".

"لا، قد كان لديّ ما يكفي من هذه اللخبطة. وإنني أحب أن أرى البحر والغابات الكثيفة والأنهار الواسعة. وعلى كل شيء إن الطبيعة هي الجانب الأنبل للفن، فالإنسان العصري يعيش معزولاً جداً عن العالم الطبيعي. والفن يحيط الإنسان بالطبيعة، حيث يجعل الطبيعة محمولة. فهو يحضرها إلى حجرة الطعام

وحجرة النوم، مفسرة ومحددة، مؤدياً أعظم خدمة إلى الإنسان، حيث يجعل الإنسان في اتصال دائم مع الطبيعة. والطبيعة هي كل شيء: فهي تهدأ، وتعزي، وتهذب، وتجمل، وتنشط. إلى اللقاء.

ظل "فيتور" قلقاً بحجرته لوقت قصير. فماذا يريد العم "تيموتيو"؟، إنه كان يأتي فقط إلى حجرته ليراه عندما يكون مريضاً. فبدأ قلبه يدق أسرع قليلاً، كما لو كان ينزل على درج السلم.

وجد "فيتور" عمه في مكتبه، وكان يبدو عابساً، وقلقاً، وعينيه حمراء. وكان العم "تيموتيو" جالساً بجانب الشباك. وبمجرد ما دخل "فيتور"، وقف واتجه إلى مكتبه. وكان بالجلجلة المملة لرجله الخشبية هيئة غاضبة. وكان "فيتور" شاعراً بالحرص قليلاً بكرافته البيضاء، ومعطفه ذو الذيل، وذلك في حضرة هذا الرجل العجوز المكتئب. فبدأ يتسائل بشكل غير ثابت إلى حد ما، عما إذا كان يريد أي شيء.

فبدأ "تيموتيو" ينظم بعض الأوراق على مكتبه، ثم قال:

"إنني عادة ما لا أهتم برسائل مجهولة الاسم، ولكنني أحب فقط أن أعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا. اقرأها".

وسلم "تيموتيو" "فيتور" مظروفاً. فأدرك "فيتور" على الفور أن ما تتضمنه الرسالة لابد أن يكون بخصوص "جينوفيا"، زواجهما ورحيلهما إلى "باريس". وكان رد فعله الأول المفاجئ والجبان هو أن ينكر كل شيء. ففتح الرسالة، ويديه ترتعش قليلاً، ثم قرأ:

سيدي العزيز،

شخص يكن لشخصيتك أعظم إحترام يحذرك من خطط امرأة وقحة، تهدد بتدمير إسمك وعائلتك إلى الأبد. فابن أخيك "فيتور" على وشك أن يتزوج بالمغامرة، والتي تسمى "جينوفيفا"، والتي ستجعل هذا بشكل صريح. عاهرة وابن أخيك يعيشان معاً. حاول أن تمنع هذه الفضيحة ما دام هناك وقت. صديق.

فقال "فيتور": "إن هذه الرسالة من المغفل "داماسو"!"، "إنه يريد الإنتقام".

فحدق "تيموتيو" النظر إليه بقسوة، وبدأت الخطوط التي بوجهه تزداد عمقاً. وبدأ شاحباً وحزيناً إلى حد ما. وكانت شفاته بيضاء.

فأدرك "فيتور" كيف أن هذا الخبر ضايق عمه. فظل يكرر بارتباك قائلاً: "إنها من "داماسو".

"إنه لا يهمني من أرسلها. إنني أريد فقط أن أعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا"، ورفع يده، وقال بشدة حتى أن "فيتور" لم يسمع بهذا مطلقاً من قبل: "فقط أخبرني بالحقيقة. ولو اكتشفت أنك قد كذبت عليّ....."، ثم توقف، وأشار بقبضته المطبقة بإحكام. "كن رجلاً حسناً، وأخبرني فقط بالحقيقة".

فأصبح وجه "فيتور" مصفراً كالشمع، وظلت عينيه مصوبة على أرضية الحجرة، داركاً أنه لا يمكنه أن يكذب، وشعر بضغط كامل من الإتهام الموجه من قبل العم "تيموتيو"، فقال بصوت منخفض: "إنه صحيح".

"أتريد أن تتزوج هذه المخلوقة؟"

فلم يرد "فيتور"، ووقف إلى جانب المكتب، وظل

يفتح ويغلق كتاباً بصورة أوتوماتيكية.

”رد على أيها الرجل!“

وكانت عينا العم ”تيموتيو“ تنظر إلى ”فيتور“ باحتقار.

”حسناً، الحقيقة يا عمي، إنني وعدتها.“

فصاح العم ”تيموتيو“ قائلاً: ”مغفل!“

وكانت شفتاه ترتعش من الغضب. وكان يخطو صعوداً ونزولاً إلى الحجرة، ويضرب بعكازه بقوة على أرضية الحجرة، ثم توقف قائلاً:

”إذن أنت تريد أن تتزوج بإمرأة عاهرة وقحة، تنام مع رجال مقابل إثنين من ”الليبرا“. إنها تهتم فقط بالمال.“

فقال ”فيتور“ بغضب، ولكنه كان خائفاً أيضاً: ”يا عم ”تيموتيو““.

”ماذا؟، أتتكر أنها وصلت من الخارج مع رجل يُدعى ”غوميز“، وأنها كانت تعيش مع ”داماسو“ طوال فصل الشتاء، وأنها كانت تؤجر نفسها بكثير من المال في الليلة؟، أتحاول أن تخبرني أنها شخصية محتشمة، إمرأة بريئة، عذراء؟“

فقلعهم ”فيتور“ قائلاً:

”إنها ربما قد ارتكبت أخطاءً قليلة.....“.

فصاح العم ”تيموتيو“ قائلاً: ”أخطاءاً!، “هل يكونها عاهرة محترفة يعني أنها ارتكبت أخطاءاً قليلة؟“

فأغلق ”فيتور“ الكتاب بعنف على المائدة، وقال

بصوت يهتز من الألم أكثر من الغضب:

”لو أن السبب الوحيد الذي استدعيتني لأجله هو

أن تهينها.....“.

فانقطع صوته، وأدار ظهره ببطء.

فصاح العم "تيموتيو" بصوت مرعب، وضرب بعكازه بعنف على الأرضية، وقال: "اسمعني". "إنني قد رببتك، وكسوتك، وألبستك حذاء، واعتنيت بك. فقد كنت أبيعك، وأعتقد أن ذلك يعطيني الحق أن أتحدث إليك عندما أراك على وشك أن ترتكب خطأ فظيلاً". فوقف "فيتور"، ورأسه منخفضة إلى الأسفل، وبدأ يقترب إلى المكتب مرة أخرى. وكان في حالة اضطراب داخلي، حتى أنه لم يمكنه أن ينطق بكلمة واحدة ليرد بها. فكان عقله متعباً جداً، ودمه يجري بارداً بعروقه.

فصاح العم "تيموتيو" بصوت عال، طاوياً ذراعيه، قائلاً: "اغلق هذا الباب"، "حسناً، أخبرني بالضبط ماذا تعتقد أن يكون موقفك في حالة إن تزوجت بتلك المخلوقة؟"، وبدون أن ينتظر رداً، واصل حديثه قائلاً: "إنني سأقول لك، أيمكنني ذلك؟، إنك لن تكون أفضل من قواد!، نعم، قواد!، وإلا فكيف يمكنني أن أصف رجلاً يسير في الشارع، ذراعه بذراع امرأة، والتي رجليها وكل منطقة أخرى بجسمها الجميل معروفة لدى العالم كله؟، حتى أن الثياب التي ترتديها أشتريتها لها بواسطة شخص ما آخر!، والعشاء الذي تتناوله ببيتها، مدفوعاً ثمنه بواسطة رجل ما آخر، يترك لها مالاً على المنضدة التي بجانب سريرها في الصباح". فأصبح وجه "فيتور" أحمرًا حتى جذور شعره. وحقن نظره إلى العم "تيموتيو" لوقت قصير، وعينيه متوهجة، وحينئذ قال بصوت مختنق:

"إنني لا أريدك أن تتحدث عنها بمثل هذه الطريقة. ولو لم تكن عمي ورجل عجوز.....، إنه لا يحق

لك إهانتني. إنه يمكنك أن تطردني خارج بيتك. لا، إنك لست في حاجة إلى تكليف نفسك بأي تعب، إنني سأمضي“.

فصاح العم ”تيموتيو“، وذراعيه يهتزا، قائلاً: ”فلتمضي إذن!“، وأضاف قائلاً: ”حقيراً“

فتركه ”فيتور“، وأغلق الباب بعنف. وصعد إلى حجرته. وفي سيطرة من الغضب قرر أن يترك البيت في تلك اللحظة. فسحب شنطة سفر قديمة من تحت السرير، وبدأ يجمع ملابساً بداخلها. وشعر أنه مغلوب بغضب شديد. فكره العم ”تيموتيو“، ورأى أنه ناكِر للجميل، وقاسي، ومستبد. ومازالت أشياء بعينها قد قالها له عمه تحرق في وجدانه. فكان يرتعش من الحقيقة، والتي وجدها في تلك الأشياء التي قالها لها عمه. وكان عقله محصوراً بعاصفة من التناقضات.

فانفتح الباب، وظهر العم ”تيموتيو“، والذي أصبح وجهه أصفرًا للغاية. وكان واقفاً متكأً على عكازه، موجهاً بصره إلى ”فيتور“، والذي كان مندهشاً وخجولاً قليلاً، حاملاً معطفه ذو الذيل بإحدى يديه، وزوجاً من البنطلونات فوق إحدى ذراعيه.

فقال عمه: ”إذن يا ولدي“، ”هل أنت حقاً هيمان بتلك المرأة؟“

ألقيت هذه الكلمات بنبرة هادئة وشبه ودية، مما أثرت في ”فيتور“. حيث شعر أن عينيه مليئة بالدموع، فالتضحية الكبيرة التي كان يقدمها لأجل ”جينوفيا“ كثفت من حبه لها، وبصوت عاطفي وشبه يائس، قال: ”إنني كذلك بالفعل، وأحلف بذلك. فإننا سنذهباً إلى ”باريس“، حيث لن نعرفنا أحد، ولن يتحدث عنا شخص. إنها الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تسعدني“.

فدخل "تيموتيو" إلى الحجرة، وجلس عند أسفل السرير، ولم يقل شيئاً لبعض الوقت.
 "هل أنت متأكد أنها ستضحى أيضاً بكل شيء لأجلك؟"

فقال "فيتور" بحماس: "نعم، متأكد".
 فأبدى "تيموتيو" لامبالاة محتقرة.
 "يا صديقي، لو كان ولا بد أن أذهب إلى "جينوفيفا" غداً، وأعرض عليها أربعة أو خمسة من "الكونتو" حتى تتركك، وتترك "البرتغال"، فيمكنك أن تتأكد أنها ستقبل ذلك".

فصاح "فيتور" قائلاً: "أرجوك من أجل الرب!"
 فنظر "تيموتيو" إليه بشفقة، بطريقة شخص يمكنه أن يستمع إلى هلوسات لرجل مخبول.
 "إنني لا أشك أن هذه المرأة تحبك. فإنك شاب ورفيق لطيف، إلخ. هذا كله حسناً جداً، ولكن بصرف النظر عن وجهك، وعمرك الذي يبلغ الثالثة والعشرين "٢٣"، والذي دائماً ما يعطي إنطباعاً إيجابياً لدى النساء، إنني أعتقد أنها تحب الثمانين "٨٠" من "الكونتو" التي يقول عنها الناس إنني أملكها، وإنني سأتركها لك. صدقني. بالتأكيد أنك ستعطي "جينوفيفا" قدراً كبيراً من المتعة، وأنها ستجذبك نموذجاً للمثالية المطلقة، ولكن يسعدها أيضاً أن تكون عيناك الجميلتان مصحوبتا بتلك الثمانين "٨٠" من "الكونتو". إنه يمكنني أن أصدق تماماً أنك كنت السبب في تركها لـ "داماسو"، والذي نظراً لأنه مغفل، أعطاه بعضاً من المال مباشرة، ولكن حتى ينبغي عليك أن تتزوجها! فهذا بالضبط ما تريده مثل تلك النساء. فإنهن يريدن أن يجدن شاباً يحبهن، ينتمي

إلى عائلة كريمة وغنية بشكل معقول، شخصاً ما يرغب في إعطيهن اسمه. وحيث أن هذا لا يحدث كل يوم، فإنها تفعل كل شيء يمكنها حتى تنصب فخاً. ولكن حتى لو كانت تحبك حقاً، وعلى استعداد إلى أن تقبلك فقيراً، فسيكون هذا نهاية حقيقية لرجل كريم أن تتخلي عن كل شيء، أن تدمر أقاربك وعائلتك، أن تدمر نفسك بزواجك من عاهرة؟، ولماذا؟ لكي تقضي كل حياتك في الحب؟، أوه، "فيتور"، وأصبح صوت العم "تيموتيو" مهيباً بمودة مواصلاً حديثه قائلاً: "فلو تريد أن تسافر إلى "أسبانيا" أو "إيطاليا"، فلتعلم حينئذ إنني سأعطيك المال. وتقضي وقتاً ممتعاً، وتنساها. وقبلما تسافر اشترى لها هدية أنيقة. إنني سأعطيك المال لتفعل ذلك على الأكثر، وتتصرف كرجل نبيل، وسترى كيف ستصبح "جينوفيفا" متعزية بكل سهولة. تذكر شيئاً واحداً فقط، لو تزوجت، فإنك ستلوث سمعتك وسمعتي. ولأنه لا يمكنني أن أعيش بمثل ذلك العار، فلن أخرج عقلي عن طوره، لا، لكنني سأغلق على نفسي باب مكتبي، ولن أرى أبداً نفساً حية أخرى حتى الموت. وغير هذا، فإنني أتمنى فقط أن الرب أو الموت أو الشيطان أو أيّاً كان ألا يتركني أتغن طويلاً جداً في هذا العالم الحقيق. لكن هذا يكفيك من وعظ. فكر في هذا. إنه يمكن أن يكون لديك المال لو أردت ذلك. لا تدعنا ننتهي فوقه. دعنا نتعانقاً، ولتذهب المرأة إلى الجحيم. ماذا قلت؟"

فبدأ "فيتور" يعض على شفتيه حتى لا يبكي.

فأصر العم "تيموتيو" قائلاً: "حسناً؟"

فتنهت "فيتور" قائلاً:

"إنني لا أعلم تماماً يا عمي. فإنني أرى..... لكن

فجأة أن.....“.

فوقف ”تيموتيو“ على قدميه، وقال بحزن:
 ”إن أفضل القرارات هي التي يتخذها الشخص
 سريعاً يا صديقي. فلو رأيته الآن، فسيكون هناك
 دموع ومناظر مؤثرة، وسيصبح كل شيء مشوشاً
 مرة أخرى. أقول لك ماذا تفعل. دعني أحدث إليها“.
 فأسرع ”فيتور“ بوضع يده فوق رأسه، وبدأ يعبر
 بها فوق شعره، ثم نظر إلى عمه قائلاً:
 ”أرجو ألا تكون عنيفاً معها“.

”إنني سأخبرها بالحقيقة فقط وهي: أنك لو تنوي
 الزواج بها، فسأخذ مالي وأذهب وأعيش في ”إنجلترا“،
 وأترك أي شيء يتبقى إلى الفقراء. وسترى كيف أن
 هذا سيهدأ من حماسها“.

فبكى ”فيتور“ قائلاً: ”ولو لم يهملها الأمر، لو أثبتت
 أنها ليست مهتمة بمالك؟“، ”ولو لم تريد حتى أن
 تتزوجني، لو تريد فقط أن تعيش معي؟“
 ففكر ”تيموتيو“.

”لو تريد فقط أن تعيش معك على أنها عشيقتك،
 فذاك حسناً، وسأعطيك المال لتدفعه لها، ونتدمرا
 سوياً“.

وبينما كان ”تيموتيو“ يغادر الحجرة، التفت وقال:
 ”لا تكن مغفلاً، فرغ هذه الشنطة“.

”إن عمي سيأتي غداً ليتحدث معي“. هذه كانت
 الكلمات الأولى التي قالها ”فيتور“ عندما وصل إلى
 ”جينوفيفا“ هذه الليلة. وأخبرها عن جداله مع العم
 ”تيموتيو“. وكان حذراً قليلاً فيما يقوله حتى لا
 يغضبها.

قالت: ”حبيبي!“، ”ألا يشبه هذا مشهداً من مسرحية

”سيدة الكاملية“؟، إنني سأعد نفسي لألعب دور البريئة غداً. وهذا سيظهر له. أوه، ربما تضحك، ولكن.....“.

فاجتازت ”جينوفيفا“ إلى ”فيتور“، ووضعت يديها على كتفيه. وبرؤيتها أنه مازال مكتئباً ومشغول البال، قالت:

”لكن بالتأكيد، لو لا تريد أن تقطع صلتك بعمك بسببي.....“.

ثم ابتعدت، وانحنت إحتراماً. وكانت يدا ”فيتور“ ترتعشا.

لماذا أنتي قاسية جداً؟، إنكِ تعلمين تماماً أن.....“.

فهزت ”جينوفيفا“ رأسها بحزن.

”إنني أعرف ما تشعر به. ولا أنكره. فإنه يمكنني أن أراه بعينيك. إنك حر التصرف كما يحلو لك. فإنني لا أريدك أن تتقلب علىّ عندما يقطع عمك صلاته بك فيما بعد. فكر في هذا. فإنني لا أريدك أن تعود إلى بسبب قرار يعتمد على خطط سامية، ومجرد أو هام.

فإنني أريدك أن تأتي إلي من تلقاء نفسك، وأن تفكر في كل هذه العواقب، أيا كان ما سيحدث، حتى لا يمكنك أن تتهمني إنني أجبرتك على فعل أي شيء أو أن تقول إنني كنت السبب في إنهيارك“.

فوضع ”فيتور“ يده فوق فمها.

”جينوفيفا“، أنتي مجنونة. أيا كان ما تريدين فعله، فإنني ملك لك إلى الأبد، إلى الأبد“.

فانفتح الباب، وأعلنت ”ميلاني“ أن العشاء جاهز على المائدة.

”ألا تهتم بعمك أو تهديداته أو لعناته؟“

فقال ”فيتور“ بحرارة: ”لا!“

”وستكون زوجي الصغير الحبيب، زوج روحي؟“

وكانت عيناها الداكنتان الجميلتان تلمعا بعاطفة خالصة.

فتمتم "فيتور"، وهو يقبل رقبتها، قائلاً: "نعم، سأكون كذلك".

"إذن، فلتترك عمك معي فقط، ودعنا نذهب، ونجلس لتناول العشاء".

دائماً ما كانت تبدو "جينوفيفا" جذابة إلى "فيتور" خاصة في هذه الساعة من اليوم. وكان "فيتور" و"جينوفيفا" يتناولان العشاء على مائدة صغيرة مضاءة بضوء أنيق رقيق لمصباح زيتي. ودائماً ما يكون العشاء فاخراً. وكانت "جينوفيفا" مرتدية ملابسها بعناية فائقة. وكان الضوء يلمع بعذوبة على وجهها، ورقبتها، وتقويرة فستانها، وأضفى تورداً رقيقاً على بشرتها، وفي ذلك الوقت بدت "جينوفيفا" أجمل: فهناك زخرفة من الدانتيل على أكمامها، والتي يبلغ طولها ثلاثة أرباع من طول ذراعيها، وأساور براقّة متعددة كانت ترتديها، وزهرة جميلة مدبسة بفستانها. وكانت "ميلاني" تضحك بينما كانت تخدمها على المائدة، وكانت تبدو ناضرة بقبعتها ومريلتها البيضاء.

تحدثت "جينوفيفا" كثيراً، وكان كلاهما يضحكا ويضعا خططا. وأحياناً ما كان يضغط كل منهما على يد الآخر بحرارة أثناء توقفهما عن تناول تلك الوجبة الوفيرة. وهذا الجو المحب الدافئ المريح الأنيق ملأ "فيتور" بفرحة جميلة، والتي أضاف عليها خمر البورجوندي إحساساً بالفاهية الفاترة.

وكان دائماً بعدما ينتهيان من تناولهما لوجبة العشاء مع خمر الليكور، يخرجان إلى الصالون، حيث تحضر "ميلاني" قهوتها إليهما. ويشعل "فيتور"

سيجارة، ويستلقي على الأريكة يستمع إلى "جينوفيفا"، وهي تعزف على البيانو أو تغنى أغنية لـ "جونود" أو "شوبيرت" بصوتها الدافئ النافذ.

وهذه الليلة كان ينبغي عليهما أن يذهبان إلى السيرك. وكانت العربدة في انتظارهما بالأسفل. فذهبت "جينوفيفا"، وجلست على ركبة "فيتور"، ووضعت ذراعيها حول عنقه، وقالت بصوت منخفض:

"إن الحياة معك شيء رائع جداً، جميل جداً!" وبتهدئة رقيقة جعلت صدرها يرتفع وينخفض، وبشفتيها على وجهه، تمتمت قائلة:

"لو فقدتك، فسأمت!"

فقال "فيتور" بهدوء شديد: "وأنا كذلك".

وبدأ قلبه يدق بشكل سريع.

فقالت، وهي تقف على قدميها، وساحبة "فيتور" من ذراعيه: "إذن فتعال"، "تعال يا حبيبي، قف وارتي معطفك. هل أبدو جميلة هذه الليلة؟"

فوقفت "جينوفيفا" أمامه بفستانها الأسود الأحمر الرائع. وبدأت تستعرض أمامه، بأسطة ذراعيها قليلاً، وتوجه نحوه برأسها في حالة مثيرة ذليلة بشهوانية.

فقال محاولاً أن يضع ذراعيه حولها: "إنك تبدين شهية".

فابتعدت "جينوفيفا"، وهي تبتسم، وصاحت قائلة: "لا، لا، لا!"، وأسرعت إلى حجرة النوم لترتدي قبعتها، ولتلقى نظرة سريعة على نفسها بالمرآة، وتضع على وجهها قليلاً من مساحيق التجميل.

وشرب "فيتور" كأساً من الكونياك، مفكراً أنه لا يمكن أبداً للـ "تيموتيو" أن يجعله يترك هذه المرأة. كان هناك فقط قليل من الجمهور بالسيرك. فعندما

دخل "فيتور" و"جينوفيفا" إلى مبرعهما، كانت الأجنبية خالية تقريباً، باستثناء بعض الأشخاص هنا وهناك. حيث كان هناك رجل يرتدي قبعة نازلة إلى عينيه يدخل سيجارة بحزن، وأثنان من السيدات الأسبانية يرتدين ثياباً خضراء يهوين لأنفسهن بمروحتهن بشدة، وبعض من البحارة الإنجليز السكرانين قليلاً يتشاجرون في اللوج العلوي. وبصوت حزام من النحاس كان هناك حصان أبيض يمشي قفزاً بصورة مملة حول الحلبة، حاملاً امرأة نحيفة ذات عضلات انقباضية هزيلة، وكانت تلك المرأة تقوم بخدع تلاعبية.

وبعد مدة قصيرة تئاءبت "جينوفيفا"، وأظهرت أنها مملولة. ولكن لمعت عيناها على الفور عندما رأت السيدة "جوردون" عشيقة "البارون" في مربع آخر، ومعها امرأة عجوز ترتدي ثوباً أسوداً بالكامل كأرملة.

كان "فيتور" و"جينوفيفا" يلوحان بابتهاج. وأشارت "جينوفيفا" إلى "جوردون" أن تنضم إليهما مبرعهما. فلم تتأخر السيدة الألمانية. وأظهرت أيضاً أنها مملولة جداً، فإن هذا ممل جداً، وليس هناك أحد تعرفه، والسيرك مرعب. وفي هذه اللحظة كان هناك بهلوانة راكبة على حصان داكن تظهر خدعاً رشيقة، فإنها نحيفة جداً، وشعرها مربوطاً بعقدة قبيحة، وهو ذا صفائر معقودة بأوراق من نبات اللبلاب المطلية بالذهب والفضة، وسنابل من القمح متدلّية على ظهرها. وكان ثوبها ذو الشق المنخفض يظهر عظمتي الترقوة. وكانت تقوم بخدع قديمة بينما تقف على الصهوة العريضة للحصان، بارزة عضلاتها

الجمبازية. وبين الحين والآخر كانت تتوقف الموسيقى، وتجلس البهلوانة بطريقة مصطنعة، وتلف ذيل ثوبها، وتنظر فيما حولها إلى الجمهور، مبتسمة وكاشفة عن أسنانها القبيحة. ويبدأ شاب أن يضرب الأرض بقدميه بعنف، في حين أن الآخرين يهتفون. وهي تنحني إحتراماً، والبحارة الإنجليز يهللون. ثم أتى البهلوان إلى تلك البهلوانة، وقبلها. وبدأ يلوي جسمه رياضياً بشكل كاريكاتيري غريب من الحب. وضرب مسئول الحلبة بكرباجه بقوة، فسقط البهلوان منبطحاً على وجهه، فضحك الجمهور. ثم بدأ تشغيل الموسيقى مرة أخرى، وتسلمت البهلوانة على صهوة الحصان مرة أخرى، ووقفت على رجل واحدة. وكان المكان مضاءاً بمصابيح من الغاز الخام، كما لو كان خماراً. وكان الموسيقيون بالفرقة يعزفون موسيقى مصاحبة بشكل يبعث على النعاس. فكان الناس يحدقون نظرهم إلى أسفل البرنامج، ويتشاءبون. وكانت حوافر الحصان ترفس كتلاً من تراب الأرض الجافة على المقاعد التي بالجنّاح.

فقالت "جينوفيفا" "أنه أمر لا يُحتمل على الإطلاق". فإنه سيكون أفضل لهما لو أمكنهما أن يلعبا لعبة الدومينو أو اللوتو خارج البيت.

ولم تستطع السيدة الألمانية أن تذهب معهما، فقد وعدها "البارون" أنه سيصطحبها في السيرك.

فتنهدت "جينوفيفا" قائلة: "أوه، يالها من ليالي طويلة بـ"لشبونة"! "

وكان هناك رجل طويل ذا مظهر غريب، يرتدي قناعاً، ويقوم بخدع شيطانية، مما أثار غضب "جينوفيفا"، ووقفت ثم قالت إلى "فيتور":

”تعال يا ولدي، هذا المكان أثر على أعصابي. يا له من ملل فظيع!“

ثم ترك ”فيتور“ و”جينوفيفا“ ”السيدة الألمانية“، والتي قد قضت طوال الليل بمنظار الأوبرا الخاص بها، منجذبة إلى إحدى السيدات الأسبانية، وهي شابة جميلة ترتدي ثوباً أخضراً، وذو عينيْن كسولتين ناعستين.

وبينما كان ”فيتور“ و”جينوفيفا“ يغادران السيرك، إذ بهما يتصادفان بـ”داماسو“، والذي وصل للتو إلى السيرك. فأنحت ”جينوفيفا“ برأسها قليلاً. وأصبح وجه ”داماسو“ قرمزيًا، ونظر بعيداً باحتقار مصطنع. حتى أنهما سمعاه يمزح مع سيدة إنجليزية سميئة، والذي كان مصطحباً بها.

إنها كانت ليلة رائعة، حيث كان الجو دافئاً ورائقاً بعذوبة كجو الصيف. وكان القمر الكامل يلمع كالفضة. وكانت الشوارع مليئة بالكآبة، والتي تتحدر من التناقض بين الظلمة ونور القمر.

فأرادت ”جينوفيفا“ أن تتنزه، ولذلك بدأ يتمشيان ببطء على طول الرصيف. ومازال هناك ضوء خافت من المحلات التجارية. وكان هناك أشخاص يسيرون صعوداً ونزولاً. وكان هناك سيدة ترتدي حجاباً تقترب إليهما، طالبة صدقة بوجه متجهماً. وكانت المباني العالية المغتسلة بنور القمر ذات مظهر مهجور حولها.

ونزلا ”فيتور“ و”جينوفيفا“ إلى ”لارغولوريتو“ ليذهبا إلى البيت. فتوقفت ”جينوفيفا“، حيث كانت التاجة بأعماق شارع ”روزماري“، تبرق تحت القمر المهتز الضخم.

”دعنا نمشي على طول الطريق بجانب النهر؟“
 فنزلا إلى رصيف ”سودري“. وكان هناك إثنان
 من المراكبية يدخنا، جالسين على كومة ضخمة من
 الأحجار، وبدأ يعرضاً على ”فيتور“ و”جينوفيفا“
 نزهة بالقارب بثمان رخيص جداً.
 فقال أحدهما: ”إنها عملية رابحة إلى أقصى حد
 يا سيد“.

فقال الرجل الأكبر سناً بشكل معتر بنفسه: ”اسمي
 ”مانوتو“، ”أنتحدث بالإنجليزية؟“
 فقال ”فيتور“: ”إن الجو بارد جداً“.
 فاحتج ”مانوتو“ قائلاً:
 ”إن الجو هذه الليلة دافئ كقبلة!“

وبعد ذلك بوقت قصير، كان ”فيتور“ و”جينوفيفا“
 جالسين سوياً بالقارب. وبدأ يتحرك القارب بعيداً عبر
 المياه الساكنة.

فقال ”فيتور“: ”يا لها من ليلة جميلة!“
 بدت المدينة وكأنها تنموج أمامهما، وواجهات
 المباني مغتسلة بنور القمر، والشبابيك تلمع كألواح
 من الفضة. وبدت المصابيح الغازية يخفت ضوئها
 في ظل غزارة الضوء الفضي. وكانت البيوت هادئة
 وبيضاء، كما لو كانت مغمورة في تأمل مبتهج
 ساكن. وكان القمر الكامل يضيء بشكل ساكن رائع.
 وكان هناك مسار رائع للطريق يرتعش على المياه
 كطلاء أو زركشة مخرمة مائعة. وأحياناً ما يكون
 لون باقي المياه أزرقاً باهتاً. وأحياناً ما تكون المياه
 بعيدة وناعمة وصافية كمرآة. وكان هناك ضباب
 مضيء يغطي الشاطئ على الجانب الأبعد. وبدت
 أشكال السفن وأنوارها ضبابية ومعتمة قليلاً. وفي

ظل الهدوء الأبكم البارد للسماء، كان القارب مصاحباً بصوت المجدفين الضارب بمسنديه، وتناثر لقطرات رقيقة من المياه الدافئة.

وكان كلاهما جالسين بالقرب جداً من بعضهما البعض. وبدأت "جينوفيفا" تغني بحيرة "لامارتين":
ذات مساء، أتتذكر؟ إننا

"ننجرف إلى الأمام في هدوء....."

غالباً ما كان "فيتور" يسير عبر النهر الأزرق. وغالباً ما كان يرى القمر والمياه الساكنة الصافية، ولكن لم تبد التاجة والليلة المقمرة أبداً جميلة جداً بالنسبة إليه، كما لو أن حبه ضاعف من أثر الطبيعة نفسها. فوضع ذراعه حول وسط "جينوفيفا". واحتكاك الحرير بالحرير ملأ "فيتور" بمشاعر عاطفية بشكل أنيق. والقمر الذي أضفى على وجه "جينوفيفا" مظهراً من الجمال الشعري اللذيذ، ويديها التي تسوي طيات فستانها والتي كانت تلمع بخواتم ذهبية، وصوتها الموسيقي الهادئ المنخفض، كل هذا ملأ "فيتور" بنوع من النعاس السعيد. وكانت "جينوفيفا" تسند رأسها برفق على كتف "فيتور". وتمنى "فيتور" أن يمكنهما الإستمرار على مثل هذا الوضع إلى الأبد. وكان مأسوراً بتلك العذوبة الرائعة لهذا الكسل الشعري. ولم تقل "جينوفيفا" شيئاً، ومازالت جالسة بالقرب جداً منه. وكان كلاهما مستغرقين في أفكار غامضة.

فتساءلت "جينوفيفا" فجأة: "ما الموعد الذي سيأتي فيه عمك غداً؟"

فقال "فيتور"، كما لو كان يستيقظ من حلم لذيذ: "أمم؟". ثم قال بلامبالاة: "إنه يمكنه أن يأتي متى

يحب ويقول ما يحب. فمجرد أنه يضيع وقته بلا فائدة، أليس كذلك؟“

فجلست ”جينوفيفا“ في صمت لوقت قصير، ثم قالت بصوت عالٍ إلى حد ما:

”ليس هناك شيء في العالم يمكن أن يفصلني عنك. لا شيء!، طالما أنك تحبني، فأنا حبيبتك وزوجتك وعبدتك وكل ما تريده.... في أي مكان وإلى الأبد.“

”ماذا يمكنه أن يفعل في نهاية المطاف؟، إنه يمكنه أن يفصلني، ويقطع صلته بي، لكن ما المشكلة؟، إنني سأشتغل إذا لزم الأمر، طالما ستعزيني وتعانقيني وتشجعيني.“

والتصق كلاهما ببعضهما البعض بشكل عاطفي.

وقالت ”جينوفيفا“ بهدوء: ”إنني دائماً ما سأكون ملكك يا حبيبي.“

إن حقيقة حبه جعلت ”جينوفيفا“ سعيدة للغاية، ولكنها أضافت مبتسمة قائلة:

”إن أسوأ شيء يمكن أن يفعله عمك هو أن يلعننا كذلك الرفيق اللود الذي بالسيرك!“

فقال ”فيتور“ بشبه جدية: ”إن الرب سيباركنا.“

ولكن أصبح الجو أكثر بروداً في هذه الليلة، وبدأا يجدفا إلى الخلف نحو الشاطئ. وكانت الساعة تدق الحادية عشر ”١١“، بينما كان يمشيان بشارع ”الزهور“. واتكأت ”جينوفيفا“ بشدة على ذراع ”فيتور“، حيث كانت متعبة إلى حد ما، ثم توقفت، وبدأت تتنفس بصعوبة، وأخذت تنظر عالياً إلى الشبائيك المضاءة بلمعان التي بالدور الثالث.

”إننا سنعيش عالياً إلى أبعد حد. إنها ستكون مجازفة إلى حد بعيد لعمك ”تيموتيو“ ذو الرجل الخشبية.“

كانت "جينوفيفا" قلقة جداً بشأن زيارة العم "تيموتيو". فماذا يريد العم "تيموتيو"؟ بلا شك أنه يريد أن يمنع زواجهما، لكن كيف؟، بتهديدات، بتوسلات، بوعود؟

فسألت "جينوفيفا" "ميلاني"، والتي لم تخفِ عنها أية أسرار، قائلة: "ماذا تعتقدين؟"، وأضافت قائلة: "تحسباً، تأكدي أن الصالون مرتب، وضعي زهوراً جديدة بالزهريات، وارتي فستانك الحريري الأسود، ومريلة نظيفة".

وفي الصباح بينما كان "فيتور" يستحم، ويرتدي ملابسه، كانت "جينوفيفا" تضع أمامها أوراق اللعب، ولكن لم يمكنها أن تعرف المستقبل بشيء يتجاوز الملك الخاص والمال ورسالة عبر البحر. ثم ذهبت لتتأكد من أن الصالون يبدو جليلاً بشكل مناسب وبرجوازيًا. وأكملت الديكور ببعض "اللمسات المتواضعة" التي وضعتها. وشغلت موسيقى لـ "روسيني ستابات ماطر" على البيانو. ووضعت غطاءً مكسواً بالفرو على كرسي، وبجانبه كتاب صلاة، كما لو كانت قد ذهبت إلى الكنيسة هذا الصباح. وتركت على المائدة إيصالاً لتبرع أسبوعي لإنشاء مدارس للأطفال الفقراء.

فسألت "جينوفيفا" "ميلاني" قائلة: "أديك منفضة جديدة في مكان ما يحتاج إلى التمييز، أحضرها إليّ، ممكن؟"

فوضعت "جينوفيفا" المنفضة على قمة سلة الخياطة الخاصة بها في المكان الذي تطرز فيه، حتى تظهر أنها تشغل نفسها بأعمال مفيدة، وليست مجرد تسالي أنيقة. فبمهارة فنان نظمت الستائر بثنيات قوية. وابتدت راضية عن كل ما حولها، فقالت:

”إن الصالون يبدو وكأنه معبد للفضيلة!“
وبعد ذلك بوقت قصير، دخلت ”جينوفيفا“ إلى
”فيتور“، والذي كان ينتظرها بحجرة الطعام، يقرأ
الجريدة. وكانت مرتدية فستاناً من الكشمير الأسود
ذو زركشات حريرية داكنة اللون. وكان هناك ربطة
عنق من الدانتيل الفضي وبرعم وردي بفستانها. وكان
شعرها ممشطاً تماماً، ومزينا بشريط من الدانتيل
الإنجليزي. وكان هناك حول سلوكها وتأثيرها تحفظاً
طبيعياً، ومظهر من لياقة منزلية، وهدوء أمومي.
”حسناً، هل أشبه امرأة صغيرة محتشمة؟“
فقال ”فيتور“ مفتوناً بها: ”إنك دائماً ما تشبهين
ذلك“.

وعلى الرغم من أن كليهما كان قلقين، إلا أنهما
قفزا عندما رن جرس الباب، وتبادلا نظرات مرتبكة.
وكان الطارق مجرد امرأة تباع فاكهة.
فقال ”فيتور“: ”ربما لن يأتي العم ”تيموتيو“ اليوم.“
فبدأ كوب الشاي يهتز قليلاً بيدي ”جينوفيفا“.
وحاولت أن تضحك، ساخرة من توترها.
”إنه ليس ببعبعاً، فإنه لن يأكلني.“
وعندما دخلا سوياً إلى الصالون، لاحظ ”فيتور“
كيف أن ”جينوفيفا“ قد رتبت كل شيء بذكاء لتخلق
جواً من الهدوء والنظام.

فقال ”فيتور“: ”إنه يوم من الكفاح.“
ففكرت ”جينوفيفا“ في شيء ما فجأة، واجتازت
إلى البيانو لتتظر في كتاب الأغاني الألمانية
لـ”شوبيرت“ الخاص بها. وبدأت تعزف التناغمات
الإفتتاحية لـ”البلم الشافي، البلم الشافي، آخر
صباح في حياتي!“، وبرؤيتها لدهشة ”فيتور“ بطريقة

شبه خرافية، حيث كانت تغني بكلمات كئيبة، قالت:
 "إن هذه الأغنية لتجلب لنا حظاً سعيداً".

وبدأت تخبره عن صديق لها، شاب فرنسي،
 والذي قد وصف لها كيف أنه خلال فصل الشتاء
 المرعب، عندما كان البروسيون يحاصروا "باريس"،
 اعتاد الجنود الذين بحصن "مونتي فاليسيانو" على
 أن يجتمعوا بإحدى الملاجئ، والتي كان بها بيانو.
 وكيف قبلما تطلع الشمس، وقبلما تطلق الطلقات
 النارية الأولى من اليوم، كان الجنود يغنون أغنية
 "شوبيرت" هذه كنوع من الوقاية من الموت، لأنه
 كان يمكن لأحدهم جيداً أن يكون هذا الصباح الأخير
 له. وفي الحقيقة لم يُجرح أو يُقتل رجل واحد. فمنذ
 ذلك الوقت تمسكت "جينوفيفا" بذلك المعتقد الخرافي.
 فعندما كانت تواجه حدثاً ما حاسماً من إحدى مشاكل
 الحياة، فإنها تغني هذه الأغنية الوقائية. وواصلت
 الغناء قائلة:

"البلم الشافي، البلم الشافي، آخر صباح في
 حياتي!"

فاجتاز "فيتور"، وبدأ ينظر من الشباك. فكان
 يوماً مشمساً، وساخنًا جداً في ذلك الوقت. وكانت
 سماء الربيع زرقاء جنوبية صافية. وكانت عربة
 المياه تتحرك ببطء على طول شارع "روزماري"
 حتى تخفف من حرارة التراب الذي بالشارع.
 وكانت البيوت الشاهقة الإرتفاع بشارع "الزهور"
 تظل الطريق بحذر. وبدأ أن جزءاً من المدينة على
 نحو ما هادئاً ومنعزلاً. ومال "فيتور" أكثر لينظر
 إلى الشارع، واستطاع أن يسمع الملاحظات الكئيبة
 للأغنية تحلق في الجو الساخن، فشعر بإرهاق غامض

من الأحاسيس.

وعند منتصف النهار التقط "فيتور" قبعته، وقال إلى "جينوفيفا":

"إنني سأمشي عبر "شبادو"، وأرى ما إذا كانت عربة عمي تمر. وسأنتظر حتى يغادر البيت، ثم أتي لأرى ما حدث".

وكان "فيتور" على وشك الذهاب، ولكن دافعاً ما غريب يقرب إلى الكآبة جعله يستدير إليها ويعانقها. وقبلًا بعضهما البعض بحنان، ثم غادر، شاعراً بأنه متأثر عاطفياً بشدة، مقسماً أنه مهما حدث، فإنه سيكون لها إلى الأبد.

ودقت الساعة الواحدة عندما توقفت الأحصنة القديمة للعم "تيموتيو" عند مدخل المبنى. وكانت "جينوفيفا" واقفة في الممر، وقلبها يدق سريعاً، حيث سمعت صوت رجله الخشبية تصعد على درج السلم مجلبة ببطء. فهمست قائلة: "افتحي الباب يا "ميلاني"، ثم أسرعت إلى داخل حجرة نومها.

وعندما دخل العم "تيموتيو" إلى الصالون، ألقى نظرة سريعة على المفروشات، والزخرفات، وسلّة الخياطة. وبدا مذهولاً باكتشافه أن "جينوفيفا" تبدو محترمة وجليلة جداً.

فبدأت "جينوفيفا" تقول: "أعتقد أنك عم "فيتور"، ثم انحنت احتراماً. وبصورة غريزية رددت الكلمات التي قيلت بواسطة "مارجريت" عندما استقبلت والد "أرماند" في مسرحية "سيدة الكاملية".

وجلست برشاقة على الأريكة، وتمتعت قائلة:

"إنني أدين بما أفعل.....".

فقال العم "تيموتيو" بإحترام شديد: "أولاً، لا بد أن

أعتذر عن لحظة المزاج المعكر من جهتي. فمِنذ فترة قصيرة، عندما كان لدي في البداية..... شرف.....“
قتلعتهم ”تيموتيو“ في نطق الكلمات الصحيحة، حيث أثارته عين ”جينوفيفا“ اليقظة، وابتسامتها الخيرة، ومظهرها البنوي المتواضع. فكان ينظر إليها بإمعان وبإحساس غامض حتى عرف أنه قد واجه ورأى هذه العيون من قبل، فأشارت ”جينوفيفا“ راجية قائلة:
”أوه، لا من فضلك. إنه كان خطأي بالكامل. إنني أعشق الأطفال. وصدقني، إنني أخجل من العار، ونادمة على التفكير في إنني تسببت في سقوط الملاك الصغير..... ولكن أيا منا السيئة، ”شياطيننا الزرقاء“ اضطررنا إلى ذلك. إنني كنت مضطربة إلى حد ما في ذلك الوقت و.....“.

فعضت ”جينوفيفا“ على شفتها، وأخفضت رموشها السوداء الكثيفة كما لو كانت مكسوفة من سلوكها الشخصي. ولكنها سرعان ما رفعت بصرها إلى أعلى مرة أخرى، وبدأت تصوب عينيها ثانية علي العم ”تيموتيو“ بشكل شبه لافِت للنظر. وشعرت أيضا أن وجهه وصوته معروفان لديها إلى حد ما. متى قد رآته قبلاً، وأين؟

فالتقيا عيونهما، وحقق كل منهما النظر إلى الآخر بياس لوقت قصير، يسألون أنفسهما نفس السؤال. ثم إما ليكسر حاجز الصمت أو لأنه لم يستطع أن يجد في ذاكرته ما يبحث عنه، قال العم ”تيموتيو“:

”إن الجميع الذين يعرفوني، يعرفون إنني رجل يقول بالضبط ما يراه..... إنني أحب أن أكون صريحاً“.

فهزت ”جينوفيفا“ رأسها قليلاً.

”إنني أرى أن الميزة الرئيسية في الرجل هي الصراحة إلى جانب الشجاعة بالطبع“.

فأحب ”تيموتيو“ قولها ذلك. فإن جمال ”جينوفيفا“، وصوتها الناعم، وبساطتها، وأسلوبها المجامل بدأ أن يزيل غضبه. وعلى الرغم من ذلك مازال شاكاً، وقرر ألا يدعها ”تتملقه“، فقال بخشونة إلى حد ما:

”ومن منطلق الصراحة سأجئ مباشرة إلى الهدف. وإنني متأكد أنك تعرفين ما هو“.

فأصبح وجهها ذا مظهر جميل من شك وحيرة باسمة.

”إنني أعتقد أنك تريد أن تتحدث معي عن ”فيتور““.

”بالضبط“.

وكان هناك صمت قصير، والذي قطعه ”جينوفيفا“، متحدثة بكرامة جليلة، وازنة كل كلمة، قائلة:

”قد كان ”فيتور“ يتحدث في كثير من الأحيان بمحبة وحماسة إلى درجة عالية عن عمه ”تيموتيو“ كما يسميك، حتى إنني بالطبع على استعداد أن أعطيك اهتماماً كاملاً“. ثم أضافت بعد صمت لافت للنظر قائلة: ”إنني أعلم أن ”فيتور“ يدين لك بكل شيء، وأنه يحبك بشدة“.

فقال العم ”تيموتيو“: ”فعلاً“، ”فعلاً“، فإنه من الصحيح فقط أنه ينبغي أن يشعر ”فيتور“ بصداقة معي“.

فقالت ”جينوفيفا“ بقوة، وهي تقترب تدريجياً إلى العم ”تيموتيو“: ”إنه يعشقك!“

ففكر: ”آها، صفارة انذار!“، وبعدما دعك ركبته، مستغرقاً في أفكاره، قال:

”إنكِ لن تتدهشين، عندما أقول لكِ أنه كان ينبغي أن أتي هنا حتى أحمي مصالحة.“
فبدت ”جينوفيفا“ مندهشة جداً لسماعها العم ”تيموتيو“ يتحدث عن ”مصالح“.

فتحرك العم ”تيموتيو“ بحزم في كرسيه قائلاً: ”لأنه في نهاية المطاف“، ”ماذا سيستفيد من هذه العلاقة؟“
فبدأت ”جينوفيفا“ تلف إشاربها الذي من الدانتيل حول أصابعها، وأخفضت عينيها، ثم ردت قائلة:
”ماذا سيستفيد من علاقة بشخص يحبه؟“، وابتسمت بإعجاب، ثم قالت: ”أعتقد، السعادة“.

فنظر ”تيموتيو“ إليها مباشرة، وقال بصوت أعلى قليلاً:

”سيدتي العزيزة، إنني لست أحد أولئك الأعمام كبار السن الذين تجديهم في مسرحيات كوميدية برجوازية، والذين يُصدّموا ويفزعوا من شاب ينبغي أن يكون لديه عشيقة. فكل الرجال الذين يبلغون ما بين العشرين والثلاثين من العمر لديهم عشيقة. إنه أمر ضروري كالاستحمام. وسأذهب إلى أبعد من ذلك، إنها فرحة حقيقية عندما تكون العشيقة جميلة وذكية وموهوبة وأنيقة“، ثم ألقى نظرة سريعة فيما حوله وقال: ”ولديها شقة رائعة، علاوة على أنها محادثة جيدة“، ثم انحنى، موجهاً بصره لما ترتديه قائلاً: ”ولديها ملابس فاخرة. وقطعاً سأكون أول من يهناً ”فيتور“ لو لم تكن هذه العلاقة سبباً لمصاعب خطيرة“.

فقالت ”جينوفيفا“:

”لكنك على خطأ. إنني لا أطلب شيئاً منه. ولا أصرفه عن واجباته. فإنني لست أنانية إلى هذا الحد.

فكل ما أريده منه أن يأتي ويراني و.....“
فقاطعها العم ”تيموتيو“ قائلاً: ”ويتزوجك“.
فاحمر وجه ”جينوفيفا“ خجلاً واجتاحتها موجة
من الغضب. ولكنها سيطرت على نفسها، وردت
قائلة:

”إننا ندرك أن الزواج أمر طاهر ومسيحي، حتى
يجعل علاقتنا شرعية“.

فنظر ”تيموتيو“ إليها مندهشاً، ولم يعرف ما إذا
يضحك على ذلك التظاهر الكامل، أم أن يصطدم
بذلك النفاق. فمنع الشتيمة التي قد وصلت إلى شفثيه،
معتقداً أنه بهذا سيجرح مشاعرهما أو يضايقهما. فقال
بهدوء وسلاسة، وأحد حاجبيه مرفوعاً:

”إنك تعلمين بالطبع أنك لو تزوجتي بذلك الولد،
فلن أترك له ولو قرش واحد“.
فانحنيت ”جينوفيفا“ برأسها.

”إن ذلك سيكون أمراً سيئاً بالنسبة لـ“فيتور“، لأنه
سيكون دليلاً على أنك قد حولت حبك عنه، ولكن لن
يكون لهذا تأثير على قراره. فإنه شاب وذكي، ويمكنه
أن يشتغل، ولدي بعض المال من.....“.

فصاح العم ”تيموتيو“ بغضب، هازاً كتفيه هزة
محتقرة، قائلاً: ”من رجال آخرين“.

فأصبح وجه ”جينوفيفا“ أصفراً، وشفثيتها ترتعشاً.
ووضعت إشاربها برفق على عينيها. وقالت، ومازال
رأسها منحنياً:

”إن اشمئزازك من حياتي الماضية لا يمكن أن
يكون أكبر من اشمئزازي. إن السبب الذي أسعى إليه
بهذه العاطفة النبيلة الطاهرة هو أن أنسى الماضي
وأطهره. علاوة على أنه يبدو لي ليس كرمًا من

جانبك أن تتعب وتذلني“.

ففكر ”تيموتيو“: ”حقاً أنها غير عادية!“

فانحنى، وتمتم بإعتذار، ثم أضاف قائلاً:

”أرى إنني أتحدث إلى شخص ذو ذكاء عظيم....

ولكن دعيني أصل إلى نقطة. أتسمين هذا ”حبا“،

مجبرة شاباً على الدخول في علاقة زواج مريض

كهذا؟، ما طبيعة المستقبل الذي سيكون لذلك الشاب

المسكين؟، فإنه سيخجل إلى الأبد من زوجته، والتي

لا تستحق مطلقاً الكرامة التي يريدها لها. فإنه سيقابل

رجالاً آخرين يعرفون عن ماضيكي بقدر ما يعرف

هو. دعيني أتحدث بصراحة. فإنني رجل عجوز،

وأنتي وأنا نعرف سوياً ماذا يشبه العالم. فإنه سيكون

أمراً سخيماً ألا أكون صريحاً بخصوص هذه الأمور.

فإن ”فيتور“ لن يكون قادراً على أن يظهر معك في

المجتمع. وكل المهن والطموحات ستُغلق أمامه. ولو

أنجبتي أطفالاً، فإنهم سيحملون اسماً مرعباً. حيث

سيكونون عرضة للخطر بشكل مستمر من شخص ما

قاسي يقول في وجوههم ما اعتادت والدتهم على أن

تكون عليه“.

فعبر إلى وجه ”جينوفيفا“ مظهر من اليأس والقلق.

”لكننا سنبدأ حياة سرية منعزلة ك.....“.

فضحك ”تيموتيو“.

”يا لها من رومانسية خالصة!، ربما يمكننا أن

نعيشاً على مثل هذا الوضع لمدة عام، ولكن لا يمكننا

أن نعيشاً كل حياتكما في كوخ، تتبادلان قبلات دافئة،

وتحدقان النظر إلى القمر. أعتقدين بصراحة أنه

يمكنك عيش حياة منعزلة وديرية كهذه؟، إنه لا يمكنك

تغيير العادات الحياتية بسهولة كتغييرك لزوج من

القفاذات. وإنك الآن بالطبع تحت تأثير الحب، لكن ماذا سيحدث فيما بعد؟، أيمكنك حقاً أن تترك نفسك إلى مثل هذه الحياة المتواضعة، بلا عربة ولا حفلات ولا عشاءات ولا علاقات؟“

فانفجرت ”جينوفيفا“ قائلة: ”أنا آسفة“، ”ولكن لديك فكرة خاطئة تماماً عن حياتي. فإنني قد عشت حياة مجردة من الحفلات والعلاقات“، ثم أخفضت صوتها قائلة: ”صدقني، إن أخطائي كانت بدافع الضرورة. فإنني أنتمي إلى عائلة برجوازية ذات عادات برجوازية“.

وبرؤية ”جينوفيفا“ للدهشة على وجه ”تيموتيو“، معتقدة أنه ربما يكون لينا نحوها، قررت أن تلعب بكرتها الأخير. فأنحنت نحوه، وجلست تقريباً على طرف الأريكة، ورفعت يديها إليه:

”اسمع، إنني سأحكي لك قصة حياتي بأكملها. فإنني أثق بك، ويمكنني أن أرى أنك رجل كريم، رجل ذو قلب وذكاء، قادر على الفهم. فإنني لم أحكي أبداً هذه الأشياء إلى أي شخص. ولا يعرف ”فيتور“ عنها شيئاً. فإنه مثل الجميع أيضاً يعتقد إنني وُلدت في ”ماديرا“، حتى هربت مع رجل إنجليزي، وبعد ذلك أصبحت في ”باريس“ كما يسمى الناس ”عاهرة““.

ثم ضحكت ضحكة مريرة. وهب نسيم مفاجئ إلى داخل الحجرة، وبدأ ”تيموتيو“ كما لو كان يريد الابتعاد عن التيار الهوائي. فاجتازت ”جينوفيفا“ لتغلق الشباك، وبينما كانت تغلقه، سرعان ما كشفت عن هيكل القصة التي كانت على وشك أن تحكيها له. فعندما استدارت، كان ”تيموتيو“ واقفاً. وشيء ما قد حرك مشاعره حول الطريق الذي اتخذته ”جينوفيفا“،

وذاكرة غامضة بدأت تتشكل بداخله، حيث أنه لم يمكنه أن يرفع عينيه عنها.

فتساءل بخطى مترددة قائلاً: "من أين أنتي إذن؟" فتوقفت "جينوفيفا" قائلة: "إنني تزوجت في "البرتغال"، واحمر وجهها خجلاً، ثم قالت: "إنني هربت من زوجي".

فتساءل "تيموتيو" قائلاً: "ولكن من أين أنتي؟"، وبدأ يتنفس بصعوبة، وكانت عصا المشي ترتعش بشدة بيده الباردة.

"إنني من "جواردا". ولا يزال "تيموتيو" واقفاً، وعينيه مفتوحة على مداها، وتمتم قائلاً:

"يا إلهي!، يا إلهي!" فتساءلت "جينوفيفا"، وقد أصبح وجهها أصفرًا بشكل مميت قائلة: "ما هذا؟" "زوجك، من هو؟"

فردت بقلق، وبأيديها تضغطا على صدرها، مائلة نحوه قائلة:

"لماذا؟، اسم زوجي هو "بيدروايجا". فصاح "تيموتيو" بأعلى صوت قائلاً: "أوه، يا لك من صعلوكة حقيرة، يا لك من صعلوكة حقيرة!"، ورفع ذراعيه مرتعشين في الهواء، وكانت عيناه وحشية. وبصوت مختنق مرعب قال:

"ذلك الشاب هو "فيتور ايجا". انه ابنك!، فأنا اسمي "تيموتيو ايجا".

فرفعت "جينوفيفا" يديها إلى رأسها في إشارة من الرعب. وبدت عيناها مرفوعة لأعلى، وانفتح فمها بصرخة صامتة. واتكأت على حافة المائدة، وأصبح

ذراعاها جامدين. فأمسكت بعقدها بتشنج، وانكسر المشبك. وبدأت تتمايل بشدة حول الحجرة. وكانت ترتعش، وتنطق بأصوات مبحوحة، وذراعيها تتغلبا على الهواء، ثم سقطت على الأرضية كنسر ناشر. فصرخ "تيموتيو".

"النجدة يا ناس، النجدة!"

فدخلت "ميلاني"، وأسرعت إلى جانب "جينوفيفا"، وهي تصرخ. ثم اتجهت لتفتح الشبايك. وفكت ملابس "جينوفيفا" بسرعة. وبدأ "تيموتيو" يتلمس طريقه على طول الجدران، وأخذ ينزل على درج السلم، ثم ألقى نفسه بداخل عربته في نصف حالة من الجنون. وعندما استدار السائق، اصطدم برؤيته الدموع تنسال على خدي "تيموتيو".

وقد رأى "فيتور" العم "تيموتيو" وهو ذاهب إلى بيت "جينوفيفا". ثم بدأ يسير بشارع "روزماري"، وأخذ يتتزه حول الجسر. وكان عصبياً وهائجاً جداً. ثم ألتقى بـ "كارفالهورا"، والذي سأل عن "جينوفيفا". "إنها حسنا، شكراً لك". وحيث أنه مرت تقريبا ساعة زمنية، اعتقد أنه ينبغي عليه أن يعود، ولذلك رافق "فيتور" "كارفالهورا" في عودته إلى شارع "روزماري". فبدأ "كارفالهورا" يتحدث عن السياسات والأدب. فما رأيه في أحدث كتاب للشعر الأحمق لـ "روما"؟، وكان يرى أنه فارغ وتافه، ليس به أهداف ولا تشبيهات. فرد "فيتور" بكلمة ذات مقطع واحد، وبابتسامات غامضة. وكان يعطي صدقة لكل الفقراء الذي يتصادف بهم حتى يجلب حظاً جيداً. وعندما وصل "فيتور" إلى "لارغو كوينتيل"، لم تكن هناك أية عربة تُرى. "لابد أن عمي قد ذهب".

فقال "كارفالهورا": "أن صناعة الأدب صناعة راكدة".

فرد "فيتور"، وعينه مصوبة على شباك "جينوفيفا" قائلاً: "إنها كذلك بالتأكيد". ثم ودع "كارفالهورا" وداعاً خشناً، وتأسف له، ثم طلب منه أن يأتي ويتعشى معه هو و "جينوفيفا".

"متي؟"

"غداً".

"الساعة السادسة؟"

"الساعة السابعة".

ثم وصل "فيتور" إلى البيت، وكان يصعد على أربع درجات من السلم في المرة الواحدة. ووجد الباب مفتوحاً، فدخل. وخطر في باله أنه ربما أن "تيموتيو" مازال هنا، وأنه قد طلب من سائق العربة الخاص به أن يعود إليه. فبدأ يدخل إلى الصالون على أطراف أصابعه، ورفع الستارة بحذر، فرأى "جينوفيفا" جالسة على كرسي، وذراعيها مسترخية إلى جانبيها، ورأسها متدلياً على صدرها.

فقال "فيتور" بهدوء: "جينوفيفا".

ولاحظ أن شعرها غير مرتب، ورداءها محلول الأزرار، ووجهها مصفراً، متضحاً عليه العجز فجأة. فأسرع للداخل. فنظرت "جينوفيفا" عالياً، ثم رآته، فقفزت، وذراعيها وأصابعها ممدودة نحوه.

فصاح "فيتور"، وهو يجري نحوها قائلاً: "ماذا حدث يا "جينوفيفا"؟"

فتراجعت "جينوفيفا"، وعينيها مفتوحتا على مداها، وجسمها متصلباً، وتكشيرة مرعبة على وجهها، وذراعيها تشيراً بياس "لا، لا!"، وكانت

تتنفس بصوت مبجوح، تنفساً شخيراً للموت. وعيناها المرعبتا المذعورتا كانت تشبها عين الموتى، وكانت مصوبتا نحو "فيتور" بثبات مخيف.

فتسمر "فيتور" في مكانه، وتهته قائلاً:

"جينوفيفا" حبيبتى، ما هذا؟

وخطا "فيتور" خطوة إلى الأمام.

ولكن الخوف كان مسيطرًا على "جينوفيفا"، فبدأت تتراجع إلى الوراء. وأخذت تنظر حولها بشكل متهور بعينيها المجنونتين الشرستين إلى مخرج ما من زاوية الباب.

فصرخ "فيتور" بصوت مذعور باكي قائلاً:

"أوه، يا إلهي، إنكِ قد أصبحتي مجنونة!"، "إنه أنا يا

"جينوفيفا"، إنه أنا!"

ثم ذهب نحوها. وفتحت "جينوفيفا" فمها بإشارة لحزن مرعب، واستطاعت أن تصرخ قائلة:

"صلوكة حقيرة، صلوكة حقيرة!"

ثم استدارت، وأسرعت إلى الشباك. وبصرخة مروعة ألقت بنفسها من البلكون. وسمع "فيتور" صوت جسمها وهو يصطدم بالأرض، صوتاً ثقیلاً ناعماً يشبه حزمة من الملابس.

وعندما حملوا جسد "جينوفيفا" إلى داخل الحجرة، وسط صرخات صاخبة لـ "ميلاني"، وجدوا "فيتور" مستلقياً على أرضية الحجرة. فقد اصطدم رأسه بزاوية رف المائدة، وخيط من الدم يسيل من جبينه الأصفر على السجادة، والتي نشفت تدريجياً.

وبعد ذلك بأيام كانت الجرائد مليئة بـ "حادثة انتحار بشارع الزهور". فقد قامت الشرطة ببعض التحقيقات العابرة، واقتنعت أنه كان مجرد حادث انتحار.

وتدريجياً نسى الجميع أمر تلك الحادثة. وكان "داماسو" "مدمراً" في البداية، بينما كان يتكلم بخصوص ذلك الموضوع مع أصدقاءه. فظل في البيت لأيام قليلة، ولكنه سرعان ما خرج، وبخصوص ذلك الموضوع مرة أخرى، أعلن بشكل رنان، منتفخاً ومبتسماً قائلاً: "إنني دائماً ما أقول شيئاً سيحدث كهذا. فالمرأة كانت مجنونة، وكان ولا بد أن تصل إلى نهاية سيئة". وأثناء ذلك الوقت، كان "فيتور" مستلقياً بسرير نظراً لحمى دماغية. ولم ينام "تيموتيو" ولا "كلوريندا" خمسة وعشرين ليلة. وفي هذا اليوم عندما استطاع "فيتور" أن يخطو أولى خطواته حول حجرته، متكأ على الممرضة، واستطاع أن يأكل دجاجة صغيرة، اندفع العم "تيموتيو" بذراعيه حوله، ثم بكى. وقال "فيتور" باكياً: "لكن لماذا فعلت "جينوفيفا" ذلك، لماذا؟"

فقال العم "تيموتيو" ببساطة:

"إنني لا أعلم. فإنها كانت تحكي لي عن حياتها الماضية، وأغمى عليها فجأة. إن الرب فقط هو الذي يعلم لماذا فعلت ذلك".

وقد شاخ العم "تيموتيو"، ف قضى أيامه بالقرب من كرسي ذو ذراعين، والذي كان "فيتور" جالساً به يستعيد قوته. وكان يدخل سيجارة وراء سيجارة. ولا يقل شيئاً، محدقاً نظره إلى أرضية الحجرة، حيث كان كلبه المخلص "دك" يقع عند قدميه.

وذات يوم، بعد صمت طويل، قال "فيتور" فجأة: "إنني كنت سأتزوج هذه المرأة. هل تعتقد أنه ينبغي علي أن أرتدي ملابس حدادية عندما أخرج؟" فوقف "تيموتيو" فجأة على قدميه. وبدأ يخطو قليلاً

حول الحجرة، ثم توقف، وضغط بأصابعه على حافة الشباك، ثم استدار، وبدأ وجهه مصفراً جداً. "نعم، ممكن، لكن مجرد شريط أسود حول قبعتك". لكن ارتدى "فيتور" ملابساً حدادية كاملة لأرمل. وأراد أن يسافر. وفعل هكذا تماماً. فأقام في "مدريد" وفي "باريس"، حيث وجد بيت "جينوفيفا"، والذي كان يمر به كل يوم وكل ليلة، محدقاً النظر إلى البلكون. فشعر أن جزءاً ما من حياته الخاصة الماضية يقع في ذلك المكان الذي كانت تعيش فيه "جينوفيفا". حتى أنه فكر في استئجار الشقة، وشراء المفروشات، حيث أحدث المستأجر الحالي بقاءاً مرحاً جداً. فأحياناً ما كان يسود بالشارع صوت موسيقى البيانو في تمام الساعة الثالثة من الصباح. وبمقهى مجاور للمبنى أخبره "خادم" أن سيدة تُسمى "دارسي" تقيم هناك. وأدرك "الخادم" أن "فيتور" شخص غريب، فأخبره أنها سيدة جميلة جداً، وتدفع أربعة "£" من "الليبرا" فقط.

وذات يوم كان "فيتور" يجتاز حول زاوية ساحة البورصة، وإذ به يصطدم بـ "ميلاني". فتعانقا بحرارة. وبالمال الذي قد أعطاه لها العم "تيموتيو"، قد اشترت محل كعك في "فيليت". وكانت بصحة جيدة، وغالباً ما كان "فيتور" يذهب ليراها. وكان بفصل الشتاء يجلسان على السجادة بحجرة صغيرة مظلمة على الموقد، يشربان قهوة في ظل ضوء خافت للحطب. وخارجاً يكون الجو ممطراً، أو تتساقط الثلوج في صمت. وكان يتحدثان لعدة ساعات عن "جينوفيفا"، إلا أن عينا "فيتور" كانت تُصوب على النيران، ويغرق في صمت، تائهاً في شوق مطلق، وعينييه

مليئة بالدموع. وفي تمام الساعة الحادية عشر "١١" كان يضطر "فيتور" إلى ترك "ميلاني"، لأن عشيقها الذي يعمل كدور لمصفق مستأجر بمسرح، يعود عند منتصف الليل.

وعاد "فيتور" إلى "البرتغال"، ووجد العم "تيموتيو" أكبر سناً، وأشد حزنًا، وأكثر صمتًا. وبعد أسبوعين من عودته، أصيب عمه بالتهاب بجنبه. ومات موتاً هادئاً. وعندما سمع "فيتور" "كلوريندا" تتحدث عن الأسرار المقدسة الكنسية، قال بصوت ضعيف:

"لا، لا أريد أية كهنة. لا تفسدي اللحظة الأخيرة هذه. فإنها أفضل لحظة في الحياة".

وترك العم "تيموتيو" في وصيته لـ "فيتور" سبعين "٧٠" من "الكونتو".

وبعد شهرين كان "فيتور" عائداً من المقبرة، حيث قد كان عليه أن يزور مقابر "جينوفيفا" والعم "تيموتيو"، وإذ به يسمع فتاة صغيرة تجري وراءه، وتناديه قائلة:

"يا سيد، يا سيداً!"

"ماذا؟"

"إن السيدة التي تقيم بالدور الثاني تريد التحدث إليك".

فتبع "فيتور" "الفتاة" متحيراً، ووجد "جوانا" في شقة حقيرة بالدور الثاني. وألقت نفسها بين ذراعيه. وحكت له حكايتها. فبعدما غادر "كاميلو" إلى "البرازيل"، حصلت منه على قليل من المال، ولم تحصل منه على أي مبلغ لستة أشهر، وقد رھنت الآن كل شيء لديها. فهي لم تعد ترتدي الفستان القطني الأصفر. وكأبة طفيفة قد أضفت عليها جمالاً أكثر

شبهة.

فأقامها "فيتور" في بيت، واتخذها كعشيقة. وربى ابن "كاميلو" على أنه ابنه. ويُقال أنه سيتزوجها. وكان يتحكم في حزنه بتكريس نفسه للأعمال الأدبية. فمُنذ فترة قد نشر هذه القصيدة الشعرية في "صحيفة السيدات"، تقليداً لقصيدة "ريتشبين":
إلى "جينوفيفا"

إنكِ كنتي حبيبتي بشدة بالغة
إن حياتي دائماً ما ستكون
معطرة بذكراك الغالية.
ربما أن الآخرين مازالوا يحبوك
إنني خائن وضعيف
أحتفظ بالإيصالات من فندق على جانب الطريق
هدايا تذكارية لليلة واحدة.
ومع ذلك أنتي الأجل في عيني
فأنتي فقط التي مازلت أراها،
على الرغم من أن الأخريات يثيرن رغباتي
إنني سأعيش لك فقط دائماً وإلى الأبد.
وهكذا على سهول مدينة "أريحا"،
استطلع ملك المجوس النجوم،
ولكن تبع نجمة واحدة فقط.
لذلك، حتى عندما أكون مبتهجاً،
ويكون لديّ أكثر الرغبات الجسدية
فإن شيئاً واحداً فقط يمكن أن يبعثني عن ذلك
أن أراك، وأنتظركِ هناك.

وسألت "دونا جوانا كوتينهو"، والتي قرأت القصيدة وعشقتها، "فيتور" منذ أيام بيت السيد "سيكساس"، حيث يقرأ "فيتور" كتابه أحياناً:

”هل زوجتك ليست غيرة؟“
فابتسم ”فيتور“، ولم يقل شيئاً. كيف يمكن لها أن
تكون غيرة؟، ولم تستطع زوجته ”جوانا“ أن تفهم
سبب صمته.